الجامع لأحكام القرآن

والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد رضوان عرقسوسي   خالد العوّاد

محمد معتز كريم الدين

الجزء الثاني عشر

مؤسسة الرسالة

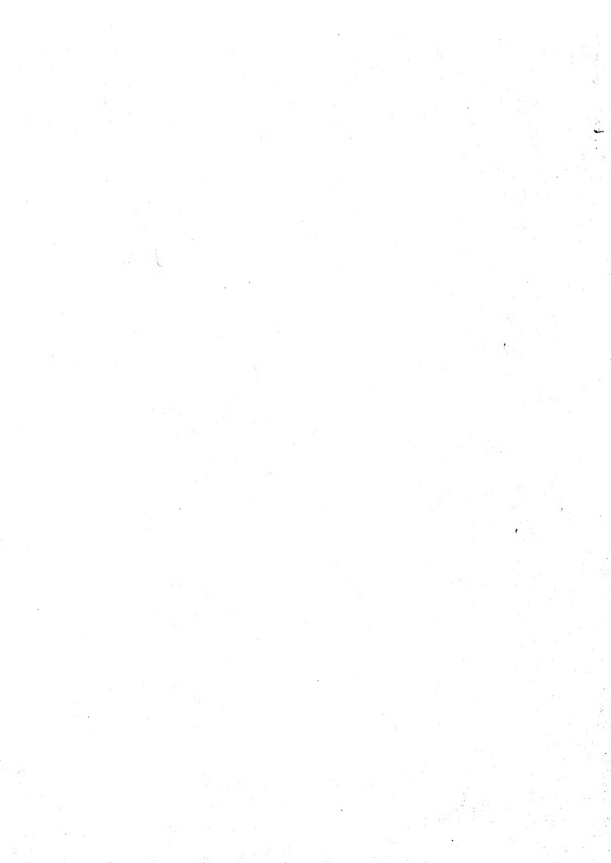
الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت - لبنان
تلفاكس: ٨١٥١١٢-٣١٩٠٣٩ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكيَّةٌ في قول الحسنِ وعِكْرمةَ وعطاء وجابر، ومدنيةٌ في قول الكَلْبيِّ ومقاتل. وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [إلى آخرهما][1].

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ تقدَّم القولُ فيها[2]. ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك. «مِنْ رَبِّكَ» هو[3] «الْحَقُّ»، لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسِك، فاعتصِمْ به، واعمَلْ بما فيه. قال مقاتل: نزلتْ حين قال المشركون: إنَّ محمداً أتى بالقرآن من تِلقاء نفسِه[4].

«والذي» في موضع رَفْع عطفاً على «آياتُ»، أو على الابتداء، و«الحقُّ» خبره؛ ويجوز أنْ يكون موضعُه جرًّا على تقدير: وآياتُ الذي أنزل إليك، وارتفاع «الحقّ» على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك الحقُّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ . ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٤٦-١٤٧]. يعني: ذلك الحقُّ[5].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٩١ ، وما بين حاصرتين منه، وينظر زاد المسير ٤/ ٢٩٩ .

(٢) ١/ ٢٣٧ وما بعدها.

(٣) قوله: هو، ليس في (م).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥ .

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٩ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣٩٦ .

قال الفرَّاء[١]: وإنْ شئت جعلت «الذي» خفضاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أتانا هذا الكتابُ عن أبي حفص والفاروق [وأنت تريد عمر بن الخطاب]؛ ومنه قول الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... ولَيْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ[٢]

يريد: إلى المَلِك القَرْمِ ابنِ الهُمَام ليثِ الكتيبة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية. لمّا بيَّن تعالى أنَّ القرآن حقٌّ، بيَّن أن مَن أنزله قادرٌ على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لِتعرفوا كمالَ قُدرتِه. وقد تقدَّم هذا المعنى.

وفي قوله: «بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» قولان: أحدهما: أنها مرفوعةٌ بغير عَمَدٍ ترونها، قاله قتادة وإياس بنُ معاوية وغيرهما. الثاني: لها عَمَدٌ، ولكننا لا نراه[٣]. قال ابن عباس: لها عَمَدٌ على جبل[٤] قاف؛ ويمكنُ أنْ يقالَ على هذا القول: العَمَد قُدرتُه التي يُمسِك بها السماواتِ والأرضَ، وهي غيرُ مرئية لنا، ذكره الزجّاج[٥].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٥٨، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) سلف هذا البيت ٢/ ٨٥، وقوله: القَرْم: السيِّد.

(٣) أخرج هذين القولين الطبري ١٣/ ٤٠٩ - ٤١١، وقال القول الأول أولى الأقوال بالصحة.

(٤) قوله: جبل، من (م)، وقاف: جبل محيط بالدنيا، كما في معاجم اللغة. والأثر أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٠١. وهو بنحو القول الثاني السالف. قال الرازي في تفسيره ١٨/ ٢٣٢: وهذا التأويل في غاية السقوط.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٣٦.

وقال ابن عباس أيضاً: هي توحيدُ المؤمن. أُعْمِدَت السماءُ حين كادت تَنفطِر من كفر الكافرِ، ذكره الغَزْنَويّ[١]. والعَمَد جمعُ عمود؛ قال النابغة:

وخَيِّسِ الجِنَّ إنِي قد أذِنْتُ لهم يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[٢]

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٣]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، أي: ذَلَّلهما لمنافع خَلْقِه ومصالح عبادِه، وكلُّ مخلوقٍ مُذَلَّلٌ للخالق. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معلوم، وهو فَناءُ الدنيا وقيامُ الساعة التي عندها تُكَوَّرُ الشمس، ويَخسِفُ القمر، وتَنكدِرُ النُّجوم، وتنتثر الكواكب[٤].

وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمَّى درجاتِهما ومنازلَهما التي يَنتهيان إليها لا يُجاوزانها[٥].

وقيل: معنى الأجلِ المُسمَّى أنَّ القمر يَقطع فَلَكه في شهر، والشمسَ في سنة[٦]. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، أي: يصرفه على ما يريد. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، أي: يُبيِّنها، أي: من قَدَر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة[٧]؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ لمّا بيّن آياتِ السّماوات بيَّن آياتِ الأرض،

---

(١) صاحبُ كتاب عيون المعاني، كما ذكر المصنف ٢/ ٢٧٤، وتنظر ترجمته ثمة.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٣٣. وقوله: خيّس، أي: ذَلِّل. والصُّفَّاح: حجارةٌ رقاقٌ عِراضٌ، واحدتها: صُفَّاحة. اللسان (خيس) و(صفح).

(٣) ٩/ ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤١١ - ٤١٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٦.

(٦) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٣٣، ومجمع البيان ١٣/ ١٣٨.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٦.

أي: بَسط الأرضَ طولاً وعرضاً. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، أي: جبالاً ثوابتَ؛ واحدُها راسية؛ لأنَّ الأرضَ ترسو بها، أي: تثبتُ، والإرساء الثُّبوت[1]؛ قال عَنْترة[2]:

فَصَبَرْتُ عارِفةً لذلك حُرَّةً ... تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ

وقال جميل[3]:

أُحِبُّه[4] والذي أرْسَى قواعِدَهُ ... حُبًّا إذا ظَهَرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء: أوّلُ جبلٍ وُضع على الأرض أبو قُبيس[5].

مسألة[6]: في هذه الآية ردٌّ على من زعم أنَّ الأرضَ كالكرة، وردٌّ على من زعم أنَّ الأرضَ تهوي أبداً بما عليها[7]؛ وزعم ابن الرَّاونديّ[8] أنَّ تحتَ الأرضِ جسماً صَعَّاداً كالرِّيح الصعَّادة؛ وهي منحدرةٌ فاعتدل الهاوي والصعادي في الجِرْم والقوّة فتوافقا.

وزعم آخرون أنَّ الأرضَ مُركبةٌ من جسمين، أحدهما منحدر، والآخَرُ مصعد،

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٤١٣ - ٤١٤، والنكت والعيون ٣/ ٩٢.

(٢) في ديوانه ص٤٩، وسلف ٢/ ٦٥.

(٣) كذا نسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٩٢، ونقله المصنف عنه، ولم نقف عليه في ديوانه، ونسب في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٣٢٦، ومعجم البلدان ٤/ ٣٧٤ لأعرابيٍّ.

(٤) في النسخ: أحبُّها، والمثبت من المصادر السابقة، والضمير في قوله: «أحبُّه» يعود على ما في البيت الذي قبله:

سلِّم على قَطَنٍ إن كنت نازِلَه ... سلامَ مَنْ كان يهوى مرةً قَطَنا

وقَطَن: جبلٌ كثير النخل والمياه لبني عبس.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٦. وأبو قُبيس: جبل مشرف على مسجد مكة. معجم البلدان ٤/ ٣٠٨.

(٦) كلام المصنف في هذه المسألة لا يُلتفَت إليه. ووقع في (ظ): قلت، بدل: مسألة.

(٧) في (د) و(ز) و(م): تهوي أبوابها عليها. والمثبت من (ظ).

(٨) أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين الزنديق الشهير، كان أولاً من متكلمي المعتزلة، ثم تزندق، واشتهر بالإلحاد، صنف كتباً كثيرة يطعن فيها على الإسلام. مات سنة (٢٩٨هـ) لسان الميزان ١/ ٣٢٣.

فاعتدلا، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهلُ الكتاب القولُ بوقوفِ الأرض وسكونِها ومدِّها، وأنَّ حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبُها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: مياهاً جاريةً في الأرض، فيها منافعُ الخلق.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني[1] صنفين. قال أبو عُبيدة[2]: الزوج واحدٌ، ويكون اثنين. الفراء[3]: يعني بالزوجين هاهنا الذكرَ والأنثى. وهذا خلافُ النصّ.

وقيل: معنى «زَوْجَين» نوعان، كالحُلْو والحامض، والرَّطبِ واليابس، والأبيضِ والأسود، والصغيرِ والكبير[4].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾، أي: دلالاتٍ وعلاماتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في الكلام حذفٌ، المعنى: وفي الأرض قِطَعٌ متجاوراتٌ وغيرُ متجاورات، كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١]، والمعنى: وتقيكم البَرْدَ، ثم حذف لعلم السَّامع. والمتجاوراتُ: المدنُ وما كان عامراً، وغيرُ متجاورات: الصحارى وما كان غيرَ عامر[5].

---

(١) في (د) و(م): بمعنى.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٥٨.

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٠٢.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٩.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُتَجَوِرَتٌ﴾، أي: قُرًى متدانياتٌ، ترابُها واحدٌ، وماؤها واحد، وفيها زروعٌ وجنات، ثم تتفاوتُ في الثّمار والتَّمر؛ فيكون البعض حُلْواً، والبعض حامضاً، والغصنُ الواحد من الشجرة قد يختلف الثّمرُ فيه من الصِّغَر والكِبَر واللون والطَّعم، وإن انبسط الشمسُ والقمر على الجميع على نَسَقٍ واحد، وفي هذا أدلُّ دليلٍ على وحدانيته وعِظم صَمَدِيَّته، والإرشادُ لمن ضلَّ عن معرفته، فإنه نَبَّه سبحانه بقوله: «تُسْقَى بِماءٍ واحدٍ» على أنَّ ذلك كلَّه ليس إلا بمشيئته وإرادتِه، وأنه مقدورٌ بقدرته؛ وهذا أدلُّ دليلٍ على بطلان القول بالطَّبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعلُ له الطبيعةُ لمَا وقع الاختلاف.

وقيل: وجهُ الاحتجاج أنه أثبت التفاوتَ بين البِقاع، فمِن تربة عَذْبة، ومن تربة سَبِخة مع تجاورهما[1]، وهذا أيضاً من دلالات كمال قُدرته، جلَّ وعزَّ؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيراً[2].

الثالثة: ذهبت الكفرةُ ـ لعنهم الله ـ إلى أنَّ كلَّ حادثٍ يَحدُث بنفسه لا من صانع، وادَّعَوا ذلك في الثمار الخارجةِ من الأشجار، وقد أقرُّوا بحدوثها، وأنكروا مُحدِثَها، وأنكروا الأعراضَ. وقالت فرقة بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً.

والدليلُ على أنَّ الحادثَ لابدَّ له مِن مُحدِث أنه يَحدُث في وقت، ويَحدُث ما هو من جِنسه في وقت آخرِ، فلو كان حدوثُه في وقته لاختصاصه به؛ لوجب أنْ يَحدُث في وقته كلُّ ما هو من جِنسه، وإذا بطَل اختصاصُه بوقته؛ صحَّ أنَّ اختصاصَه به لأجل مُخصِّصٍ خَصَّصه به، ولولا تخصيصُه إيَّاه به لم يكن حدوثُه في وقته أولى من حدوثه قبلَ ذلك أو بعدَه، واستيفاءُ هذا في علم الكلام.

---

(١) في النسخ الخطية: تجاورها، والمثبت من (م).

(٢) ينظر تفسير الرازي ٦/١٩ - ٧، وزاد المسير ٤/٣٠٣ - ٣٠٤.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَبٍ﴾ قرأ الحسن: «وَجَنَّاتٍ»[١] بكسر التاء على تقدير[٢]: وجعل فيها جناتٍ، فهو محمولٌ على قوله: «وجَعَلَ فيها رَوَاسِيَ». ويجوز أنْ تكونَ مجرورةً على الحمل على «كلٍّ». التقدير: ومن كلِّ الثمرات، ومن جَنَّات[٣]. الباقون: «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير: وبينهما جناتٌ[٤].

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع: ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجَنَّات، أي: على تقدير: وفي الأرض زَرْعٌ ونخيل. وخَفَضَها الباقون نَسَقاً على الأعناب[٥]، فيكون الزرع والنخيلُ من الجَنّات، ويجوز أنْ يكونَ معطوفاً على «كُلّ» حسب ما تقدَّم في «جنّات».

وقرأ مجاهد والسُّلَميُّ وغيرهما: «صُنْوَانٌ»[٦] بضم الصاد، الباقون بالكسر، وهما لغتان، وهما جمع صِنْو، وهي النَّخَلات والنَّخلتان، يجمعهنَّ أصلٌ واحدٌ، وتتشعَّب منه رؤوسٌ فتصير نخيلاً، نظيرُها قِنْوان، واحدُها قِنو[٧].

وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال: الصِّنْوان: المُجتَمِع، وغيرُ الصِّنْوان: المُتفرِّق[٨]، النحاس[٩]: وكذلك هو في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلةٌ أخرى أو أكثر: صِنْوان.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٦ .

(٢) في (ظ): وتقدير، وفي (م): على التقدير.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٠ .

(٤) أو بالعطف على «قطع».

(٥) السبعة ص٣٥٦ ، والتيسير ص١٣١ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٠ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٦ .

(٦) القراءات الشاذة ص٦٦ ، والمحتسب ١/ ٣٥١ .

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٢١ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٤٣ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٢١ . وأبو إسحاق: هو عمرو بن عبد الله السَّبِيعي.

(٩) في معاني القرآن ٣/ ٤٧٠ . وما قبله منه.

والصِّنو: المِثلُ؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه»[١]. ولا فرقَ فيها بين التّثنية والجمع، إلا بالإعراب[٢]، فتعربُ نون الجمع، وتكسر نون التّثنية؛ قال الشاعر:

العلمُ والحلمُ خَلَّتا كَرَمٍ ... للمرءِ زَينٌ إذا هُما اجْتَمَعا

صِنْوانِ لا يُسْتَتَمُّ حُسْنُهُما ... إلَّا بجمعٍ لِذا[٣] وذاكَ مَعا

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بَني آدمَ وخَبيثِهم، أبوهم واحد؛ قاله البخاريُّ[٤].

وقرأ عاصمٌ وابنُ عامر: «يُسْقَى» بالياء، أي: يُسقى ذلك كلُّه. وقرأ الباقون بالتاء[٥]، لقوله: «جَنَّاتٌ»، واختاره أبو حاتم وأبو عُبيد[٦]؛ قال أبو عمرو: والتأنيثُ أحسن؛ لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ ولم يقل: بعضَه[٧].

وقرأ حمزةُ والكسائيّ وغيرهما: «وَيُفَضِّلُ»[٨] بالياء ردًّا على قوله: «يُدَبِّرُ الأَمْرَ»، و«يُفَصِّلُ»، و«يُغْشِي». الباقون بالنون على معنى: ونحن نُفضِّل[٩].

وروى جابر بنُ عبد الله قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول لعليٍّ ﷺ: «الناسُ من شجرٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٨٢٨٤)، ومسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه قصة مَنْع ابن جَميل وخالد بن الوليد والعبَّاس ﷺ الصدقةَ، وهي عند البخاري (١٤٦٨) دون قوله: «عم الرجل صنو أبيه».

(٢) في (د) و(ز) و(م): ولا بالإعراب. وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٢١ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): بجمع ذا، وهو كذلك في النكت والعيون ٣/ ٩٣ (والبيتان فيه) والمثبت من (ظ)، والبيتان أيضاً في عيون الأخبار ٢/ ١٢١ ، وتاريخ دمشق ٧/ ٦ ، ونسبهما ابن عساكر لسابق بن عبد الله اليزيدي.

(٤) في (م): قاله النحاس والبخاري. وعلَّقه البخاري عن مجاهد في أول تفسير سورة الرعد.

(٥) السبعة ص٣٥٦ ، والتيسير ص١٣١ .

(٦) في (م): وأبو عبيدة، وبعده في (ز): قال أبو عبيدة: قال أبو عمرو...

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥١ .

(٨) وقرأ بها خلف من العشرة. النشر ٢/ ٢٩٧ .

(٩) السبعة ص٣٥٦ ، والتيسير ص١٣١ . وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥١ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٨ .

شتَّى، وأنا وأنت من شجرةٍ واحدةٍ»، ثم قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ حتى بلغ قولَه: «يُسْقَى بِماءٍ واحِدٍ»[1].

و«الأُكُل» الثمر، قال ابن عباس: يعني: الحلوَ والحامضَ، والفارسيَّ والدَّقَل[2].

ورُوي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾، قال: «الفارسيُّ والدَّقَل، والحلو والحامضُ»[3]. ذكره الثعلبيّ.

قال الحسن: المرادُ بهذه الآية المَثَل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلُهم واحدٌ، وهم مختلفون في الخير والشرِّ والإيمانِ والكفر، كاختلاف الثمارِ التي تُسقى بماء واحد[4]، ومنه قولُ الشاعر:

بنو آدمَ كالنَّبتِ ونَبْتُ الأرض ألوان[5]
فمنه[6] شجرُ الصندل والكافور والبان
ومنه[7] شجرٌ ينضحُ طول الدَّهر قطران

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٤١ ، وقال: حديث صحيح ولم يخرجاه. وتعقَّبه الذهبي في التلخيص بقوله: لا والله، هارون بن حاتم (أحد رجال الإسناد) هالك.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٣٠ . وقوله: الفارسي: يعني: تمراً فارسيًّا، وهو نوع جيد. والدَّقَل: أردأ التمر. المصباح المنير (فرس) و(دقل).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١١٨) وقال: حديث حسن غريب! قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٥٨ : هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ [في إسناده] سيف بن محمد الثوري متفق على كذبه. قال أحمد: كان يضع الحديث. اهـ وأخرجه من طريق أخرى الطبري ١٣/ ٤٣١ . قال العقيلي في الضعفاء ٢/ ١٣١ : وهذا الحديث إنما يعرف بسيف بن محمد.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٩٤ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): الناس كالنبت والنبت ألوان. والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر. والأبيات في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٢٧٥ ، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٧٠ وقائلها منصور الفقيه.

(٦) في (د) و(ز) و(م): منها، وفي (ظ): فمنها، والمثبت من المصادر.

(٧) في النسخ: ومنها، والمثبت من المصادر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لَعلاماتٍ لمن كان له قلبٌ يَفهم عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، أي: إنْ تعجَبْ يا محمدُ من تكذيبهم لك بعد ما كنتَ عندَهم الصادقَ الأمينَ؛ فأعجبُ منه تكذيبُهم[1] بالبَعْث؛ والله تعالى لا يَتعجَّب، ولا يجوز عليه التعجُّب؛ لأنه تَغيُّر النفسِ بما تخفى أسبابُه، وإنما ذَكَر ذلك ليتعجَّب منه نَبيُّه ﷺ والمؤمنون[2].

وقيل: المعنى: أي: إنْ عَجِبتَ يا محمد من إنكارهم الإعادةَ مع إقرارهم بأني خالقُ السَّماواتِ والأرضِ والثمار المختلفة من الأرض الواحدة؛ فقولُهم عَجَبٌ يَعجَبُ منه الخَلْق؛ لأنَّ الإعادة في معنى الابتداء[3].

وقيل: الآية في مُنكري الصانع، أي: إنْ تَعْجَبْ من إنكارهم الصانعَ مع الأدلَّة الواضحة بأنَّ المتغير لابدَّ له من مُغيِّر؛ فهو محلُّ التعجّب. ونَظْمُ الآية يدلُّ على الأوّل والثاني؛ لقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أي: أنُبعث إذَا كنا تراباً؟!.

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقُرئ: «إنَّا»[4]. و﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ جمع غُلّ؛ وهو طَوْقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُق، أيْ: يُغلُّون يومَ القيامة؛ بدليل قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١-٧٢]. وقيل: الأغلالُ: أعمالُهم السيئةُ التي هي لازمةٌ لهم[5].

---

(١) في (ظ): فاعجب من تكذيبهم.
(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٤ - ٩٥ .
(٣) ينظر تفسير زاد المسير ٤/ ٣٠٤ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٨ - ٩ .
(٤) قرأ بها نافع والكسائي. السبعة ص٣٥٧ ، والتيسير ص١٣٢ .
(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٩ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦ .

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لِفَرْط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب. قيل: هو قولُهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال قتادة: طلبوا العقوبةَ قبل العافية(١)، وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبةِ عن هذه الأمة إلى يوم القيامة.

وقيل: «قَبْلَ الحسنةِ»، أي: قبل الإيمان الذي يُرجى به الأمانُ والحسنات(٢).

و﴿الْمَثُلَٰتُ﴾: العقوبات، الواحدة مَثُلَة. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: [: «المُثُلات»، بضم الميم والثاء(٣)، وهذا جمع: مُثْلَة، ورُوي عنه أنه قرأ] «المُثْلات» بضم الميم وإسكان الثاء(٤)، وهذا أيضاً جمعُ مُثْلَة، ويجوز: «المَثَلات»؛ تُبدلُ من الضمة فتحة لِثقلِها، وقيل: يُؤْتى بالفتحة عِوضاً من الهاء. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «المَثْلَات» بفتح الميم وإسكان الثاء(٥)؛ فهذا جمعُ مَثُلة، ثم حَذف الضمة لثقلها؛ ذكره جميعَه النحاسُ رحمه الله(٦).

وعلى قراءة الجماعة واحده: مَثُلة، مثل: صَدُقة وصَدُقات(٧).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٢، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٣/ ٤٣٦.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٩٥.

(٣) ذكرها عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٣٦٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦ لعيسى بن عمر، وذكرها ابن جني ١/ ٣٥٤ دون نسبة.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦ وابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٣ ليحيى بن وثَّاب.

(٥) نسبها في القراءات الشاذة ص٦٦ ليحيى بن وثَّاب، وفي المحتسب ١/ ٣٥٣ لعيسى الثقفي وطلحة بن سليمان وللأعمش عن يحيى بن وثَّاب.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣، وما بين حاصرتين منه. وجمع: مَثُلَة على: مَثُلات؛ على غير قياس، ينظر المحتسب ١/ ٣٥٤.

(٧) في (د) و(ز) و(م): نحو صدقة وصدقة، والمثبت من (ظ)، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦.

وتميمٌ تضم الثاءَ والميم جميعاً، واحدُها على لغتهم مُثْلة، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل: غُرْفة وغُرُفات؛ والفعلُ منه: مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلاً، بفتح الميم وسكون الثاء[١].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾، أي: لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[٢]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا أصرّوا على الكفر.

وروى حمّاد بنُ سَلَمَة عن عليّ بن زيد، عن سعيد بن المسيّب قال: لما نزلت: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفوُ اللهِ ورحمتُه وتجاوزُه لَما هَنَأَ أحداً عيشٌ، ولولا عقابُه ووعيدُه وعذابُه لاتَّكل كلُّ أحد»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ أي: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾. لما اقترحوا الآياتِ وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: مُعْلِم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبيٌّ يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله، أي: عليك الإنذارُ، والله هادي كل قومٍ إنْ أراد هدايتَهم[٤].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾

فيه تسع[٥] مسائل:

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٣/ ٤٣٥ .

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٥٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٢٤ (١٢١٤٥)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٦ ، وهو مرسل.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٤٠ .

(٥) في (د) و(ز): ثمانية، وفي (م): ثمان، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لعدد المسائل المذكورة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم في سورة الأنعام[1] أنَّ اللهَ سبحانه منفردٌ بعلم الغيبِ وحدَه لا شريكَ له؛ وذكرنا هناك حديثَ البخاريِّ عن ابن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مفاتيحُ الغيب خمسٌ» الحديث، وفيه: «ولا يعلم ما تغِيض الأرحام إلا اللهُ»[2].

واختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فقال قَتَادة المعنى: ما تُسقِط قبلَ التسعة الأشهر، وما تزداد فوقَ التسعة، وكذلك قال ابن عباس.

وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها؛ فإنْ زادت على التسعة كان تماماً لِمَا نقص. وعنه: الغيضُ ما تنقصه الأرحامُ من الدم، والزيادةُ ما تزداد منه[3].

وقيل: الغيض[4] والزيادةُ يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبعٍ أو غيرها، وزيادةِ إصبع أو غيرها.

وقيل: الغيض: انقطاعُ دمِ الحيض [في الحمل]. «وَمَا تَزْدَادُ»: بدمِ النفاسِ بعد الوضع[5].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الحاملَ تحيض؛ وهو مذهبُ مالك والشافعيِّ في أحد قوليه. وقال عطاء والشَّعبيُّ وغيرُهما: لا تحيضُ. وبه قال أبو حنيفة[6].

---

(١) ٨/ ٤٠١ .

(٢) صحيح البخاري (٤٦٩٧)، وسلف ٨/ ٤٠١ .

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٤٤٥ – ٤٥١ .

(٤) في (ظ): النقص.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٩٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) ينظر الأوسط لابن المنذر ٢/ ٢٣٨ – ٢٤٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ .

ودليلُنا[١] الآية؛ قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيضُ الحبالى. وكذلك رُوِيَ عن عِكْرمة ومجاهد[٢]. وهو قولُ عائشةَ، وأنها كانت تفتي النِّساء الحواملَ إذا حِضْن أن يتركنَ الصَّلاة[٣]؛ والصحابةُ إذ ذاك متوافرون، ولم يُنكِر منهم أحدٌ عليها، فصار كالإجماع؛ قاله ابن القصَّار. وذكر أنَّ رجلين تَنازعَا ولداً، فَتَرافَعا إلى عمرَ ﷺ، فعرضه على القَافَة، فألحقه القائِفُ بهما، فَعَلاه عمر بالدِّرَّة، وسأل نِسوةً من قريش فقال: انظُرْنَ ما شأنُ هذا الولد؟ فقُلْنَ: إنَّ الأوّل خلا بها وخلَّاها، فحاضت على الحمل، فظنَّت أنَّ عِدَّتَها انقضت، فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني. فقال عمر: الله أكبر! وألحقه بالأول[٤]، ولم يقل: إنَّ الحاملَ لا تحيض، ولا قال ذلك أحدٌ من الصحابة؛ فدلَّ على أنه إجماعٌ، والله أعلم.

احتجَّ المخالف بأنْ قال: لو كانت الحاملُ تحيض، وكان ما تراه من الدم[٥] حيضاً لمَا صَحَّ استبراءُ الأمةِ بحيض[٦]؛ وهو إجماعٌ[٧]. ورُوي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض[٨].

---

(١) في (د) و(ز) و(م): ودليله.

(٢) خبر مجاهد تقدم في المسألة الأولى، وخبر عكرمة أخرجه الطبري ٤٤٨/١٣، وينظر عن ابن عباس ما أخرجه الطبري ٤٤٤/١٣، وابن أبي حاتم ٢٢٢٦/٧ (١٢١٦١)، وينظر أيضاً أحكام القرآن للجصاص ١٨٠/٣ - ١٨٢.

(٣) أخرجه ابن المنذر في الأوسط ٢٣٩/٢ - ٢٤٠، وهو في المدونة ٥٥/١، وأخرج الدارمي (٩٢٤) عن يحيى بن سعيد قال: أمر لا يختلف فيه عندنا عن عائشة: المرأة الحبلى إذا رأت الدم أنها لا تصلي حتى تطهر.

(٤) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ ٧٤٠/٢ - ٧٤١، وعبد الرزاق (١٣٤٥٠) و(١٣٤٥١).

(٥) في (م): ما تراه المرأة من الدم.

(٦) في (ظ): بحيضة، وهو أشبه. وينظر ما سلف ٢٠١/٦.

(٧) المحرر الوجيز ٢٩٩/٣، وينظر أحكام القرآن للجصاص ١٨١/٣، والأوسط ٢٤٠/٢. وذكر ابن المنذر عن بعض أصحاب هذا القول قوله: إن في إجماعهم على أن الأَمَة إذا حاضت حلَّ وَطْؤها، مع إجماعهم على أن الحامل لا يحل وطؤها حتى تضع، دليل بيِّن على أن الحامل مُحالٌ وجود الحيض فيها.

(٨) المحرر الوجيز ٢٩٩/٣. وقد ثبت علمياً أن الحامل لا تحيض، وأما الدم الذي يخرج أثناء الحمل =

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الحاملَ قد تضع حملَها لأقلَّ من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أنَّ أقلَّ الحملِ ستَّةُ أشهر، ورُوي أنَّ عبدَ الملك[1] بنَ مروان وُلد لستة أشهر.

الرابعة: وهذه السِّتةُ الأشهر هي بالأهِلَّة كسائر أشهرِ الشريعة؛ ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعضِ أصحاب مالك ـ وأظنُّه في كتاب ابنِ حارث[2] ـ أنه إنْ نقص من[3] الأشهر الستة ثلاثةُ أيام، فإنَّ الولدَ يلحق لعلة نقص الشهورِ وزيادتها؛ حكاه ابن عطية[4].

الخامسة: واختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جُرَيج عن جَمِيلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكونُ الحملُ أكثرَ من سنتين قَدْرَ ما يتحوَّل ظِلُّ المِغْزَل؛ ذكره الدَّارَقُطْني[5]. وقال[6]: جَميلة بنتُ سعد أختُ عُبيد بنِ سعد[7].

= فإنه راجع إلى أسباب مرضية مختلفة، تطول مدة خروجه أو تقصر على حسب أسبابه، وليس هو بدم حيض.

(١) في (د) و(ز) و(م): وإن عبد الملك، بدل: وروي أن عبد الملك، والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ ، والكلام منه.

(٢) لعله محمد بن حارث بن إسماعيل الخشني، أبو عبد الله، تفقَّه بالقيروان، كان حافظاً للفقه عالماً بالفتيا، ألف كتابه في الاتِّفاق والاختلاف في مذهب مالك، وكتاب الفتيا، وكتاب فقهاء المالكية، وغير ذلك، توفي سنة (٣٦١هـ). ترتيب المدارك ٤/ ٥٣١ .

(٣) في (م): عن.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ .

(٥) في سننه (٣٨٧٥)، وأخرجه بنحوه سعيد بن منصور في سننه (٢٠٧٧)، قال ابن حزم في المحلَّى ١٠/ ٢١٦ : جميلة بنت سعد مجهولة، لا يُدرى من هي، فبطل هذا القول. اهـ. قوله: ظل المغزل: هو مَثَل لقلته؛ لأن ظله حالة الدوران أسرع من جميع الظلال، وهو على حذف مضاف تقديره: ولو بقدر ظل المغزل. ينظر البحر الرائق ٤/ ١٧٧ .

(٦) في النسخ: وقالت، والمثبت هو الصواب، وقاله الدارقطني إثر الحديث السالف.

(٧) الدِّيلي، طائفي، أبو امرأة ابن جريج، سمع عبد الله بن عمر، قال فيه ابن معين: مشهور. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ٤٠٧ .

وعن الليث بن سعد: إنَّ أكثرَه ثلاثُ سنين. وعن الشافعيِّ: أربعُ سنين؛ ورُوي عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهورُ عنه خمسُ سنين، ورُوي عنه: لا حدَّ له ولو زاد على العشرة الأعوام، وهي الرواية الثالثةُ عنه. وعن الزهريِّ: ستٌّ وسبع[1].

قال أبو عمر[2]: [فمالك يجعله خمس سنين] ومِن أصحابه[3] مَن يجعله إلى سبع. والشافعيُّ مُدَّتُه[4] [عنده] الغايةُ فيها[5] أربع سنين. والكوفيون يقولون: سنتان لا غير. ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر. وداود يقول: تسع أشهر، لا يكون عنده حملٌ أكثر منها.

قال أبو عمر: وهذه مسألةٌ لا أصلَ لها إلا الاجتهاد، والردُّ إلى ما عُرِفَ من أمر النِّساءِ، وبالله التوفيق.

رَوى[6] الدَّارَقُطْني[7] عن الوليد بن مسلم قال: قلتُ لمالك بن أنس: إني حُدِّثتُ عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدْرَ ظِلِّ المِغْزَل، فقال: سبحان الله! مَن يقول هذا؟! هذه جارتُنا امرأةُ محمد بنِ عَجْلان امرأةُ صِدْقٍ، وزوجُها رجلُ صدقٍ، حملت ثلاثةَ أبْطُنٍ في اثنتي عَشْرةَ سنةً، تحمل كلَّ بطنٍ أربعَ سنين.

وذَكَر عن المبارك بنِ مجاهد قال: مشهورٌ عندنا كانت امرأةُ محمد بنِ عَجْلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تُسمَّى حاملةَ الفيل[8].

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٩٧ .

(٢) في الاستذكار ٢٢/١٧٨ - ١٧٩ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في النسخ: ومن الصحابة، والمثبت من الاستذكار.

(٤) في (د) و(ز) و(م): مدة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الاستذكار.

(٥) في (د) و(ز) و(م): منها، وفي (ظ): فيه، والمثبت من الاستذكار.

(٦) قبلها في (ظ): قلت.

(٧) في سننه (٣٨٧٧).

(٨) سنن الدارقطني (٣٨٧٨).

ورَوَى أيضاً قال: بينما مالك بن دينار يوماً جالسٌ، إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى! ادعُ لامرأةٍ حُبلَى منذُ أربعِ سنين قد أصبحت في كَرْبٍ شديدٍ، فغضب مالك وأطبق المُصحَف، ثم قال: ما يرى هؤلاء القومُ إلا أَنَّا أنبياء! ثم قرأ، ثم دعا، ثم قال: اللهمَّ هذه المرأةُ إنْ كان في بطنها ريحٌ فأخرِجْه عنها الساعةَ، وإنْ كان في بطنها جاريةٌ فأَبْدِلْها بها غلاماً، فإنك تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب، ثم رفع مالكٌ يدَه، ورفع الناس أيديَهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أدرِكِ امرأتَكَ فذهب الرجل؛ فما حطَّ مالكٌ يدَه حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلامٌ جَعْدٌ قَطَطٌ، ابنُ أربعِ سنينَ، قد استوت أسنانُه، ما قُطِعت سِرارُه[1].

ورَوى أيضاً: أنَّ رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني غِبتُ عن امرأتي سنتين، فجئت وهي حُبلى! فشاوَرَ عمر الناسَ في رجمها، فقال معاذ ابن جبل: يا أمير المؤمنين، إنْ كان لك عليها سبيلٌ فليس لك على ما في بطنها سبيلٌ، فاتركْها حتى تضَعَ. فتركها، فولَدت[2] غلاماً قد خرجت ثنيَّتاه، فعرف الرجل الشَّبه [فيه]، فقال: ابني وربِّ الكعبة! فقال عمر: عجزت النساءُ أنْ يَلِدْنَ مثلَ معاذ، لولا معاذٌ لهلك عمر[3].

وقال الضحَّاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين، فولدتني وقد خرجت سِنِّي[4].

---

(١) سنن الدارقطني (٣٨٧٩)، وقوله: جَعْد قَطَط؛ الجعدُ من الشعر خلاف السَّبط، والسَّبْط: المنبسط المسترسل، والقطط: الشديد الجعودة. اللسان (جعد، قطط).

(٢) في (د) و(ز) و(م): فوضعت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لسنن الدارقطني.

(٣) سنن الدارقطني (٣٨٧٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٨٨/١٠ ، وسعيد بن منصور (٢٠٧٦). وذكر ابن حزم في المحلى ٣١٦/١٠ أن هذا الخبر باطل؛ لأنه عن أبي سفيان، وهو ضعيف، عن أشياخ لهم، وهم مجهولون.

(٤) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٢٩٩/٣ .

ويُذكر عن مالكٍ أنه حُمل به في بطن أُمِّه سنتين، وقيل: ثلاث سنين[١].

ويقال: إنَّ محمد بن عَجلان مكث في بطن أُمه ثلاثَ سنين، فماتت به وهو يضطربُ اضطراباً شديداً، فشُقَّ بطنُها وأُخرج وقد نبَتت أسنانه[٢].

وقال حمَّاد بن سلمة: إنما سُمي هَرِمُ بن حيَّان هَرِماً؛ لأنه بقيَ في بطن أُمه أربعَ سنين[٣].

وذكر الغَزْنَويُّ أنَّ الضحَّاك وُلد لسنتين، وقد طلعت سِنُّه فسُمِّي ضحَّاكاً[٤].

عبَّاد بنُ العوَّام: ولدت جارةٌ لنا[٥] لأربع سنين غلاماً شعرُه إلى مَنْكِبيه، فمرَّ به طيرٌ، فقال: كش[٦].

السادسة: قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: أقلُّ الحيض والنفاس وأكثرُه، وأقلُّ الحمل وأكثرُه، مأخوذٌ من طريق الاجتهاد؛ لأنَّ علمَ ذلك استأثر الله به، فلا يجوزُ أنْ يُحكمَ

---

(١) أخرج البيهقي ٧/ ٤٤٣ عن الواقدي عن مالك قال: قد يكون الحمل سنين وأعرف مَن حملت به أمه أكثر من سنتين، يعني نفْسَه. وأخرج عن الواقدي أيضاً أن أم مالك حملت به في البطن ثلاث سنين.

(٢) أورده الذهبي في السير ٦/ ٣١٨ ، وذكره ابن قتيبة في المعارف ص٥٩٥ بنحوه.

(٣) أورده ابن قتيبة في المعارف ص٥٩٥ . وهرم بن حيان هو العبدي، ويقال: الأزدي، أحد العابدين، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ببلاد فارس. السير ٤/ ٤٨ .

(٤) ذكره السَّرخسي في المبسوط ٦/ ٤٥ ، إلا أنه قال: لأربع سنين، بدل: سنتين.

(٥) في (ظ): ولدت جارية له.

(٦) قال ابن حزم في المحلى ١٠/ ٣١٦ : لا يجوز أن يكون حملٌ أكثَر من تسعة أشهر، ولا أقلَّ من ستة أشهر؛ لقول الله تعالى: ﴿وحملُه وفصالُه ثلاثون شهراً﴾ وقال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ فمن ادَّعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً فقد قال الباطل والمحال، وردَّ كلام الله عزَّ وجلَّ جهاراً. اهـ.

وقد ثبت علمياً أن الدورة الطمثية قد تنقطع لسبب فيزيولوجي، كما هو الحال عند المرضعة، أو لسبب مرضي، كما هو الحال عند وجود ضعف في الإباضة، أو وجود خلل في الهرمونات، مما يؤدي إلى عدم حدوث الدورة الطمثية لأشهر، أو لسنين أحياناً، ثم تنشط الإباضة فجأة، ويحدث الحمل، فيُظن أن المدة السالفة كلها هي مدة الحمل، وليس كذلك، فالحمل الحقيقي لن يزيد عن وقته (وهو تسعة أشهر) أكثر من شهر، وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

في شيء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنا، ووُجد ظاهراً في النساء؛ نادراً أو معتاداً؛ ولمَّا وَجَدْنا امرأةً قد حملت أربعَ سنين وخمسَ سنين حَكَمْنا بذلك، والنفاسُ والحيضُ لمَّا لم نجد فيه أمراً مُستقرًّا رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهنَّ.

السابعة: قال ابن العربي[(١)]: نقل بعضُ المتساهلين من[(٢)] المالكيين أنَّ أكثر الحملِ تسعةُ أشهر! وهذا ما لم ينطق به قطُّ إلا هالِكيٌّ، وهم الطَّبَائِعيُّون الذين يزعمون أنَّ مدبِّرَ الحملِ في الرَّحِم الكواكبُ السبعة؛ تأخذه شهراً شهراً، ويكونُ الشهر الرابعُ منها للشمس؛ ولذلك يتحرَّكُ ويضطرب، وإذا تكامَلَ التَّدَاوُلُ في السبعة الأشهرِ بين الكواكب السبعةِ عاد في الشهر الثامن إلى زُحل، فيُبْقِله[(٣)] بِبَرْده، فياليتني تمكَّنتُ من مناظرتهم أو مقاتلتِهم[(٤)]! ما بالُ المَرْجِع بعدَ تمامِ الدَّور يكون إلى زُحلَ دونَ غيره؟ آللهُ أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟! وإذا جاز أنْ يعودَ إلى اثنين منها[(٥)]، لمَ لا يجوزُ أنْ يعودَ التدبير إلى ثلاثٍ أو أربع، أو يعودَ إلى جميعها مرتين أو ثلاثاً؟! ما هذا التحكُّم بالظنون الباطلةِ على الأمور الباطنة!.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار»: قَدْرَ خروجِ الولد من بطن أمِّه، وقَدْرَ مُكْثِه في بطنها إلى خروجه. وقال قَتَادةُ: في الرزق والأجل[(٦)]. والمقدارُ: القَدْرُ. وعمومُ الآيةِ يتناول كلَّ ذلك، والله سبحانه أعلم.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٧ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عن، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): فيلقيه، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن ومعنى يبقله: يخرجه. ينظر اللسان (بقل).

(٤) في (د) و(ز): مقابلتهم، والمثبت من (ظ) و(م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): إلى شيء منها، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٩٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٢ بنحوه.

التاسعة[١]: هذه الآيةُ تَمدَّحَ الله سبحانه وتعالى بها بأنه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: هو عالمٌ بما غاب عن الخلق، وبما شَهِدوه. فالغيبُ مصدرٌ بمعنى الغائب. والشهادةُ مصدرٌ بمعنى الشاهد، فنبَّه سبحانه على انفراده بعلم الغيبِ، والإحاطةِ بالباطن الذي يَخْفَى على الخَلْق، فلا يجوزُ أنْ يشاركَه في ذلك أحدٌ. فأما أهلُ الطبِّ الذين يستدلُّون بالأمارات والعلاماتِ، فإنْ قطعوا بذلك فهو كفرٌ[٢]، وإنْ قالوا: إنها تجربة، تُركوا وما هم عليه، ولم يَقدَح ذلك في الممدوح[٣]؛ فإنَّ العادةَ يجوز انكسارُها، والعلمُ لا يجوزُ تبدُّلُه.

و﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي كلُّ شيءٍ دونه. ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كلِّ شيءٍ بقدرته وقَهْرِه؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفًى[٤]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ إسْرارُ القول: ما حَدَّث به المرءُ نفسَه، والجهرُ ما حَدَّث به غيرَه؛ والمرادُ بذلك أنَّ الله سبحانه يَعلم ما أَسَرَّه الإنسان من خيرٍ وشرّ، كما يعلم ما جَهَر به من خيرٍ وشرّ.

و«مِنْكُمْ» يحتمل أنْ يكونَ وصفاً لـ «سواءٌ»، التقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ وَجَهْرُ مَن جَهَر سواءٌ منكم. ويجوزُ أنْ يتعلق بـ «سواء» على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررتُ بزيد. ويجوز أنْ يكونَ على تقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ منكم وجَهْرُ مَن جَهَر منكم.

---

(١) في (د) و(م): قلت، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) وقعت العبارة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٩٦ (والكلام منه): وأهل الطب يقولون: إذا ظهر النفخ في ثدي الحامل الأيمن فالحمل ذكر، وإن ظهر في الثدي الأيسر فالحمل أنثى، وإذا كان الثقل للمرأة في الجانب الأيمن فالحمل ذكر، وإن وجدت الثقل في الجانب الأيسر فالولد أنثى، فإن قطعوا بذلك فهو كفر. وينظر ما سلف ٨/٤٠٣ .

(٣) في أحكام القرآن: التمدح.

(٤) الأسنى ص٢٠٨ و ٢١٠ وما بعدها.

ويجوزُ أنْ يكونَ التقدير: ذو سواءٍ منكم مَن أسرَّ القولَ ومَن جَهَر به، كما تقول: عدلٌ زيدٌ وعمرو، أي: ذوا عدلٍ. وقيل: «سواء»، أي: مُسْتوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذفِ مضاف[1].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: يستوي في علم الله السرُّ والجهر، والظاهِرُ في الطُّرقات والمُسْتَخْفي في الظُّلُمات[2].

وقال الأخفش وقُطْرُب[3]: المستخفي بالليل: الظاهرُ؛ ومنه خَفَيتُ الشيءَ وأَخْفَيته، أي: أظهرتُه، واختفيت[4] الشيءَ، أي: استخرجتُه، ومنه قيل لِلنَّبَّاش: المختفي[5]. وقال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ[6]

والسَّاربُ: المتواري، أي: الداخلُ سَرَباً؛ ومنه قولُهم: انْسَرَب الوحش: إذا دخل في كِناسه[7]. وقال ابن عباس: «مُسْتَخْفٍ»: مستتر، «وَسَارِبٌ»: ظاهر[8].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤١، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٣، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٧ والإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٧٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢.

(٣) قول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٩٥، وقول قطرب ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٤٢، وأبو الطيب اللغوي في الأضداد ١/ ٢٤٧، وذكر هذا القول عنهما الرازي ١٩/ ١٧ - ١٨.

(٤) في (د) و(ز) و(م): أخفيت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٩/ ١٧، واللسان (خفي)، ومثلها: استخفيت، ذكرها الجوهري في الصحاح (خفي). وينظر الأضداد لأبي الطيب ١/ ٢٤٧، وتهذيب اللغة ٧/ ٥٩٧.

(٥) الأضداد لابن الأنباري ص٧٦، والصحاح (خفي).

(٦) ديوان امرئ القيس ص٥١. وجاء في شرحه للأصمعي: الوَدْق: المطر، وخَصَّ مطر العَشيِّ لأنه أغزر. والمجلِّب: الذي تُسمع له جَلَبَة لشدةِ وَقْعِه، أي: وَدْقٌ من عَشيٍّ فيه جلبةٌ للمطر. والمعنى: أن الفرس لشدة جَرْيِه أخرج الفِئرةَ من جِحَرتهنَّ ظنَّته مطراً، فخشينَ أن يُسيل الأرض فيغرقهن.

(٧) في (م): الوحشي، ومثله في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢، والصحاح (سرب)، والمثبت موافق لما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٦، وتهذيب اللغة ١٢/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ١٧. والكِناس: هو مستتر الظبي في الشجر. القاموس (كنس).

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

مجاهد: مُسْتَخْفٍ [بالليل، أي: مستتر] بالمعاصي، «وَسَارِبٌ»: ظاهر[١].

وقيل: معنى «سَارِبٌ»: ذاهبٌ؛ قال الكسائيُّ: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَباً وسُرُوباً: إذا ذهب[٢]؛ وقال الشاعر:

وكُـلُّ أنـاسٍ قَـارَبُـوا قَـيْـدَ فَحْـلِـهِـمْ ... ونَـحْـنُ خَـلَـعْـنَـا قَـيْـدَهُ فـهـو سَـارِبُ[٣]

أي: ذاهبٌ. وقال أبو رجاء: السَّاربُ: الذَّاهب على وجهه في الأرض[٤]؛ قال الشاعر:

أَنَّـى سَـرَبْـتِ وكـنـتِ غـيـرَ سَـرُوبِ[٥]

وقال القُتَبيُّ: «سَارِبٌ بِالنَّهَارِ»، أي: متصرِّفٌ[٦] في حوائجه بسرعة، من قولهم: انْسَرَب الماء. وحكى الأصمعيُّ: خَلِّ سَرْبَه، أي: طريقه[٧].

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أي: لله ملائكةٌ يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٧ .

(٣) قائله الأخنس بن شهاب التغلبي، كما في إصلاح المنطق ص٢٢٥ ، وشرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٣٧٨ ، والصحاح (سرب)، وشرح اختيارات المفضل للتبريزي ٢/ ٩٣٨ . قال السيرافي: يعني بالفحل هنا السيد، يقول: كلُّ أناس غيرنا لم يتركوا رئيسهم وسيدهم أن يفارقهم ويبعدَ عنهم خشيةً عليه من القتل، ونحن لعزِّنا لا يجترئ أحد على سيدنا وإن كان وحده بعيداً عنا.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٤ .

(٥) وعجزه: وتقرُّبُ الأحلامُ غيرَ قريب، والبيت لقيس بن الخَطيم كما في تفسير الطبري ١٣/ ٤٥٣ ، والأضداد لابن الأنباري ص٧٧ ، وبلا نسبة في الصحاح (سرب)، وسلف ١/ ١٠١ .

(٦) في (د) و(م): منصرف، والمثبت من (ز) و(ظ) وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٢٢٤ .

(٧) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٧٧ .

صعِدت ملائكةُ الليل أعقبتها ملائكةُ النهار.

وقال: «مُعَقِّبَاتٌ» والملائكة ذُكْران؛ لأنه جمعُ مُعقِّبة؛ يقال: مَلَك مُعقِّب، وملائكة مُعقِّبة، ثم مُعقِّبات جمعُ الجمع[١].

وقرأ بعضهم: «له مَعَاقيبُ مِن بَيْنِ يَدَيْه ومن خَلْفِه». ومعاقيبُ جمع مُعقِّب[٢]؛ وقيل: للملائكة: معقِّبة؛ على لفظ الملائكة. وقيل: أنّث لكثرة ذلك منهم؛ نحو نسَّابة وعلَّامة وراوِيَة؛ قاله الجوهريُّ وغيره[٣].

والتعقيب[٤]: العَودُ بعد البدء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]، أي: لم يَرجع، وفي الحديث: «مُعقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائِلُهنَّ ـ أو: فاعلهن ـ » فذكر التسبيحَ والتحميدَ والتكبير[٥]؛ قال أبو الهيثم[٦]: سُمِّين «مُعقِّبات»؛ لأنها عادت مرَّةً بعد مرَّة، وكلُّ[٧] مَن عَمِل عَملاً ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ.

والمعقِّبات من الإبل: اللواتي يَقُمْنَ عند أعجازِ الإبل المُعْتَرِكات على الحوض، فإذا انصرفت ناقةٌ دخلت مكانَها أخرى[٨].

وقوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، أي: المستخفي بالليل والسارب بالنهار. ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ اختلف في هذا الحفظ؛ فقيل: يَحتَمِل أنْ يكونَ توكيلُ الملائكةِ بهم

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٠ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٥٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠ ، وهي في القراءات الشاذة ص٦٦ عن زياد بن أبي سفيان، وفي المحتسب ١/ ٣٥٥ عن عبيد الله بن زياد. قال ابن جني: ينبغي أن يكون هذا تكسير معقِّبٍ أو معقِّبة، إلا أنه لمَّا حذف إحدى القافين عوض منها الياء.

(٣) الصحاح (عقب)، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٩٦ .

(٤) في النسخ: والتعقب، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٣ ، والكلام منه، وتفسير البغوي ٣/ ٩ .

(٥) أخرجه مسلم (٥٩٦) من حديث كعب بن عُجرة ﷺ.

(٦) هو الرازي، مشهور بكنيته، وسلفت ترجمته ٥/ ١٣٦ ، وكلامه في تهذيب اللغة ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٧) في (د) و(ز) و(م): فعل.

(٨) الصحاح (عقب).

لحِفْظِهم من الوحوش والهوامِّ والأشياءِ المُضرَّة، لطفاً منه به، فإذا جاء القَدَر خلَّوا بينَه وبينه. قاله ابن عباس وعلي بنُ أبي طالب رضي الله عنهما[1]؛ قال أبو مِجلَز: جاء رجلٌ من مُرَاد إلى عليٍّ فقال: احترس؛ فإنَّ ناساً من مُرَاد يريدون قتلَك، فقال: إنَّ مع كلِّ رجل مَلَكين يحفظانِه مما لم [2] يُقدَّر، فإذا جاء القَدَر خَلَّيا بينه وبينَ قَدَرِ الله، وإنَّ الأجلَ حِصنٌ حَصينة. وعلى هذا: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي: بأمر الله وبإذنه، فـ ﴿مِن﴾ بمعنى الباء؛ وحروفُ الصِّفات يقوم بعضُها مقامَ بعض[3].

وقيل: ﴿مِن﴾ بمعنى «عن»، أي: يحفظونه عن أمر الله. وهذا قريبٌ من الأوّل؛ أي: حِفْظُهم عن أمر الله لا مِن عند أنفسِهم. وهذا قولُ الحسن[4]؛ تقول: كسوتُه عن عُرْيٍ ومن عُرْيٍ، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش: ٤]، أي: عن جوع[5].

وقيل: يحفظونه من ملائكة العذابِ حتى لا تَحِلَّ به عقوبةٌ؛ لأنَّ اللهَ لا يغيِّر ما بقومٍ من النعمة والعافية حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإذا أصرُّوا حانَ الأجلُ المضروب، ونزلت بهم النِّقمة، وتزولُ عنهم الحَفَظة المعقِّبات.

وقيل: يحفظونه من الجِنِّ؛ قال كعب: لولا أنَّ الله وَكَّل بكم ملائكةً يَذُبُّون عنكم في مَطْعَمكم وَمَشْرَبِكم وعوراتكم لتَخَطَّفتْكم [الجن][6] فإذاً[7] الجِنُّ وملائكةُ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٣٢ ، والطبري ١٣/ ٤٥٨ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و(ز) و(م): ما لم، والمثبت من (ظ) وتفسير الطبري ١٣/ ٤٦٦ وفيه تخريج الخبر.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣١١ ، وذكر هذا القول أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٢٤ ، والبغوي ٣/ ٩ ، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٢ ، والطبري ١٣/ ٤٦٤ عن قتادة. وقاله مجاهد أيضاً كما في تفسيره ١/ ٣٢٦ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠ ، وذكر الطبري ١٣/ ٤٧٤ هذا القول عن بعض نحويِّي البصرة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٤ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٩ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ٣/ ٤٦٦ .

(٧) قوله: فإذاً ليس في (م).

العذابِ من أمر الله، وخصَّهم بأنْ قال: «مِنْ أَمْرِ اللهِ»؛ لأنهم غيرُ مُعايَنين، كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]، أي: ليس مما تشاهدونه أنتم.

وقال الفرَّاء[١]: في الكلام تقديمٌ وتأخير، تقديره: له معقِّباتٌ من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه. وهو مرويٌّ عن مجاهد وابنِ جُبير والنَّخعيِّ[٢]. وعلى أنَّ ملائكةَ العذابِ والجِنَّ من أمر اللهِ لا تقديمَ فيه ولا تأخير.

وقال ابن جريج: إنَّ المعنى: يحفظون عليه عملَه[٣]، فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أقواله وأفعاله.

ويجوز إذا كانت المعقِّباتُ الملائكة أن تكون الهاء في «له» لله عزَّ وجلَّ، كما ذكرنا. ويجوز أنْ تكونَ للمستخفي، فهذا قول.

وقيل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني به النبيَّ ﷺ[٤]؛ أي: إنَّ الملائكةَ تحفظه من أعدائه، وقد جرى ذكرُ الرسول في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ﴾، أي: سواءٌ منكم مَن أسرَّ القولَ ومَن جهر به في أنه لا يضرُّ النبيَّ ﷺ، بل له معقباتٌ يحفظونه عليه الصلاة والسلام. ويجوز أنْ يرجعَ هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: يحفظون الهاديَ مِن بين يديه ومِن خَلْفه.

وقول رابع: أنَّ المرادَ بالآية: السلاطينُ والأمراءُ الذين لهم قومٌ من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئاً؛ قاله ابن عباس

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٠ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): وابن جريج والنخعي، والمثبت من (ظ)، ينظر تخريج قولهم في تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٣ .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٢ بلفظ: يحفظون عليه الحسنات والسيئات، وأخرجه بنحوه الطبري ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠ و ٤٦٧ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٢ .

(٤) ذكره الطبري ١٣/ ٤٧٠ ، وابن عطية ٣/ ٣٠١ عن عبد الرحمن بن زيد، ونسبه ابن الجوزي ٤/ ٣١٠ لابن عباس رضي الله عنهما.

وعِكْرِمة. وكذلك قال الضَّحاك: هو السلطانُ المتحرِّسُ من أمر الله، المشرِكُ[١]. وقد قيل: إنَّ في الكلام على هذا التأويلِ نفياً محذوفاً تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماوَرْديُّ[٢].

قال المَهْدَويُّ: ومَن جَعَل المعقّباتِ الحرسَ؛ فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظنِّه وزَعْمه.

وقيل: سواءٌ مَن أسرَّ القولَ ومَن جهر به، فله حرَّاسٌ وأعوانٌ يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أنْ يَنْجَع فيه وعظٌ؛ قال القُشَيرِيُّ: وهذا لا يمنع الربَّ من الإمهال إلى أنْ يحقَّ العذاب؛ وهو إذا غَيَّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرارِ، فيصير ذلك سبباً للعقوبة؛ فكأنّه الذي يُحِلُّ العقوبةَ بنفسه، فقوله: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ»، أي: من امتثال أمرِ الله.

وقال عبد الرحمن بنُ زيد: المعقِّباتُ: ما يتعاقبُ من أمر اللهِ تعالى وقضائه في عباده؛ قال الماورديُّ[٣]: ومَن قال بهذا القول؛ ففي تأويل قولِه: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ» وجهان:

أحدهما: يحفظونه من الموت ما لم يأت أجلٌ؛ قاله الضحاك.

الثاني: يحفظونه من الجِنِّ والهوامِّ المؤذية، ما لم يأت قَدَرٌ. قاله أبو أمامة وكعب الأحبار[٤]. فإذا جاء المقدورُ خلَّوا عنه.

والصّحيحُ أنَّ المعقّباتِ الملائكةُ، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج؛ ورُوِي عن ابن عباس، واختاره النَّحاس[٥]، واحتجَّ بقول النبيِّ ﷺ: «يتعاقبون فيكم

(١) أخرج قولهم الطبري ٣/ ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٩٨ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٩٨ ، وما قبله منه.

(٤) خبر أبي أمامة أخرجه الطبري بنحوه ١٣/ ٤٦٦ ، وخبر كعب سلف قريباً.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٧٩ ، وأخرج قول الأئمة المذكورين الطبري ١٣/ ٤٥٦ - ٤٦٠ و ٤٦٣ - ٤٦٤ .

ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار» الحديثَ، رواه الأئمة[١].

ورَوى ابنُ عيينةَ[٢] عن عمرو، عن ابن عباس أنه قرأ: «له معقِّباتٌ من بين يديه ورُقباءُ من خلفه من أمر الله يحفظونه». فهذا قد بيَّن المعنى[٣].

وقال كِنانةُ العَدَويُّ[٤]: دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرني عن العبد، كم معه مِن مَلَك؟ قال: «مَلَكٌ عن يمينك يكتب الحسناتِ، وآخَرُ عن الشمال يكتب السَّيِّئاتِ، والذي على اليمين أميرٌ[٥] على الذي على الشِّمال، فإذا عُمِلتْ حسنةٌ كُتبت عشراً، وإذا عُمِلت سيئة، قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أأكتبُ؟ قال: لا، لعله يستغفرُ اللهَ تعالى أو يتوبُ[٦]. فإذا قال ثلاثاً، قال: نعم، اكتبْ أراحنا الله تعالى منه، فبئس القرينُ هو، ما أقلَّ مُراقبتَه لله عزَّ وجلَّ وأقلَّ استحياءَه منَّا، يقول الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. ومَلَكان من بين يديك ومِن خَلْفِك يقولُ الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. [ومَلَك قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضَعْتَ لله رفعك، وإذا تَجَبَّرْتَ على الله قَصَمكَ]. ومَلَكان على شَفَتيك، وليس يحفظان عليك إلا الصَّلاةَ على محمد وآله. ومَلَكٌ قائمٌ على فِيك لا يدَع أنْ تدخلَ الحيَّةُ في فِيك، وملَكان على عينيك. فهؤلاء عشرةُ أملاكٍ على كلِّ آدميٍّ يتداولون[٧]؛

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٤٩١)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وسلف ١٧٩/٤.

(٢) في (د) و(ز) و(م): وروى الأئمة، والمثبت من (ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١٥٩ - تفسير) عن سفيان بالإسناد المذكور، ولفظه: «له معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه يحفظونه من أمر الله».

(٤) ابن نعيم، أبو بكر البصري، تابعي ثقة روى له مسلم. التهذيب ٣/ ٤٧٦. والخبر أخرجه الطبري ٤٥٧/١٣. وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٥) في (د) و(ز): أمين، وهي كذلك في مطبوع تفسير الطبري، وفي تفسير ابن كثير: آمر.

(٦) في (م): أو يتوب إليه، وفي تفسير الطبري وتفسير ابن كثير: ويتوب.

(٧) في تفسير الطبري وتفسير ابن كثير: ينزلون.

ملائكةُ الليلِ على ملائكة النهار؛ لأنَّ ملائكةَ الليلِ ليسوا بملائكة النهار، فهؤلاء عشرون مَلكاً على كلِّ آدميٍّ، وإبليس مع ابنِ آدمَ بالنهار، وولدُه بالليل»[١]. ذكره الثعلبيُّ.

قال الحسن: المعقِّبات أربعةُ أملاكٍ [اثنان بالنهار واثنان بالليل] يجتمعون عند صلاة الفجر[٢].

واختيار الطَّبريِّ[٣]: أنَّ المعقِّباتِ المواكبُ بين أيدي الأمراءِ وخَلْفَهم، والهاء في «له» لـ «مَنْ»[٤]، على ما تقدَّم[٥].

وقال العلماء رضوانُ الله عليهم: إنَّ الله سبحانه جعل أوامرَه على وجهين؛ أحدهما قضى حلولَه ووقوعَه بصاحبه، فذلك لا يدفَعُه أحدٌ ولا يغيِّره. والآخَرُ قضى مجيئه، ولم يقضِ حلولَه ووقوعَه، بل قضى صرفَه بالتَّوبة والدعاء والصَّدَقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغيِّر ما بقوم حتى يقعَ تغيير[٦]؛ إما منهم، أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غيَّر الله بالمنهزمين يومَ أُحُد بسبب تغيير الرّماةِ [ما] بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشَّريعة. فليس معنى الآية أنه ليس ينزلُ بأحد عقوبةٌ إلا بأنْ يتقدَّم منه ذنبٌ، بل قد تنزل المصائبُ بذنوب الغير، كما قال ﷺ وقد سُئل: أَنَهلِك

---

(١) قال ابن كثير: حديث غريب جدًّا. قلنا: وفي إسناده إبراهيم بن عبد السلام بن صالح وعلي بن جرير، ولم نقف لهما على ترجمة.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في تفسيره ١٣/ ٤٦١ - ٤٦٢ .

(٤) يعني في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ وهذا هو اختيار الطبري في تفسيره، ووقع في النسخ: لهنَّ، بدل: لمن. والصواب ما أثبتناه.

(٥) ص٢٩ من هذا الجزء.

(٦) قبلها في النسخ: منهم، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٢ ، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُر الْخَبَثُ»[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾، أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾. وقيل: إذا أراد بهم بلاءً من أمراضٍ وأسقامٍ، فلا مَرَدَّ لبلائه[٢].

وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاءُ ويعملوه، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحثَ أحدُهم عن حتفة بكفِّه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمِه.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: من ملجأ؛ وهو معنى قول السُّدِّيِّ. وقيل: مِن ناصِرٍ يمنعُهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمنِ من وَالِ[٣]

ووَالٍ ووَليٌّ كقادر وقدير.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾، أي: بالمطر. «والسَّحاب» جمعٌ، والواحدة سَحَابة، وسُحُبٌ وسَحَائبُ في الجمع أيضاً[٤].

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ قد مضى في «البقرة»[٥] القولُ في الرعد والبرق والصواعق، فلا معنى للإعادة.

---

(١) قطعة من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقد سلف ٩/ ١٤٦ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٩ .

(٣) ذكره مع ما قبله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٠ .

(٤) الصحاح (سحب).

(٥) ١/ ٣٢٧ وما بعدها.

والمرادُ بالآية بيانُ كمالِ قدرته، وأنَّ تأخيرَ العقوبةِ ليس عن عجز، أي: يريكم البرقَ في السماء خوفاً للمسافر؛ فإنه يخاف أذاهُ لـمَا ينالُهُ من المطر والهولِ والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء:١٠٢]. وطمعاً للحاضر أنْ يكونَ عقِبه مطرٌ وخِصْب؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما[١].

وقال الحسن: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيثه المزيلِ للقحط[٢].

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ قال مجاهد: أي: [الثقال] بالماء[٣]. ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ مَن قال: إنَّ الرَعدَ صوتُ السحاب، فيجوز أنْ يُسبِّح الرعدُ بتقدير[٤] خلقِ الحياةِ فيه، ودليلُ صحةِ هذا القولِ قولُه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ فلو كان الرعد ملَكاً لدخل في جملة الملائكة.

ومَن قال: إنه ملَك قال: معنى «مِنْ خِيفَتِهِ»: من خيفة الله؛ قاله الطَّبَريُّ[٥] وغيره. قال ابن عباس: إنَّ الملائكةَ خائفون من الله ليس كخوف ابنِ آدم، لا يعرفُ أحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلُهم عن عبادة الله طعامٌ ولا شرابٌ[٦].

وعنه قال: الرّعدُ ملَكٌ يَسوق السَّحابَ، وإنَّ بحارَ[٧] الماء لفي نُقْرةِ إبهامِه، وإنه مُوَكَّلٌ بالسَّحاب يصرفُه حيثُ يؤمرُ، وإنه يسبِّح اللهَ؛ فإذا سبَّح الرّعدُ لم يبق مَلَكٌ في

---

(١) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٣٣ ، والطبري ١٣/ ٤٧٥ ، وذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٨١ عن قتادة ومجاهد والحسن.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٠٠ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٧٦ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٦ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): بدليل، والمثبت من (ظ).

(٥) في تفسيره ١٣/ ٤٧٨ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠ .

(٧) في (م): بخار.

السّماء إلا رفع صوتَه بالتّسبيح، فعندها ينزل القَطْر[١].

وعنه أيضاً: كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذي سَبَّحْتَ له[٢].

وروى مالك، عن عامر بن عبد الله، عن أبيه: أنه كان إذا سمع صوت الرّعد [لَهِي من حديثه و] قال: سبحان الذي يسبِّح الرّعد بحمده والملائكةُ من خيفته، ثم يقول: إنَّ هذا وعيدٌ لأهل الأرض شديدٌ[٣].

وقيل: إنه مَلَك جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثلُ ذلك، فإذا أقبل على يمينه وسبَّح؛ سبَّح الجميعُ من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسَبّح؛ سبَّح الجميعُ من خوف الله.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ذكر الماورديُّ عن ابن عباس وعليّ بنِ أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهوديٍّ قال للنبيِّ ﷺ: أخبِرْني! مِن أيِّ شيءٍ ربُّك؟ أمِن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقةٌ، فأحرقته[٤].

وقيل: نزلت في بعض كفَّار العرب؛ قال الحسن: كان رجلٌ من طواغيت العربِ، بَعثَ النبيُّ ﷺ إليه نَفَراً يدعونه إلى الله ورسولِه والإسلام، فقال لهم: أخبروني عن ربِّ محمد ما هو، ومِمّ هو، أمِن ذهب أم من فضة[٥] أم من حديد أم نحاس؟ فاستعظم القومُ مقالتَه، فقال: أُجيبُ محمداً إلى ربٍّ لا أعرفه! فبعث

---

(١) ذكره البغوي ٣/ ١١ ، من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وينظر تفسير الطبري ١/ ٣٥٧ - ٣٥٩ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٢)، والطبري ١٣/ ٤٧٧ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه. ومن طريق مالك أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٣). ووقع في الموطأ ٢/ ٩٩٢ : مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع...، قال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٣٨٠ : هكذا رواه يحيى، لم يجاوز به عامراً، ورواه غيره من رواة الموطأ فقالوا فيه: مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٠١ ، وأخرجه عن علي ﷺ ومجاهد الطبري ١٣/ ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): ومم هو أمن فضة، والمثبت من (ظ) والمصادر على ما يأتي.

النبيُّ ﷺ إليه مراراً وهو يقول مثلَ هذا، فبينا النَّفَر ينازِعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابةٌ فكانت فوقَ رؤوسهم، فرَعدت وأبرقَتْ ورمتْ بصاعقة، فأحرقت الكافرَ وهم جلوس، فرجعوا إلى النبيِّ ﷺ، فاستقبلهم بعضُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ فقالوا: احترق صاحبُكم، فقالوا: مِن أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبيِّ ﷺ: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾. ذكره الثعلبيُّ عن الحسن[1]، والقشيريُّ بمعناه عن أنس، وسيأتي[2].

وقيل: نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لَبيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطُّفَيْل؛ قال ابن عباس: أقبل عامر بنُ الطُّفَيْل وأَرْبَد بنُ ربيعة العامِريَّان يريدان النبيَّ ﷺ وهو في المسجد جالسٌ في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامرٍ وكان أعورَ، وكان من أجمل الناس، فقال رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ: هذا يا رسولَ الله عامر بنُ الطُّفَيْل قد أقبل نحوَك، فقال: «دَعْه فإنْ يُرِد اللهُ به خيراً يَهْدِه» فأقبل حتى قام عليه فقال؛ يا محمد ما لي إنْ أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين» قال: أتجعلُ لي الأمرَ من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليَّ، إنما ذلك إلى الله يجعلُه حيثُ يشاء». قال: أفتجعلُني على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال: «لا». قال: فما تجعلُ لي؟ قال: «أجعلُ لك أَعِنَّةَ الخيلِ تغزو عليها في سبيل الله». قال: أو ليس لي أعنَّةُ الخيلِ اليومَ؟ قم معي أُكلِّمْكَ. فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامرٌ أومأ إلى أَرْبَد: إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه واضرِبْه بالسيف؛ فجعل يخاصم النبيَّ ﷺ ويراجعه، فاخترط أَرْبَد من سيفه شبراً، ثم حبسه الله؛ فلم يقدرْ على سَلِّه، ويَبِستْ يدُه على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقةً في يوم صائفٍ صاحٍ فأحرقتْه، وولَّى عامرٌ هارباً وقال: يا محمد! دعوتَ ربَّك على أربدَ حتى قتلته[3]، والله

(١) وذكره عن الحسن أيضاً البغوي ٣/ ١١ .

(٢) ص٣٩ من هذا الجزء.

(٣) في (ظ): حتى قتله الله.

لأملأنَّها عليك خيلاً جُرْداً، وفتيانا مُرْداً، فقال عليه الصلاة والسلام: «يمنعُك الله من ذلك وأبناءُ قَيْلَةَ»(١) يعني الأوْسَ والخَزْرَج؛ فنزل عامرٌ بيت امرأةٍ سَلُولية، وأصبح وهو يقول: واللهِ لئن أصْحَرَ(٢) لي محمدٌ وصاحبُه ـ يريد مَلَك الموت ـ لأُنفِذَنَّهما(٣) برمحي. فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب؛ وخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمةٌ في الوقت، فعاد إلى بيت السَّلُولية وهو يقول: غُدَّةٌ كغدة البعير، وموتٌ في بيت سَلُولية! ثم ركب على فرسه، فمات على ظهره(٤). ورَثَى لَبيد بنُ ربيعة أخاه أرْبَد فقال:

يا عينُ هلَّا بَكَيتِ أرْبَدَ إذ ... قُمنا وقام الخُصُوم في كَبَدِ
أخْشَى على أرْبَدَ الحُتُوفَ وَلَا ... أرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاك وَالأسَدِ
فَجَّعنِي الرَّعْدُ والصَّوَاعِقُ بالـ ... ـفارس يَوْمَ الْكَرِيهَة النَّجُدِ(٥)

وفيه قال:

إنَّ الرَّزِيَّةَ لَا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا ... فِقْدَانُ كُلِّ أخٍ كضوءِ الكَوْكَبِ
يا أرْبَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُهُ ... أفردْتَني أمشي بقَرْنٍ أعْضَبِ(٦)

(١) في تفسير البغوي ٣/ ١٠ (والكلام منه): وابنا قيلة وكذلك وقع في بعض المصادر التي ذكرت الخبر مثل الكامل للمبرد ٣/ ١٣٩٣ ، ومجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٧ ، وينظر ما سلف ١٠/ ٦٨ .

(٢) أي: خرج إلى الصحراء. الصحاح (صحر).

(٣) في النسخ عدا (ظ): لأنفذتهما، وكذلك هو في مطبوع تفسير البغوي، والمثبت من (ظ) ومجمع الأمثال.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٩ - ١٠ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٦٧-٤٧٠ عن ابن زيد مطولاً، وأخرجه بنحوه ١٣/ ٤٨١ - ٤٨٢ عن ابن جريج.

(٥) الأبيات في شرح ديوان لبيد ص١٥٨ - ١٦٠ ، والكامل ٣/ ١٣٩٤ على اختلاف في الترتيب. قال الطوسي شارح الديوان: قوله: كبد، هو القيام على الأمر الشديد. والنَّجُد: البطل ذو نجدة. وقال في شرح البيت الثاني: كنت أخشى عليه كلَّ سبب من أسباب المنية، ولم أكن أفْرَقُ عليه صاعقة. وسلف البيت الأخير ١/ ٣٢٨ .

(٦) شرح ديوان لبيد ص١٥٤ - ١٥٧ ، والكامل ٣/ ١٣٩٤ ، وقد تقدم فيهما البيت الثاني على الأول. قال الطوسي شارح الديوان: الأعضب: المكسور أحد قرنَيْه، وهذا مَثَل، أي: ذهب حَدِّي.

وأسلمَ لبيد بعد ذلك ﷺ.

مسألة: روى أَبَان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأخذُ الصاعقةُ ذاكراً لله عزَّ وجلَّ»[١].

وقال أبو هريرة ﷺ: كان النبيُّ ﷺ إذا سمع صوتَ الرعدِ يقول: «سبحان مَن يُسبِّحُ الرعد بحمده والملائكةُ من خِيفته»[٢]. قال ابن عبَّاس: مَن سمع صوتَ الرعد فقال: سبحان مَن يسبِّح الرعدُ بحمده والملائكةُ من خِيفته[٣] وهو على كلِّ شيء قديرٌ، فإنْ أصابته صاعقةٌ فعليَّ دِيَتُه[٤].

وذكر الخطيب من حديث سليمان بنِ عليّ بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جدِّه قال: كنا مع عمرَ في سفرٍ، فأصابنا رعدٌ وبردٌ، فقال لنا كعبٌ: مَن قال حين يسمع الرعدَ: سبحان مَنْ يسبِّحُ الرّعدُ بحمده والملائكةُ من خِيفته ثلاثاً، عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، ففعلنا فعُوفينا، ثم لقيت عمر بنَ الخطاب ﷺ، فإذا بَرَدَةٌ قد أصابت أنفَه فأثَّرتْ به، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، ما هذا؟ قال: بَرَدَةٌ أصابت أنفي فأثَّرت، فقلت: إنَّ كعباً حين سمع الرعدَ قال لنا: مَن قال حين يَسمعُ الرعدَ: سبحان مَن يُسبِّحُ الرعد بحمده والملائكةُ من خيفته ثلاثاً عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، فقلنا فعوفِينا. فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتى نقولَها؟ وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[٥].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٠١ ، وأبان هو ابن أبي عياش، قال الحافظ في التقريب: متروك. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٢٣) من طريق معمر عمن سمع عطاءً يقول، وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٨ (١٤٧١٦) عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر.

(٢) أخرج الطبري ١٣/ ٤٧٧ .

(٣) من قوله: قال ابن عباس إلى هذا الموضع من (ظ).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور (١١٦٥)، وفي إسناده سلّام الطويل، قال أحمد: منكر الحديث. وقال يحيى: ضعيف لا يكتب حديثه. وقال النسائي: متروك. الميزان ٢/ ١٧٥ .

(٥) ١/ ٣٢٩ ، وسلف ثَمَّ تخريج الخبر.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني جدالَ اليهوديِّ حين سأل عن الله تعالى: من أيِّ شيءٍ هو؟ قاله مجاهد. وقال ابن جُرَيج: جدال أَرْبَدَ فيما همَّ به من قتل النبيِّ ﷺ[1]. ويجوزُ أنْ يكون: «وهم يُجَادِلُون في الله» حالاً، ويجوز أنْ يكونَ منقطعاً.

وروى أنس: أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ إلى عظيمٍ من المشركين يدعوه إلى الله عزَّ وجلَّ، فقال لرسوله[2]: أخبرني عن إلهك هذا! أهو من ذهب، أم من فضة، أم من نحاس؟ فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلَمه، فقال: «ارجعْ إليه فادعُه». فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾[3].

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال ابنُ الأعرابي: «المِحال»: المكر، والمكرُ من الله عزَّ وجلَّ: التدبيرُ بالحقِّ[4].

النحَّاس[5]: المكر من الله: إيصالُ المكروه إلى مَن يَستحقُّه من حيثُ لا يشعر.

وروى ابن اليزيديِّ عن أبي زيد: «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي: النقمة[6].

وقال الأزهريُّ: «المِحال» أي: القوة والشدة. والمَحْل: الشدَّة؛ الميم أصلية، وماحَلْتُ فلاناً مِحَالاً، أي: قاوَيْتُه حتى يتبيَّنَ أيُّنا أشدُّ[7].

---

(١) أخرج القولين الطبري ١٣/٤٧٩ ، ٤٨١ .

(٢) في (م): لرسول الله.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٥)، والبزار (٢٢٢١ - زوائد)، وأبو يعلى (٣٣٤١)، والطبري ١٣/ ٤٨٠ ، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٢٣٢ ، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٥ .

(٤) ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص٢٨٠ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٨٥ .

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٥٧ والرازي ١٩/ ٢٨ عن الحسن. وابن اليزيدي هو أحمد بن محمد بن يحيى بن المبارك أبو جعفر، كان متقناً في العلوم، راوية للشعر والأخبار، شاعراً، قال ابن عساكر: كان من ندماء المأمون، وقدم معه دمشق، وتوجه منها غازياً للروم. إنباه الرواة ٢/ ١٢٦ .

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٩٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٣ .

وقال أبو عبيدة[(١)]: «المِحالُ»: العقوبةُ والمكر[(٢)].

قال ابن عَرَفة: «المِحال»: الجدالُ؛ يقال: ماحَلَ عن أمره، أي: جادل[(٣)].

وقال القُتَبيُّ[(٤)]: أي: شديدُ الكيد [والمكرِ]، وأصلُه من الحيلة. جَعَل ميمَه كميم المكان؛ وأصلُه من الكون، ثم يقال: تمكَّنت. وقال الأزهري[(٥)]: غَلِطَ ابنُ قتيبة أنَّ الميمَ فيه زائدةٌ، بل هي أصليَّةٌ، وإذا رأيتَ الحرفَ على مثال فِعال أوّلُه ميمٌ مكسورةٌ فهي أصليَّةٌ، مثل: مِهاد ومِلَاك ومِرَاس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كان من بنات الثلاثةِ، فإنه يجيءُ بإظهار الواو [والياء] مثل: مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر [ومِزْيَل ومِغْيَر]، وغيرها من الحروف.

وقال: وقرأ الأعرج: «وهو شديدُ المَحَال» بفتح الميم[(٦)]. وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحَوْل[(٧)].

ذَكَر هذا كلَّه أبو عبيد الهَرَويّ[(٨)] ـ إلا ما ذكرناه أوّلاً عن ابن الأعرابيِّ ـ وأقاويلُ الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها: شديد العداوة؛ قاله ابن عباس. وثانيها: شديد الحَوْل؛ قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها: شديد الأخذ؛ قاله عليّ بن أبي طالب. ورابعها: شديد الحقد؛ قاله الحسن[(٩)]. وخامسها: شديد القوة؛ قاله مجاهد.

---

(١) في (د) و(م): أبو عبيد، والقول في مجاز القرآن له ١/ ٣٢٥ .

(٢) في النسخ: والمكروه، والمثبت من مجاز القرآن، وكذا ذكره عنه الطبري ١٣/ ٤٨٣ .

(٣) ذكره الرازي ١٩/ ٢٨ ، وابن منظور في اللسان (محل).

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٢٢٦ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) في تهذيب اللغة ٥/ ٩٥ ، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٦ ، والمحتسب ١/ ٣٥٦ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٨٤ ، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٩٦ ، والكلام منه.

(٨) هو أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الشافعي اللغوي، صاحب الغريبين.

(٩) في النسخ: قاله ابن عباس، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ١٠٢ ، والكلام منه. وقال ابن الجوزي ٤/ ٣١٦ : قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق، وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنباري والنقاش، ولا يجوز هذا في صفات الله. قال النقاش: هذا قول منكر. وينظر تفسير الرازي ١٩/ ٢٨ .

وسادسها: شديد الغضب؛ قاله وهب بن مُنَبِّهٍ. وسابعها: شديد الهلاك بالمَحْل، وهو القَحْط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها: شديد الحيلة؛ قاله قَتَادة[١].

وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المِحَال والمُمَاحَلة: المُمَاكَرة والمُغالبة[٢]، وأنشد للأعشى:

فـرعُ نَـبْـعٍ يَـهْـتَـزُّ فـي غُـصُـنِ الْـمَـجْـ ـدِ كـثـيـرُ الـنَّـدَى شـديـدُ الـمِـحـالِ[٣]

وقال آخر:

ولَـبْـسٍ بَـيْـنَ أقـوَامٍ فـكُـلٌّ أعَـدَّ لـه الـشَّـغَـازِبَ والـمِـحَـالَا[٤]

وقال عبد المطلب:

لاهُـمَّ إنَّ الْـعَـبْـدَ يَـمْـ ـنَـعُ رَحْـلَـهُ فـامْـنَـعْ حِـلالَـك

لَا يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلِـيـبُـهُـمْ ومِـحـالُـهـم عَـدْواً مِـحَـالَـك[٥]

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۖ﴾ أي: لله دعوةُ الصدق[٦]. قال ابن عباس وقَتَادةُ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٠٢، وأخرج أغلب هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ١١، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ١/ ٣٢٥: «شديد المحال» أي: العقوبة والمكر والنكال، وقد سلف بعضه.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣٢٥، وهو في ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٥٧، وهو فيهما برواية: غزير الندى. ووقع في النسخ الخطية: عظيم المحال، وهي رواية الطبري للبيت ١٣/ ٤٨٣.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٢٦، وقائله ذو الرُّمَّة، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٤ برواية: السِّفارة والمحالا. قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: اللَّبْس: الاختلاط. والسفارة: الصلح بين القوم. ويروى: الشغازب، أي: الكيد والخصومة. والمحال: الجدال.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٥١، والحيوان للجاحظ ٧/ ١٩٨ - ١٩٩، وسلف البيت الأول ٢/ ٨٣. ووقع في (د) و(م): المرء، بدل: العبد، وهو موافق لما في كتاب الحيوان. قوله: حِلالك بكسر الحاء: القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم. النهاية (حلل).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٢.

وغيرهما: لا إله إلا الله[١].

وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوةُ الحق[٢].

وقيل: إنَّ الإخلاص في الدعاء هو دعوةُ الحق؛ قاله بعضُ المتأخِّرين. وقيل: دعوةُ الحق: دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يُدْعى فيه إلا إيَّاه، كما قال: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٣٧]؛ قال الماوَرْديُّ[٣]: وهو أشْبهُ بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنامَ والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي: لا يُجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداء ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ضرب الله عزَّ وجلَّ الماءَ مثلاً لإيَاسهم[٤] من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يُدركه مَثَلاً بالقابض الماءَ باليد؛ قال:

فأصبحت مما[٥] كان بَيْني وبينَها ... من الودِّ مثلَ القابِضِ الماءَ باليدِ[٦]

وفي معنى هذا المَثَل ثلاثةُ أوْجُه:

أحدها: أنَّ الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فِيه من بعيد - يريد تَناوُلَه ولا يقدر عليه - بلسانه، ويشير إليه بيده، فلا يأتيه أبداً؛ لأنَّ الماء لا يستجيب، وما الماءُ ببالغٍ إليه؛ قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خيالَه في الماء وقد بسط كفَّه فيه ليبلغ فاه وما هو

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ١٣/ ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٧ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٠٣ .

(٤) في النسخ: ليأسهم، والمثبت من النكت والعيون. قال صاحب كتاب العين ٧/ ٣٣١ : يئست منه يأساً، وآيَسْتُ فلاناً إياساً. وتقول: أيأسته فاستيأس، والمصدر منه: إياس.

(٥) في (م): فيما.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٣ ، ونسبه فيه الماوردي لأبي الهذيل، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ١/ ٣٢٧ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٨٨ . ونسبه صاحب الأغاني ٧/ ١٣٩ لأبي دهبل الجمحي برواية: سوى ذكرها كالقابض، بدل: من الود مثل القابض.

ببالغه؛ لكذب ظنِّه، وفساد تَوَهُّمِه؛ قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كباسطِ كفِّه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل[1] في كفِّه شيءٌ منه.

وزعم الفراء أنَّ المراد بالماء هاهنا البئر؛ لأنها معدنٌ للماء، وأنَّ المَثَل: كَمَن مدَّ يده إلى البئر بغير رِشاء[2]، وشاهِدُه قولُ الشاعر:

فــإنَّ الــمــاءَ مــاءُ أَبِــي وجَــدِّي وبِــئْــري ذُو حَــفَــرْتُ وذُو طَــوَيْــتُ[3]

قال عليٌّ ﷺ: هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغُ قعر البئر، ولا الماءُ يرتفع إليه[4].

ومعنى «إلَّا كباسِط»: إلا كاستجابة باسط كفَّيه إلى الماء، فالمصدرُ مضافٌ إلى الباسط، ثم حذف المضاف، وفاعلُ المصدرِ المضافِ مرادٌ في المعنى وهو الماء، والمعنى: إلا كإجابة باسط كفَّيه إلى الماء[5]، واللامُ في قوله: «لِيَبْلُغَ فاهُ» متعلِّقةٌ بالبَسْط.

وقولُه: «وما هو ببالغه» كنايةٌ عن الماء، أي: وما الماءُ ببالغِ فاه. ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم، أي: ما الفمُ ببالغِ الماء[6].

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ليست عبادة الكافرين الأصنامَ إلا في ضلال؛ لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال، أي: يَضلُّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه

---

(١) في (د) و(ز): فلا يجعل، وفي (م): فلا يجمد، والمثبت من (ظ) والنكت والعيون.

(٢) أي: حبل. القاموس (رشا).

(٣) النكت والعيون ٢/ ١٠٤ ، والبيت لسنان بن الفحل الطائي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٩١ ، وأمالي ابن الشجري ٣/ ٥٥ ، والخزانة ٦/ ٣٥ . قال البغدادي: ذو اسم موصول، وهو هنا بمعنى التي.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٤٨٨ .

(٥) أي: إلا كإجابة الماءِ مَن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه. الكشاف ٢/ ٣٥٤ ، والإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٧٨ ، والدر المصون ٧/ ٣٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٥ .

شيئاً[١]، كما قال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] وقال ابن عباس: أي: أصواتُ الكافرين محجوبةٌ عن الله فلا يسمع دعاءهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقَتادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كَرهاً بالسيف[٣]. وعن قَتادة أيضاً: يسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجودُ الكافر كَرهاً: ما فيه من الخضوع وأثرِ الصَّنعة[٤].

وقال ابن زيد: «طَوْعاً»: مَن دخل في الإسلام رغبةً، و«كَرها»: مَن دخل فيه رَهْبةً بالسيف[٥].

وقيل: «طوعاً» مَن طالت مدةُ إسلامه فألِفَ السجود[٦]، و«كَرها» مَن يُكره نفسَه لله تعالى، فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «والأرض»[٧]: وبعضُ مَن في الأرض.

قال القُشَيْريُّ: وفي الآية مَسْلَكان: أحدهما: أنها عامةٌ والمرادُ بها التخصيص، فالمؤمن يسجد طوعاً، وبعضُ الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين، فالآية

---

(١) في (د) و(ز) و(م): سبيلا.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ١٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٩١ عن قتادة، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٥٨ عن الحسن.

(٤) بنحوه في معاني القرآن له ٣/ ١٤٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٠٤، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٩١.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٤.

(٧) في (ظ): وعلى هذا يكون معنى ومن في الأرض.

محمولة على هؤلاء؛ ذكره الفرَّاء[١]. وقيل: على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم مَن يسجد طوعاً لا يَثْقُل عليه السجود، ومنهم مَن يثقل عليه؛ لأن الْتزامَ التكليف مشقَّة، ولكنهم يتحمَّلون المشقَّة إخلاصاً وإيماناً، إلى أنْ يَأْلَفوا الحقَّ ويَمْرُنوا عليه.

والمسلك الثاني ـ وهو الصحيح ـ: إجراءُ الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما: أنَّ المؤمن يسجد طوعاً، وأما الكافر فمأمورٌ بالسجود مؤاخَذٌ به. والثاني ـ وهو الحقُّ ـ أنَّ المؤمن يسجد ببدنه طوعاً، وكلّ مخلوقٍ من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق[٢] سجودَ[٣] دلالةٍ وحاجةٍ إلى الصانع، وهذا كقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهو تسبيحُ دلالةٍ لا تسبيحُ عبادة.

﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: ظلال الخلقِ ساجدةٌ لله تعالى بالغدوِّ والآصال؛ لأنها تتفيَّأ[٤] في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريفُ الله إياها على ما يشاء، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] قاله ابن عباس وغيره[٥].

وقال مجاهد: ظِلُّ المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع؛ وظلُّ الكافر يسجد كرهاً[٦] وهو كارِه.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦١ .

(٢) بعدها في (ظ): مربوب مكوّن، أي: بتكوين الربّ إياه، ويبقى بإبقائه، فسجود كل مخلوق.

(٣) في (د) و(ز) و(م): يسجد.

(٤) في (د) و(ز) و(م): تبين.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٩٢ . ومعنى «يتفيأ ظلاله»: تدور ظلاله وترجع من جانب إلى جانب. شرح غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٣ .

(٦) كذا في النسخ، ووقع بدلاً منها في تفسير الطبري ١٣/ ٤٩٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢ : طوعاً. وذكره بلفظ: كرها، الرازي ١٩/ ٣٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٢-٥٣ وعزاه للطبري وابن المنذر.

وقال ابن الأنباري[١]: يُجعل للظلال عقولٌ تسجد بها وتخشع بها، كما جُعل للجبال أفهامٌ حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشيري: في هذا نظر؛ لأنَّ الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقلٌ بشرطِ تقديرِ الحياة، وأمَّا الظلالُ فآثارٌ وأعراضٌ، ولا يُتصوَّر تقديرُ الحياة لها، والسجودُ بمعنى الميل؛ فسجودُ الظلال: ميلُها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة، أي: مالت.

و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب[٢]، ثم أصائِل جمعُ جَمْعِ الجمع[٣]؛ قال أبو ذؤيب الهذليُّ:

لَعَمْري لأَنتَ البيتُ أُكرِمُ أَهلَهُ وأَقعُدُ في أَفْيَائه[٤] بالأَصَائِلِ[٥]

و«ظِلَالُهُمْ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ»، ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداءِ، والخبرُ محذوف، التقدير: وظلالُهم سُجَّدٌ بالغدوّ والآصال. و«الغدوّ» يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون جمعَ غداة، يقوِّي كونَه جمعاً مقابلةُ الجمع ـ الذي هو «الآصال» ـ به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول

---

(١) قوله في تفسير الرازي ١٩/ ٣٠.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٣٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٩٨، والنكت والعيون ٣/ ١٠٤.

(٣) في (د) و(ز) و(م): ثم أصائل جمع الجمع، والمثبت من (ظ)، والروض الأنف ٢/ ٢٤ - ٢٥ والكلام منه، وقد ردَّه السهيلي فقال: وهذا خطأ بيِّن من وجوه؛ منها: أن جمع جمع الجمع لم يوجد قط في الكلام فيكونَ هذا نظيره...، ثم ذكر في ردِّه وجوهاً كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هنا.

(٤) في النسخ الخطية: أفنائه، والمثبت من (م) والمصادر.

(٥) ديوان الهذليين ١/ ١٤١، ومجاز القرآن ١/ ٢٣٩ و٣٢٣، والخزانة ٥/ ٤٨٤.

للمشركين: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم أمره أن يقول لهم: هو الله؛ إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك وجَهِلوا مَن هو.

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا يدلُّ على اعترافهم بأن الله هو الخالق، وإلّا لم يكن للاحتجاج[1] بقوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معنى، دليله قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا اعترفتم فَلِمَ تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرُّ. وهو إلزام صحيح.

ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمنُ الذي يبصر الحقَّ، والمشركُ الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مَثَلٌ لِمَا عَبَدوه من دون الله، والبصيرُ مَثَلُ الله تعالى.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي: الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصِن وأبو بكر والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿يَسْتَوِى﴾ بالياء[2] لتَقَدُّم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقون بالتاء، واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يَحُلْ بين المؤنَّثِ والفعلِ حائل[3]. و«الظلمات والنور» مَثَل الإيمان والكفر، ونحن لا نقف على كيفية ذلك.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج، أي: خَلَقَ غيرُ الله مِثْلَ خَلْقِه فتشابه الخلقُ عليهم، فلا يدرون خَلْقَ اللهِ مِن خَلْقِ آلهتهم؟! ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فلَزِمَ لذلك أن يعبده كلُّ شيء. والآيةُ ردٌّ على المشركين والقَدَريَّةِ الذين زعموا أنهم خَلَقوا كما خَلَق

---

(١) في (ظ): إذ لو لم يكونوا مقرين بأن الله هو الخالق لم يكن للاحتجاج. بدل: وإلا لم يكن للاحتجاج...

(٢) السبعة ص٣٥٨، والتيسير ص١٣٣ عن أبي بكر ـ وهو شعبة ـ وحمزة والكسائي.

(٣) ينظر الحجة للفارسي ٥/ ١٥.

الله[1]. ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ قبلَ كلِّ شيء ﴿ٱلْقَهَّـٰرُ﴾: الغالبُ لكلِّ شيء، الذي يَغلب في مراده كلَّ مُريد.

قال القُشَيريُّ أبو نصر: ولا يَبْعُدُ أن تكون الآيةُ واردةً فيمَن لا يعترف بالصانع، أي: سَلْهم عن خالقِ السماوات والأرض، فإنه يسهِّل تقريرَ الحجة فيه عليهم، ويقرِّب الأمرَ من الضرورة؛ فإنَّ عَجْزَ الجماد وعَجْزَ كلِّ مخلوق عن خلق السماوات والأرض معلوم، وإذا تقرَّر هذا وبانَ أنَّ الصانع هو الله، فكيف يجوز اعتقادُ[2] الشريك له؟! وبيَّن في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشْتَبه الخلقُ، ولم يتميَّز فِعْلُ هذا عن فعلِ ذلك، فبم يُعلم أنَّ الفعل من اثنين؟!

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ﴾ ضَربَ تعالى مَثَلين[3] للحقِّ والباطل؛ فشبَّه الكفرَ بالزَّبَد الذي يعلو الماءَ، فإنه يضمحلُّ

(١) حز الغلاصم ص٦٨ – ٦٩ ، وضرب مصنفه مثالاً لقول القدرية حركةَ اليد فقال: وذلك أن حركة الارتعاش في يد العبد هم موافقون لنا أنها خَلْقُ الله تعالى لأنها واقعة بقدرة الله وإرادته، فإذا أراد العبد أن يحرك يده باختياره وإرادته حركة تشبه الارتعاش، قالوا: هذه خلقٌ للعبد لأنها وقعت بقدرته وإرادته!

(٢) في (د) و(ز) و(م): اعتداد.

(٣) في (د) و(ز) و(م): ضرب مثلاً.

ويَعْلَق[١] بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح، فكذلك الكفر تُمحَقُ آثارُه. ومَثَّلَ الحقَّ بالجواهر التي تُذاب ليُتَّخذَ منها ما يَنفع الناسَ، فيعلوها الزَّبَد والخَبَثُ، فأمَّا ما ينفع الناسَ فيبقى، وأمَّا الخَبَثُ فيذهب، فكذلك[٢] يذهب الكفر ويضمَحِلّ، على ما نبيِّنه.

قال مجاهد: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» قال: بقَدَر مَلْئِها. وقال ابن جُرَيج: بقدر صِغَرِها وكِبَرِها[٣]. وقرأ الأشهب العُقَيْلي والحسن: «بقَدْرِها» بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قدّر لها[٤].

والأودية جمع الوادي؛ وسمِّي وادياً لخروجه وسَيَلانه؛ فالوادي على هذا اسمٌ للماء السائل[٥].

وقال أبو علي: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ» توسُّع، أي: سال ماؤها، فحذف، قال: ومعنى «بِقَدَرِهَا»: بقدر مياهها؛ لأنَّ الأودية ما سالت بقدر أنفُسها[٦].

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: طالِعاً عالياً مرتفعاً فوق الماء. وتمَّ الكلام؛ قاله مجاهد[٧].

ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وهو المَثَل الثاني ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: حليةِ

---

(١) في (ظ): فيعلو.

(٢) من قوله: الكفر تمحق آثاره، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٨ وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٢٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٠٠ - ٥٠١. وأخرج أيضاً قول ابن جريج ١٣/ ٥٠٣ عنه عن ابن عباس.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٨، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦.

(٥) تفسير الرازي ١٩/ ٣٦. وقال الأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٣٢: قال شمر: ودى أي: سال، ومنه: الوَدْيُ فيما أرى لخروجه وسيلانه، ومنه: الوادي.

(٦) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٢١.

(٧) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧، وهو عند الطبري ١٣/ ٥٠٠.

الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قال مجاهد: المتاع[١]: الحديد والنحاس والرصاص. وقوله: «زَبَدٌ مِثْلُهُ» أي: يعلو هذه الأشياءَ زَبَدٌ كما يعلو السيل، وإنما احتَمَل السيل الزبدَ لأنَّ الماء خالَطَه ترابُ الأرض، فصار ذلك زبداً، كذلك ما يوقَد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنبتُّ فِي الأرض من المعادن فقد خالَطَه التراب، فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله ترابُ الأرض.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ قال مجاهد: جُموداً[٢]. وقال أبو عبيدة[٣]: قال أبو عمرو بن العلاء: أَجْفَأَتِ القِدْرُ: إذا غَلَت حتى ينصبَّ زَبَدُها، وإذا جَمَد في أسفلها[٤]. والجُفاء: ما أجفأه الوادي، أي: رَمى به[٥].

وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ: «جُفَالاً». قال أبو عبيدة: يقال: أَجْفَلَت القِدْرُ: إذا قذفت بزَبَدها[٦]. وأجفلت الريح السحاب: إذا قطعته [وأذهبته][٧].

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: هو الماءُ الخالصُ الصَّافي[٨]. وقيل: الماءُ وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص. وهذان[٩] المَثَلان ضَرَبهما الله للحقِّ في ثباته، والباطلِ في اضمحلاله، فالباطلُ وإن علا في

---

(١) قوله: المتاع، من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٠٠.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧، وهو عند الطبري ١٣/ ٥٠١.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٢٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٨٩.

(٤) قوله: وإذا جمد في أسفلها، وقع بدلاً منه في مجاز القرآن: أو سكنت فلا يبقى منه شيء.

(٥) ينظر القاموس (جفا).

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٧، والقراءة عن رؤبة في القراءات الشاذة ص٦٦. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٨: قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٩، وما بين حاصرتين منه، ووقع فيه: جفلت، بدل: أجفلت.

(٨) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٠١.

(٩) في (د) و(ز) و(م): وهو أن، بدل: وهذان.

بعض الأحوال؛ فإنه يضمحلُّ كاضمحلال الزَّبَد والخَبَث.

وقيل: المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه [في] القلوب، فَشبَّه القرآنَ بالمطر لعموم خيره وبقاءِ نَفْعِه، وشَبَّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثلُ ما يدخل في الأودية [من الماء] بحسَب سعتها وضيقها. قال ابن عباس: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قال: قرآناً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الأوديةُ قلوبُ العباد[1]. قال صاحب «سوق العروس»[2]: إن صحَّ هذا التفسير فالمعنى فيه: أنَّ الله سبحانه مَثَّل القرآنَ بالماء. ومَثَّل القلوب بالأودية، و مثَّل المُحْكَم بالصَّافي، ومثَّل المتشابه بالزَّبد.

وقيل: الزَّبَد مَخايِلُ النفس وغوائلُ الشك[3]، ترتفع من خبثِ[4] ما فيها، فتضطرب من سلطان تَلْعها[5]، كما أنَّ ماء السّيل يجري صافياً، فيرفع ما يجد في الوادي باقياً. وأمَّا حليةُ الذهب والفضة فمَثَل الأحوال السَّنِيَّة والأخلاق الزَّكية؛ التي بها جمال الرجال، وقِوامُ صالح الأعمال، كما أنَّ من الذَّهب والفضَّة زينةَ النّساء، وبهما قيمةُ الأشياء.

وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص:

(١) النكت والعيون ٣/١٠٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٠٨ : وهذا قول لا يصح ـ والله أعلم ـ عن ابن عباس؛ لأنه ينحو إلى أقوال أصحاب الرموز، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب لغير علة تدعو لذلك.

(٢) لعله عبد الكريم بن عبد الصمد، أبو معشر الطبري المقرئ، شيخ أهل مكة، صنف كتاب سوق العروس في القراءات المشهورة والغريبة، وكتاب الدرر في التفسير وغيرهما، توفي سنة (٤٧٨هـ). معرفة القراء الكبار ٢/ ٨٢٧ . وثمة كتاب آخر بهذا الاسم لابن الجوزي ذكره ونقل عنه الألوسي في روح المعاني ٨/ ٦٣ .

(٣) في (ظ): الشرك.

(٤) في (د) و(ز) و(م): حيث، والمثبت من (ظ).

(٥) في (د) و(ز): تلفها، وفي (ظ): ما فيها، والمثبت من (م). والتَّلْع جمع تَلْعَة، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض يحفر فيها كهيئة الخندق، أو هي أرض غليظة مرتفعة يتردَّد فيها السيل ثم يدفع منها إلى أخرى أسفل منها. معجم متن اللغة (تلع).

﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياء[١]. واختارها أبو عبيد؛ لقوله: «يَنْفَعُ النَّاس» فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا. الباقون بالتاء؛ لقوله في أول الكلام: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية[٢].

وقوله: «في النَّار» متعلِّقٌ بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاءُ التي في «عليه»، التقدير: ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً. وفي قوله: «في النار» ضميرٌ مرفوعٌ يعود إلى الهاء التي هي اسمُ ذي الحال، ولا يستقيم أن يتعلَّق: «في النار» بـ «يوقدون» من حيث لا يستقيم: أوقدتُ عليه في النار؛ لأن الموقَد عليه يكون في النَّار، فيصير قوله: «في النار» غيرَ مفيد[٣].

وقوله: «ابتغاءَ حِلْيَةٍ» مفعول له. «زَبَدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر، أي: زبدٌ مثل زَبَد السيل. وقيل: إنَّ خبر «زَبَد» قولُه: «في النارِ». الكسائيُّ: «زَبَدٌ» ابتداء، و«مِثْلُهُ» نعتٌ له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو: «مما يُوقِدُون»[٤].

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: كما بيَّن لكم هذه الأمثالَ فكذلك يضربُها بيِّنات. تم الكلام. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أجابوا، استجاب بمعنى أجاب؛ قال:

فلَمْ يَستجِبْهُ عند ذاكَ مُجِيبُ

وقد تقدم[٥].

---

(١) السبعة ص٣٥٨، والتيسير ص١٣٣ عن حمزة والكسائي وحفص. وذكرها عن ابن محيصن ويحيى ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٠٨.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/٢٢، وتفسير الرازي ١٩/٣٦.

(٣) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٣٠٧ عن مكّي وغيره، وقال: وذهب أبو علي الفارسي إلى تعلُّقها بـ «يوقدون» وقال: قد يوقَد على شيء وليس في النار، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فذلك البناء الذي أمر به يوقد عليه وليس في النار، لكن يصيبه لهبها. اهـ وقول أبي علي في الحجة له ٥/١٦ - ١٧.

(٤) مشكل إعراب القرآن ١/٣٩٨.

(٥) ١/٣٢١، وقائله كعب بن سعد الغَنَوي، وصدره: وداعٍ دعا يا مَن يجيب إلى النَّدى.

أي: أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوَّات. ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ لأنها في نهاية الحُسْن. وقيل: مِن الحسنى: النصرُ في الدنيا، والنعيمُ المقيم غداً.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لم يُجيبوا إلى الإيمان به ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: من الأموال ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ مِلْكٌ لهم ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من عذابِ يومِ القيامة، نظيره في «آل عمران»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه هناك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرْقَد السَّبَخِيُّ: قال لي إبراهيم النَّخعيُّ: يا فَرْقَد! أتدري ما سوءُ الحساب؟ قلت: لا! قال: هو أن يحاسَب الرجل بذنبه كلِّه، لا يفقد منه شيء[1]. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مسكنُهم ومقامهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: الفِراش الذي مَهَدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، ورُوِيَ أنَّها نزلت في حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وأبي جهل لعنه الله[2]. والمرادُ بالعَمَى: عَمَى القلب، والجاهلُ بالدين أعمى القلب ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب، أي:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٥٠٦ و ٥٠٩ ، وفيه: لا يغفر، بدل: لا يفقد. وفرقد السبخي هو ابن يعقوب، أبو يعقوب البصري، توفي سنة (١٣١هـ). التهذيب ٣/ ٣٨٤ .

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

إنما يتذكر أولو الألباب الموفُون بعهد الله. والعهدُ اسمٌ للجنس، أي: بجميع عهود الله، وهي أوامرُه ونَواهيهِ التي وصَّى بها عَبيدَه، ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جميعِ الفروض، وتجنُّبُ جميع المعاصي(١).

وقوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ يَحتمِلُ أن يريد به جنسَ المواثيق، أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقُضوه؛ قال قَتَادة: تقدَّم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضعٍ وعشرين آية(٢). ويحتمل أن يشير إلى ميثاقٍ بعينه، وهو الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صُلْبِ أبيهم آدم(٣). وقال القَفَّال: هو ما ركَّب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوَّات.

الثانية: روى أبو داود وغيره(٤) عن عوف بن مالك قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ سبعةً أو ثمانيةً أو تسعةً، فقال: «ألا تُبايعون رسولَ الله ﷺ؟» وكنَّا حديثَ عهد ببيعةٍ، فقلنا: قد بايعناك [حتى قالها ثلاثاً؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنَّا قد بايعناك] فعلى ماذا نُبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتُصلُّوا الصلواتِ الخمسَ، وتسمعوا وتُطيعوا ـ وأَسَرَّ كلمةً خفيةً ـ قال: ولا تسألوا الناس شيئاً». قال: فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَوْطُه، فما يسأل أحداً أن يناولَه إيَّاه.

قال ابن العربي(٥): مِن أعظم المواثيق في الذكر ألَّا يُسأل سواه؛ فقد كان أبو حمزةَ الخراسانيُّ من كبار العبَّاد(٦)، سمع أنَّ ناساً بايعوا رسولَ الله ﷺ ألَّا يسألوا

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩، وأخرجه مطولاً الطبري ١٣/ ٥٠٧ - ٥٠٨.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩ بنحوه.
(٤) سنن أبي داود (١٦٤٢)، وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو عند مسلم (١٠٤٣).
(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٦) قال ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٦/ ١٥٤، ١٥٦: من مشايخ الصوفية المعروفين، ينسب إلى دمشق، ويحتمل أن يكون سكنها وإلا فهو من أهل خراسان المعروفين، وصحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد. وقيل: إن صاحب القصة (التي ستأتي) أبو حمزة البغدادي، وقيل: الدمشقي. اهـ والقصة بنحوها في الحلية ١٠/ ١٧٧ - ١٧٨، وتاريخ بغداد ١/ ٣٩١ - ٣٩٢، وتلبيس إبليس ص٢٩٣.

أحداً شيئاً، الحديث. فقال أبو حمزة: ربِّ إنَّ هؤلاء عاهَدوا نبيَّك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألّا أسأل أحداً شيئاً. قال: فخرج حاجًّا من الشام يريد مكةَ، فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي[1] عن أصحابه لعذرٍ، ثم اتَّبعهم، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق، فلما حلَّ في قعره قال: أستغيث؛ لعل أحداً يسمعني [فيخرجني]. ثم قال: إن الذي عاهدتُه يراني ويسمعني، والله لا تكلمتُ بحرف للبشر. ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرَّ بذلك البئرِ نفر، فلما رأوْه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سدُّ هذا البئر، ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطَّوْها بالتراب، فلما رأى ذلك أبو حمزةَ قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله لا أخرج منها أبداً، ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس قد عاهدتَ مَن يراك[2]؟ فسكَتَ وتوكَّل، ثم استند في قعر البئر مفكِّراً في أمره، فإذا بالتراب يقع عليه والخشبِ يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك مَن يقول: هات يدك! قال: فأعطيتُه يدي فأقلَّني في مرةٍ واحدة إلى فم البئر، فخرجت فلم أرَ أحداً[3]؛ فسمعت هاتفاً يقول: كيف رأيت ثمرةَ التوكُّل؟ وأنشد:

نَهاني حَيائي منكَ أن أكشفَ الهوى ... وأغنيتَني[4] بالعِلْم منكَ عن الكَشْفِ

تَلَطَّفْتَ في أمري فأبديتَ شاهدي ... إلى غائبي واللُّطفُ يُدرَكُ باللُّطْفِ

تَراءيتَ لي بالعلم حتى كأنَّما ... تُخَبِّرُني بالغيب أنَّكَ في كفٍّ[5]

أراني[6] وبي من هَيْبتي لَكَ وَحْشَةٌ ... فتؤنِسُني باللُّطف مِنكَ وبالعطفِ

---

(١) في (ظ): انقطع.

(٢) في أحكام القرآن: أليس الذي عاهدت يرى ذلك كله.

(٣) كذا في أحكام القرآن، وفي باقي المصادر أن الذي أخرجه هو سَبُع، وسيأتي ذكر ذلك.

(٤) في (د) و(ز) و(م) وتلبيس إبليس: فأغنيتني، والمثبت من (ظ) وباقي المصادر.

(٥) في تاريخ بغداد: بالكف، وفي تاريخ ابن عساكر وتلبيس إبليس: في الكف، وفي الحلية: في كفي.

(٦) في المصادر عدا أحكام القرآن: أراك.

وتُحيِي مُحبًّا أنت في الحبِّ حَتْفُهُ وذا عَجبٌ كيف[١] الحياةُ مع الْحَتْفِ

قال ابن العربي [٢]: هذا رجلٌ عاهد الله؛ فوجد الوفاءَ على التمام والكمال، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا.

قال أبو الفرج الجوزيُّ[٣]: سكوتُ هذا الرجل في هذا المقام على التوكُّل بزعمه إعانةٌ على نفسه، وذلك لا يَحِلُّ، ولو فَهِمَ معنى التوكُّلِ لعَلِمَ أنه لا يُنافي استغاثتَه في تلك الحالة، كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكُّل بإخفائه الخروجَ من مكة، واستئجاره دليلاً، واستكتامه ذلك الأمرَ، واسْتِتَاره في الغار، وقوله لسُرَاقَةَ: «أخْفِ عَنَّا»[٤]. فالتوكُّلُ الممدوحُ لا يُنال بفعل محظورٍ؛ وسكوتُ هذا الواقعِ في البئر محظورٌ عليه، وبيانُ ذلك أنَّ الله تعالى قد خلق للآدميِّ آلةً يدفع عنه بها الضررَ، وآلةً يجتلب بها النفع، فإذا عطَّلهما[٥] مدَّعياً للتوكُّل كان ذلك جهلاً بالتوكُّل، وردًّا لحكمةِ الواضع[٦]؛ لأنَّ التوكُّلَ إنما هو اعتمادُ القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطعُ الأسباب؛ ولو أنَّ إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثَّوري[٧] وغيره، لأنه قد دلَّ على طريق السلامة، فإذا تقاعَدَ عنها أعان على نفسه.

وقال أبو الفرج[٨]: ولا الْتِفاتَ إلى قول أبي حمزةَ: فجاء أسدٌ فأخرجني! فإنه إنْ صحَّ ذلك فقد يقع مثلُه اتفاقاً، وقد يكونُ لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا يُنكَر

---

(١) في المصادر عدا أحكام القرآن: كون.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١٠٠ .

(٣) في صفة الصفوة ١/ ٢٦ – ٢٨ ، وبنحوه في تلبيس إبليس ص٢٩٤ – ٢٩٥ .

(٤) أخرجه أحمد (١٧٥٩١)، والبخاري (٣٦٠٩) مطولاً من حديث سراقة ﷺ.

(٥) في (د) و(ز) و(م): عطلها.

(٦) في النسخ: التواضع، والمثبت من صفة الصفوة.

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٦٦ .

(٨) في صفة الصفوة ١/ ٢٨ .

أن يكون الله تعالى لَطَفَ به، إنَّما يُنكَر فعلُه الذي هو كَسْبُه، وهو إعانتُه على نفسه التي هي وديعةٌ لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهِرُه[1] في صِلَة الأرحام؛ وهو قولُ قَتادة وأكثرِ المفسِّرين[2]، وهو مع ذلك يتناول جميعَ الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: في قطع الرَّحم. وقيل: في جميع المعاصي ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ سوءُ الحساب: الاستقصاءُ فيه والمناقشةُ، ومَن نُوقِشَ الحساب عُذِّب.

وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَير: معنى «يَصِلُون ما أَمَرَ اللهُ به»: الإيمانُ بجميع الكتب والرسلِ كلِّهم.

الحسن: هو صلةُ محمدٍ ﷺ.

ويحتمل رابعاً: أنْ يَصِلُوا الإيمانَ بالعمل الصالح ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فيما أمرهم بوَصْلِه ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ في تركه[3].

والقولُ الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الَّذِينَ» مستأنَفٌ؛ لأنَّ «صَبَرُوا» ماضٍ فلا ينعطف على «يُوفُونَ». وقيل: هو مِن وَصْفِ مَن تقدَّم، ويجوز الوصفُ تارةً

(١) في (د) و(ز) و(م): ظاهر.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ١٤، وخبر قتادة ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٠٨، وذكره عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣.

بلفظِ الماضي، وتارةً بلفظ المستقبل؛ لأنَّ المعنى: مَن يفعلُ كذا فله كذا، ولمَّا كان «الذين» يتضمَّن الشرط، والماضي في الشرط كالمستقبل، جاز ذلك؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾، ثم عطف عليه فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله[١]. وقال عطاء: صبروا على الرَّزَايا والمصائب، والحوادثِ والنوائب[٢]. وقال أبو عِمْران الجَوْنيُّ: صبروا على دينهم ابتغاءَ وجه الله.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾: أدَّوْها بفُروضها وخُشوعها في مَواقيتها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاةَ المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة»[٣] وغيرها.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالعمل الصالحِ السَّيِّئَ من الأعمال؛ قاله ابن عباس[٤]. ابنُ زيد: يدفعون الشرَّ بالخير. سعيد بنُ جُبير: يدفعون المنكَر بالمعروف. الضَّحَّاك: يدفعون الفُحْشَ بالسلام. جُوَيبِر: يدفعون الظلم بالعفو. ابنُ شجرة: يدفعون الذنبَ بالتوبة[٥]. القُتَبيُّ[٦]: يدفعون سَفَه الجاهل بالحِلْم، فالسَّفَهُ السَّيئةُ، والحِلْمُ الحسنة. وقيل: إذا همُّوا بسيئةٍ رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشِّرْكَ بشهادة أنْ لا إله إلا الله[٧].

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٣/ ٥١٠ .

(٢) ذكره البغوي ٣/ ١٦ .

(٣) ١/ ٢٧٣ ، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٢/ ٥٠٩ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤ ، والبغوي ٣/ ١٦ .

(٥) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت العيون ٣/ ١٠٩ ، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٣/ ٥١٠ .

(٦) في تفسير غريب القرآن ص٢٢٧ .

(٧) ذكر القول الأخير ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩ .

فهذه تسعة أقوال، معناها كلُّها متقارِبٌ، والأولُ يتناولُها بالعموم، ونظيرُه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «وأَتْبِعِ السيِّئةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها، وخَالِقِ الناسَ بخُلُق حَسَن»[١].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبةُ الآخرة، وهي الجنة بدلَ النار، والدارُ غداً داران: الجنةُ للمطيع، والنارُ للعاصي؛ فلمَّا ذَكَر وصفَ المطيعين فدارُهم الجنةُ لا مَحالةَ. وقيل: عنَى بالدار دارَ الدنيا، أي: لهم جزاءُ ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: لهم جناتُ عدن، فـ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» بدلٌ من «عُقْبَى»[٢]، ويجوز أن يكون تفسيراً لـ «عُقْبَى الدَّارِ» أي: لهم دخولُ جناتِ عدن؛ لأنَّ «عُقْبَى الدَّارِ» حَدَثُ، و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» عين، والحدثُ إنما يفسَّر بحدَثٍ مثلِه؛ فالمصدرُ المحذوفُ مضافٌ إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خبر ابتداءٍ محذوف[٣].

و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» وسطُ الجنة وقَصَبتها، وسقفُها عرشُ الرحمن[٤]؛ قاله القُشَيريُّ أبو نصرٍ عبدُ الرحيم[٥]. وفي «صحيح» البخاريِّ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوسَ، فإنه أَوْسَطُ الجنة وأَعْلى الجنة، وفوقه عرشُ الرحمن، ومنه تَفَجَّر أنهارُ الجنة»[٦] فيحتمل أن تكون «جنات عدن» كذلك إنْ صحَّ بذلك[٧] خبر. وقال عبد الله بن عمرو:

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨)، والترمذي (١٩٨٧) من حديث معاذ ﷺ. وأخرجه أحمد (٢١٣٥٤) والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٦ .

(٣) ينظر الإملاء للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣ ، والدر المصون ٧/ ٤٤ ، وقال السمين: ويجوز أن يكون «جنات عدن» مبتدأ خبره: «يدخلونها».

(٤) ينظر ما سلف ١٠/ ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٥) في (د) و(ز): عبد الكريم، وفي (م): عبد الملك.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٤١٩)، والبخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (د) و(ف) و(م): فذلك.

إنَّ في الجنة قصراً يقال له: عَدْن، حوله البُرُوج والمروج؛ فيه خمسةُ آلافِ باب[١]، على كلِّ بابٍ خمسةُ آلافِ خَيْرَة[٢]، لا يدخله إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيد.

و«عدن» مأخوذٌ من عَدَن بالمكان: إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانُه في سورة الكهف إن شاء الله تعالى[٣].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على «أُولَٰئِكَ»، المعنى: أولئك ومَن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرِّياتهم لهم عقبى الدار[٤]. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في «يَدْخُلُونَهَا»، وحَسُنَ العطفُ لمَّا حالَ الضميرُ المنصوبُ بينهما[٥]. ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها مَن صلح من آبائهم، أي: مَن كان صالحاً، لا يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضعُ «مَنْ» نصباً على تقدير: يدخلونها مع مَن صلح من آبائهم[٦]، أي: فإن[٧] لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامةً لهم.

وقال ابن عباس: هذا الصلاحُ الإيمانُ بالله والرسول، ولو كان لهم مع الإيمان طاعاتٌ أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التَّبَعيَّة. قال القُشَيريُّ: وفي هذا نظر؛ لأنه لابدَّ من الإيمان، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان. فالأظهرُ أنَّ هذا الصلاحَ في جملة الأعمال، والمعنى: أنَّ النعمة غَداً تَتمُّ عليهم بأنْ

---

(١) في (د) و(ز) و(م): فيه ألف باب، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في مصنف ابن أبي شيبة ٥/٣٠٧ ، وتفسير الطبري ١١/٥٦٣ و ١٣/٥١٢ .

(٢) أي: ذات خير، والجمع: خيرات، ويعني النساء. وسيرد الخبر في تفسير الآية (٥٠) من سورة ص.

(٣) عند تفسير الآية (٣١) منها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/٣٥٧ .

(٥) البيان لابن الأنباري ٢/٥١ ، والإملاء للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/٣٨٣ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/١٤٧ ، ومشكل إعراب القرآن ١/٣٩٨ ، والبيان ٢/٥١ ، والإملاء ٣/٣٨٣ .

(٧) في (د) و(ز) و(م): وإن، بدل: أي فإن.

جعلهم مجتمعين مع قَرَاباتهم في الجنة، وإن دخلها كلٌّ إنسان بعمل نفسه، بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي: بالتُّحَف والهدايا من عند الله تكرمةً لهم. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي: يقولون: سلام عليكم، فأضمر القول، أي: قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاءٌ لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي: سلَّمكم الله، فهو خبرٌ معناه الدعاء، ويتضمَّن الاعتراف بالعبودية.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: بصبركم، فـ «ما» مع الفعل بمعنى المصدر، والباءُ في «بما» متعلقةٌ بمعنى «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»، ويجوز أن تتعلق بمحذوف، أي: هذه الكرامةُ بصبركم، أي: على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جُبَير. وقيل: على الفقر في الدنيا؛ قاله أبو عِمران الجَوْنيّ. وقيل: على الجهاد في سبيل الله[1]؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون مَن يدخل الجنة من خَلْقِ الله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «المجاهدون الذين تُسدُّ بهم الثغور، وتُتَّقى بهم المكارِهُ، فيموت أحدهم وحاجتُه في نفسه لا يستطيع لها قضاءً، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كلِّ باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[2].

وقال محمد بن إبراهيم: كان النبيُّ ﷺ يأتي قبورَ الشهداء على رأس كلِّ حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان[3]؛

---

(١) في النكت والعيون ٣/١٠٩ .

(٢) أخرجه مطولاً أحمد (٦٥٧٠)، وعبد بن حميد في المنتخب (٣٥٢)، والبزار (٣٦٦٥ - كشف)، وابن حبان (٧٤٢١)، وأبو نعيم في الحلية ١/٣٤٧ . وقد وقع في جميع المصادر: الفقراء المهاجرون، بدل: المجاهدون.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٦٧١٦)، والطبري ١٣/٥١٣ . ومحمد بن إبراهيم: هو التيمي المدني الحافظ من علماء المدينة مع سالم ونافع، وكان جده الحارث بن خالد بن صخر القرشي من أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين، توفي سنة (١١٩هـ). السير ٥/٢٩٤ .

وذكره البَيْهَقيُّ[١] عن أبي هُريرة قال: كان النبيُّ ﷺ يأتي الشهداء، فإذا أَتَى فُرْضَةَ الشِّعْب يقول: «السلامُ عليكم بما صبرتُم فنعمَ عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبيِّ ﷺ يفعلُه، وكان عمرُ بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمانُ بعد عمرَ يفعله.

وقال الحسن البصريُّ رحمه الله: بما صبرتم عن فُضول الدنيا. وقيل: بما صبرتم على ملازمة الطاعة، ومُفارقة المعصية؛ قال معناه الفُضَيْل بن عِيَاض. ابن زيد: بما صبرتم عمَّا تحبُّونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعاً: بما صبرتم عن اتباع الشهوات[٢].

وعن عبد الله بن سَلَام وعلي بن الحسين ﷺ أنهما قالا[٣]: إذا كان يومُ القيامة ينادي منادٍ: ليقُمْ أهلُ الصبر، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. فيقولون: مَن أنتم؟ فيقولون: نحن أهلُ الصبر، قالوا: وما كان صبرُكم؟ قالوا: صبَّرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبَّرناها عن معاصي الله، وصبَّرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سَلَام: فتقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾[٤].

﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: نعم عاقبةُ الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أعْقَبَكم هذا الذي أنتم فيه، فالعقبى على هذا اسم، و«الدار» هي الدنيا. وقال أبو عِمران الجَوْني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»: الجنة عن النار[٥]. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»: الجنة عن الدنيا[٦].

---

(١) في دلائل النبوة ٣/٣٠٦ .

(٢) النكت والعيون ٣/١٠٩ .

(٣) في النسخ: أنه قال، والمثبت هو الجادة.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/١٣٩ - ١٤٠ عن علي بن الحسين مطولاً، ولم نقف عليه عن عبد الله بن سلام.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥١٤ .

(٦) النكت والعيون ٣/١٠٩ .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لمَّا ذَكر المُوفين بعهده، والواصِلِين[1] لأمره، وذَكَر ما لهم، ذكر عكسَهم. فنقضُ[2] الميثاقِ: تركُ أمرِه. وقيل: إهمالُ عقولِهم؛ فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ أي: من الأرحام، والإيمانِ بجميع الأنبياء ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بالكفر وارتكاب المعاصي ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: الطَّردُ والإبعادُ من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: سوء المُنقلَب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقَّاص: واللهِ الذي لا إله إلا هو، إنهم الحَرُورية[3].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ لمَّا ذكر عاقبة المؤمن وعاقبةَ المشرك، بيَّن أنه ـ تعالى ـ الذي يبسط الرزق ويَقْدِرُ في الدنيا؛ لأنها دار امتحان، فبَسْطُ الرزق على الكافرين لا يدلُّ على كرامتهم، والتَّقتير على بعض المؤمنين لا يدلُّ على إهانتهم.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيِّق، ومنه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] أي: ضيِّق. وقيل: «يقدر»: يعطي بقَدْرِ الكفاية.

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني مشركي مكة[4]؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجَهِلوا ما عند الله. وهو معطوفٌ على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

وفي الآية تقديمٌ وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه،

---

(١) في (د) و(ز) و(م): والمواصلين، والمثبت من (ظ).

(٢) في (د) و(ز): بنقض، وفي (م): نقض، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه مطولاً البخاري (٤٧٢٨)، والطبري ١٣/ ٣١٤ دون ذكر القسم.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، وفرحوا بالحياة الدنيا.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: في جَنْبِها ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي: متاعٌ من الأمتعة، كالقَصْعة والسُّكُرُّجَة[1]. وقال مجاهد: شيءٌ قليلٌ ذاهِب[2]. مِن مَتَعَ النهارُ: إذا ارتفع، فلابدَّ له من زوال[3]. ابن عباس: زَادٌ كزاد الراعي[4]. وقيل: متاع الحياة الدنيا: ما يُستمتع بها منها. وقيل: ما يُتزوَّد منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح[5]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ثم ابتدأ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّع ويضيِّق؟.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بيَّن في مواضعَ أنَّ اقتراح الآيات على الرسل جَهْلٌ، بعد أن رأَوْا آيةً واحدةً تدلُّ على الصدق، والقائلُ عبد الله بن أبي أمية[6] وأصحابُه حين طالبوا النبيَّ ﷺ بالآيات. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي: كما أضلَّكم بعد ما أنزل من الآيات وحَرَمَكم الاستدلال بها يُضلُّكم عند نزول غيرها. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: مَن رَجَع. والهاء في «إليه» للحقِّ، أو

(١) إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية. اللسان (سكرج).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٤١٦ - ٤١٧، وهو في تفسير مجاهد ١/٣٢٨.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ٢/٢٩٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٤١٧.

(٥) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٠.

(٦) أخو أمِّ سلمة زوجِ النبي ﷺ، وابنُ عمته عاتكة، كان شديداً على المسلمين، وهو الذي قال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] ثم أسلم وشهد الفتح وحنيناً والطائف. الإصابة ٦/١١. وينظر سيرة ابن هشام ١/٣٠٩.

للإسلام، أو لله عزَّ وجلَّ؛ على تقدير: ويهدي إلى دِينه وطاعته مَن رَجَع إليه بقلبه. وقيل: هي للنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «الذين» في موضع نصب؛ لأنه مفعول؛ أي: يهدي الله الذين آمنوا. وقيل: بدلٌ من قوله: «مَنْ أَنَابَ» فهو في محلِّ نصبٍ أيضاً[١].

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تسكُن وتستأنس بتوحيد الله، فـ«تطمئنُّ» حال[٢]، أي: وهم تطمئنُّ قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قَتَادة[٣]. وقال مجاهد وغيره[٤]: بالقرآن. وقال سفيان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعده. ابن عباس: بالحلف باسمه[٥]، أو تطمئنُّ بذكر فضله وإنعامه، كما تَوْجَل بذكر عَدْلِه وانتقامه وقضائه. وقيل: «بذكرِ الله» أي: يذكرون الله ويتأمَّلون آياته، فيعرفون كمالَ قدرته عن[٦] بصيرة.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خَصْمُه بالله سَكَن قلبه[٧].

وقيل: «بذِكر الله» أي: بطاعة الله. وقيل: بثواب الله. وقيل: بوعد الله[٨]. وقال مجاهد: هم أصحابُ النبيِّ ﷺ[٩].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٧. ويجوز الرفع على الابتداء. ينظر الدر المصون ٧/ ٤٦.

(٢) في (د) و(ز) و(م): قال، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٥١٨، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٠.

(٤) في (د) و(ز): وقال مجاهد وقتادة وغيره، وفي (م): وقال مجاهد وقتادة وغيرهما، والمثبت من (ظ)، وقول مجاهد ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٠.

(٥) ذكره البغوي ٣/ ١٧.

(٦) في (ظ): على.

(٧) ذكره البغوي ٣/ ١٧، وقد سلف قريباً.

(٨) النكت والعيون ٣/ ١١٠.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٥١٩، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٨.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ابتداء وخبر. وقيل: معناه: لهم طُوبَى، فـ «طُوبَى» رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جَعَل لهم طُوبى، ويُعطف عليه «وَحُسْنُ مَآبٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب[1].

وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبي كَثير، عن عمرو بن زيد[2] البِكَالِي، عن عُتْبة بنِ عبْدٍ السُّلَميِّ قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فسأله عن الجنة وذكر الحوض، فقال: فيها فاكهةٌ؟ قال: «نعم، شجرةٌ تدعى طوبى». قال: يا رسول الله! أيَّ شجرِ أرضِنا تُشبه؟ قال: «لا تُشبه شيئاً من شجر أرضك، أأتيتَ الشام؟ هناك شجرةٌ تدعى الجوزة تَنْبُتُ على ساقٍ ويفترش أعلاها». قال: يا رسول الله! فما عِظَمُ أصلها! قال: لو ارْتَحَلْتَ جَذَعةً من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتُها هَرَماً» وذكر الحديث[3]، وقد ذكرناه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»[4]، والحمد لله.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر، عن الأشعث بن[5] عبد الله، عن شَهْر بن

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٧ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٥١ . وقرأ: «وحسنَ مآب» بالنصب ابن محيصن. القراءات الشاذة ص٦٧ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عمرو بن يزيد، وفي (م): عمرو بن أبي يزيد، والمثبت هو الصواب، ويقال له: عامر، كما سيرد.

(٣) لم نقف عليه عند عبد الرزاق، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٧١٦)، والطبراني في الكبير ١٧/ ٣١٣ ، وابن عبد البر في التمهيد ٣/ ٣٢٠ - ٣٢١ من طريق عبد الرزاق به. وأخرجه أحمد (١٧٦٤٢) من طريق معمر به، إلا أنه قال: عامر بن زيد، وكذلك ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٦/ ٣٢٠ ، وابن حبان في الثقات ٥/ ١٩١ .

(٤) ص٤٥١ - ٤٥٢ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): عن، والمثبت من (ظ) والمصادر على ما يأتي.

حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرةٌ يقال لها: طوبى، يقول الله تعالى: تفتَّقي لعبدي عمَّا شاء، فتتَفَتَّق له عن فرسٍ بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتَفَتَّقُ عن الراحلة برَحْلِها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النَّجائب والثياب[١].

وذكر ابنُ وهبٍ من حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي أُمامة الباهليِّ قال: «طُوبَى» شجرةٌ في الجنة ليس منها دارٌ إلا وفيها غصنٌ منها، ولا طيرٌ حَسَنٌ إلا هو فيها، ولا ثمرةٌ إلا هي فيها[٢].

وقد قيل: إنَّ أَصْلَها في قصر النبيِّ ﷺ في الجنة، ثم تنقسم فروعها على [جميع] منازل أهل الجنة، كما انتشر منه العلمُ والإيمانُ على جميع أهل الدنيا[٣].

وقال ابن عباس: «طُوبَى لَهُمْ»: فرحٌ[٤] وقرةُ عينٍ. وعنه أيضاً: أن «طوبى» اسمُ الجنة بالحبشية. وقاله سعيد بن جُبَير[٥].

الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند[٦]؛ قال القُشَيريُّ: إن صح هذا فهو وفاقٌ بين اللغتين.

وقال قَتَادة: «طُوبَى لَهُمْ»: حُسْنَى لهم[٧]. عِكْرمة: نُعمى لهم[٨]. إبراهيم

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦٥ - زوائد نعيم)، ومن طريق ابن المبارك أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٤ ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٣٦ عن معمر به.

(٢) لم نقف عليه، وأخرج نحوه ابن المبارك في الزهد (٢٦٨ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٦ ، والطبري ١٣/ ٥٢٥ عن مغيث بن سُمَيّ.

(٣) التعريف والإعلام للسهيلي ص٨٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) بعدها في (د) و(ز) و(م): لهم، والمثبت من (ظ)، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٢١ .

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٢ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره البغوي ٣/ ١٨ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٢ من قول سعيد بن مسجوح.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢١ .

(٨) زاد المسير ٤/ ٣٢٨ ، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٥٢٠ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣ ، والنكت والعيون ٣/ ١١١ بلفظ: نِعْمَ ما لهم.

النَّخَعيُّ: خير لهم. وعنه أيضاً: كرامة من الله لهم. الضَّحاك: غِبْطَة لهم[١].

النحاس[٢]: وهذه الأقوالُ متقاربةٌ؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب، أي: العيشُ الطَّيِّبُ لهم، وهذه الأشياء ترجعُ إلى الشيء الطَّيِّب.

وقال الزجَّاج: طُوبَى فُعْلى من الطِّيب[٣]. وهي الحالةُ المُسْتَطابةُ لهم، والأصل: طُيْبَى، فصارت الياء واواً لسكونها وضمِّ ما قَبْلَها، كما قالوا: موسِرٌ وموقِن.

قلت: والصحيحُ أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلي[٤]. ذكره أبو عمر في «التمهيد»[٥]، ومنه نقلناه، وذكره أيضاً الثعلبيُّ في تفسيره.

وذكر أيضاً المَهْدَويُّ والقُشَيريُّ عن معاوية بن قُرَّة، عن أبيه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «طوبى شجرةٌ في الجنة غَرَسَها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، تُنبت الحُلِيَّ والحُلَل، وإنَّ أغصانها لتُرى من وراء سور الجنة»[٦] ومَن أراد زيادةً على هذه الأخبار فلْيُطالع الثعلبيّ.

وقال ابن عباس: «طُوبَى» شجرة في الجنة أصلُها في دار عليٍّ، وفي دار كلِّ مؤمنٍ منها غُصْن[٧].

---

(١) زاد المسير ٤/٣٢٨، وأخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٥٢٠ - ٥٢٢.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٤٩٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/١٤٨، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن الجوزي في زاد المسير ٤/٣٢٨، وما سيأتي بعده ذكرَه ابن الجوزي عن ابن الأنباري. وذكر قول الزجاج وابن الأنباري أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/ ١٦.

(٤) في التعريف والإعلام ص٨٤.

(٥) ٣/ ٣٢٠.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٨.

(٧) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٧٣ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وعزاه للثعلبي.

وقال أبو جعفر محمد بنُ علي: سئل النبيُّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ قال: «شجرةٌ أصلُها في داري، وفروعُها في الجنة». ثم سئل عنها مرةً أخرى فقال: «شجرةٌ أصلُها في دار عليٍّ، وفروعُها في الجنة»، فقيل له: يا رسول الله، سُئلتَ عنها فقلت: «أصلها في داري وفروعُها في الجنة» ثم سئلت عنها فقلت: «أصلُها في دار عليٍّ وفروعُها في الجنة» فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ داري ودارَ عليٍّ غداً في الجنة واحدةٌ في مكان واحد»[1].

وعنه ﷺ: «هي شجرةٌ أصلُها في داري، وما مِن دارٍ من دوركم إلا تَدَلَّى فيها غُصنٌ منها»[2] ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي: مرجع[3]؛ آبَ: إذا رجع. وقيل: تقدير الكلام: الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكرِ الله وعملوا الصالحات طوبى لهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك؛ قاله الحسن[4]. وقيل: شبَّه الإنعام على مَن أُرسل إليه محمدٌ عليه الصلاة والسلام بالإنعام على مَن أرسل إليه الأنبياءُ قبله. ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾. قال مقاتل وابن جُريج: نزلت في صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا أن يكتبوا كتابَ الصُّلح، فقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ: «اكتُبْ: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون: ما نَعْرفُ الرحمن إلَّا صاحبَ اليمامة ـ يعنون مُسَيْلِمة الكذاب ـ اكتب: باسمك اللهم. وهكذا

---

(١) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٧٣ وهو ضعيف لإرساله.

(٢) ينظر مجمع البيان ١٣/ ١٧٢ .

(٣) قوله: أي مرجع، من (ظ).

(٤) ذكره الرازي ١٩/ ٥١ .

كان أهلُ الجاهلية يكتبون، فقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ: «اكتب: هذا ما صالَحَ عليه محمدٌ رسول الله» فقال مشركو قريش: لئن كنتَ رسول الله ثم قاتلناك وصَدَدْناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بنُ عبد الله، فقال أصحاب النبيِّ ﷺ: دعنا نقاتلهم، فقال: «لا، ولكن اكتب ما يريدون» فنزلت[1].

وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبيُّ ﷺ: «اسْجُدُوا للرَّحمن» قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ فنزلت: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2] ولا معبودَ سواه، هو واحدٌ بذاته وإن اختلفت أسماء صفاته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت ووثقت ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: مرجعي غداً، واليوم أيضاً عليه توكلتُ ووثقت، رِضاً بقضائه، وتسليماً لأمره.

وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الحِجْر ويقول: «يا الله، يا رحمن» فقال: كان محمدٌ ينهانا عن عبادة الآلهة، وهو يدعو إلهين! فنزلت هذه الآية، ونزل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[3] [الإسراء: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه عن قتادة ومجاهد الطبري ١٣/ ٥٣٠ - ٥٣١، وذكره عنهما البغوي ٣/ ١٩، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٧٧ عن أهل التفسير. وحديث صلح الحديبية ليس فيه ذكر لنزول هذه الآية، وقد أخرجه مطولاً أحمد (١٨٩١٠) و(١٨٩٢٨)، والبخاري (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم. وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٣١٨٧)، وحديث أنس عند أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٢٧٧، وتفسير البغوي ٣/ ١٩.

(٣) ذكره البغوي ٣/ ١٩، وابن الجوزي ٤/ ٣٢٩.

﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. وذلك أنَّ نَفَراً من مشركي مكةَ فيهم أبو جهل وعبدُ الله بن أبي أمية المخزوميَّان جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله: إنْ سرَّك أن نتَّبعك فسَيِّر لنا جبالَ مكة بالقرآن، فأَذْهبها عنَّا حتى تنفسح؛ فإنها أرضٌ ضيِّقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع، فلستَ ـ كما زعمتَ ـ بأهونَ على ربِّك من داودَ حيث سخَّر له الجبال تُسبِّح معه[1]، وسَخِّر لنا الريح فنركَبَها إلى الشام نقضي عليها مِيرتَنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخِّرت له الريح كما زعمتَ، فلستَ بأهونَ على ربِّك من سليمانَ بنِ داود، وأَحْيِ[2] لنا قُصيًّا جدَّك ـ أو مَن شئتَ أنت من مَوْتانا ـ نسأله: أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإنَّ عيسى كان يُحيي الموتى، ولست بإهونَ على الله منه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية؛ قال معناه الزبير بنُ العوام[3]. ومجاهد وقَتَادة والضَّحاك[4].

والجواب محذوفٌ تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازاً، لمَا في ظاهر الكلام من الدلالة عليه[5]، كما قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَموتُ جَميعةً ... ولكنَّها نفسٌ تَساقَطُ أنفُسَا[6]

يعني: لَهَانَ عليَّ، وهذا معنى قولِ قَتَادةَ؛ قال: لو فَعَل هذا قرآنٌ قبل قرآنكم لفعله قرآنكم[7].

---

(١) في (د) و(ز) و(م): حين سخر له الجبال تسير معه، والمثبت من (ظ)، وتفسير البغوي ٣/ ١٩ ، والكلام منه.

(٢) في تفسير البغوي: أو سخر لنا الريح فنركبها... أو أحي.

(٣) أخرجه عن الزبير أبو يعلى (٦٧٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٨ .

(٤) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٥٣٢ و ٥٣٤ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٨ ، وعن قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق ١/ ٣٣٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٢ .

(٦) ديوان امرئ القيس ص١٠٧ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٤ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٠ ، وابن الجوزي ٤/ ٣٣٠ ، ولفظه عندهم: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم.

وقيل: الجوابُ متقدِّم، وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وهم يكفرون بالرحمن ولو[١] أنزلنا هذا[٢] القرآنَ وفعلنا بهم ما اقترحوا.

الفراء: يجوز أن يكون الجوابُ: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن[٣].

الزّجاج[٤]: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لمَا آمنوا، والجوابُ المضمَر هنا ما أُظهر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: هو المالِكُ لجميع الأمور، الفاعلُ لمَا يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قال الفرَّاء: قال الكلبيُّ: «ييئس» بمعنى يعلم، لغة النَّخَع[٥]. وحكاه القُشَيْريُّ عن ابن عباس، أي: أفلم يعلموا، وقاله الجوهريُّ في «الصحاح»[٦].

وقيل: هي لغةُ هَوَازِن[٧]، أي: أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهدٍ والحسن[٨].

وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبيَّنوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْري:

---

(١) في النسخ: لو، والمثبت هو الصواب. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٣١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣١٣، وزاد المسير ٤/ ٣٣١.

(٢) قوله: هذا، من (ظ).

(٣) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٣.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٤، وقد ذكره من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٨ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) مادة (يئس).

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٦.

(٨) النكت والعيون ٣/ ١١٣، وسلف تخريجه عن ابن عباس.

أقولُ لهم بالشِّعْب إذْ يَيْسِرُونَني ... ألم تَيْأَسُوا أنّي ابنُ فارِسِ زَهْدَمِ[١]

يَيْسرونني من المَيْسر[٢]، وقد تقدَّم في «البقرة»، ويروى: يأسرونني من الأَسْر[٣].

وقال رَبَاح بن عديٍّ:

ألم يَيْئَسِ الأقوامُ أنّي أنا[٤] ابنُهُ ... وإنْ كنتُ عن أرضِ العشيرةِ نائياً[٥]

في كتاب «الردّ»: أني أنا ابنه، وكذا ذكره الغزنوي[٦]، أي: ألم يعلم.

والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات.

وقيل: هو من اليأس المعروف، أي: أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار؛ لعلمهم أنَّ الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم[٧]؟ لأن المؤمنين تَمنَّوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار.

وقرأ عليٌّ وابن عباس: «أفلم يَتَبَيَّن الذين آمنوا»[٨] من البيان. قال القُشَيْريُّ: وقيل لابن عباس: المكتوبُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْتَسِ﴾ قال: أظنُّ الكاتبَ كتبها وهو ناعِس[٩]،

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٣٢ برواية: يأسرونني (وسيذكرها المصنف)، وقد نسبه لسُحيم بن وَثيل، وكذلك نسبه لسحيم الطبري ١٣/ ٥٣٥، وابن منظور في اللسان (يئس)، وقال ابن منظور: وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم. اهـ.ولم نقف على مَن نسبه لمالك بن عوف.

(٢) قال ابن منظور في اللسان يئس: كان وقع عليه سباء، فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قِسْمة فدائه، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٥.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٥، واللسان (يئس). وقد سلف البيت ٣/ ٤٣٦ برواية: ييسرونني.

(٤) قوله: أنا، من (ظ) والمصادر.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٣، وذكره أبو الليث ٢/ ١٩٤ من أجوبة ابن عباس على سؤالات نافع بن الأزرق منسوباً لمالك بن عوف، وهو بلا نسبة في تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٦، وأساس البلاغة (يئس).

(٦) من قوله: في كتاب الرد، إلى هذا الموضع ليس في (ظ).

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٩٩ ونسب القول للكسائي، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٦٣ - ٦٤.

(٨) القراءات الشاذة ص٦٧، والمحتسب ١/ ٣٥٧.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٧ من طريق عكرمة عن ابن عباس.

أي: زاد بعضَ الحروف حتى صار ﴿يَاْيْـَٔسِ﴾.

قال أبو بكر الأنباريُّ: روى عِكرمة عن ابن عباس[١] أنه قرأ: «أفلم يتبيَّن الذين آمنوا» وبها احتجَّ مَن زعم أنه الصوابُ في التلاوة، وهو باطلٌ عن ابن عباس؛ لأنَّ مجاهداً وسعيد بن جُبَير حَكَيا الحرفَ عن ابن عباس على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايتِه عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس. ثم إن معناه: أفلم يتبيَّن، فإن كان مرادُ الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماعَ فقراءتُنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها. وإن أراد الله المعنى الآخَرَ - الذي اليأسُ فيه ليس من طريق العلم - فقد سَقَط ممَّا أوردوا، وأمَّا سقوطُه يُبْطِل القرآن، ويلزم[٢] أصحابه البهتان.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ «أنْ» مخفَّفة من الثقيلة، أي: أنه لو يشاء الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ وهو يردُّ على القَدَرية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي: داهيةٌ تَفْجَؤُهم بكُفْرهم وعتوِّهم؛ ويقال: قرعه أمرٌ: إذا أصابه، والجمعُ: قَوارِع؛ والأصل في القَرْع: الضَّرب؛ قال:

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ قَرْعُ الْقَوَاقِيزِ أَفْوَاهَ الأَبَارِيقِ[٣]

أي: لا يزال الكافرون تصيبهم داهيةٌ مُهْلِكةٌ؛ من صاعقة كما أصاب أَرْبَد[٤]،

---

(١) وقع في (د) و(ز) و(م): ابن أبي نجيح، بدل: ابن عباس، والمثبت من (ظ)، وينظر التعليق السابق.

(٢) في (د) و(ز) و(م): ولزوم.

(٣) البيت للأُقَيْشر الأسدي كما في الأغاني ١١/٢٧٦ ، واللسان (قفز)، وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص٣٧٢ ، والمقتضب ١/٢١ ، والإنصاف ١/٢٣٣ . قوله: تلادي، التلاد: المال الذي له أصل عند صاحبه مما جمع أبوه وغيره له، والنَّشَب: المال، والقواقيز: آنية من آنية الشراب. يقول: أفنى مالي كثرة شربي وإنفاقي فيه. ويجوز في أفواه الأباريق الرفع على أنه فاعل للمصدر «قَرْع» والقواقيز مفعولة، والنصب على أنه مفعول والقواقيز فاعلة. ينظر شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٥٤١ .

(٤) سلفت قصته ص٣٦-٣٧ من هذا الجزء.

أو من قتلٍ أو أسرٍ أو جَدْبٍ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء، كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين.

وقال عِكرِمة عن ابن عباس: القارعة: النكبة[١].

وقال ابن عباس أيضاً وعكْرمة: القارعة: الطلائعُ والسرايا التي كان يُنفِذُها رسول الله ﷺ لهم[٢].

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي: القارعة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قاله الحسن[٣]. وقال ابن عباس: أو تَحُلُّ أنت قريباً من دارهم[٤].

وقيل: نزلت الآية بالمدينة؛ أي: لا تزال تصيبهم القوارعُ، فتنزل بساحتهم، أو بالقرب منهم، كقُرى المدينة ومكة، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ في فتح مكة؛ قاله مجاهد وقتادة[٥].

وقيل: نزلت بمكة، أي: تصيبهم القوارع، أو تخرج[٦] عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحلُّ قريباً من دارهم، أو تحلُّ بهم محاصراً لهم؛ وهذه المحاصرةُ لأهل الطائف، ولقِلاع خَيْبَر، أو يأتي[٧] وعدُ الله بالإذن لك في قتالهم وقَهْرِهم. وقال الحسن: وعدُ الله: يوم القيامة[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٩٩ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١١٣ عن عكرمة، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٣/ ٥٤١ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): قاله قتادة والحسن، والمثبت من (ظ)، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٣ من طريق قتادة عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٠ ، وأخرجه أيضاً عن عكرمة ومجاهد وابن أبي نجيح وسعيد بن جبير وقتادة.

(٥) أخرج عنهما الطبري ١٣/ ٥٤٠ - ٥٤٣ .

(٦) في (م): وتخرج.

(٧) في (د) و(ز) و(م): ويأتي.

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٤ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدَّم معنى الاستهزاءِ في «البقرة»، ومعنى الإملاء في «آل عمران»[1]. أي: سُخِر بهم، وأُزْرِيَ عليهم، فأمهلتُ الكافرين مدة ليؤمنَ مَن كان في عِلْمي أنه يؤمن منهم، فلمَّا حقَّ القضاء أخذتُهم بالعقوبة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف رأيتَ ما صنعتُ بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيامُ القيامَ الذي هو ضدُّ القعود، بل هو بمعنى: التولِّي لأمور الخَلْق، كما يقال: قام فلانٌ بشُغْل كذا. فالله[2] قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت، أي: يُقْدِرُها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها، فالمعنى: أنه حافظٌ لا يغفل، والجوابُ محذوف، والمعنى: أفمن هو حافظٌ لا يغفل؛ كمن يغفل؟

وقيل: «أفَمَن هو قائمٌ» أي: عالم؛ قاله الأعمش[3]. قال الشاعر:

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أعِزَّةٌ ... سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ[4]

---

(١) في البقرة ١/ ٣١٤ ، وفي آل عمران ٥/ ٤٣٢ .

(٢) في (م): فإنه.

(٣) في (ظ): الأخفش، وذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٤ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١١٤ دون نسبة، وهو في الشعر والشعراء ٢/ ٦٤٦ ، وأمالي اليزيدي ص٩٦ عن خداش بن زهير برواية: والبيت قائم. وفي الشعر والشعراء: من علي، بدل: من قريش؛ قال ابن قتيبة: يقال لبني كنانة بنو علي.

أي: عالم؛ فالله عالمٌ بكسب كلِّ نفس.

وقيل: المراد بذلك الملائكةُ الموكَّلون ببني آدم؛ عن الضحاك[١].

﴿وَجَعَلُواْ﴾ حال، أي: وقد[٢] جعلوا، أو عطفٌ على «اسْتُهْزِئَ» أي: استهزؤوا وجعلوا، أي: سَمَّوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «سَمُّوهُمْ» أي: بيِّنوا أسماءهم؛ على جهة التهديد[٣]، أي: إنما يسمَّوْن: اللّات والعُزَّى ومَنَاة وهُبَل.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «أم» استفهامُ توبيخ، أي: أتنبِّئونه، وهو على التحقيق عطفٌ على استفهامٍ متقدِّم في المعنى؛ لأن قوله: «سَمُّوهُمْ» معناه: أَلَهُمْ أسماءُ الخالقين ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟.

وقيل: المعنى قل لهم: أتنبِّئون الله بباطنٍ لا يعلمه، أَمْ بِظَاهِرٍ[٤] يعلمه؟ فإن قالوا: بباطنٍ لا يعلمه؛ أحالوا[٥]، وإن قالوا: بظاهر يعلمه؛ فقل لهم: سمُّوهم، فإذا سمَّوْهم اللَّاتَ والعُزَّى، فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً.

وقيل: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: أفمن هو قائم، أم تُنبِّئون الله بما لا يعلم، أي: أنتم تَدَّعون لله شريكاً، والله لا يعلم لنفسه شريكاً، أفتنبِّئونه بشريكٍ له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خَصَّ الأرضَ بنفيِ الشريك عنها وإن لم يكن له شريكٌ في غير الأرض؛ لأنهم ادَّعوا له شركاءَ في الأرض.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١١٤ .

(٢) في (د) و(ز): قد، وفي (م): أو قد، والمثبت من (ظ).

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١١٤ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٥٦ ، قال الرازي: فكأنه تعالى قال: سمُّوهم بالآلهة، على سبيل التهديد، والمعنى: سواء سمَّيتموهم بهذا الاسم أو لم تسمُّوهم به فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها.

(٤) بعدها في (م): من القول.

(٥) أحال: أتى بالمحال وتكلم به. معجم متن اللغة (حول).

ومعنى: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: أم بظَنٍّ من القول؛ عن مجاهد[١]. وقيل: أم بظاهرٍ من القول[٢] الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قَتَادة: معناه: أم[٣] بباطل من القول؛ ومنه قولُ الشاعر:

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَها ولُحُومَهَا وذلِك عارٌ يا ابن رَيْطَةَ ظاهِرُ[٤]

أي: باطل. وقال الضَّحَّاك: بكَذِب من القول. ويحتمل خامساً: أن يكون الظاهرُ من القول حجَّةً يُظهرونها بقولهم، ويكون معنى الكلام: أتُخبِرونه بذلك مُشاهِدين، أم تقولون محتجِّين[٥].

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي: دع هذا! بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهم؛ قيل: استدراكٌ على هذا الوجه، أي: ليس لله شريك، لكنْ زُيِّن للذين كفروا مكرُهم.

وقرأ ابن عباس ومجاهد: «بل زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَروا مَكرُهُم»[٦] مُسَمَّى الفاعل. وعلى قراءة الجماعة، فالذي زَيَّن للكافرين مكرَهم اللهُ تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يُسمَّى الكفر مكراً؛ لأنَّ مكرهم بالرسول كان كفراً.

﴿وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: صدَّهم الله، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائي[٧]. الباقون بالفتح، أي: صَدُّوا غيرَهم، واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥]، وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٩ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٩ .

(٢) من قوله: أي أم بظن، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) قوله: أم، من (ظ)، والخبر أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٩ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٤ .

(٤) قائله سَبْرةُ بن عمرو الفَقْعَسي، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٣٨ ، والخزانة ٩/ ٥٠٤ وهو في النكت والعيون ٣/ ١١٤ بلا نسبة. ويخاطب الشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلي وقد عيَّره كثرة إبله، كما ذكر المرزوقي.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٥ .

(٦) القراءات الشاذة ص٦٧ .

(٧) وقرأ بها أيضاً من السبعة عاصم. السبعة ص٣٥٩ ، والتيسير ص١٣٣ .

[الفتح:٢٥]. وقراءةُ الضم أيضاً حسنةٌ في «زُيِّن» و«صُدُّوا»؛ لأنه معلومٌ أنَّ الله فاعلُ ذلك في مذهبِ أهل السنَّة، ففيه إثباتُ القَدَر، وهو اختيار أبي عبيد.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وعلقمة: «وصِدُّوا» بكسر الصاد[١]، وكذلك: «هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا» [يوسف:٦٥]، بكسر الراء وهي[٢] أيضاً على ما لم يُسمَّ فاعلُه، وأصلُهما: صُدِدُوا ورُدِدَتْ، فلمَّا أُدغمت الدال الأولى في الثانية نُقِلت حركتها إلى[٣] ما قَبْلَها فانكسر[٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: موفِّق، وفي هذا إثباتُ قراءةِ الكوفيين ومَن تابَعَهم؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، فكذلك قوله: ﴿وَصُدُّواْ﴾.

ومعظَمُ القُرَّاء يقفون على الدَّال من غير الياء، وكذلك ﴿وَالٍ﴾ [الآية:١١] و﴿وَاقٍ﴾ [الآية:٣٤-٣٧][٥]؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين.

وقُرِئ: «فَمَا لَهُ مِنْ هَادي» و«وَالي» و«وَاقي» بالياء؛ وهو على لغة مَن يقول: هذا داعي ووالي وواقي، بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوَصْل لالتقائها مع التنوين، وقد أَمِنَّا هذا في الوقف، فرُدَّت الياء، فصار: هادي ووالي وواقي[٦]. وقال الخليل[٧] في نِداء قاضٍ: يا قاضي، بإثبات الياء؛ إذ لا تنوينَ مع النداء، كما لا تنوينَ في نحوِ: الدَّاعي والمُتعالي.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٨ كلاهما عن يحيى بن وثاب وحده.
(٢) قوله: وهي، من (ز) و(ظ) و(ف)، والقراءة في المحتسب ١/ ٣٤٥ .
(٣) في (د) و(ز) و(ف) و(م): على.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٨ .
(٥) وهي قراءة السبعة ما عدا ابن كثير، فقد قرأ بها بالتنوين في الوصل، فإذا وقف وقف بالياء. السبعة ص٣٦٠ ، والتيسير ص١٣٣ .
(٦) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢١ . وقال مكي: والحذف والإثبات لغتان للعرب، والحذف أكثر.
(٧) قوله في الكتاب ٤/ ١٨٤ .

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: للمشركين الصَّادِّين، بالقتل والسَّبي والإسار[١]، وغيرِ ذلك من الأسقام والمصائب ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي: أشدُّ؛ من قولك: شَقَّ عليَّ كَذا يَشُقُّ. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مانعٍ يمنعهم من عذابه ولا دافع. و«مِن» زائدة.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ اختلف النحاة في رفع «مَثَلُ»، فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر محذوف، والتقدير: وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنة[٢].

وقال الخليل: ارتفع بالابتداء، وخبره: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: صفةُ الجنة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار[٣]، كقولك: قَوْلي يقوم زيد، فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره، والمَثَل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الصفةُ العليا. وأنكره أبو عليٍّ وقال: لم يُسمع مَثَل بمعنى الصِّفة، إنما معناه الشَّبَه، ألا تَراه يَجري مَجراه في مواضعه ومتصرَّفاته، كقولهم: مررت برجل مثلِك؛ كما تقول: مررت برجل شِبْهِك. قال: ويَفْسُد أيضاً من جهة المعنى؛ لأن مَثَلاً إذا كان معناه صفةً، كان تقدير الكلام: صفةُ الجنة التي فيها أنهار، وذلك غيرُ مستقيم؛ لأنَّ الأنهار في الجنة نفسِها لا صفتِها.

وقال الزجَّاج[٤]: مَثَّلَ الله عزَّ وجلَّ لنا ما غاب عنَّا بما نراه، والمعنى: مَثَلُ

---

(١) في (ظ): والأسر.

(٢) الكتاب ١/ ١٤٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٩ ، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٩٨ ، وعنه نقل المصنف. واختاره أبو علي الفارسي كما في مجمع البيان ١٣/ ١٨٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠١ ، وذكر الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٤٩ هذا القول دون نسبة إثر قول سيبويه، ثم قال: وكِلَا القولين حسن جميل.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٥٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠١ ، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

الجنة [التي وُعد المتقون] جَنَّةٌ تجري من تحتها الأنهار. وأنكره أبو عليٍّ فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفةَ أو الشَّبَه، وفي كلا الوجهين لا يصِحُّ ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصحَّ؛ لأنك إذا قلتَ: صفةُ الجنَّة جنَّةٌ، فجعلتَ «جنةٌ»[1] خبراً لم يَستقِم ذلك؛ لأنَّ الجنة لا تكون الصفة[2]، وكذلك أيضاً: شَبَهُ الجنة جنة، ألا ترى أنَّ الشَّبه عبارةٌ عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حَدَث، والجنّة غيرُ حَدَث، فلا يكون الأول الثاني[3].

وقال الفرَّاء: المَثَل مُقْحَم للتأكيد، والمعنى: الجنَّة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمَثَل والمِثْل[4]، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي: ليس كهو شيء[5].

وقيل: التقدير: صفةُ الجنة التي وُعِد المتقون صفةُ جنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.

وقيل: معناه: شَبَهُ الجنة التي وُعد المتقون في الحُسْن والنعمة والخلود كشَبَه النار في العذاب والشدَّة والخلود؛ قاله مقاتل.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع، وفي الخبر: «إذا أُخذت ثمرةٌ عادت مكانَها أخرى»، وقد بيَّنَّاه في «التذكرة»[6]. ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي: وظلُّها كذلك، فحذف، أي: ثمرُها لا ينقطع وظلُّها لا يزول، وهذا ردٌّ على الجَهْمِيَّة في زعمهم أنَّ نعيم الجنة يزول

---

(١) في (م): الجنة.

(٢) في (ظ): صفة.

(٣) ينظر البحر المحيط ٥/٣٩٦ ، والدر المصون ٧/ ٥٩ .

(٤) قوله: والمثل، من (د) و(ز) و(ف)، وهو موافق لما في البحر ٥/ ٣٩٦ ، والكلام فيه.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ليس هو كشيء، والمثبت من (ظ) و(ف) والبحر. وذكر الكلام بنحوه عن الفراءِ مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ . قال أبو حيان: وإقحام الأسماء لا يجوز.

(٦) ص٤٥٢ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٩٧ ، والطبري ١/ ٤٠٦ - ٤٠٧ ، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣١٥) من طريق أبي عبيدة عن مسروق. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٨٩) و(١٤٩٠)، وهناد في الزهد (١٠٣)، والطبري ١/ ٤٠٩ عن أبي عبيدة، وهو عامر بن عبد الله بن مسعود ﷺ.

ويفنى(١). ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ أي: عاقبةُ أَمْرِ المكذِّبين وآخرتُهم النارُ يَدخلونها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ﴾ أي: بعضُ مَنْ أُوتيَ الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلَام وسَلْمان، والذين جاؤوا من الحبشة، فاللفظُ عامٌّ والمرادُ الخصوص. وقال قَتَادة: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ يفرحون بنور القرآن. وقاله مجاهد وابن زيد(٢). وعن مجاهد أيضاً: أنهم مؤمنو أهلِ الكتاب(٣). وقيل: هم جماعةُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كُتُبَهم(٤).

وقال أكثر العلماء: كان ذِكْرُ الرحمن في القرآن قليلاً في أوَّل ما أُنزِل، فلمَّا أسلم عبد الله بنُ سَلَام وأصحابُه؛ ساءهم قِلَّة ذِكْر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فسألوا النبيَّ ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فقالت قريش: ما بالُ محمدٍ يدعو إلى إلهٍ واحد، فأصبح اليوم يدعو إلى(٥) إلهين؛ الله والرحمن؟! واللهِ ما نعرف الرحمن إلَّا رحمانَ اليمامة ـ يعنُون مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب ـ فنزلت: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١١٦ عن قتادة وابن زيد، وأخرج قول قتادة الطبري ١٣/ ٥٥٦ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١١٦ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٦ عن ابن عيسى. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣١٦ : ويضعَّفُ هذا التأويلُ بأنَّ همَّهم به أكثر من فرحهم، ويضعَّف أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه، وقد فرق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه، وبين الذين آتيناهم الكتاب.

(٥) قوله: إلى، من (ظ).

كَـٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1].

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني مشركي مكةَ، ومَن لم يؤمن من اليهود والنصارى؛ قال قتادة والحسن ومجاهد: الأحزاب: اليهود والنصارى[2] والمجوس. وقيل: هم العرب المُتحزِّبون على النبيِّ ﷺ. وقيل: ومِن أعداء المسلمين مَن ينكر بعضَ ما في القرآن؛ لأنَّ فيهم مَن كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم مَن كان يعترف بأن الله خالقُ السماوات والأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفاً على «أَعْبُدَ». وقرأ أبو خليد[3] بالرفع على الاستئناف، أي: أُفْرِدُه بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرَّأُ عن المشركين ومَن قال: المسيحُ ابنُ الله وعزيرٌ ابن الله، ومَن اعتقد التشبيه كاليهود. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ أي: إلى عبادته أدعو الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: أرجع في أموري كلِّها.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعضُ الأحزاب، كذلك أنزلناه حكماً عربياً، وإنما وَصَفَه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ،

---

(١) الوسيط ٣/ ١٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٩ و ٢٢ ، وينظر ما سلف ٩/ ٣١٨ .

(٢) قوله: قال قتادة والحسن ومجاهد الأحزاب اليهود والنصارى، من (ظ)، وذكر قولهم الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) في (د) و(م): أبو خالد، وفي (ظ): أبو جليد، والمثبت من (ز) و(ف) والكشاف ٢/ ٣٦٢ وفيه ذكر القراءة. وأبو خليد هو عتبة بن حماد الحكمي الدمشقي، روى القراءة عن نافع وله عنه نسخة. طبقات القراء ١/ ٤٩٨ . وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٧ ، وتحرف فيه: خليد، إلى خليل.

وهو عربيٌّ، فكذَّب الأحزابُ بهذا الحكم أيضاً. وقيل: نَظْمُ الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرُّسُل بلغاتهم، كذلك أنزلنا إليك القرآن حُكْماً عربياً[1]، أي: بلسان العرب. ويريد بالحكم: ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربيِّ القرآنَ كلَّه؛ لأنه يفصِل بين الحق والباطل ويَحْكُم.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: أهواءَ المشركين في عبادة ما دونَ الله، وفي التوجُّه[2] إلى غير الكعبة ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: ناصر ينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يمنعك من عذابه، والخطاب للنبيِّ ﷺ، والمرادُ الأُمَّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قيل: إن اليهود عابوا على النبيِّ ﷺ الأزواج، وعَيَّرتْه[3] بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل هِمَّةً إلا النِّساءَ والنكاح، ولو كان نبيًّا لشغله أمر النبوَّة عن النِّساء، فأنزل الله هذه الآية[4]، وذكَّرهم أمرَ داودَ وسليمانَ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: جعلناهم بشراً يقضُون ما أحلَّ الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيصُ في الوحي.

الثانية: هذه الآية تدلُّ على الترغيب في النكاح والحضِّ عليه، وتَنْهَى عن التَّبَتُّل، وهو تركُ النكاح، وهذه سنَّة المرسلين كما نصَّت عليه هذه الآية، والسنَّةُ واردةٌ بمعناها؛ قال ﷺ: «تزوَّجوا، فإنِّي مُكاثِرٌ[5] بكم الأمم» الحديث. وقد تقدَّم في «آل

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢ .

(٢) في (م): التوجيه.

(٣) في (ظ): وعيروه.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٢٧٩ عن الكلبي.

(٥) في (ظ): مباه.

عمران»[١]، وقال: «مَن تزوَّجَ فقد استكمل نِصْفَ الدِّين، فلْيتَّقِ الله في النِّصْفِ الثاني»[٢]. ومعنى ذلك أنَّ النكاح يُعِفُّ عن الزنى، والعَفافُ أحدُ[٣] الخَصْلَتين اللتين ضَمِن رسول الله ﷺ عليهما الجنةَ، فقال: «مَن وَقَاه الله شرَّ اثنتين وَلَجَ الجنَّة، ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه» خرَّجه «الموطَّأ» وغيره[٤].

وفي «صحيح» البخاري[٥] عن أنس قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النبيِّ ﷺ، فلمَّا أُخبروا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا: وأين نحن من النبيِّ ﷺ؟! قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر. فقال أحدهم: أمَّا أنا، فإنِّي أُصلِّي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا[٦] أصومُ الدهر، فلا أُفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج، فجاء رسول الله ﷺ[٧] فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أَمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأُفطر، وأُصلِّي وأَرْقُد، وأتزوَّج النساء، فمن رَغِب عن سنَّتي فليس منِّي». خرَّجه مسلم بمعناه[٨]، وهذا أَبْيَن.

وفي «صحيح» مسلم عن سعد بن أبي وقَّاص قال: أراد عثمان أن يتبتَّل، فنهاه

---

(١) ٥/ ١١٠ - ١١١ من حديث عائشة ومعقل بن يسار رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٤٣) و(٨٧٨٩)، والبيهقي في الشعب (٥٤٨٦)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٦٨ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠٠٥) عن أنس ﷺ. وأخرجه الحاكم ٢/ ١٦١ بلفظ: «مَن رَزَقَه الله امرأةً صالحةً فقد أعانه على شَطْر دينه، فليتَّق الله في الشطر الثاني». وينظر التلخيص الحبير ٣/ ١١٧ ، وفيض القدير ٦/ ١٣٧ .

(٣) في (ظ): إحدى.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٨٧ - ٩٨٨ عن عطاء بن يسار عن النبي ﷺ مرسلاً، وأخرجه أحمد (٢٣٠٦٥) عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ مطولاً. ويشهد له حديث سهل بن سعد ﷺ عند أحمد (٢٢٨٢٣)، والبخاري (٦٤٧٤)، ولفظه عند البخاري: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة».

(٥) برقم (٥٠٦٣). وسلف ٨/ ١١٦ .

(٦) في (ظ): أما أنا، وفي (ف) و(م): إني، والمثبت من (د) و(ز) وصحيح البخاري.

(٧) بعدها في (ف) و(م): إليهم.

(٨) صحيح مسلم (١٤٠١).

النبيُّ ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاخْتَصَيْنَا[(١)]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[(٢)] الحضُّ على طلب الولد، والردُّ على مَن جَهِل ذلك.

وقد رُويَ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ أنه كان يقول: إني لأتزوَّجُ المرأة وما لي فيها من حاجة، وأَطَؤُها وما أشتهيها، فقيل له: وما يَحمِلك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حبِّي أن يُخرِج الله منِّي مَن يُكاثِر به النبيُّ ﷺ النبيين يوم القيامة، وإنِّي سمعته يقول: «عليكم بالأبكار، فإنهنَّ أعْذبُ[(٣)] أفواهاً، وأحسنُ أخلاقاً، وأَنْتَقُ أرحاماً، وإنِّي مُكاثِرٌ بكم الأممَ يوم القيامة»[(٤)]. يعني بقوله: «أنتقُ أرحاماً» أَقْبَلُ للولد، ويقال للمرأة الكثيرة الولد: ناتِق؛ لأنها ترمي بالأولاد رمياً[(٥)].

وخرَّج أبو داود[(٦)] عن مَعْقِل بن يَسَار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي أصبتُ امرأةً ذاتَ حَسَبٍ وجمال، وإنَّها لا تَلِد، أفأتزوَّجُها؟ قال: «لا». ثم أتاه الثانيةَ، فنهاه، ثم أتاه الثالثةَ، فقال: «تزوَّجوا الودود الولود، فإنِّي مُكَاثِرٌ بكم الأمم». صحَّحه أبو محمد عبدُ الحقِّ[(٧)] وحَسْبُك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات مما[(٨)] تقدَّم ذكره في هذه السورة، فأنزل الله ذلك فيهم، وظاهرُ

---

(١) صحيح مسلم (١٤٠٢): (٨) وسلف ٥/ ١١٠ و ٨/ ١١٧ ، وعثمان المذكور: هو ابنُ مظعون.

(٢) ٥/ ١١٠ .

(٣) في (ظ): أطيب.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن أبي شيبة ٤/ ٢١٦ نحوه عن عمر موقوفاً وإسناده ضعيف لانقطاعه. وأخرجه مرفوعاً ابن ماجه (١٨٦١) من طريق عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة الأنصاري، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. وهو حديث ضعيف لاضطراب إسناده، وجهالة عبد الرحمن ابن سالم كما ذكر الحافظ في الإصابة ٦/ ٣٧٨ - ٣٧٩ ، وينظر مصباح الزجاجة ١/ ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٥) تهذيب اللغة ٩/ ٦١ .

(٦) في سننه (٢٠٥٠)، وسلف ٥/ ١١١ .

(٧) في الأحكام الصغرى ٢/ ٦٠٦ .

(٨) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ما.

الكلام حَظْرٌ ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحظَر على أحدٍ ما لا يقدِر عليه.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكلِّ أمرٍ قضاه الله كتابٌ عند الله؛ قاله الحسن(١). وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير، المعنى: لكلِّ كتابٍ أجلٌ؛ قاله الفراء والضّحاك(٢)، أي: لكلِّ أمر كتبه الله أجلٌ مؤقّت، ووقتٌ معلوم، نظيرُه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]. بيَّن أنَّ المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكلِّ أجلٍ كتاب(٣). وقيل: المعنى: لكلِّ مدة كتابٌ مكتوبٌ وأمرٌ مقدَّر لا تقف عليه الملائكة.

وذكر الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن شَهْر بنِ حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: لمَّا ارتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طُورَ سَيناء، رأى الجَبَّارُ في أصبعه خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيءٌ من حُلِيِّ الرجال، قال: فهل عليه شيءٌ من أسمائي مكتوبٌ أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: يمحو من ذلك الكتابِ ما يشاء أن يُوقِعَه بأهله ويأتي به، «وَيُثْبِتُ» ما يشاء، أي: يُؤَخِّره إلى وقته، يقال: محوتُ الكتاب مَحْواً، أي: أذهبت أثره. «وَيُثْبِتُ» أي: ويُثْبِته، كقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، أي: والذاكرات الله.

---

(١) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧ هذا القول عن الطبري، وذكر عن الحسن قوله: لكلِّ أجلٍ من آجال الخَلْق كتابٌ عند الله.

(٢) أخرجه عن الضحاك الطبري ١٣/ ٥٥٨ – ٥٥٩ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٥٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٦٥ .

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ٦٤ . وقال الرازي: فالآيات التي سألوها لها وقتٌ معيَّن حَكَم الله به، وكتبه في اللوح المحفوظ، فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكّماتهم الفاسدة.

(٤) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٨ له، وشهر بن حوشب قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بالتخفيف، وشَدَّد الباقون[١]، وهي قراءة ابن عباس[٢]، واختيارُ أبي حاتم وأبي عبيد[٣] لكثرة مَن قرأ بها، ولقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقال ابن عمر: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويُثْبت، إلَّا السعادةَ والشقاوةَ والموت»[٤].

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويُثْبِت إلا ستًّا[٥]: الخَلْقَ والخُلُق، والأجل والرزق، والسعادة والشقاوة[٦]. وعنه: هما كتابان؛ [كتابٌ] سوى أمِّ الكتاب يمحو الله منه[٧] ما يشاء ويُثْبِت، وعنده أُمُّ الْكتاب الذي لا يتغيَّر منه شيء.

قال القُشَيْريُّ: وقيل: السعادةُ والشَّقاوة، والخَلْق والخُلُق والرِّزق، لا تتغيَّر؛ فالآيةُ فيما عدا هذه الأشياء. وفي هذا القول نوعُ تحكُّم.

قلت: مثلُ هذا لا يُدرَك بالرأي والاجتهاد، وإنما يُؤخذ توقيفاً، فإن صحَّ فالقولُ به يجب، ويُوقف عنده، وإلَّا فتكون الآية عامَّةً في جميع الأشياء، وهو الأظهرُ، والله أعلم؛ وهذا يُروى معناه عن عمرَ بن الخطاب ﷺ وابنِ مسعود وأبي وائلٍ وكعب

---

(١) السبعة ص٣٥٩ ، والتيسير ص١٣٤ .

(٢) ذكرها عنه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠٢ .

(٣) ذكر اختيار أبي عبيد النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠٣ ، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٣ ، وقال النحاس: على أن أبا حاتم قد أومأ إلى أنَّ معناهما واحد.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٦٨) وفيه: «...إلا الشِّقوة والسعادة والحياة والموت» بزيادة: «الحياة». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٣ : فيه محمد بن جابر اليمامي، وهو ضعيف من غيرِ تعمُّدِ كذب.

(٥) في (م): إلا أشياء.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٨ ، وعبد الله بن أحمد في السنة (٧٣١)، والطبري ١٣/ ٥٥٩ بلفظ: ...إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت.

(٧) في النسخ: منهما، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ٢٣ ، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٢ ، والحاكم ٢/ ٣٤٩ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠ ، وابن الجوزي ٤/ ٣٣٩ .

الأحبار وغيرِهم، وهو قولُ الكلبيّ.

وعن أبي عثمان النَّهْديِّ: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب ﷺ كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنتَ كتبتني في أهل السعادة فأَثْبِتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنبِ، فامحُني وأَثْبِتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب[١].

وقال ابن مسعود: اللهمَّ إنْ كنتَ كتبتني في السعداء فأَثْبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء، فامحُني من الأشقياء واكتبني في السُّعَداء، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمُّ الكتاب[٢].

وكان أبو وائل يُكْثر أن يدعو: اللهمَّ إن كنت كتبتنا أشقياء فامْحُ واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأَثْبِتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب[٣].

وقال كعب لعمرَ بنِ الخطاب: لولا آيةٌ في كتاب الله، لأنبأتك بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾[٤].

وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهمَّ إن كان في بطنها جاريةٌ، فأَبْدِلْها غلاماً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمُّ الكتاب. وقد تقدَّم[٥].

وفي[٦] الصحيحين عن أبي هريرةَ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «مَن سَرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأَ له في أَثَرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه»[٧]. ومثلُه عن أنس بن مالك، أنَّ

---

(١) أخرجه الدولابي في الكنى ١/ ١٥٥، والطبري ١٣/ ٥٦٤.

(٢) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٣١ - ٣٣٢، ومقطَّعاً الطبري ١٣/ ٤٦٤ و ٤٦٥.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٣/ ٣٣٨، والطبري ١٣/ ٥٦٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٥، والنكارة فيه ظاهرة.

(٥) ص٢١ من هذا الجزء.

(٦) في (د) و(م): في.

(٧) صحيح البخاري (٥٩٨٥)، ولم نقف عليه عند مسلم، وسلف ١٠/ ٢٠٢.

رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ»، فذكره بلفظه سواء[١]، وفيه تأويلان:

أحدُهما: معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذِّكر الحسن، والأجْرِ المتكرِّر، فكأنه لم يمت.

والآخَر: يُؤخَّر أجلُه المكتوبُ في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابتٌ لا تبديل[٢] له، كما قال: ﴿يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾.

وقيل لابن عباس لَمَّا رَوَى الحديثَ الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن أحبَّ أن يَمُدَّ اللهُ في عمرِه وأَجَلِه، ويَبْسُط له في رِزْقه، فليتَّقِ اللهَ ولْيَصِلْ رَحِمَه»: كيف يُزاد في العمر والأجل؟ فقال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢]، فالأجلُ الأوَّلُ أجلُ العبد من حينِ ولادته إلى حين موته، والأجلُ الثاني - يعني المُسمَّى عنده - من حينِ وفاته إلى يومِ يلقاه في البَرْزخ، لا يعلمه إلا الله، فإذا اتقى العبد ربَّه ووَصَل رَحِمه، زاده الله في أَجَلِ عمره الأولِ من أَجَل البَرْزخ ما شاء، وإذا عصى وقَطَع رَحِمَه، نَقَصَه الله من أَجَل عمره في الدنيا[٣] ما شاء، فيزيدُه في أَجَل البَرْزَخ، فإذا تحتَّم الأَجَلُ في علمه السابق، امتنع الزيادةُ والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٤] [النحل: ٦١]. فتوافَقَ الخبر والآية. وهذه زيادةٌ في نَفْس العمر وذاتِ الأَجَل على ظاهر اللفظ، في اختيار حَبْر الأمة، والله أعلم.

وقال مجاهد: يُحْكِم الله أَمْرَ السَّنَة في رمضان، فيمحو ما يشاء ويُثْبت ما يشاء، إلَّا الحياةَ والموت، والشقاءَ والسعادة[٥]؛ وقد مضى القول فيه.

---

(١) صحيح البخاري (٥٩٨٦)، وصحيح مسلم (٢٥٥٧): (٢١)، وهو عند أحمد (١٣٥٨٥).

(٢) في النسخ عدا (ظ): لا تبدل، والمثبت من (ظ)، والمفهم ٦/ ٥٢٨، والكلام منه.

(٣) في (ظ): نقص الله من أجله في الدنيا.

(٤) أخرج المرفوع منه البزار (١٨٨٠ - كشف)، وفي أوله: «في التوراة مكتوب من أحب...». والطبراني في الكبير (١١٨٢٢)، ولم نقف على باقي الخبر، وذكر معناه ابن حجر في الفتح ٤/ ٣٠٢ عن الحكيم الترمذي وقال: أغرب الحكيم الترمذي فقال: المراد بذلك قلة البقاء في البرزخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦١ - ٥٦٢ بنحوه، وفيه: يقضى في ليلة القدر...

وقال الضَّحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويُثْبِت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس[١].

وقال الكلبيُّ: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبيِّ ﷺ[٢]. ثم سُئِل الكلبيُّ عن هذه الآية فقال: يكتب القول كلَّه، حتى إذا كان يومُ الخميس، طَرَح منه كلَّ شيء ليس فيه ثوابٌ ولا عقاب[٣]، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويُثْبت ما فيه الثواب والعقاب[٤].

وقال قَتَادة وابن زيد وسعيد بن جبير: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض[٥]، فيَنْسخُه ويُبدِّله، ويُثْبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملةُ الناسخ والمنسوخ عنده في أمِّ الكتاب. ونحوه ذكره النحاس والمهدويُّ عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدَّثنا بَكْر بن سهل، قال: حدَّثنا أبو صالح، عن معاويةَ بنِ صالح، عن عليِّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يقول: يُبدِّل الله من القرآن ما يشاء فيَنْسخُه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء فلا يبدِّله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾ يقول: جملةُ ذلك عنده في أمِّ الكتاب؛ الناسخُ والمنسوخ[٦].

---

(١) النكت والعيون ٣/١١٨ ، وزاد المسير ٤/٣٣٨ .

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣/٥٠٢ . وأخرجه الطبري ١٣/٥٦٦ أيضاً عن أبي صالح قوله، وذكره عنه الحافظ في الفتح ١١/٣٠٩ بنحوه وقال: وهذا لو ثبت كان نصًّا في ذلك، ولكنه من رواية الكلبي، وهو ضعيف جدًّا.

(٣) أخرجه ابن سعد ٣/٥٧٤ ، والطبري ١٣/٥٦٥ - ٥٦٦ ، وابن عدي ٦/٢١٣١ من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً، وهذا إسناد ضعيف جداً.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٥٦٦ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): من الفرائض والنوافل، والمثبت من (ظ) و(ف) وتفسير البغوي، والكلام منه، وأخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري ١٣/٥٦٧ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/٥٠٢ - ٥٠٣ ، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤)، والطبري ١٣/٥٦٦ عن أبي صالح به.

وقال سعيد بن جُبَير أيضاً: يغفر ما يشاء من[١] ذنوب عباده، ويترك ما يشاء، فلا يغفره.

وقال عكرمة: يمحو ما يشاء - يعني بالتوبة - جميعَ الذنوب، ويُثْبِت بَدَل الذنوب حسناتٍ [كما قال الله تعالى]: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية[٢].

وقال الحسن: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مَن جاء أَجَلُه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ مَن لم يأت أجله[٣]. وعنه أيضاً[٤]: يمحو الآباءَ، ويُثْبت الأبناء. وعنه أيضاً: يُنْسي الحَفَظَةَ من الذنوب ولا يُنْسي.

وقال السدِّي: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: القمر، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يعني: الشمس، بيانُه قولُه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالةَ النوم يقبضها؛ مَن أراد[٥] موته فجأةً أمسكه[٦]، ومَن أراد بقاءه أثبته وردَّه إلى صاحبه، بيانُه قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية [الزمر: ٤٢].

وقال علي بن أبي طالب: يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، ويُثْبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ

---

(١) قبلها في (م): يعني.

(٢) ذكر قول سعيد بن جبير وعكرمة البغوي ٣/ ٢٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٨.

(٤) في النسخ عدا (ظ): وقال الحسن، والمثبت من (ظ)؛ إلا أنها وقعت فيها بعد قول عكرمة ووقع قول الحسن فيها آخِراً، فيكون هذا القول وما بعده - على ما في نسخة (ظ) - منسوباً لعكرمة.

(٥) في النسخ عدا (ظ): يقبضها عند النوم ثم إذا أراد، والمثبت من (ظ). ووقع في تفسير البغوي ٣/ ٢٣: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد...

(٦) في تفسير البغوي: محاه فأمسكه، بدل: فجأة أمسكه.

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، فيمحو قَرْناً، ويُثْبت قَرْناً[١].

وقيل: هو الرجل يعمل الزمنَ الطويلَ بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموتُ على ضلاله، فهذا[٢] الذي يمحو. والذي يُثْبت: الرجلُ يعمل بمعصية الله الزمانَ الطويلَ ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويُثْبته في ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ عن ابن عباس[٣].

وقيل: يمحو الله ما يشاء ـ يعني الدنيا ـ ويُثْبت الآخرة.

وقال قيس بن عُبَاد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت ما يشاء؛ وقد تقدَّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان[٤].

وقال ابن عباس: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرةَ خمسِ مئة عام، من دُرَّة بيضَاء لها دَفَّتان من ياقوتة حمراءَ، [والدفَّتان لوحان]، للهِ فيه كلَّ يوم ثلاثُ مئة وسِتُّون نَظْرةً، يُثْبِتُ ما يشاء، ويمحو ما يشاء[٥].

وروى أبو الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله سبحانه يفتح الذِّكْر في ثلاث ساعات يَبْقَيْنَ من الليل، فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحدٌ غيره، فيمحو ما يشاء، ويُثْبت ما يشاء»[٦].

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): فهو، والمثبت من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٣/ ١١٨ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٤ - ٥٦٥ .

(٤) ص٩٠ من هذا الجزء، وخبر قيس بن عباد أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧١ من طريق رجل، عن أبيه، عن قيس به. وهذا إسناد ضعيف إلى قيس، ثم هو مقطوع عليه.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وفيه: لحظة، بدل: نظرة.

(٦) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص٣٢ ، والبزار (٣٥١٦ - كشف) والطبري ١٣/ ٥٧٠ ، والعقيلي في الضعفاء (٥٥٢)، والدارقطني في المؤتلف والمختلف ٣/ ١١٥١ - ١١٥٢ ، وابن الجوزي في العلل (٢١) وقال: هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد، قال البخاري: هو منكر الحديث. وقال ابن حبان: هو منكر الحديث جدًّا، يروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك.

والعقيدةُ أنه لا تبديلَ لقضاء الله، وهذا المحوُ والإثباتُ مما سبق به القضاء، وقد تقدَّم أنَّ من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو الممحوُّ، والله أعلم.

الغَزْنَويُّ: وعندي أنَّ ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة، فيَحتمِل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع عِلم الله مُحالٌ، وما في علمه من تقدير الأشياء لا يُبدَّل.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: أصلُ ما كتب من الآجال وغيرها.

وقيل: أمُّ الكتاب: اللوحُ المحفوظ الذي لا يُبدَّل ولا يُغيَّر[1]. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأُخَر.

وسُئِل ابن عباس عن أمِّ الكتاب فقال: [قال كعب:] عِلْمُ الله ما هو خالِقٌ، وما خَلْقُه عامِلون، فقال لعِلْمه: كن كتاباً [فكان كتاباً][2]، ولا تبديلَ في علم الله. وعنه: إنه الذِّكْر[3]، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وهذا يرجع معناه إلى الأوَّل؛ وهو معنى قول كعب. قال كعبُ الأحبار: أمُّ الكتاب: عِلمُ الله تعالى بما خَلَقَ وبما هو خالق[4].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ «ما» زائدة، والتقدير: وإنْ نُرينَّك بعضَ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٨، وما بين حاصرتين منه، وهو في تفسير الطبري بنحوه ١٣/ ٥٣٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٤) ذكره عن كعب بهذا اللفظ الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٨.

الذي نَعِدُهم، أي: من العذاب؛ لقوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: إن أريناك بعضَ ما وعدناهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ فليس عليك إلا البلاغُ، أي: التبليغ ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: الجزاءُ والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني أهل مكة، ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: نقصِدُها. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختُلِف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ موتُ علمائها وصُلَحائها[1]. قال القُشَيري: وعلى هذا فالأطرافُ الأشراف[2]، وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم. ولكنَّ هذا القول بعيدٌ؛ لأنَّ مقصود الآية: أنَّا أرَيْناهم النقصانَ في أمورهم، ليعلموا أنَّ تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز، إلَّا أن يُحمل قولُ ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى.

وقال مجاهد أيضاً وقتادة والحسن: هو ما يَغلِبعليه المسلمون ممَّا في أيدي المشركين. ورُوي ذلك عن ابن عباس[3]. وعنه أيضاً: هو خرابُ الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها[4]. وعن مجاهد: نُقصانها: خَرابُها وموتُ أهلها[5].

وذكر وكيع بن الجَرَّاح، عن طلحةَ بنِ عمرو[6]، عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهابُ فقهائها وخِيارِ أهلها[7].

---

(١) أخرجه عن ابن عباس الطبري ١٣/ ٥٧٩، والحاكم ٢/ ٣٥٠ من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس، وطلحة بن عمرو، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك. وسيأتي تخريجه عن مجاهد.

(٢) وذكر هذا المعنى الأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ٣٢٠.

(٣) أخرجه عن ابن عباس والحسن الطبري ١٣/ ٥٧٤ - ٥٧٥، وذكره عن قتادة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٩، ولفظ خبر ابن عباس عن الطبري: أَوَ لم يروا أنَّا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٥، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٦.

(٥) جامع بيان العلم (١٠٣٣)، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٦ - ٥٧٧، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٣٠.

(٦) في (ظ): عمر، وفي باقي النسخ: عمير، والمثبت هو الصواب.

(٧) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٠٣٠)، وقد سلف من طريق طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس.

قال أبو عمر بنُ عبد البَرّ[١]: قولُ عطاءٍ في تأويل الآية حسنٌ جدًّا، تلقَّاه أهل العلم بالقَبول.

قلت: وحكاه المهدويُّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نصُّ القول الأوَّل نفسِه[٢]؛ روى سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: الموت[٣]؛ موتُ الفقهاء والعلماء[٤]. ومعروفٌ في اللغة أنَّ الطَّرَف: الكريمُ من كلِّ شيء[٥]، وهذا خلافُ ما ارتضاه أبو نصرٍ عبدُ الرحيم بنُ عبد الكريم من قول ابن عباس.

وقال عكرمةُ والشَّعبيُّ: هو النقصان وقبضُ الأنفس؛ قال أحدهما: ولو كانت الأرض تَنْقُص لضاق عليك حَشُّك. وقال الآخر: لضاق عليك حَشٌّ تتبرَّزُ فيه[٦].

قيل: المراد به هلاكُ مَن هَلَكَ من الأمم قبل قريش، وهلاكُ أرضِهم بعدهم، والمعنى: أو لم تر قريشٌ هلاكَ مَن قَبْلَهم، وخرابَ أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يَحُلَّ بهم مثلُ ذلك. ورُويَ ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيج.

وعن ابن عباس أيضاً: أنه نقصُ بركات الأرض وثمارِها وأهلِها[٧].

وقيل: نَقْصُها بِجَوْر وُلَاتها[٨].

قلت: وهذا صحيحٌ معنًى، فإن الجَوْر والظُّلم يُخَرِّب البلاد بقتل أهلها

---

(١) في جامع بيان العلم إثر الخبر (١٠٣٤).

(٢) في (ظ): وهذا هو القول الأول بعينه.

(٣) قوله: الموت، من (ظ) وهو الموافق لما في المصادر على ما يأتي.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٥ ، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٩ ،وأخرجه من طريق آخر بنحوه الطبري ١٣/ ٥٧٩ .

(٥) ذكر النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٠ هذا المعنى عن عبد الله بن عبد العزيز.

(٦) جامع بيان العلم (١٠٣٢)، وأخرج قول الشعبيِّ الطبريُّ ١٣/ ٥٧٧ من طريق طلحة القَنَّاد عمن سمع الشعبي. وأخرج الطبري ١٣/ ٥٧٨ أيضاً قول عكرمة بنحوه. والحَش: الكنيف. معجم متن اللغة (حش).

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٧ .

(٨) النكت والعيون ٣/ ١١٩ .

وانجلائهم[١] عنها، وتُرفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي: ليس يَتعقَّب حكمَه أحدٌ بنقضٍ[٢] ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: الانتقام من الكافرين، سريعُ الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رَوِيَّةِ قلبٍ، ولا عَقْدِ بَنان؛ حَسْبَ ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قَبْل مشركي مكة، مَكَروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مخلوقٌ له مكرُ الماكرين، فلا يضرُّ إلا بإذنه[٤]. وقيل: فلله خيرُ المكر، أي: يجازيهم به[٥]. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ كذا قراءةُ نافعٍ وابنِ كثير وأبي عمرو. والباقون: ﴿ٱلْكُفَّـٰرُ﴾ على الجمع[٦]. وقيل: عني به أبو جهل[٧]. ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبةُ دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو[٨] لِمن الثوابُ والعقاب في الدَّار الآخرة، وهذا تهديد ووعيد.

---

(١) في (ظ): وجلائهم.

(٢) في النسخ عدا (ظ): بنقص، والمثبت من(ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٣/٥٠٦ والكلام منه.

(٣) ٣/٣٥٩ - ٣٦١.

(٤) الوجيز للواحدي (على هامش مراح لبيد) ١/٣٣٤، وزاد المسير ٤/٣٤١.

(٥) ذكر الرازي ١٩/٦٨ هذا القول بلفظ: فلله جزاء المكر، وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بيَّن تعالى أنه يجازيهم على مكرهم. ووقع في (ظ): خير الماكرين.

(٦) السبعة ص٣٥٩، والتيسير ص١٣٤.

(٧) في (ظ): أبا جهل، وذكر الواحدي في الوسيط ٣/٢١ هذا القول عن ابن عباس.

(٨) في (د): و، وفي (ظ): أي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قال قَتَادة: هم مشركو العرب[١]، أي: لستَ بنبيٍّ ولا رسول، وإنما أنت متقوِّلٌ، أي: لمَّا لم يأتهم بما اقترحوا؛ قالوا ذلك. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي: كفى اللهُ ﴿شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بصِدْقي وكَذِبكم.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا احتجاجٌ على مشركي العرب؛ لأنهم كانوا يَرجعون إلى أهل الكتاب ـ مَن آمَنَ منهم ـ في التفاسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعةً لقول الخصوم، وهم مؤمنو أهلِ الكتاب؛ كعبد الله بن سَلَام، وسَلْمانَ الفارسيِّ، وتميمٍ الداريِّ، والنجاشيِّ وأصحابه؛ قاله قَتَادة وسعيد بن جُبَيْر[٢].

وروى الترمذيُّ عن ابن أخي عبدِ الله بن سَلَام قال: لمَّا أُريد[٣] عثمانُ، جاء عبد الله بنُ سَلَام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نُصرتك. قال: اخرج إلى الناس فاطْرُدهم عني، فإنك خارجٌ خيرٌ لي منك[٤] داخل. فخرج عبد الله بنُ سَلَام إلى الناس فقال: أيُّها الناس، إنه كان اسمي في الجاهلية فلان[٥]، فسمَّاني رسول الله ﷺ عبدَ الله، ونزلت فيَّ آيات من كتاب الله؛ نزلت فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ونزلت فيَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الحديث[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٥٨٣ .

(٢) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ١/٣٣٩ ، والطبري ١٣/٥٨٣ - ٥٨٤ . أما سعيد بن جبير فقد روي عنه عكس هذا القول على ما يأتي.

(٣) بعدها في (م): قتل.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من سنن الترمذي.

(٥) في (ف): سفيان، وفي (ظ): فلانا، والمثبت من باقي النسخ وسنن الترمذي. قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٩/١٣٨ : الظاهر أن يكون فلاناً...، وأمَّا الرفع فَعَلى أنَّ في «كان» ضمير الشأن، و«اسمي» مبتدأ، وفلان خبره، والجملة خبر كان.

(٦) سنن الترمذي (٣٢٥٦). وابن أخي عبد الله بن سلام مجهول كما قال الحافظ في التقريب.

وقد كتبناه بكماله في كتاب «التذكرة»[١]. وقال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن غريب.

وكان اسمه في الجاهلية حُصَين، فسمَّاه النبيُّ ﷺ عبدَ الله[٢].

وقال أبو بِشْر: قلت لسعيد بن جُبَيْر: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو عبد الله بن سَلَام؟ قال: وكيف يكون[٣] عبدَ الله بنَ سَلَام وهذه السورة مكية، وابنُ سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي.

وقال القُشَيريُّ: وقال ابن جُبَير: السورة مكِّيةٌ، وابن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة، فلا يجوز أن تُحمل هذه الآية على ابن سَلَام، فمَن عنده علم الكتاب جبريلُ، وهو قول ابن عباس[٤].

وقال الحسن ومجاهد والضَّحَّاك: هو الله تعالى، وكانوا يقرؤون: «ومِن عِنْدِهِ عِلْمُ الكتَاب»، ويُنكِرون على مَن يقول: هو عبد الله بنُ سَلَام وسَلْمانُ؛ لأنهم يَرَوْن أنَّ السورة مكيةٌ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة[٥].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ: «ومِن عِندِه عِلم الكِتابِ»، وإن كان في الرواية ضعفٌ، وروى ذلك سليمان بنُ أَرْقَم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ[٦].

---

(١) ص٥٣٤ .

(٢) الاستيعاب (على هامش الإصابة) ٦/٢٢٨ .

(٣) في النسخ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: هو عبد الله بن سلام قلت: وكيف يكون... وهو خطأ، والمثبت من مصادر التخريج، فقد أخرجه سعيد بن منصور (١١٧٧ - تفسير)، والطبري ١٣/٥٨٦ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/٤٧٩ . وأبو بشر هو جعفر بن إياس.

(٤) قول سعيد بن جبير أنَّ مَن عنده عِلْمُ الكتاب هو جبريل، ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٩ ، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/٤٧٨ عن ابن عباس قال: سورة الرعد نزلت بمكة، فهي مكية.

(٥) النكت والعيون ٣/١١٩ ، وذكر القراءة عنهم ابن جني في المحتسب ١/٣٥٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/٥٠٨ ، وأخرجه أبو يعلى (٥٥٧٤) بهذا الإسناد، وسليمان بن أرقم ضعيف =

ورَوى محبوبٌ، عن إسماعيلَ بنِ محمدٍ اليمانيِّ أنه قرأ كذلك: «ومِن عِندِهِ» بكسر الميم والعين والدال «عُلِمَ الكتابُ» بضمِّ العين ورَفْعِ الكتاب[١].

قال عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر بن عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب ﷺ: زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبدُ الله بنُ سَلَام، فقال: إنما ذلك عليُّ بن أبي طالب ﷺ[٢]، وكذلك قال محمد ابن الحنفية. وقيل: جميعُ المؤمنين، والله أعلم.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربي[٣]: أمَّا مَن قال: إنه عليٌّ، فَعوَّل على أحد وجهين: إمَّا لأنه عنده أعلمُ المؤمنين، وليس كذلك، بل أبو بكر وعمرُ وعثمانُ أعلمُ منه. أو لقول[٤] النبيِّ ﷺ: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابُها»، وهو حديثٌ باطل[٥]؛ النبيُّ ﷺ مدينةُ عِلم، وأصحابُه أبوابُها؛ فمنهم الباب المنفسِح، ومنهم المتوسط، على قَدْر منازلهم في العلوم.

وأمَّا مَن قال: إنهم جميع المؤمنين، فصَدَق؛ لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يَعْلَم الكتاب ويُدرِك وجه إعجازه يشهد[٦] للنبيِّ ﷺ بصدقه.

= كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه الطبري ٣/ ٥٨٦ - ٥٨٧ من طريق هارون الأعور عن الزهري به، قال الطبري: هذا خبر ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهري. وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٧ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٨ ، كما سلف.

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٩ ، وهي في القراءات الشاذة ص٦٧ ، والمحتسب ١/ ٣٥٨ عن علي بن محمد وابن السميفع.

(٢) ذكر قول أبي جعفر الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٩٣ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١١٠١ دون نسبة.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٠٢ . والقول الأخير وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ولقول، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن.

(٥) وقال الحاكم ٣/ ١٢٦ بعد أن أخرجه من حديث ابن عباس: هذا حديث صحيح الإسناد. فتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع. وقال أيضاً ٣/ ١٢٧ : العجب من الحاكم وجرأته في تصحيحه هذا وأمثاله من البواطيل. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٥٦ بعد أن ذكر طرقه: والحديث لا أصل له.

(٦) في النسخ: ويشهد، والمثبت من أحكام القرآن.

قلت: فالكتاب على هذا هو القرآن.

وأمَّا مَن قال: هو عبد الله بن سَلَام، فَعوَّل على حديث الترمذيِّ، وليس يمتنع أن تنزل في عبد الله بن سَلَام سبباً وتتناولَ[1] جميعَ المؤمنين لفظاً، ويعضُدُه من النِّظام أنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني [به] قريشاً، فالذين عندهم علمُ الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوَّة والكتاب أقربُ من عبدة الأوثان.

قال النحاس[2]: وقول مَن قال: هو عبد الله بن سَلَام وغيرُه، يُحتمَل أيضاً؛ لأن البراهين إذا صحَّت وعرَفها مَن قرأ الكتب التي أُنزِلت قبل القرآن؛ كان أمراً مؤكَّداً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

تمَّ تفسير سورة الرعد، والحمد لله.

---

(١) في النسخ عدا (ظ): أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئاً ويتناول، وفي (ظ): أن ينزل شيء في عبد الله ابن سلام ويتناول، والمثبت من أحكام القرآن.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٥٠٩ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلَّى الله على محمدٍ وآلِه وسلَّمَ تسليماً

تفسير سورة إبراهيم

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آيتين منها مدنية[1]. وقيل: ثلاث؛ نزلت في الذين حاربوا اللهَ ورسولَه، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ تقدَّم معناه[2].

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: بالكتاب، وهو القرآن، أي: بدعائك إليه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التمثيل؛ لأنَّ الكفرَ بمنزلة الظُّلْمة، والإسلامَ بمنزلة النور[3]. وقيل: من البدعة إلى السُّنَّة، ومن الشَّكِّ إلى اليقين. والمعنى متقارب.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقِه إيَّاهم ولُطفِه بهم، والباءُ في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقةٌ بـ «تُخرج»[4]، وأُضيفَ الفعلُ إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنه الداعي والمنذرُ الهادي.

---

(1) من (ظ)، وفي غيرها: مدنيتين، والكلام في النكت والعيون ٣/ ١٢٠ .

(2) ١/ ٢٣٧ .

(3) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥١٣ .

(4) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٣ .

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ هو كقولك: خرجتُ إلى زيدٍ العاقلِ الفاضل؛ من غير واو[١]؛ لأنهما شيءٌ واحد، واللهُ هو العزيزُ الذي لا مِثْلَ له ولا شبيه. وقيل: «العزيز»: الذي لا يَغلِبُه غالب. وقيل: «العزيز»: المَنيعُ في مُلْكِه وسُلْطانِه. «الحميد» أي: المحمودُ بكلِّ لسان، والمُمَجَّدُ في كلِّ مكانٍ على كلِّ حال.

وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال: كان قومٌ آمنوا بعيسى ابنِ مريم، وقومٌ كفروا به، فلما بُعِثَ محمدٌ ﷺ؛ آمنَ به الذين كفروا بعيسى، وكفرَ الذين آمنوا بعيسى، فنزلت هذه الآية، ذكره الماورديُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: مِلْكاً وعبيداً واختراعاً وخلقاً. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وغيرُهما: «اللهُ» بالرفع على الابتداء[٣]، «الَّذِي» خبرُه. وقيل: «الَّذي» صفة، والخبر مُضمَرٌ[٤]، أي: اللهُ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادرٌ على كلِّ شيء. الباقون: بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، فقدَّمَ النَّعتَ على المنعوت، كقولِكَ: مررتُ بالظريفِ زيدٍ[٥]. وقيل: على

---

(١) نقل ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٤ عن ابن الأنباري قوله: هذا مثل قول العرب: جلست إلى زيد، إلى العاقل الفاضل، وإنما تُعاد «إلى» بمعنى التعظيم للأمر.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ١٢١ ، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١١٤)، قال الهيثمي في «المجمع» ٦/ ٣٢٣ ، وفيه أبو بلال الأشعري، وهو ضعيف.

(٣) السبعة ص٣٦٢ ، والتيسير ص١٣٤ ، وقرأ بالرفع أيضاً أبو جعفر، كما في النشر ٢/ ٢٩٨ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٥ .

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٩ - ٥٩٠ ، وردَّ ابن زنجلة هذا القول في «حجة القراءات» ص٣٧٦ فقال: ولا يجوز أن يقول: نعتٌ للحميد، وإنما هو كقولك: «مررتُ بزيدٍ الظريف»، فإن قلت: «بالظريف زيدٍ» عاد بدلاً، ولم يكن نعتاً.

البدل من «الحميد» وليس صفة؛ لأنَّ اسمَ اللهِ صارَ كالعَلَم فلا يُوصَفُ به[١]؛ كما لا يُوصَفُ بزيدٍ وعَمرٍو، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى؛ لأنَّ معناه أنَّه المنفردُ بقدرة الإيجاد. وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السماوات وما في الأرض[٢]. وكان يعقوب[٣] إذا وقف على «الحميد» رفَعَ، وإذا وصلَ خفَضَ على النعت. قال ابنُ الأنباري[٤]: من خفَضَ وقَفَ على: «وما في الأرض».

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قد تقدَّم معنى الويل في «البقرة»[٥] وقال الزجَّاج[٦]: هي كلمةٌ تُقال للعذاب والهَلَكة. ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: في جهنم.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ أي: يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك. ف «الذينَ» في موضع خفضٍ صفةٌ لهم. وقيل: في موضع رفع خبرُ ابتداءٍ مُضمَر؛ أي: هم الذين. وقيل: «الذين يَسْتَحبُّون» مبتدأ، وخبره: «أُولَئِكَ»، وكلُّ مَنْ آثرَ الدنيا وزَهْرَتَها، واستحبَّ البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصدَّ عن سبيل الله ـ أي: صرفَ الناس عنه، وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره ـ فهو داخل في هذه الآية؛ وقد قال ﷺ: «إنَّ أخوَفَ ما أخافُ على أمتي الأئمةُ المُضِلُّون»[٧] وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان! والله المستعان.

---

(١) لفظة «به» من (ظ).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٩، وأبو عمرو: هو ابن العلاء.

(٣) في رواية رُويس، وهو من العشرة. النشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٣٩.

(٥) ٢/ ٢١٩ - ٢٢٢.

(٦) في معاني القرآن ١/ ١٦٠.

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٤٨٥) من حديث أبي الدرداء.

وقيل: «يَسْتَحِبُّونَ» أي: يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأنَّ نعمة الله لا تُلتَمسُ إلا بطاعته دون معصيته ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لها زَيْغاً وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم. والسبيل تُذكَّر وتُؤنَّث[1]. والعِوَجُ؛ بكسر العينِ: في الدِّين والأمر والأرض، وفي كلِّ ما لم يكن قائماً. وبفتح العين: في كل ما كان قائماً، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم في «آل عمران»[2] وغيرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ذهابٍ عن الحقِّ، بعيدٍ عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أي: قبلَك يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي: بِلُغتهم؛ ليبيِّنوا لهم أمر دينهم[3]، ووحَّد اللسان ـ وإن أضافه إلى القوم ـ لأن المراد اللغة، فهي اسمُ جنسٍ يقع على القليل والكثير، ولا حُجَّةَ للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأنَّ كلَّ من تُرجِمَ له ما جاء به النبيُّ ﷺ ترجمةً يفهمها لزِمَتْه الحجَّة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وقال ﷺ: «أُرسِلَ كلُّ نبيٍّ إلى أمته بلسانها، وأرسلني اللهُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقِه»[4]. وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم لم يؤمِنْ بالذي أُرسِلتُ به، إلا كان من أصحاب النار». خرَّجه مسلم، وقد تقدَّم[5].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ردٌّ على القَدَريَّة في نفوذ المشيئة، وهو

(١) الصحاح (سبل).
(٢) ٥/ ٢٣٣ .
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٥٩٢ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٠٠ .
(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٩٤٢).
(٥) صحيح مسلم (١٥٣)، وسلف ٢/ ١٦٠ .

مستأنَفٌ، وليس بمعطوفٍ على «لِيُبَيِّنَ»؛ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال. ويجوز النصبُ في «يضلَّ»؛ لأن الإرسال صار سبباً للإضلال؛ فيكون كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، وإنما صار الإرسال سبباً للإضلال؛ لأنهم كفروا به لمَّا جاءهم، فصار كأنه سببٌ لكفرهم[١]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدَّم معناه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحجَّتنا وبراهيننا، أي: بالمعجزات الدالَّة على صدقه. قال مجاهد: هي التسع الآيات[٣].

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ نظيرُه قولُه تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام أول السورة: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. وقيل: «أَنْ» هنا بمعنى: أي، كقوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ [ص:٦]: أي امشوا[٤].

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: قُلْ لهم قولاً يتذكَّرون به أيامَ الله تعالى. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: بنعم الله عليهم[٥]. وقاله أبيّ بن كعب، ورواه مرفوعاً[٦]، أي: بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التِّيه إلى سائر النِّعم.

---

(١) استبعد الزجَّاج في معاني القرآن ٣/ ١٥٤ النصب وقال: الرفع هو الوجه، وهو الكلام، وعليه القراءة.

(٢) معنى «العزيز» سلف ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٩٣ و ٥٩٤ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٤ - ١٥٥ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٤١ والطبري ١٣/ ٥٩٦ و ٥٩٧ من قول مجاهد، و١٣/ ٥٩٧ من قول قتادة، ولم نقف على من أخرجه من قول ابن عباس.

(٦) أخرجه من قول أبي بن كعب: عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٩)، وأخرجه أيضاً عنه مرفوعاً (٢١١٢٨).

وقد تُسمَّى النِّعم: الأيام، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيـــامٍ لـــنـــا غُـــرٍّ طِـــوالٍ[١]

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة؛ يُقال: فلانٌ عالم بأيَّام العرب، أي: بوقائعها[٢]. قال ابن زيد: يعني: الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية[٣] وكذلك روى ابنُ وهب عن مالك قال: بلاؤه. وقال الطبريّ: وعِظْهُمْ بما سلف في الأيام الماضية لهم[٤]، أي: بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة، وقد كانوا عبيداً مستذَلِّين. واكتفى بذكر الأيام عنه؛ لأنها كانت معلومةً عندهم.

وروى سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن أُبيّ بن كعب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بينا موسى عليه السلام في قومه يُذكِّرهم بأيَّامِ الله، وأيَّامُ الله بَلاؤه ونَعماؤه» وذكر حديث الخضر[٥]. ودلَّ هذا على جواز الوعظِ المرقِّقِ للقلوب، المقوِّي لليقين، الخالي من كل بدعة، والمنزَّه عن كلِّ ضلالةٍ وشُبهة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في التذكير بأيَّام الله ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي: دلالات. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله. وقال قتادة: هو العبد؛ إذا أُعطِيَ شكر، وإذا ابتُلِيَ صبر[٦]. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الإيمان نصفان: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٧]. ونحوه عن الشَّعبيِّ موقوفاً[٨]. وتَوارى الحسن

---

(١) شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٣٨٨، وعجزه: عَصَينا المَلْكَ فيها أن نَدينا، وسلف ١/٢١٦.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/٢٦.

(٣) تفسير الطبري ١٣/٥٩٧.

(٤) تفسير الطبري ١٣/٥٩٤.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٢٠).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/٥٩٨.

(٧) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩) من حديث أنس بن مالك، لكن في إسناده عتبة بن السكن ويزيد بن أبان الرقاشي، وهما متروكان. ميزان الاعتدال ٣/٢٨ و ٤/٤١٨.

(٨) بلفظ: الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٤٨).

البصريُّ عن الحجَّاج سبعَ سنين، فلما بلغه موتُه قال: اللهمَّ قد أمتَّه فأمِتْ سُنَّته. وسجد شكراً وقرأ: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»[١].

وإنما خصَّ بالآيات كلَّ صبَّارٍ شكور؛ لأنه يَعتبِرُ بها ولا يغفُل عنها، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وإن كان منذِراً للجميع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ تقدَّم في «البقرة» مستوفًى والحمد لله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل: هو من قول الله، أي: واذكُرْ يا محمد إذ قال ربك كذا. و«تَأَذَّنَ» وآذنَ بمعنى: أَعْلَمَ؛ مثل: أَوْعَدَ وتَوَعَّدَ[٣]؛ رُوي معنى ذلك عن الحسن وغيره. ومنه الأذان؛ لأنه إعلام، قال الشاعر:

فَلَمْ نَشْعُرْ بضوءِ الصُّبحِ حتَّى سمِعْنا في مجالِسِنا الأَذِينا[٤]

وكان ابن مسعود يقرأ: «وإذْ قالَ ربُّكُمْ»[٥]. والمعنى واحد.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن وحَّدتم وأطعتم لأزيدنَّكم مما يجب الشكر

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» ٢/ ١٥٩ دون قراءة الآية.

(٢) ٢/ ٨٠ - ٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٥، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٦٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠٠.

(٤) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٧٦، وفيه: «مساجدنا» بدل: «مجالسنا».

(٥) وهي قراءة شاذة، ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٠٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٠١.

عليه، وهي نعمي[١]. وقال الربيع: المعنى[٢]: لئن شكرتُم إنعامي لأزيدنَّكم من فضلي. الحسن: لئن شكرتُم نعمتي لأزيدنَّكم من طاعتي[٣]. ابن عباس: لئن وَحَّدْتُم وأطعتُم لأزيدنَّكم من الثواب[٤]. والمعنى متقارب في هذه الأقوال، والآية نصٌّ في أنَّ الشكر سببُ المزيد، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥] ما للعلماء في معنى الشكر.

وسُئِلَ بعضُ الصُّلحاء عن الشكر لله، فقال: ألَّا تتقوَّى بنعمه على معاصيه[٦].

وحُكيَ عن داود عليه السلام أنه قال: أيْ ربِّ، كيف أشكرُك، وشكري لك نعمةٌ مجدَّدةٌ منك عليَّ. قال: يا داود، الآن شكرتَني[٧].

قلت: فحقيقةُ الشكر على هذا الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، وألّا يصرفَها في غير طاعته؛ وأنشد الهادي[٨] وهو يأكل:

أنالَكَ رِزقَه لتقومَ فيهِ ... بطاعتِه وتشكرَ بعضَ حقِّهْ

فلم تشكُرْ لِنعمتِهِ ولكنْ ... قَوِيتَ على معاصِيهِ برزقِهْ[٩]

فغَصَّ باللُّقمة، وخنقته العَبْرة.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤ .

(٢) من قوله: «وحَّدتم» إلى هذا الموضع من (ظ). وكلام الربيع في زاد المسير ٤/ ٣٤٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠٢ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٧ .

(٥) ٢/ ١٠٤ .

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٥٠)، والخطيب في «تاريخه» ٧/ ٢٤٤ من كلام الجنيد بن محمد البغدادي ﷺ.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٩ إلى ابن أبي حاتم.

(٨) هو الخليفة موسى بن المهدي محمد بن المنصور، وليَ الخلافة بعد أبيه المهدي، مات سنة ١٧٠هـ، وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكانت مدة خلافته سنة وشهر، وولي الخلافة من بعده أخوه الرشيد. السير ٧/ ٤٤١ - ٤٤٣ .

(٩) ذكرهما بنحوهما المبرِّد في الكامل ٢٠/ ٦٦٤ في ثلاثة أبيات، نسبت في بعض نسخه لمحمود الوراق (كما ذكر محققه).

وقال جعفر الصادق: إذا سمعتَ النعمةَ نعمةَ الشكر؛ فتأهَّبْ للمزيد.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: جحدتُم حقِّي، وقيل: نِعَمي[١]؛ وَعَدَ بالعذاب على الكفر، كما وَعَدَ بالزيادة على الشكر[٢]، وحُذفتِ الفاءُ التي في جواب الشرط من «إنْ» للشهرة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: لا يَلحقُه بذلك نقص، بل هو الغني. «الحميدُ» أي: المحمود.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبأ: الخبر، والجمع: الأنباء؛ قال:

أَلَـمْ يَـأْتِـيـكَ والأنـبـاءُ تَـنْـمـي[٤]

ثم قيل: هو من قول موسى. وقيل: من قول الله، أي: واذكُر يا محمد إذ قال ربُّك كذا. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى. وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهورٌ، قصَّه الله في كتابه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يُحصي عددَهم إلا الله،

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٤ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢٣ .

(٣) وقال الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٩٦ : اللام في «لئن شكرتم» هي الموطئة للقسم، وقوله: «لأزيدنَّكم» سادٌّ مسدَّ جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في «ولئن كفرتم»، وقوله: «إنَّ عذابي لشديد» سادٌّ مسدَّ الجوابين أيضاً.

(٤) هو صدر بيت لقيس بن زهير، وسلف عند تفسير الآية (٩٠) من سورة يوسف.

ولا يعرف نسبَهم إلا الله[١]؛ والنَّسَّابون وإن نَسَبُوا إلى آدم؛ فلا يدَّعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض، ويُمسِكون عن نسب البعض، وقد رُويَ عن النبيِّ ﷺ لمَّا سمع النَّسَّابين ينسبون إلى مَعَدِّ بنِ عدنان، ثم زادوا، فقال: «كذَبَ النسَّابون، إن الله يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾»[٢].

وقد رُويَ عن عُرْوةَ بنِ الزُّبير أنه قال: ما وجدنا أحداً يعرفُ ما بين عدنان وإسماعيل[٣].

وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون[٤]. وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: كذب النَّسَّابون[٥]. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجج والدَّلالات. ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: جعل أولئك القومُ أيديَ أنفسهم في أفواههم ليَعضُّوها غيظاً مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تَسفيهُ أحلامهم، وشتمُ أصنامهم؛ قاله ابن مسعود[٦]، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[٧] [آل عمران:١١٩]. وقال ابن عباس: لمَّا سمعوا كتاب الله؛ عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم[٨]. وقال أبو صالح: كانوا إذا قال لهم نبيُّهم: أنا رسول الله إليكم، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم: أَنِ اسكُتْ؛

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٣ ، والوسيط ٣/ ٢٤ .

(٢) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٦ ، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٣ عن ابن عباس، وفيه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨] بدلاً من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وفي إسناده هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وهو متروك، وأبوه محمد بن السائب متهم بالكذب. ميزان الاعتدال ٣/٥٥٦ - ٥٥٧ و ٤/ ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٣) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٨ ، وخليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٢ .

(٤) أخرجه خليفة بن خياط في طبقاته ١/ ٣ .

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٥٦ .

(٦) ذكره المصنف عنه بالمعنى، وسيذكر لفظه قريباً.

(٧) الدر المنثور ٤/ ٧٢ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠٧ .

تكذيباً له، وردًّا لقوله. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. والضميران للكفار، والقول الأول أصحُّها إسناداً؛ قال أبو عبيد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله تعالى ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال: عَضُّوا عليها غيظاً[١]. وقال الشاعر:

لو أنَّ سَلمى أبْصَرَتْ تَخَدُّدي ودِقَّةً في عَظْمِ ساقي ويدي
وبُعْدَ أهلي وجَفاءَ عُوَّدي عَضَّتْ من الوَجْدِ بأطرافِ اليدِ[٢]

وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» مجوَّداً، والحمد لله[٣].

وقال مجاهد وقَتادة: رَدُّوا على الرسل قولَهم، وكذَّبوهم بأفواههم. فالضمير الأول للرسل، والثاني للكفار. وقال الحسن وغيره: جعلوا أيديَهم في أفواه الرسل ردًّا لقولهم[٤]. فالضمير الأول على هذا للكفار، والثاني للرسل. وقيل: معناه: أوْمؤوا للرسل أن يسكتوا[٥]. وقال مقاتل: أخذوا أيديَ الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم[٦]. وقيل: ردَّ الرسل أيديَ القوم في أفواههم. وقيل: إن الأيديَ هنا النِّعم، أي: ردُّوا نِعَمَ الرسلِ بأفواههم، أي: بالنطق والتكذيب، ومجيء الرسل بالشرائع نِعَمٌ، والمعنى: كذَّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل. و«في» بمعنى الباء؛ يقال: جلستُ في البيت وبالبيت[٧]، وحروف الصفات

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤١، والطبري ١٣/ ٦٠٥، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩١١٩)، والحاكم ٢/ ٣٥١ من طريق سفيان الثوري، به. وعبد الله: هو ابن مسعود، ﷺ.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٢٤، والكامل ١/ ٢٦٣.

(٣) ٥/ ٢٧٨ - ٢٨٠.

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٤٩.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦، والوسيط ٣/ ٢٥.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٦.

(٧) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٩ - ٧٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦.

يُقام بعضُها مقامَ بعض. وقال أبو عبيدة[1]: هو ضرب مَثَل، أي: لم يُؤمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردَّ يدَه في فيه. وقاله الأخفش أيضاً. وقال القُتَبيُّ[2]: لم نسمع أحداً من العرب يقول: ردَّ يدَه في فيه إذا ترك ما أُمِرَ به، وإنما المعنى: عَضُّوا على الأيدي حَنَقاً وغيظاً؛ لقول الشاعر:

يَرُدُّونَ في فِيهِ عَشْرَ[3] الحسو دِ حتى يَعَضَّ عليَّ الأكُفَّا[4]

يعني أنهم يَغيظون الحسود حتى يَعَضّ على أصابعه وكفَّيه. وقال آخر:

قَدَ افْنى أنامِلَهُ أزْمُهُ فأضحى يَعَضُّ عليَّ الوَظِيفا[5]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾: يعني الأمم للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: بالإرسال على زعمكم، لا أنهم أقرُّوا أنهم أُرسِلوا[6]. ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ أي: في ريبٍ ومِرْيةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: مُوجِبٍ للرِّيبة؛ يُقال: أَرَبْتُه: إذا فعلتَ أمراً أوجبَ رِيبةً وشكًّا[7]، أي: نظنُّ أنكم تطلبون الملك والدنيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهامٌ معناه الإنكار، أي: لا شكَّ

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٢) في غريب القرآن ص٢٣٠ - ٢٣١، وينظر المعاني الكبير له ٢/ ٨٣٤.

(٣) في (م): غِشّ.

(٤) أورد شطره الأول ابن قتيبة في المصدرين السالفين، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤٨.

(٥) قائله صخر الغي كما في ديوان الهذليين ٢/ ٧٣ وأورد البيت ابن قتيبة وابن الجوزي (في المصادر السالفة). قوله: الأزم: شدة العَضّ بالفم كلّه، وقيل: بالأنياب. والوَظيف: مُستدَقُّ الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما. اللسان (أزم) و(وظف).

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٤٩.

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٦٠٩.

في الله، أي: في توحيده. قاله قتادة. وقيل: في طاعته. ويَحتَمِلُ وجهاً ثالثاً: أفي قدرة الله شكٌّ؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها[١]، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقِها ومخترعِها ومنشئِها ومُوجدِها بعد العدم؛ لينبِّه على قدرته، فلا تجوز العبادةُ إلا له. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أي: إلى طاعته بالرسل والكتب. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيدة[٢]: «مِنْ» زائدة. وقال سيبويه: هي للتبعيض. ويجوز أن يُذكر البعضُ والمرادُ منه الجميع. وقيل: «مِن» للبدل، وليست بزائدةٍ ولا مُبعِّضَة، أي: لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب[٣]. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني الموت، فلا يعذبكم في الدنيا. ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستُم ملائكة. ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّةٍ ظاهرة؛ وكان هذا مِحالاً منهم؛ فإنَّ الرسلَ ما دَعَوا إلا ومعهم المعجزات[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصورة والهيئة كما قلتم. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يتفضَّلُ عليه بالنبوّة.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٥، وقول قتادة في الوسيط ٣/ ٢٥، وزاد المسير ٤/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٦.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٢٦.

وقيل: بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية. وقال سهل بن عبد الله: بتلاوة القرآن وفهم ما فيه(١).

قلت: وهذا قولٌ حسن، وقد خرَّجَ الطبريُّ من حديث ابن عمر قال: قلتُ لأبي ذَرٍّ: يا عَمُّ أوصِني. قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ كما سألتني، فقال: «ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا ساعةٍ إلا ولله فيه صدقةٌ يمُنُّ بها على من يشاء من عباده، وما مَنَّ اللهُ تعالى على عباده بمثل أن يُلهِمَهم ذِكْرَه»(٢).

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بحُجَّةٍ وآية. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بمشيئته، وليس ذلك في قدرتنا، أي: لا نستطيع أن نأتيَ بحُجَّةٍ كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظُه لفظُ الخبر، ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحظَّرُ على أحدٍ ما لا يقدِرُ عليه(٣).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تقدَّم معناه(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «ما» استفهام في موضع رفعٍ بالابتداء، و«لَنَا» الخبر، وما بعدها في موضع الحال(٥)؛ التقدير: أيُّ شيءٍ لنا في ترك التوكل على الله. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ أي: الطريق الذي يوصل إلى رحمته، ويُنجي من سَخَطِهِ ونِقْمَتِه. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لام قسم؛ مجازه: واللهِ لَنَصْبِرَنَّ ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ به، أي: من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثِقةً بالله أنه يكفينا ويُثيبنا. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٢٦.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٩٨٧)، والبزار في «مسنده» (٣٨٩٠)، وابن حبان في «المجروحين» ١/ ٢٤٤، في ترجمة حسين بن عطاء راوي الحديث، وقال: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد لمخالفته الأثبات في الروايات، وذكره أيضاً في الثقات ٦/ ٢٠٩، وقال: يخطئ ويدلس.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٩، وفي مطبوعه «الحظر» بدلاً من «الخبر».

(٤) ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢.

(٥) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠١.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ اللام لام قسم، أي: واللهِ لَنخرجنَّكم. ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أي: حتى تعودوا، أو: إلا أن تعودوا. قاله الطبريُّ وغيره[١]. قال ابن العربي: وهو غيرُ مفتقرٍ إلى هذا التقدير؛ فإنَّ «أوْ» على بابها من التخيير، خيَّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا في مِلَّتهم أو يُخرجوهم من أرضهم، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾[٢] [الإسراء:٧٦-٧٧]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «الأعراف»[٣] وغيرها. ﴿فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: إلى ديننا، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: مقامَه بين يديّ يوم القيامة، فأُضيف المصدر إلى الفاعل[٤]. والمَقام مصدرٌ كالقيام؛ يقال: قام قياماً ومَقاماً، وأضاف ذلك إليه؛ لاختصاصه به. والمَقام بفتح الميم: مكان الإقامة، وبالضَّمِّ: فِعْلُ الإقامة[٥]. و﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أي: قيامي عليه، ومراقبتي له؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣]. وقال الأخفش:

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٦١٢ .

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١١٠٤ - ١١٠٥ .

(٣) ٩/ ٢٨٤ .

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٣١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٢٦ ، وينظر قول المصنف عند تفسير الآية ٧٣ من سورة مريم.

«ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أي: عذابي، «وَخَافَ وَعِيدِ» أي: القرآن وزواجره. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي: واستنصروا، أي: أُذِنَ للرسل في الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم. قاله ابن عباس وغيره[1]، وقد مضى في «البقرة»[2]. ومنه الحديث: إنَّ النبيَّ ﷺ كان يستفتِحُ بصعاليك المهاجرين، أي: يستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية[3] [الأنفال: ٣٢]. ورُوِيَ عن ابن عباس[4]. وقيل: قال الرسول: «إنهم كذبوني فافتَحْ بيني وبينهم فتحاً». وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذِّبنا. عن ابن عباس أيضاً[5]، نظيره: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبَّار: المتكبِّر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا. هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس[6]. والعنيد: المعاندُ للحقِّ والمُجانِبُ له. عن ابن عباس وغيره[7]، يُقال: عَنَدَ عن قومه، أي: تباعد عنهم[8]. وقيل: هو من العَنَد،

---

(١) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ أن فرقةً قرأت: «واستفتِحوا» بكسر التاء، على معنى الأمر للرسل. ثم قال: قرأها ابن عباس ومجاهد وابن مُحيصن.

(٢) ٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩، وسلف هناك أيضاً الحديث الذي سيذكره المصنف بعده.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٧، وزاد المسير ٤/ ٣٥١.

(٤) لم نقف عليه عن ابن عباس.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٨.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٥٢١.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١٥ عن مجاهد، وكذلك نقله عنه البغوي ٣/ ٢٩، وهو في تفسيره ١/ ٣٣٤.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢١.

وهو الناحية[١]. وعاندَ فلانٌ، أي: أخذَ في ناحيةٍ مُعْرِضاً؛ قال الشاعر:

إذا نـزلـتُ فـاجـعـلـونـي وَسَـطـا إنِّـي كـبـيـرٌ لا أُطِـيـقُ الـعُـنَّـدا[٢]

وقال الهَرَويُّ[٣]: قوله تعالى: ﴿جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: جائرٍ عن القصد، وهو العَنُود والعَنيد والعانِد[٤]. وفي حديث ابن عباس وسئِل عن المستحاضة، فقال: إنه عِرْقٌ عانِدٌ[٥]. قال أبو عبيد[٦]: هو الذي عَنَد وبَغى؛ كالإنسان يعانِد، فهذا العِرقُ في كثرة ما يخرج منه بمنزلته. وقال شَمِر: العانِدُ: الذي لا يرقأ[٧]. وقال عمر يذكر سيرته: أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث: العَنُود من الإبل: الذي لا يُخالطها، إنما هو في ناحيةٍ أبداً[٨]؛ أراد مَنْ هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها. وقال مقاتل: العنيد: المتكبر[٩]. وقال ابن كَيْسان: هو الشامخ بأنفه. وقيل: العَنُود والعَنيد: الذي يتكبَّر على الرسل ويذهب عن طريق الحقّ فلا يسلكها؛ تقول العرب: شرُّ الإبل العَنُود الذي يخرج عن الطريق[١٠]. وقيل: العنيد: العاصي. وقال قتادة: العنيد: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله[١١].

---

(١) ينظر الصحاح (عند).

(٢) الرجز في أدب الكاتب ص٤٩١ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٢٢ ، وخزانة الأدب ١١/ ٣٢٣ وفيه وفي (د) و(ظ): فاجعلاني بدل: فاجعلوني.

(٣) في غريب الحديث ٤/ ٢٣٥ .

(٤) قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٩٠ .

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥ ، وابن المنذر في الأوسط ١/ ١٥٩ ، وقد روي من حديث عائشة كما في مسند أحمد (٢٥٣٩١)، وسنن النسائي ١/ ١٢٢ .

(٦) في غريب الحديث ٤/ ٢٣٥ .

(٧) ينظر اللسان (عند).

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢٢٢ ، وغريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ١٣٠ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢٩ .

(١٠) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦١٦ .

(١١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤١ ، والطبري ١٣/ ٦١٦ ، وهو في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٠ .

قلت: والجبار والعنيد في الآية بمعنًى واحد، وإن كان اللفظ مختلفاً، وكلُّ متباعدٍ عن الحقِّ جبَّارٌ وعنيدٌ، أي: متكبِّر. وقيل: إنَّ المُرادَ به في الآية أبو جهل؛ ذكره المَهدويّ[١]. وحكى الماورديُّ في كتاب «أدب الدنيا والدين»[٢] أنَّ الوليدَ بن يزيد بن عبد الملك تفاءَل يوماً في المصحف، فخرج له قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، فمزَّقَ المصحفَ، وأنشأ يقول:

أتُـوعِـدُ كـلَّ جَـبَّـارٍ عَـنـيـدِ ... فـهـا أنـا ذاكَ جـبَّـارٌ عَـنـيـدُ
إذا مـا جِـئـتَ ربَّـكَ يـوم حَـشْـرٍ ... فَـقُـلْ يـا رَبِّ مَـزَّقَـنـي الـولِـيـدُ

فلم يلبَثْ إلا أياماً حتى قُتِلَ شرَّ قِتلةٍ، وصُلِبَ رأسُه على قصره، ثم على سُورِ بلده.

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ذلك الكافر جهنم، أي: من بعد هلاكه. ووراء بمعنى بَعْد[٣]؛ قال النابغة[٤]:

حَـلَـفْـتُ فـلـم أتـركْ لِـنـفـسـكَ رِيـبـةً ... ولـيـس وراءَ الـلـهِ لـلـمـرءِ مـذهـبُ

أي: بعد الله، جلَّ جلالُه، وكذلك قوله تعالى [في الآية التالية]: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: من بعده، وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١] أي: بما سواه. قاله الفراء[٥]. وقال أبو عبيد[٦]: بما بعده. وقيل: «مِنْ وَرَائِهِ» أي: من أمامه، ومنه قول الشاعر:

ومِـن ورائِـكَ يـومٌ أنـتَ بـالِـغُـهُ ... لا حـاضـرٌ مُـعـجِـزٌ عـنـه ولا بـادِي[٧]

---

(١) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٣.
(٢) ص٢٨٩ - ٢٩٠.
(٣) النكت والعيون ٣/ ١٢٨.
(٤) هو الذبياني، والبيت في ديوانه ص١٧، وسلف ١٠/ ٣٨٨.
(٥) في معاني القرآن ١/ ٦٠.
(٦) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٦.
(٧) ذكره في النكت والعيون ٣/ ١٢٧.

وقال آخر:

أَتَرْجُو بنو مروانَ سمعي وطاعتي ... وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائِيا[١]

وقال لبيد[٢]:

أليسَ ورائي إنْ تراخَتْ منيَّتي ... لُزومُ العَصا تُحنَى عليها الأصابعُ

يريد أمامي. وفي التنزيل: ﴿كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] أي: أمامهم. وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطرب وغيرهما[٣]. وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك، أي: سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان، أي: في طلبه، وسأصل إليه[٤]. وقال النحاس[٥] في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارى، أي: استتَر. وقال الأزهري[٦]: إنَّ «وراء» تكون بمعنى «خلف وأمام»، فهو من الأضداد. وقاله أبو عبيدة أيضاً[٧]. واشتقاقها[٨] مما توارى واستتر، فجهنم تَوارى ولا تظهر، فصارت من وراء؛ لأنها لا تُرى. حكاه ابن الأنباري[٩]، وهو حسن.

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أي: من ماءٍ مثل الصديد، كما يُقال للرجل الشجاع: أسد، أي: مثلُ الأسد، وهو تمثيلٌ وتشبيه[١٠]. وقيل: هو ما يسيل من

---

(١) البيت لسوار بن المُضرَّب، كما في الكامل للمبرِّد ٢/ ٦٢٨، والأضداد لابن السكيت ص١٧٦، والأضداد للأصمعي ص٢٠، والأضداد لابن الأنباري ص٦٨. ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠ لمساور بن حمثان.

(٢) ديوانه ص١٧٠.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٧، وسلف هذا المعنى قريباً.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٢.

(٦) في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠٤.

(٧) في مجاز القرآن ١/ ٣٣٧.

(٨) في (ظ): واشتقاقه، وفي (م): واشتقاقهما.

(٩) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٢٨.

(١٠) المصدر السابق.

أجسام أهل النار من القيح والدم[١]. وقال محمد بن كعب القُرَظيّ والربيع بن أنس: هو غُسَالة أهل النار، وذلك ماءٌ يسيل من فروج الزُّناة والزواني[٢]. وقيل: هو من ماءٍ كراهتُه[٣] تَصدُّ عنه، فيكون الصديد مأخوذاً من الصَّدِّ.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا صفوان بن عمرو، عن عُبيد الله بن بُسْر، عن أبي أُمامة، عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «يُقرَّبُ إلى فِيهِ فيكرهه، فإذا أُدنيَ منه شَوَى وجهَه، ووقعتْ فَرْوةُ رأسِه، فإذا شرِبَه قَطَّعَ أمعاءَه حتى تخرجَ من دُبُره، يقول الله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، ويقول الله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف:٢٩]» خرَّجه الترمذي، وقال: حديث غريب[٤]. وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديثَ أبي أُمامة لعلَّه أن يكون أخا عبد الله بن بُسْر.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يَتَحسَّاه جُرَعاً لا مرَّةً واحدةً؛ لمرارته وحرارته[٥]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يبتلعه؛ يقال: جرع الماء واجترعه وتجرَّعه بمعنى[٦]. وساغ الشَّرابُ في الحلق يسوغ سَوْغاً: إذا كان سَلِساً سهلاً، وأساغه اللهُ إساغةً[٧]. و«يَكَادُ» صلة، أي: يُسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] أي:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٦١٩ عن الضحاك. وأخرجه أيضاً عن مجاهد، وهو في تفسيره ١/٣٣٤، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/١٥٧، وتفسير أبي الليث ٢/٢٠٣، والمحرر الوجيز ٣/٣٣١.

(٢) زاد المسير ٤/٣٥٣.

(٣) في (د)و(م) والنكت والعيون (والكلام منه): كرهته.

(٤) الزهد لابن المبارك ـ زوائد نعيم بن حماد ـ (٣١٤)، وسنن الترمذي (٢٥٨٣)، وأخرجه من طريق ابن المبارك أيضاً أحمد (٢٢٢٨٥)، والنسائي في الكبرى (١١٢٦٣) وغيرهما، ونقل الترمذي بإثر الحديث عن البخاري قوله: لا نعرف عبيد الله بن بُسر إلا في هذا الحديث.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٤/٣٥٣.

(٦) تهذيب اللغة ١/٣٦١.

(٧) ينظر الوسيط للواحدي ٣/٢٧.

فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠]. فهذا يدلُّ على الإساغة. وقال ابن عباس: يُجيزه ولا يمرُّ به[١].

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي: يأتيه أسباب الموت من كل جهة: عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته، ومن قُدَّامه وخلفه[٢]، كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كلِّ مكانٍ من جسده، حتى من أطراف شعره[٣]؛ للآلام التي في كلِّ مكانٍ من جسده[٤]. وقال الضحَّاك: إنه لَيأتيه الموت من كلِّ ناحيةٍ ومكان، حتى من إبهام رجليه. وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سمَّاها موتاً، وهي من أعظم الموت[٥]. وقيل: إنه لا يبقى عضوٌ من أعضائه إلا وُكِّلَ به نوعٌ من العذاب؛ لو مات سبعين مرةً لكان أهونَ عليه من نوعٍ منها في فردِ لحظة؛ إما حيةٌ تَنهشُه، أو عقربٌ تَلسِبُه[٦]، أو نارٌ تَسفعُه، أو قيدٌ برجليه، أو غُلٌّ في عنقِه، أو سلسلةٌ يُقرَّنُ بها، أو تابوتٌ يكون فيه، أو زَقُّومٌ، أو حميمٌ، أو غيرُ ذلك من العذاب. وقال محمد بن كعب: إذا دعا الكافرُ في جهنم بالشراب فرآه، مات موتاتٍ، فإذا دنا منه؛ مات موتاتٍ، فإذا شرب منه؛ مات موتاتٍ، فذلك قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. قال الضحَّاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جُرَيج: تَعلَقُ رُوحُه في حَنْجَرتِه فلا تخرج من فِيه فيموتَ، ولا تَرجِعُ إلى مكانها من جوفه فتنفعَه الحياة[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢٨، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩، وزاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٣٢، والطبري ١٣/ ٦٢١، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢١٢.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٢٨.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٦) في (ظ): «تلسَعُه»، وكلاهما بمعنى.

(٧) كذا نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٣ لابن جريج، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٢١ عن ابن جريج، عن مجاهد.

ونظيره قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣]. وقيل: يخلق الله في جسده آلاماً، كلُّ واحدٍ منها كألم الموت. وقيل: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾؛ لتطاول شدائد الموت به، وامتداد سكراته عليه؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وبذلك وردت السنة[١]؛ فأحوالُ الكفار أحوالُ مَنِ استولى عليه سكراتُ الموت دائماً، والله أعلم.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي: من أمامه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: شديدٌ متواصلُ الآلامِ من غير فُتور؛ ومنه قوله: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣] أي: شدَّةً وقوة. وقال فُضَيل بن عِياض في قول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الأنفاس[٢].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النَّحْويُّون في رفع «مَثَلُ» فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء، والخبر مضمر؛ التقدير: وفيما يُتلى عليكم أو يُقَصُّ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ أي: كمثل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾[٣]. وقال الزَّجَّاج[٤]: أي: مَثَلُ الذين كفروا فيما يُتلى عليكم أعمالُهم كرماد. وهو عند الفرَّاء على إلغاء المَثَل، التقدير: والذين كفروا بربهم

---

(١) سلف من حديث أبي سعيد الخدري ١/ ٣٧٥ .

(٢) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٢٣ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٦ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٥٥ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٥٧ .

أعمالهم كرماد. وعنه أيضاً أنه على حذف مضاف؛ التقدير: مثلُ أعمالِ الذين كفروا بربهم كرماد. وذكر الأول عنه المهدويّ[١]، والثاني القُشَيريُّ والثَّعلبيُّ[٢]. ويجوز أن يكون مبتدأ، كما يقال: صفةُ فلانٍ أسمر، فـ «مَثَلُ» بمعنى صفة[٣]. ويجوز في الكلام جرُّ «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الَّذِينَ»[٤]، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

والمعنى: أعمالُهم مُحْبَطة غير مقبولة. والرَّماد: ما بقي بعد احتراق الشيء، فضربَ اللهُ هذه الآية مثلاً لأعمال الكفَّار في أنَّه يَمحقُها كما تَمحقُ الرِّيحُ الشديدةُ الرَّمادَ في يومٍ عاصف. والعَصْفُ: شدة الريح[٥]، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غيرَ اللهِ تعالى. وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثةُ أقاويل: أحدها: أنَّ العُصُوفَ وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصَفُ به؛ لأنَّ الرِّيحَ تكون فيه، فجاز أن يُقال: يومٌ عاصف، كما يقال: يومٌ حارٌّ ويومٌ باردٌ، والبرد والحرُّ فيهما. والثاني: أن يُريدَ: في يومٍ عاصِفِ الرِّيحِ؛ لأنها ذُكِرتْ في أول الكلام[٦]، كما قال الشاعر:

إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ[٧]

يريد: كاسفِ الشمسِ، فحذف؛ لأنه قد مرَّ ذِكْرُه؛ ذكرهما الهَرَويُّ[٨]. والثالث أنه من نعت الريح، غير أنه لمَّا جاء بعد اليوم أُتبِعَ إعرابَه، كما قيل: جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ. ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ[٩].

---

(١) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣١.

(٢) وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٢، ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٦٦، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٣.

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٢.

(٥) الصحاح (عصف).

(٦) في النسخ: الكلمة، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٤، والكلام فيه بنحوه.

(٧) عجز بيت لمسكين الدارمي، وهو في ديوانه ص٥٣، وصدره: وتضحك عرفان الدروع جلودنا.

(٨) وذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٥٤.

(٩) في النكت والعيون ٣/ ١٢٩، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٢٤، قال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٧: =

وقرأ ابنُ أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر: «في يومِ عاصفٍ»[1]. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعني: الكفار. ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد: في الآخرة، أي: من ثواب ما عملوا من البِرِّ في الدنيا؛ لإحباطه بالكفر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: الخسران الكبير، وإنما جعله كبيراً بعيداً؛ لفوات استدراكه بالموت.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا: رؤية القلب[2]؛ لأن المعنى: ألم ينتهِ عِلمُك إليه؟. وقرأ حمزة والكسائي[3]: «خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ومعنى «بِالْحَقِّ»: ليستدلَّ بها على قدرته. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس، أي: هو قادرٌ على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء، فلا تعصوه، فإنكم إن عصيتموه ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضلَ وأطوعَ منكم؛ إذ لو كانوا مثلَ الأولين فلا فائدةَ في الإبدال. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع[4] مُتعذِّر.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: برزوا من قبورهم، يعني يوم القيامة.

= هذا مما لا ينبغي أن يُحمل كتابُ الله جلَّ وعزَّ عليه، وقد ذكر سيبويه أن هذا من العرب غلط، واستدلَّ بأنهم إذا ثنَّوْا قالوا: هذان جحرا ضبٍّ خربان لأنه قد استبان بالتثنية والتوحيد.

(١) بإضافة «يوم» إلى «عاصف». وينظر المحتسب ١/ ٣٦٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٣٢.

(٢) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤.

(٤) في غير (ظ): منيع، وفي (ظ): ممتنع، والمثبت من زاد المسير ٤/ ٣٥٥.

والبُرُوز: الظُّهور. والبَرَاز: المكان الواسع؛ لظهوره، ومنه امرأة بَرْزة، أي: تظهر للناس[١]. فمعنى «بَرَزُوا»: ظهروا من قبورهم. وجاء بلفظ الماضي ومعناه الاستقبال[٢]، واتَّصل هذا بقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: وقاربوا لمَّا استفتحوا فأهلكوا، ثم بُعِثوا للحساب، فبرزوا لله جميعاً لا يسترهم عنه ساتر. «لِلهِ» لأجل أمر الله إياهم بالبروز. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ يعني الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم القادة: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ يجوز أن يكون تَبعٌ مصدراً، التقدير: ذوي تَبعٍ. ويجوز أن يكون جمعَ تابع، مثل: حارِس وحَرَس، وخادِم وخَدَم، وراصِد ورَصَد، وباقِر وبَقَر[٣]. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي: دافعون ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئاً، و«مِن» صلة؛ يُقال: أغنى عنه: إذا دفع عنه الأذى، وأغناه: إذا أوصل إليه النفع. ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ أي: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. وقيل: لو نجَّانا الله من العذاب لنجيناكم منه[٤].

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ هذا ابتداء؛ خبره: «أَجَزِعْنَا» أي: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مَهربٍ وملجأ[٥]. ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال: حَاصَ فلانٌ عن كذا ـ أي: فرَّ وراغ ـ يَحِيص حَيْصاً وحُيوصاً وحَيَصاناً[٦]، والمعنى: ما لنا وجهٌ نتباعدُ به عن النار.

---

(١) ينظر اللسان (برز).

(٢) زاد المسير ٣٥٦/٤ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ١٥٨/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣٦٨/٢ ، وتفسير الطبري ٦٢٦/٣ ، والوسيط ٢٨/٣ ، وتفسير البغوي ٣٠/٣ ، والمحرر الوجيز ٣٣٢/٣ .

(٤) النكت والعيون ١٢٩/٣ - ١٣٠ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) ينظر اللسان (حيص).

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يقولُ أهلُ النار إذا اشتدَّ بهم العذاب: تعالَوا نصبِرْ، فيصبرون خمس مئة عام، فلمَّا رأوا أنَّ ذلك لا ينفعهم قالوا: هَلُمَّ فلنجزَعْ، فيجزعون ويصيحون خمس مئة عام، فلمَّا رأوا أنَّ ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾»[1].

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: ذُكِرَ لنا أنَّ أهل النار يقول بعضهم لبعض: يا هؤلاء، قد نزلَ بكم من البلاء والعذاب ما قد تَرَون، فهلُمَّ فلنصبِرْ؛ فلعلَّ الصَّبرَ ينفعُنا كما صبرَ أهلُ الطَّاعةِ على طاعة الله، فنفعهُم الصَّبرُ إذْ صبروا فأجمعوا رأيهم على الصَّبر، فصبروا، فطالَ صبرُهم، فجزعوا، فنادَوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: مَنجًى، فقام إبليس عند ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ يقول: لستُ بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ﴾ الحديث بطوله، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة» بكماله[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبرٍ من نارٍ يسمعه الخلائق جميعاً[3]. ومعنى: «لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ» أي: حَصَل أهلُ الجنة في الجنة وأهلُ النار في النار[4]، على ما يأتي بيانُه في «مريم» عليها السلام[5]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: البعث والجنة والنار، وثواب المطيع وعقاب العاصي، فصدَقكم وعدَه، ووعدتُكم أن لا بعثَ ولا جنةَ ولا نارَ،

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠.

(٢) التذكرة ص٤١٨، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٦٢٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٣١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٦٢٨.

(٥) عند تفسير الآية (٣٤) منها.

ولا ثوابَ ولا عقابَ، فأخلفتُكم[١].

وروى ابن المبارك من حديث عُقْبةَ بنِ عامر، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فيقولُ عيسى: أدلُّكم على النبيِّ الأُمِّيِّ، فيأتوني، فيأذَنُ اللهُ لي أن أقومَ، فَيثُورُ مجلسي من أطيبِ ريحٍ شَمَّها أحدٌ، حتى آتيَ ربي فيُشفِّعني، ويجعلُ لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: قد وجدَ المؤمنون مَنْ يشفَعُ لهم، فمن يشفَعُ لنا؟ فيقولون: ما هو غيرَ إبليس، هو الذي أضلَّنا، فيأتونه فيقولون: قد وجد المؤمنون مَنْ يشفَعُ لهم، فاشفَعْ لنا فإنَّكَ أضلَلْتنا، فَيثُور مجلسُه من أنتنِ ريحٍ شمَّها أحدٌ، ثم يَعظُم نَحِيبُهم، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية[٢].

﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: هو إضافةُ الشيء إلى نفسه[٣]، كقولهم: مسجد الجامع. قاله الفرَّاء[٤]. وقال البصريون: وعدكم وعدَ اليومِ الحقِّ، أو: وعدكم وعدَ الوعدِ الحقِّ فصدَقكم، فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حُجَّةٍ وبيان، أي: ما أظهرتُ لكم حجَّةً على ما وعدتُكم وزيَّنتُه لكم في الدنيا، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أي: أغويتكم فتابعتموني. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هو استثناءٌ منقطع، أي: لكن دعوتُكم بالوَسواس فاستجبتم لي باختياركم ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[٥]. وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٣٠، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٤، والوسيط ٣/ ٢٩.

(٢) «المسند» (١١١) لابن المبارك، وفي «الزهد» (٣٧٤) له ـ زوائد نعيم بن حماد ـ وأخرجه من طريقه الطبري ١٣/ ٦٣٠ - ٦٣١، وفي إسناده رشدين بن سعد وعبد الرحمن بن زياد بن أنعُم الإفريقي، وهما ضعيفان. تقريب التهذيب.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي بقية النسخ: «إلى نعته».

(٤) ينظر اللسان (جمع).

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/٦٢٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥، والوسيط ٣/ ٢٩، وزاد المسير ٤/ ٣٥٧.

أي: على قلوبكم وموضع إيمانكم، لكن دعوتُكم فاستجبتُم لي. وهذا على أنه خَطَبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحدَ، وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فإنه يدلُّ على أنه خَطَب الكفَّارَ دون العاصين الموحِّدين، والله أعلم.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾: إذْ أجبتُموني[١] من غير حُجَّة. ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بمُغيثيَّ. والصَّارخُ والمستصرخ: هو الذي يطلب النُّصرةَ والمعاونة، والمُصْرِخُ: هو المغيث[٢]. قال سَلامة بن جَنْدَل:

كُـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فَـزِعٌ　　كـان الـصُّـراخُ لـه قَـرْعَ الـظَّـنـابـيـبِ[٣]

وقال أُميَّة بن أبي الصَّلْت:

ولا تَـجزَعـوا إنّـي لـكـم غـيـرُ مُـصْـرِخٍ　　ولـيـس لـكـم عـنـدي غَـنَـاءٌ ولا نَـصْـرُ[٤]

يقال: صَرَخ فلانٌ، أي: استغاث، يَصرُخُ صَرخاً وصُرَاخاً وصرخة[٥]. واصطَرخَ بمعنى صَرَخَ. والتَّصرُّخ: تَكلُّف الصُّراخ، والمُصْرِخ: المُغِيث، والمستصرِخ: المستغيث؛ تقول منه: استصرخَني فأصرَخْتُه. والصَّرِيخ: صوت المستصْرِخ. والصَّرِيخُ أيضاً: الصارخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد. قاله الجوهري[٦]. وقراءة العامَّة: «بِمُصْرِخِيَّ» بفتح الياء[٧]. وقرأ الأعمش وحمزة:

---

(١) في (م): إذا جئتموني، وهو تصحيف.

(٢) تهذيب اللغة ٧/ ١٣٦.

(٣) ديوان سلامة ص١٢٥، والمفضليات ص١٢٤، والظنابيب جمع ظُنبوب: وهو حرف الساق اليابس من قُدُم، وقرع لذلك الأمر ظنبوبه: تهيَّأ له. اللسان (ظنب).

(٤) ذكره في النكت والعيون ٣/ ١٣١، ولم نقف عليه في ديوان أمية.

(٥) في معاجم اللغة: صرخ يصرخ صُراخاً وصَريخاً، ولم نقف على المصادر الأخرى التي ذكرها المصنف.

(٦) في الصحاح (صرخ).

(٧) السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤.

«بِمُصْرِخِيِّ» بكسر الياء[1]. والأصل فيها: بمصرخيني[2]، فذهبت النون للإضافة، وأُدغِمت ياءُ الجماعة في ياء الإضافة، فمن نصبَ فلأجل التضعيف، ولأنَّ ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعيَّن فيها الفتح، مثل: هَوايَ وعَصايَ، فإن تحرَّكَ ما قبلها جازَ الفتحُ والإسكان، مثل: غلامِيَ وغلامَتي، ومن كسرَ فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة[3]. وقال الفرّاء[4]: قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقَلَّ مَنْ سَلِمَ منهم عن خطأ. وقال الزجّاج[5]: هذه قراءةٌ رديئةٌ ولا وجهَ لها إلا وجهٌ ضعيف. وقال قُطْرُب: هذه لغة بني يَرْبُوع، يزيدون على ياء الإضافة ياء[6]. القُشَيريُّ: والذي يُغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبيِّ ﷺ فلا يجوز أن يُقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو رديءٌ، بل هو في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعلَّ هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرتُ بإشراككم إيَّايَ مع الله تعالى في الطاعة؛ فـ «ما» بمعنى المصدر[7]. وقال ابنُ جريج: إني كفرتُ اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشِّرك بالله تعالى. قتادة: إني عصيتُ الله. الثوريُّ: كفرتُ بطاعتكم إياي في الدنيا. ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات ردٌّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم، انظُرْ إلى قول المتبوعين: «لو هدانا اللهُ لَهَدَيناكُمْ» وقول إبليس: «إنَّ اللهَ وعدَكُمْ وَعْدَ الحقِّ»؛ كيف اعترفوا بالحقِّ في صفات الله تعالى وهم في دَرَكات النار، كما قال في

(١) قراءة حمزة من السبعة، أما قراءة الأعمش فقد نقلها عنه الزجاج في معاني القرآن ٣/١٥٩، والنحاس في إعراب القرآن ٢/٣٦٨، ومكي في مشكل إعراب القرآن ١/٤٠٣.

(٢) في (م): بمصرخيين، وهو تحريف وفي (ظ): بمصرخينني.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/٤٠٣، والوسيط ٣/٢٩.

(٤) في معاني القرآن ٢/٧٥ بمعناه.

(٥) في معاني القرآن ٣/١٥٩.

(٦) نقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/٤٠٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/٣٥٧.

(٧) المحرر الوجيز ٣/٣٣٤.

موضعٍ آخر: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ [الملك: ٨-١١]. واعترافهم في دَرَكاتِ لَظَى بالحقِّ ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه في الدنيا؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]. و«عَسى» من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ أي: في جنَّاتٍ؛ لأن «دخلتُ» لا يتعدَّى، كما لا يتعدَّى نقيضُه، وهو خرجتُ، ولا يُقاس عليه. قاله المهدوي[1]. ولمَّا أخبر تعالى بحال أهل النار؛ أخبر بحال أهل الجنة أيضاً.

وقراءة الجماعة: «أُدْخِلَ» على أنه فِعْلٌ مبني للمفعول. وقرأ الحسن: «وَأُدْخِلُ» على الاستقبال والاستئناف[2].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» ولم يقل: بإذني؛ تعظيماً وتفخيماً. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ تقدم في «يونس»[3]. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لمَّا ذكر تعالى مَثَلَ أعمال

---

(١) قال مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٥: الدليل على أن دخلت لا يتعدى، أن نقيضه لا يتعدى، وهو: خرجت، وكل فعل لا يتعدى نقيضه لا يتعدى هو.

(٢) المحتسب ١/ ٣٦١.

(٣) ١٠/ ٤٥٩.

الكفار، وأنها كرمادٍ اشتدَّتْ به الريح في يومٍ عاصف؛ ذكر مَثَلَ أقوالِ المؤمنين وغيرها، ثم فسَّر ذلك المَثَل فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثَّمر، فحذف؛ لدلالة الكلام عليه. قال ابن عباس: الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، والشجرة الطيبة: المؤمن[١]. وقال مجاهد وابنُ جريج: الكلمة الطيبة: الإيمان[٢]. عطية العَوْفيُّ والربيع بن أنس: هي المؤمن نفسه[٣]. وقال مجاهد أيضاً وعكرمة: الشَّجرة: النَّخلة[٤]. فيجوز أن يكون المعنى: أصل الكلمة في قلب المؤمن ـ وهو الإيمان ـ شبَّهه بالنخلة في المَنبِت، وشبَّه ارتفاعَ عملِه في السماء بارتفاع فروع النَّخلة، وثوابَ اللهِ له بالثَّمر[٥].

ورُوِيَ من حديث أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ مَثَلَ الإيمان كمثَلِ شجرةٍ ثابتةٍ، الإيمانُ عُروقُها، والصلاةُ أصلُها، والزكاةُ فروعُها، والصيامُ أغصانُها، والتآخي[٦] في اللهِ نباتُها، وحُسنُ الخُلُقِ ورقُها، والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها»[٧].

ويجوز أن يكون المعنى: أصل النَّخلة ثابتٌ في الأرض، أي: عروقُها تشرب من الأرض، وتسقيها السماءُ من فوقها، فهي زاكيةٌ نامية.

وخرَّجَ الترمذيُّ من حديث أنس بن مالك قال: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بقِناعٍ فيه

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٥، والطبراني في الدعاء (١٥٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ (٢٠٦).

(٢) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٦ عنهما، وذكره الماوردي ٣/ ١٣٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٩، والرامهرمزي في الأمثال ص١٠٩ عن مجاهد، والطبري ١٣/ ٦٤١، والرامهرمزي ص١٠٩ عن عكرمة.

(٥) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠.

(٦) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في «تنزيه الشريعة»، وفي بقية النسخ: «التأذي».

(٧) أورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة» ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤ وعزاه للحاكم، وذكر بأنه من مرسل حميد الطويل عن أنس، ثم قال: لم يُبيِّن ـ يعني الحاكم ـ علَّته مع إرساله، وهو من طريق محمد السلمي النيسابوري، وأظنه ابن أشرس، وهو متروك متهم، وشيخه حمزة بن شداد الجزري ما عرفتُه، والله أعلم.

رُطَبٌ، فقال: «مَثَلُ كلمةٍ طيِّبةٍ كشجرةٍ طيِّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماءِ، تُؤْتي أُكُلَها كُلَّ حينٍ بإذْنِ رَبِّها». قال: «هي: النَّخلة، ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأرضِ ما لها مِنْ قرار». قال: «هي الحنْظَل». ورُوي عن أنسٍ قولَه، وهو أصحُّ[١]. وخرَّجَ الدَّارقطنيُّ عن ابن عمر قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هي؟» فوقعَ في نفسي أنها النَّخلة[٢].

قال السُّهَيليُّ[٣]: ولا يصِحُّ فيها ما رُويَ عن عليٍّ بن أبي طالب أنها جَوْزة الهند؛ لِما صحَّ عن النبيِّ ﷺ من حديث ابن عمر: «إنَّ من الشجرة شجرةً لا يسقطُ ورقُها، وهي مَثَلُ المؤمن، خبِّروني ما هي؟ ثم قال: «هي النخلة». خرَّجه مالك في «الموطأ» من رواية ابن القاسم وغيره، إلَّا يحيى؛ فإنه أسقطه من روايته، وخرَّجه أهل الصحيح[٤]، وزاد فيه الحارث بن أسامة[٥] زيادةً تساوي رِحلة، عن النبيِّ ﷺ قال: «وهي النخلة، لا تسقط لها أنمَلة، وكذلك المؤمنُ لا تسقط له دعوة». فبيَّن معنى الحديث والمماثلة.

قلت: وذكر الغَزْنَويُّ عنه عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ المؤمن كالنَّخلة، إن صاحَبْتَه نفعَكَ، وإن جالَسْتَه[٦] نفعَكَ، وإن شاوَرْتَه نفعَكَ، كالنخلة كلُّ شيءٍ منها

---

(١) سنن الترمذي (٣١١٩)، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٨)، وأبو يعلى (٤١٦٥)، والطبري ١٣/٦٣٨ ، وابن حبان (٤٧٥) مرفوعاً. والقناع: الطبق الذي يؤكل عليه. النهاية (قنع). ثم أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١١٩)، والطبري ١٣/٦٣٨ موقوفاً.

(٢) لم نقف على من خرَّجه بهذا اللفظ من حديث ابن عمر.

(٣) في التعريف والإعلام ص٨٥ .

(٤) الموطأ ص٣٣٩ ، رواية محمد بن الحسن الشيباني، وأخرجه أحمد (٥٢٧٤)، والبخاري (١٣١)، والترمذي (٢٨٦٧) من طريق مالك. وأخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١) من غير طريق مالك.

(٥) كما في بغية الباحث (١٠٦٧)، وفي إسناده محمد بن ربيع، ولم نقف له على ترجمة.

(٦) في (ظ): جافيته.

يُنتفَعُ به»[١]. وقال: «كُلُوا من عَمَّتكم ـ يعني النخلة ـ خُلِقَتْ من فَضْلةِ طينة آدم عليه السلام»[٢].

وكذلك أنها برأسها تَبقى، وبقلبها تَحيا، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى. وقد قيل: إنَّها لمَّا كانت أشبهَ الأشجار بالإنسان شُبِّهت به؛ وذلك أنَّ كلَّ شجرةٍ إذا قُطِعَ رأسُها تشعَّبتِ الغصونُ من جوانبها، والنخلةُ إذا قُطِعَ رأسُها يبِستْ وذهبت أصلاً، ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح؛ لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح[٣]؛ قال النبيُّ ﷺ: «خيرُ المالِ سِكَّةٌ مأبورةٌ، ومُهْرَةٌ مأمورة»[٤]. والإبارُ: اللَّقاح[٥]، وسيأتي في سورة «الحجر»[٦] بيانه.

ولأنها من فضلة طينة آدم. ويُقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا صوَّرَ آدم من الطِّين فَضَلتْ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥٤١)، والرامهرمزي في الأمثال (٣٠) عن ابن عمر مرفوعاً، وفي لفظ الطبراني: «كمثل العطار» وفي لفظ الرامهرمزي: «مثل النخلة أو النحلة» على الشك، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٣: فيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس.

لكن رواه الرامهرمزي (٣١) بإسناد آخر عنه ورجاله ثقات، بلفظ: «كمثل الشجرة...» وأخرجه الطبراني (١٣٥١٤) بإسنادٍ ثالث عنه أيضاً صححه ابن حجر في الفتح ١/ ١٤٧، ولفظه: «مثل المؤمن مثل النخلة ما أتاك منها نفعك».

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٥٥)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٥٦، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٤، والرامهرمزي (٣٥)، وابن عدي ٦/ ٢٤٢٤ من طريق مسرور بن سعيد، عن الأوزاعي، عن عروة بن رويم، عن علي مرفوعاً، وعند الجميع: «أكرموا عمتكم» بدلاً من «كلوا من». قال ابن حبان: مسرور ابن سويد يروي عن الأوزاعي المناكير التي لا يجوز الاحتجاج بها. وقال ابن عدي: هذا حديث عن الأوزاعي منكر، وعروة بن رويم عن علي ليس بالمتصل، ومسرور بن سعيد غير معروف، لم أسمع بذكره إلا بهذا الحديث. وأخرجه ابن عدي أيضاً ٢/ ٥٧٨ عن ابن عمر مرفوعاً، وفي إسناده جعفر بن أحمد بن علي. قال ابن عدي (وقد أخرج له حديثاً آخر بعده): لا أشك أن جعفراً وضعهما.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٣، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٨٤٥) من حديث سويد بن هبيرة ﷺ، وهو حديث ضعيف.

(٥) والسِّكة: الطريقة المصطفة من النخل. ومُهرةٌ مأمورة: كثيرة النسل والنِّتاج. النهاية (أبر) و(أمر).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

قطعةُ طينٍ، فصوَّرها بيده، وغرسها في جنَّة عَدْن. قال النبيُّ ﷺ: «أكرموا عَمَّتكم» قالوا: ومن عمَّتنا يا رسول الله؟ قال: «النخلة»[١].

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ قال الربيع: «كُلَّ حِينٍ»: غُدوةً وعشِيةً، كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخرَه. وقاله ابن عباس[٢]. وعنه: «تُؤْتِي أُكُلَهَا كلَّ حِينٍ» قال: هو شجر جوز الهند، لا تتعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر. شبَّه عمل المؤمن لله عزَّ وجلَّ في كلِّ وقتٍ بالنخلة التي تُؤتي أُكُلَها في أوقاتٍ مختلفة. وقال الضحَّاك: كلَّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، شتاءً وصيفاً، يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها[٣]. وقال النحاس[٤]: وهذه الأقوال متقاربةٌ غيرُ متناقضة؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة ـ إلا من شذَّ منهم ـ بمعنى الوقت، يقعُ لقليلِ الزمان وكثيرِه، وأنشد الأصمعيُّ بيتَ النَّابغة:

تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ مِن سُوءِ سُمِّها تُطَلِّقُه حِيناً وحِيناً تُراجِعُ[٥]

فهذا يُبيِّن لك أنَّ الحين بمعنى الوقت، فالإيمان ثابتٌ في قلب المؤمن، وعملُه وقولُه وتسبيحُه عالٍ مرتفعٌ في السماء ارتفاعَ فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النَّخلة في أوقات السنة كلِّها، من الرُّطَب والبُسْر والبلح والزَّهْو والتَّمر والطَّلع[٦]. وفي روايةٍ عن ابن عباس: إن الشجرةَ الطيبةَ[٧] شجرةٌ في الجنة تُثمِرُ في كل وقت.

---

(١) ذكره البغوي ٣/ ٣٣ بهذا اللفظ، وقد تقدم آنفاً بغير هذا اللفظ، وذكرنا علته ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ و ٦٥١ عن الربيع، و١٣/ ٦٤٣ و ٦٤٤ عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٨٠ ، وفيه: طوراً وطوراً، بدل: حيناً وحيناً.

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠ .

(٧) كلمة الطيبة ليست في (م).

و«مَثَلاً» مفعول بـ «ضَرَبَ»، و«كلمةً» بدلٌ منه، والكاف في قوله: «كشجرةٍ» في موضع نصبٍ على الحال من «كَلِمَة»؛ التقدير: كلمةً طيبةً مشبَّهةً بشجرةٍ طيبة[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ لمَّا كانتِ الأشجارُ تؤتي أُكُلَها كلَّ سنةٍ مرةً، كان في ذلك بيانُ حكم الحين؛ ولهذا قلنا: من حلف ألَّا يُكلِّم فلاناً حيناً، ولا يقول كذا حيناً: إنَّ الحين سنة[٢]. وقد ورد الحينُ في موضعٍ آخرَ يُرادُ به أكثر من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١] قيل في «التفسير»: أربعون عاماً. وحكى عكرمةُ أنَّ رجلاً قال: إن فعلتُ كذا وكذا إلى حينٍ فغلامُه حُرٌّ، فأتى عمرَ بن عبد العزيز فسأله، فسألني عنها، فقلتُ: إنَّ من الحين حيناً لا يُدرَكُ، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء:١١١] فأرى أن تُمسِكَ ما بين صِرام النَّخلة إلى حَمْلِها، فكأنه أعجبه[٣]. وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره[٤]. وقد مضى ما للعلماء في الحين في «البقرة»[٥] مستوفًى والحمد لله.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمة الخبيثة: كلمة الكفر[٦].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/٣٣٥، وذكر أبو حيان في البحر ٥/٤٢١، أنه على هذا الوجه يكون قوله: «كشجرة» نعتاً للكلمة.

(٢) سلف ١/٤٧٩، وقد عزاه المؤلف هناك إلى ابن خويزمنداد في أحكامه.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/٦٤٩ - ٦٥٠، ولكن ذكر فيه الآية الآنفة الذكر من سورة الإنسان بدلاً من آية الأنبياء. وسيرد بسياق آخر عند تفسير الآية الأخيرة من سور ص.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٠٨.

(٥) ١/٤٧٧ - ٤٨٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/٢٠٦، والوسيط للواحدي ٣/٣٠.

وقيل: الكافر نفسه[١]. والشجرة الخبيثة: شجرة الحَنْظَل كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٢]، وعن ابن عباس أيضاً: أنها شجرةٌ لم تُخلَقْ على الأرض[٣]. وقيل: هي شجرة الثُّوم عن ابن عباس أيضاً[٤]. وقيل: الكَمْأَةُ أو الطُّحلَبة. وقيل: الكَشُوث[٥]، وهي شجرةٌ لا ورقَ لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وهُـمْ كَـشُـوثٌ فـلا أصـلٌ ولا ورقٌ[٦]

﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: أُقتُلِعَتْ من أصلها. قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط:

هـو الـجـلاءُ الـذي يَـجـتـثُّ أصـلَـكُـمُ فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا[٧]

وقال المؤرِّج: أُخِذَتْ جُثَّتُها وهي نفسُها، والجُثَّةُ: شخصُ الإنسان قاعداً أو نائماً[٨]. وَجَثَّه: قَلَعه، واجتثه: اقتلعه من فوق الأرض[٩]، أي: ليس لها أصلٌ راسخٌ يشرب بعروقه من الأرض. ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: من أصلٍ في الأرض. وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر؛ لا حُجَّةَ له ولا ثباتَ ولا خيرَ فيه، وما يصعَدُ له قولٌ طيِّبٌ ولا عملٌ صالح[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٨ - ٦٥٩ عن ابن عباس والربيع وعطية العوفي.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٣ -٦٥٤ ، والرامهرمزي في الأمثال ص١٠٩ عن مجاهد، وسلف حديث أنس في المسألة الأولى في الآية قبلها.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٥٤ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٤ ، والوسيط ٣/ ٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٠ .

(٦) صدر بيت، وعجزه: ولا نسيمٌ ولا ظلٌّ ولا ثمرُ. وذكره الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٢٨٤ ، والصفدي في تصحيح التصحيف ص١٢٣ . والجوهري في الصحاح (كشث). وقال فيه الكشوث: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والبيت في ديوان لقيط بن يعمر ص٨٦ وفيه: «رأيا» بدل «يوماً».

(٨) المثبت من (ظ) والصحاح، وفي بقية النسخ: قائماً.

(٩) ينظر الصحاح (جثث).

(١٠) تفسير البغوي ٣/ ٣٣ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦١ .

وروى معاوية بن صالح، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس[١] في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قال: لا إله إلا اله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ لا إله إلا الله ثابتة في قلب المؤمن؛ «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ» قال: الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: المشرك، ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ليس للمشرك أصلٌ يعمل عليه[٢].

وقيل: يرجع المَثَلُ إلى الدعاء إلى الإيمان، والدعاء إلى الشرك؛ لأنَّ الكلمةَ يُفهم منها القولُ والدعاءُ إلى الشيء.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال ابن عباس: هو لا إله إلا الله.

وروى النسائيُّ عن البراء قال[٣]: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر. يُقال: مَنْ ربُّكَ؟ فيقول: ربِّيَ الله، وديني دينُ محمد ﷺ، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾[٤].

قلتُ: وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البراء[٥] قوله[٦]،

---

(١) قوله: «عن ابن عباس» من (ظ) وتفسير الطبري، وليس في باقي النسخ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٥ و ٦٥٦ - ٦٥٧ .

(٣) كلمة «قال» مكررة في (ف) و(م).

(٤) أخرجه إلى قوله: نزلت في عذاب القبر، موقوفاً النسائي في المجتبى ٤/ ١٠١ ، وفي السنن الكبرى (١١٢٠٢). وأخرجه بتمامه موقوفاً ابن أبي شيبة ٣/ ٣٧٧ ، والطبري ١٣/ ٦٥٨ ، والآجري في الشريعة ص٣٧١ من طريق آخر عن البراء.

(٥) بعدها في (م): «أنه».

(٦) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٤) بمثل رواية النسائي.

والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النَّسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم، عن البراء، عن النبيِّ ﷺ[١]. وذكر البخاريُّ[٢]: حدثنا حفص بن عمر، قال: حدثنا شُعبة، عن علقمة بن مَرْثَد، عن سعد بن عُبيدة، عن البراء بن عازب، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أُقْعِدَ المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ، ثم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾». وقد بيَّنَّا هذا الباب في كتاب «التذكرة»[٣]، وبيَّنا هناك من يُفتَنُ في قبره ويُسأل، فمن أراد الوقوف عليه تأمَّله هناك.

قال سهل بن عمَّار: رأيتُ يزيد بن هارون في المنام بعد موته، فقلتُ له: ما فعلَ اللهُ بك؟ فقال: أتاني في قبري مَلَكانِ فظَّانِ غليظان، فقالا: ما دِينُكَ؟ ومن ربُّكَ؟ ومن نَبيُّكَ؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاء وقلتُ: أَلِمِثلي يُقال هذا وقد عَلَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سَنة؟! فذهبا وقالا: أكَتَبْتَ عن حَريز بن عثمان؟ قلتُ: نعم. فقالا: إنَّه كان يبغض علياً[٤] فأبْغَضَه الله.

وقيل: معنى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾: يُديمهمُ الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله ابن رَواحة:

يُثَبِّتُ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ ... تَثبيتَ موسى ونَصراً كالذي نُصِرا[٥]

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٧١): (٧٣)، والمجتبى ٤/ ١٠١ - ١٠٢ ، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٠٠)، وسنن أبي داود (٤٧٥٠)، وسنن ابن ماجه (٤٢٦٩)، وهو في مسند أحمد (١٨٥٧٥)، وصحيح البخاري بإثر الحديث (١٣٦٩) (ولم يسق لفظه) وسنن الترمذي (٣١٢٠).

(٢) في صحيحه (١٣٦٩)، وتصحف اسم شيخه في النسخ إلى جعفر بن عمر.

(٣) ص١٢٥ .

(٤) وقع في النسخ: عثمان، والمثبت من التذكرة، وشرف أصحاب الحديث ص١٠٨ ، وصفة الصفوة ٣/ ١٨ ، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٣٦٥ ، ومن غيرها من كتب التراجم.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٥ ، والبيت في ديوان عبد الله بن رواحة ص٤٦ ، وفي مطبوعه: «فثبَّت» بدل «يثبت» و«نصروا» بدل «نصرا».

وقيل: يثبتهم في الدارين جزاءً لهم على القول الثابت. وقال القَفَّال وجماعة: ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: في القبر؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يُبعثوا، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: عند الحساب[١]. وحكاه الماورديُّ عن البراء قال: المراد بالحياة الدنيا: المُساءلة في القبر، وبالآخرة: المُساءلة في القيامة[٢]. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: عن حُجَّتهم في قبورهم كما ضَلُّوا في الدنيا بكفرهم، فلا يُلقِّنهم كلمةَ الحقِّ، فإذا سُئِلوا في قبورهم قالوا: لا ندري. فيقولان: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، وعند ذلك يُضرَب بالمقامع على ما ثبت في الأخبار[٣]، وقد ذكرنا ذلك في كتاب «التذكرة»[٤]. وقيل: يُمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من عذابِ قومٍ وإضلالِ قوم. وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ لمَّا وصفَ مُساءلة مُنْكَرٍ ونكير وما يكون من جواب الميت، قال عمر: يا رسول الله، أيكونُ معي عقلي؟ قال: «نعم» قال: كُفيتُ إذاً. فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية[٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: جعلوا بدلَ نعمة الله عليهم الكفرَ في تكذيبهم محمداً ﷺ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد

---

(١) ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٠٦ عن الربيع بن أنس.

(٢) نقله عن الماوردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧ .

(٣) منها ما أخرجه أحمد (١١٠٠٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وأحمد (١٢٢٧١)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ.

(٤) ص١١٣ - ١١٥ .

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٦٦٠٣) دون ذكر سبب نزول الآية من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

مشركو قريش، وأنَّ الآية نزلت فيهم. عن ابن عباس وعليٍّ وغيرهما[١]. وقيل: نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي ﷺ يوم بدر[٢]. قال أبو الطُّفَيل: سمعت عليًّا ﷺ يقول: هُمْ قريشٌ الذين نُحِروا يوم بدر[٣]. وقيل: نزلت في الأفْجَرَيْن من قريش بني مخزوم وبني أمية، فأما بنو أمية فمُتِّعوا إلى حين، وأما بنو مخزوم فأُهلكوا يوم بدر. قاله علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما[٤]. وقول رابع: أنهم مُتنصِّرة العرب جَبَلَة بن الْأَيْهَم وأصحابه حين لُطِم[٥]، فجعل له عمرُ القصاصَ بمثلها، فلم يرضَ، وأَنِفَ، فارتدَّ مُتنصِّراً، ولَحِقَ بالروم في جماعةٍ من قومه. عن ابن عباس وقتادة[٦]. ولمَّا صار إلى بلد الروم ندِمَ فقال:

تَنصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ ... وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تَكنَّفني منها لَجَاجٌ وَنَخْوةٌ ... وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالْعَوَرْ
فيا ليتَني أرعى المَخاضَ ببلدةٍ ... ولم أُنكرِ القولَ الذي قاله عُمرْ

وقال الحسن: إنها عامةٌ في جميع المشركين[٧]. ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي: أنزلوهم. قال ابن عباس: هم قادة المشركين يوم بدر[٨]. «أَحلُّوا قَوْمَهُمْ» أي: الذين اتبعوهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧١ - ٦٧٢ عن علي ﷺ.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٢ عن علي ﷺ، و ١٣/ ٦٧٣ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) ذكره بهذا اللفظ البغوي ٣/ ٣٥ ، وأخرجه عنه النسائي في الكبرى (١١٢٠٣) والطبري ١٣/ ٦٧١ بلفظ: هم كفار قريش يوم بدر.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٦٩ - ٦٧٠ عن عمر ﷺ، و١٣/ ٦٧٠ ، والحاكم ٢/ ٣٥٢ والواحدي في الوسيط ٣/ ٣١ عن علي ﷺ، وأورده في زاد المسير ٤/ ٣٤٤ عن عمر وعلي رضي الله عنهما.

(٥) في (ظ): لطم رجلاً، وهي رواية أخرى في قصته أنه لطم رجلاً وفرَّ من القصاص، ينظر مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٣٦٨-٣٧٤ ، والبداية والنهاية ١١/ ٢٦٣-٢٦٩ ، ونهاية الأرب للنويري ١٥/ ٣١١-٣١٥ .

(٦) هو في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ ، عن ابن عباس وحده، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٧ مختصراً، وقال: لم يُرد ابن عباس أنها فيه نزلت؛ لأن نزول الآية قبل قصته، وإنما أراد أنها تحصر من فعل جبلة إلى يوم القيامة.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٦ ، وزاد المسير ٤/ ٣٤٤ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٣٢ ، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٣٦ لقتادة، وهو أحد الأقوال في شرح قوله: الذين بدلوا نعمة الله كفراً. وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٥ و ٦٧٦ وعن أبي مالك وقتادة.

﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قيل: جهنم. قاله ابن زيد. وقيل: يوم بدر. قاله عليٌّ بن أبي طالب ومجاهد. والبوار: الهلاك[١]؛ ومنه قول الشاعر:

فلم أرَ مثلَهمْ أبطالَ حَرْبٍ غداةَ الحرب إذْ خِيفَ البَوارُ[٢]

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ بيَّن أنَّ دار البوار جهنم كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ لأن جهنَّمَ منصوبةٌ على الترجمة عن «دار البوار»، فلو رفعَها رافعٌ بإضمارٍ[٣]، على معنى: هي جهنم، أو بما عادَ من الضمير في «يَصْلَونها»؛ لَحَسُنَ الوقف على «دار البَوار»[٤]. ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: المستقرّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أصناماً عبدوها، وقد تقدَّم في «البقرة»[٥]. ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: عن دينه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج: ﴿لِيَضِلَّ عَن سَبيلِ اللَّهِ﴾[٦] [الآية:٩]، ومثله في «لقمان» [الآية:٦]، و«الزمر» [الآية:٨]، وضَمَّها الباقون على معنى: لِيُضِلُّوا الناسَ عن سبيله، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضِلُّون عن سبيل الله على اللزوم، أي: عاقبتهم إلى الإضلال والضلال، فهذه لام العاقبة[٧].

﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ وعيدٌ لهم، وهو إشارةٌ إلى تقليل ما هم فيه من ملاذِّ الدنيا؛ إذ هو منقطع. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مَردُّكم ومرجِعَكم إلى عذاب جهنم.

---

(١) الصحاح (بور).

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٦ - ١٣٧ ، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٣/ ٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٣) في (ظ): بإضمار مبتدأ.

(٤) الإيضاح في الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٤١ .

(٥) ١/ ٣٤٧ .

(٦) السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٣٤ .

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨ أنها لام العاقبة على القراءة بفتح الياء، وأنها لام «كي» على القراءة بضمها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٨٨) من «يونس».

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إنَّ أهل مكة بدَّلوا نعمةَ الله بالكفر، فقُلْ لمن آمنَ وحقَّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس، أي: قُلْ لهم: أقيموا، والأمر معه شرطٌ مُقدَّر، تقول: أطِعِ اللهَ يُدخِلْكَ الجنة؛ أي: إن أطعتَه يُدخِلْكَ الجنة. هذا قول الفراء[1]. وقال الزجّاج[2]: «يُقيموا» مجزومٌ بمعنى اللام، أي: ليقيموا، فأُسقِطَتِ اللامُ؛ لأنَّ الأمر دلَّ على الغائب بـ «قل». قال: ويَحتملُ أن يُقال: «يُقيموا» جوابُ أمرٍ محذوف؛ أي: قُلْ لهم: أقيموا الصلاةَ يُقيموا الصلاةَ[3].

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: الزكاة. عن ابن عباس وغيره[4]. وقال الجمهور: السِّرُّ ما خَفِيَ، والعلانيةُ ما ظهر. وقال القاسم بن يحيى: إنَّ السِّرَّ التطوعُ، والعلانيةَ الفرض[5]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوَّداً عند قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [الآية: ٢٧١][6].

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ تقدَّم في «البقرة» أيضاً[7]. و«خِلالٌ» جمع خُلَّة، كقُلَّة وقِلال. قال:

فلستُ بمَقْليِّ الخِلالِ ولا قالِ[8].

---

(١) بمعناه في معاني القرآن له ٢/ ٧٧ . ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٣٨ عن سيبويه قوله: هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إن تقل لهم أقيموا يقيموا.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ١٦٢ .

(٣) وهو أيضاً قول المبرد في المقتضب ٢/ ٨٤ ، ونقله عنه مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٣٧ .

(٦) ٤/ ٣٥٩ .

(٧) ٤/ ٢٥٩ - ٢٦٢ .

(٨) عجز بيت لامرئ القيس، وصدره: صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى، وهو في ديوانه ص٣٥ .

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أبدَعها واخترَعها على غير مثالٍ سبق. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السَّحاب ﴿مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: من الشجر ثمرات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ تقدَّم معناه في «البقرة»[(1)]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ يعني: البحار العذبة؛ لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحار المالحة؛ لاختلاف المنافع من الجهات. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره، والدُّؤوب: مرور الشيء في العمل على عادةٍ جارية. وقيل: دائبين في السير امتثالاً لأمر الله، والمعنى: يجريان إلى يوم القيامة لا يَفترُان. رُوي معناه عن ابن عباس[(2)]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله في النهار، كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم من كل مسؤولٍ سألتُموه شيئاً؛ فحذف عن الأخفش[(3)]. وقيل: المعنى: وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه، ومن كلٍّ ما لم تسألوه، فحذف، فلم نسأله شمساً ولا قمراً، ولا كثيراً من نعمه التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١][(4)]، على ما يأتي.

---

(١) ٢/ ٤٩٤ .

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ١٦٣ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦٤ .

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٠٠ .

(٤) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٦٤ - ٣٦٥ عن ابن الأنباري.

وقيل: «مِن» زائدة، أي: آتاكم كلَّ ما سألتُموه[١].

وقرأ ابن عباس والضحَّاك وغيرُهما: «وآتاكُمْ مِنْ كُلٍّ» بالتنوين «ما سألْتُمُوه»[٢]، وقد رُوِيَتْ هذه القراءة عن الحسن والضحَّاك وقَتادة؛ هي على النفي، أي: من كلٍّ لم[٣] تسألوه، كالشمس والقمر وغيرهما[٤]. وقيل: من كلِّ شيء ما سألتُموه، أي: الذي ما سألتموه[٥].

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: نِعَمَ الله ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ ولا تطيقوا عَدَّها، ولا تقوموا بحصرها؛ لكثرتها[٦]، كالسَّمع والبصر وتقويم الصُّوَر، إلى غير ذلك من العافية والرزق، نِعَمٌ لا تحصى، وهذه النّعم من الله، فَلِمَ تبدلون نِعَمَ الله بالكفر؟! وهلا استعنتُم بها على الطاعة؟!.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ الإنسان لفظ جنس، وأراد به الخصوص[٧]. قال ابن عباس: أراد أبا جهل[٨]. وقيل: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ يعني: مكة. وقد مضى

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٢.

(٢) المحتسب ١/ ٣٦٣، وهي قراءة شاذة.

(٣) قبلها في (م) زيادة «ما».

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٦٥، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٨٥ عن الضحاك وقتادة.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٦٣.

(٦) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٦، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٧) قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٦٤: هذا اسم جنسٍ يقصد به الكافر خاصةً.

(٨) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.

في «البقرة»[١] . ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني جانباً عن عبادتها[٢]. وأراد بقوله: «بنيَّ» بنيه من صُلْبه[٣]، وكانوا ثمانية، فما عبدَ أحدٌ منهم صنماً[٤]. وقيل: هو دعاءٌ لمن أراد الله أن يدعوَ له.

وقرأ الجَحْدَريُّ وعيسى «وَأَجْنِبْني» بقطع الألف[٥]، والمعنى واحد؛ يقال: جَنَبْتُ ذلك الأمر، وأجنَبْتُه وجَنَّبْتُه إيَّاه، فتجانَبَه واجتَنَبه، أي: تركَه[٦]. وكان إبراهيم التَّيْميُّ يقول في قصصه: مَنْ يأمنُ البلاءَ بعد الخليل حين يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ كما عبدَها أبي وقومي[٧]؟!

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لمَّا كانت سبباً للإضلال أضافَ الفعل إليهنَّ مجازاً؛ فإنَّ الأصنام جماداتٌ لا تفعل[٨]. ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ في التوحيد ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ أي: أصرَّ على الشِّرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قيل: قال هذا قبل أن يُعرِّفَه اللهُ أنَّ اللهَ لا يغفِرُ أن يُشرَكَ به. وقيل: غفورٌ رحيمٌ لمن تاب من معصيته قبل الموت. وقال مقاتل بن حيَّان: «وَمَنْ عَصَانِي» فيما دون الشرك[٩].

---

(١) ٢/ ٣٨٢ .

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٠ ، والوسيط ٣/ ٣٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦ .

(٤) وقد أخرج الطبري ١٣/ ٦٨٧ عن مجاهد أن الله استجاب لإبراهيم دعوته في ولده، فلم يعبد أحدٌ من ولده صنماً بعد دعوته.

(٥) المحتسب ١/ ٣٦٣ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦ ، والصحاح (جنب).

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٦٨٧ - ٦٨٨ دون قوله: كما عبدها أبي وقومي.

(٨) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٤ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٠٨ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٦٥ ، وجاء في (ظ) و(ف): لا تعقل.

(٩) الأقوال الثلاثة في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٥ ، والقول الأول لمقاتل بن سليمان، والتعليل الذي أورده بعده لابن الأنباري، والقول الثاني للسدي.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: روى البخاريُّ عن ابن عباس: أولُ ما اتَّخذَ النِّساءُ المِنْطَقَ من قِبل أمِّ إسماعيل، اتخذت مِنْطَقاً لتُعفِّيَ أَثَرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيمُ وبابنِها إسماعيلَ وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد ـ وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء ـ فوضعَهُما هنالك، ووضع عندهما جِراباً فيه تَمرٌ، وسِقاءً فيه ماءٌ، ثم قفَّى إبراهيمُ منطلقاً، فتبِعَتْه أمُّ إسماعيلَ، فقالت: يا إبراهيمُ، أينَ تذهبُ وتترُكُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفِتُ إليها، فقالت له: آللهُ أمرَكَ بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يُضيِّعُنا. ثم رجعَتْ، فانطلقَ إبراهيمُ حتى إذا كان عند الثَّنِيَّة حيث لا يَرونه، استقبلَ بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾. وجعلتْ أمُّ إسماعيل تُرضعُ إسماعيل وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء؛ عطِشتَ وعَطِشَ ابنُها، وجعلت تنظر إليه يَتلوَّى ـ أو قال: يَتَلَبَّط ـ فانطلقَتْ كراهيةَ أن تنظرَ إليه، فوجدتِ الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلتِ الواديَ تنظرُ هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصَّفا، حتى إذا بلغتِ الواديَ، رفَعتْ طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعَتْ سعيَ الإنسانِ المجهود، حتى[1] جاوزتِ الوادي، ثم أتتِ المَرْوةَ فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبعَ مرات. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «فذلِكَ سعيُ الناسِ بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صهٍ ـ تريدُ

(١) المثبت من (ظ)، وصحيح البخاري، وفي غير (ظ): ثم.

نفسَها ـ ثم تسمَّعتْ، فسمِعَتْ أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندكَ غَواث. فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزمَ، فبَحَث بعَقِبِهِ ـ أو قال: بجناحه ـ حتى ظهرَ الماءُ، فجعلت تُحَوِّضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلَتْ تغرِفُ من الماء في سِقائها وهو يفورُ بعد ما تغرِفُ. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «يرحَمُ اللهُ أمَّ إسماعيل، لو تركَتْ زمزَمَ ـ أو قال: لو لم تغرفْ من الماء ـ لكانت زمزَمُ عيناً مَعِيناً». قال: فشربَتْ وأرضعَتْ ولدَها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافي الضَّيْعةَ، فإنَّ هاهنا بيتَ اللهِ؛ يَبنيه هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ اللهَ لا يُضيِّعُ أهلَه. وذكر الحديث بطوله[1].

مسألة: لا يجوز لأحدٍ أن يتعلَّق بهذا في طرح ولده وعياله بأرضٍ مَضْيَعَةٍ؛ اتّكالاً على العزيز الرحيم، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غُلاةُ الصُّوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعلَ ذلك بأمر الله؛ لقولها[2] في الحديث: آللهُ أمركَ بهذا؟ قال: نعم. وقد رُوِيَ أنَّ سارة لمَّا غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل، خرجَ بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة، فرُوي أنَّه ركبَ البراقَ هو وهاجرُ والطِّفلُ، فجاء في يوم واحدٍ من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنَه وأمَته هنالِكَ، وركب منصرفاً من يومه، فكان ذلك كلُّه بِوحيٍ من الله تعالى، فلما ولَّى دعا بضمن هذه الآية[3].

الثانية: لمَّا أرادَ اللهُ تأسيسَ الحال، وتمهيدَ المقام، وخطَّ الموضعِ للبيت المكرَّم، والبلد المحرَّم، أرسلَ المَلَك، فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء.

وفي الصحيح: أنَّ أبا ذَرٍّ ﷺ اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذَرٍّ: ما كان لي طعامٌ إلا ماءُ زمزَمَ، فسمِنتُ حتى تَكَسَّرتْ عُكَنُ بَطْني[4]، وما أجد على كبدي سَخْفَةَ

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: المِنْطَقُ: هو ما يُشَدُّ به الوسط. لِتُعَفِّي أثرها: لِتُخفي أثرها. الدَّوحة: الشجرة الكبيرة. السِّقاء: القِربة الصغيرة. ثم قفَّ إبراهيم: ولَّى راجعاً إلى الشام. يتلبَّطُ: يتمرَّغ ويضرب بنفسه الأرض. الإنسان المجهود: الذي أصابه الجهد، وهو الأمر المُشِقُّ. غَواث؛ بفتح أوله للأكثر، وجزاء الشرط محذوف، تقديره: فأغثني. تُحَوِّضُه: تجعله مثل الحوض. عيناً مَعيناً: ظاهراً جارياً على وجه الأرض. الضَّيعة: الهلاك. فتح الباري ٦/ ٤٠٠ - ٤٠٢.

(٢) في النسخ: لقوله، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١، وينظر طبقات ابن سعد ١/ ١٥٠، وأخبار مكة للفاكهي ٥/ ١٢٠.

(٤) في (د) و(ز) و(م): «عكني»، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لمصادر التخريج القادمة.

جوع. وذكر الحديث[1].

وروى الدَّارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماءُ زمزمَ لِما شُرِبَ له، إنْ شرِبْتَه تستشفي به؛ شفاكَ اللهُ، وإنْ شرِبْتَه لِشِبَعِكَ؛ أشبعَك اللهُ به، وإنْ شرِبْتَه لِقَطْعِ ظمَئِكَ؛ قطعَه، وهي هَزْمةُ جبريل، وسُقْيا الله إسماعيل»[2].

وروى أيضاً[3] عن عِكرمة قال: كان ابن عباس إذا شربَ من زمزمَ قال: اللهمَّ إني أسأَلُكَ علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء.

قال ابن العربي[4]: وهذا موجودٌ فيه إلى يوم القيامة لمن صحَّتْ نيَّتُه، وسلمَتْ طَويِّتُه، ولم يكن به مكذِّباً، ولا يشربُه مجرِّباً، فإنَّ الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين.

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي: وحدثني أبي رحمه الله قال: دخلتُ الطَّوَاف في ليلةٍ ظلماء، فأخذني من البول ما شغلني، فجعلتُ أعتصر حتى آذاني، وخِفْتُ إن خرجتُ من المسجد أن أطأَ بعضَ تلك الأقدام، وذلك أيام الحج، فذكرتُ هذا الحديث، فدخلتُ زمزم فَتَضَلَّعْتُ منه، فذهب عني إلى الصباح[5]. ورُوِيَ

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢ ، والحديث أخرجه أحمد (٢١٥٢٥) ومسلم (٢٤٧٣)، والعُكَن جمع عُكْنة: وهي الطيُّ في البطن من السِّمَن. تكسَّرت: انثنت. السَّخْفة ـ بفتح السين وضمِّها: رِقة الجوع وضعفه. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٢) سنن الدارقطني (٢٧٣٩) وهو من طريق محمد بن حبيب الجارودي، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الله ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٢٦٨ : الجارودي صدوق، إلا أن روايته شاذة، فقد رواه حفاظ أصحاب ابن عيينة: الحميدي وابن أبي عمر وغيرهما، عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله. اهـ. لكن أول الحديث وهو قوله: «ماء زمزم لما شرب له» رُوي من طرقٍ أخرى مرفوعة محتملة للتحسين بمجموعها، تُنظر في مسند أحمد (١٤٨٤٩) قوله: هزمة جبريل، أي: ضربها برجله فنبع الماء. النهاية (هزم).

(٣) في سننه (٢٧٣٨).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٢ .

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول.

عن عبد الله بن عمرو: إنَّ في زمزمَ عيناً من[١] الجنة من قِبَلِ الركن[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ «مِنْ» في قوله تعالى: «مِنْ ذُرِّيَّتي» للتبعيض، أي: أسكنتُ بعضَ ذُرِّيَّتي، يعني: إسماعيلَ وأمَّه؛ لأن إسحاق كان بالشام[٣]. وقيل: هي صلة، أي: أسكنتُ ذُرِّيَّتي[٤].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدلُّ على أنَّ البيت كان قديماً على ما رُوِيَ قبل الطُّوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة البقرة[٥]. وأضاف البيتَ إليه؛ لأنَّه لا يملِكُه غيرُه، ووصفه بأنه مُحرَّم، أي: يَحرُمُ فيه ما يُستباح في غيره من جماعٍ واستحلال[٦]. وقيل: محرّم على الجبابرة، وأن تُنتهَكَ حرمتُه، ويُستخفَّ بحقِّه. قاله قتادة وغيره[٧]. وقد مضى القول في هذا في «المائدة»[٨].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّها من جملة الدِّين؛ لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد؛ قال ﷺ: «خمس صلواتٍ كتبهنَّ اللهُ على العباد». الحديث[٩].

واللام في «لِيُقيموا الصَّلاةَ» لام كي، هذا هو الظاهر فيها[١٠]، وتكون متعلقةً

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٣٣٩ بنحوه، في قصة بله زمزم دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤١.

(٤) نقله العكبري في «إملاء ما منَّ به الرحمن» ٣/ ٤٠٩ عن الأخفش، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٦٦.

(٥) ٢/ ٣٨٦ وما بعده.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٨.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

(٨) ٨/ ٢٢٠ - ٢٢٢.

(٩) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣)، وأبو داود (٤٢٥)، والنسائي ١/ ٢٣٠، وابن ماجه (١٤٠١).

(١٠) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢.

بـ«أسكنتُ»[1]، ويصِحُّ أن تكون لام أمر، كأنه رغِب إلى الله أن يأتمنهم، وأن[2] يوفِّقهم لإقامة الصلاة.

السادسة: تَضمَّنت هذه الآية أنَّ الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتَهم عند بيتك المحرم ليقيموا فيه.

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبيِّ ﷺ؟ فذهب عامَّةُ أهل الأثر إلى أنَّ الصلاةَ في المسجد الحرام أفضلُ من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمئة صلاة، واحتجُّوا بحديث عبد الله بن الزُّبير قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من صلاةٍ في مسجدي هذا بمئة صلاة».

قال الإمام الحافظ أبو عمر[3]: وأسند هذا الحديث حبيبٌ المُعلِّم، عن عطاء بن أبي رَباح، عن عبد الله بن الزُّبير وجوَّده، ولم يُخلِّطْ في لفظه ولا في معناه، وكان ثقةً. قال ابن أبي خَيْثَمة: سمعتُ يحيى بنَ مَعِين يقول: حبيبٌ المُعلِّم ثقة. وذكر عبد الله بن أحمد قال: سمعتُ أبي يقول: حبيبٌ المُعلِّم ثقة ما أصحَّ حديثَه! وسُئِلَ أبو زُرْعة الرازي عن حبيب المُعلِّم فقال: بصريٌّ ثقة.

قلتُ: وقد خرَّجَ حديثَ حبيب المُعلِّم هذا عن عطاء بن أبي رَباح، عن عبد الله ابن الزبير، عن النبيِّ ﷺ الحافظُ أبو حاتم محمد بن حِبَّان[4] التميمي البُستي في المسند الصحيح له[5]، فالحديث صحيحٌ، وهو الحُجَّة عند التنازع والاختلاف، والحمد لله.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٦٧.

(٢) قبلها في (ف) و(م) زيادة: أن يأتمنهم.

(٣) هو ابن عبد البر، وكلامه في التمهيد ٦/ ٢٥ - ٢٦.

(٤) في (د) و(م): حاتم، وهو خطأ.

(٥) صحيح ابن حبان (١٦٢٠)، وهو عند أحمد (١٦١١٧).

قال أبو عمر: وقد رُويَ عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ مثلُ حديث ابن الزُّبير، رواه موسى الجُهَني، عن نافع، عن ابن عمر. وموسى الجُهني كوفيٌّ ثقة، أثنى عليه القطَّان وأحمد ويحيى وجماعتهم، وروى عنه شعبةُ والثَّوريُّ ويحيى بن سعيد.

وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجدَ الحرام، وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضلُ من مئة ألفٍ فيما سواه». وحكيم بن سيف هذا شيخٌ من أهل الرقَّة، قد روى عنه أبو زُرْعة الرازيُّ، وأخذ عنه ابن وضَّاح، وهو عندهم شيخٌ صدوقٌ لا بأس به، فإن كان حفِظَ فَهُما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المُعلِّم.

وروى محمد بن وضَّاح، حدثنا يوسف بن عديٍّ، عن عمر بن عبيد، عن عبد الملك، عن عطاء، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاةٍ في غيره من المساجد، إلا المسجدَ الحرام، فإنَّ الصلاة فيه أفضل»[1].

قال أبو عمر: وهذا كلُّه نصٌّ في موضع الخلاف قاطعٌ له عند من أُلْهِمَ رُشدَه، ولم تَمِلْ به عصبيَّتُه[2].

وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف، وعن أَصْبَغَ عن ابن وهب؛ أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبيِّ ﷺ على ما في هذا الباب[3].

---

(١) التمهيد ٦/ ٢٧ - ٣٠، وحديث ابن عمر الأول أخرجه أحمد (٥١٥٥)، ومسلم (١٣٩٥): (٥٠٩) من طريق موسى الجهني، به دون قوله: «فإنه أفضل منه بمئة صلاة». وحديث جابر أخرجه أحمد (١٤٦٩٤)، وابن ماجه (١٤٠٦) من طرق عن عبيد الله بن عمرو الرقي، به. وحديث ابن عمر الثاني أخرجه أحمد (٤٨٣٨) من طريق عبد الملك، به.

(٢) لم نقف على قول ابن عبد البر هذا في هذه المسألة، إنما قاله في مسألة النية والقصد في الطهارة، ينظر التمهيد ٢٢/ ١٠١.

(٣) التمهيد ٦/ ٣٤.

وقدِ اتَّفق مالكٌ وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لهما في كلِّ بلدٍ إلا مكةَ، فإنها تُصلَّى في المسجد الحرام[١].

وكان عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدَّرْداء وجابر يفضِّلون مكةَ ومسجدَها، وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم[٢]. وإلى هذا ذهب الشافعيُّ، وهو قول عطاءٍ والمكيين والكوفيين[٣].

ورُوِيَ مثلُه عن مالك؛ ذكر ابن وهب في «جامعه» عن مالك أنَّ آدمَ عليه السلام لمَّا أُهبِطَ إلى الأرض قال: يا ربِّ، هذه أحبُّ إليك أن تُعبدَ فيها؟ قال: بل مكة[٤].

والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيلُ المدينة، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك، فطائفةٌ تقول: مكة، وطائفةٌ تقول: المدينة[٥].

قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ الأفئدة جمع فؤاد: وهي القلوب، وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإنَّ فـؤاداً قـادنـي بـصـبـابـةٍ[٦] إلـيـكِ عـلـى طـولِ الـمَـدى لَـصَـبُـورُ

وقيل: جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقُدِّمتِ الفاءُ، وقُلِبَتِ الواوُ ياءً كما هي، فكأنَّه قال: واجعَلْ وفوداً من الناس تَهْوي إليهم[٧]، أي: تَنزع؛ يقال: هَوَى نحوَه: إذا مال، وهَوَتِ الناقةُ تَهوي هُوِيًّا، فهي هاويةٌ: إذا عَدَتْ عَدْواً شديداً كأنها في هواء بئر[٨]، وقوله: «تَهْوِي إِلَيْهِمْ» مأخوذٌ منه.

---

(١) التمهيد ٦/ ٣١.
(٢) التمهيد ٦/ ٣٤.
(٣) الاستذكار ٧/ ٢٢٦.
(٤) التمهيد ٦/ ٣١.
(٥) الاستذكار ٧/ ٢٢٦.
(٦) في (ظ) وزاد المسير ٣/ ٣٦٧: لصبابة.
(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٨.
(٨) تهذيب اللغة ٦/ ٤٩١.

قال ابن عباس ومجاهد: لو قال: «أفئدةَ الناس» لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: «مِنَ النَّاس»، فهم المسلمون[(١)].

فقوله: ﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحِنُّ إليهم، وتحِنُّ إلى زيارة البيت[(٢)]. وقرأ مجاهد: «تَهْوَى إليهم» أي: تهواهم وتُجِلُّهم[(٣)].

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبتَ لهم بالطائف سائرَ الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفي «صحيح البخاريِّ» عن ابن عباس الحديثُ الطويلُ وقد ذكرنا بعضه: «فجاء إبراهيمُ بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يُطالِعُ تَرِكَتَه، فلم يجِدْ إسماعيل، فسألَ امرأتَه عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيقٍ وشدة؛ فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقرَئي عليه السلام، وقولي له يُغيِّرْ عَتَبة بابه. فلمَّا جاء إسماعيلُ كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم مِنْ أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا، فسألني عنكَ فأخبرتُه، وسألني كيف عيشتُنا، فأخبرته أنَّا في جَهدٍ وشدة. قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غَيِّرْ عَتَبةَ بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أُفارِقَكِ، الْحَقي بأهلك، فطلَّقها وتزوَّجَ منهم أخرى، فلبِثَ عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بَعدُ فلم يجِدْه، ودخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحنُ بخيرٍ وسَعةٍ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٢ ، والطبري ١٣/ ٦٩٨ عن مجاهد بلفظ: لو قال: أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم، ولكنه: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. وأخرج الطبري ١٣/ ٦٩٨ عن سعيد بن جبير: لو قال: أفئدة الناس تهوي إليهم، لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهم المسلمون، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٤ ، والنكت والعيون ٣/ ١٣٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٧ .

(٣) المحتسب ١/ ٣٦٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٢ ، وزاد المسير ٤/ ٣٦٨ .

وأثنَتْ على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهمَّ بارِكْ لهم في اللحم والماء. قال النبيُّ ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافِقاه. وذكر الحديث[1].

وقال ابن عباس: قول إبراهيم: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: سأل أن يجعلَ اللهُ الناسَ يَهوَون السُّكْنى بمكة، فيصير بيتاً مُحرَّماً[2]. وكلُّ ذلك كان والحمد لله، وأول من سكنه جُرْهُم. ففي البخاريِّ ـ بعد قوله: وإنَّ الله لا يُضيِّعُ أهلَه ـ: وكان البيتُ مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيولُ، فتأخذُ عن يمينه وعن شماله، وكانت كذلك[3] حتى مرَّتْ بهم رُفقةٌ من جُرْهُم قافلين[4] من طريق كَداء، فنزلوا بأسفلَ مكة، فرأَوا طائراً عائفاً، فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ لَيَدُورُ على ماء، لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين، فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأمُّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنينَ لنا أن ننزِلَ عندَكِ؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ: «فألفى ذلكَ أمَّ إسماعيل وهي تُحِبُّ الأُنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهلُ أبياتٍ منهم، شَبَّ الغلامُ، وماتت أمُّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوَّجَ إسماعيلُ يطالع تَرِكَته. الحديث[5].

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤). وقوله: لا يخلو عليهما أحد . . . الخ، يعني: ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه. ينظر فتح الباري ٦/ ٤٠٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٩ .

(٣) المثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري، وفي غير (ظ): وكذلك، بدل: وكانت كذلك.

(٤) في صحيح البخاري: مقبلين، وكلاهما بمعنى.

(٥) صحيح البخاري (٣٣٦٤). قوله: جُرهم: هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. والطائر العائف: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه. والجَريُّ: الرسول، وقد يُطلق على الوكيل وعلى الأجير. فتح الباري ٦/ ٤٠٣ .

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا. وقال ابن عباس ومقاتل: تعلم جميع ما أُخفيه وما أُعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: هو من قول إبراهيم. وقيل: هو من قول الله تعالى لمَّا قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ قال الله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ أي: على كِبَر سِنِّي وسِنِّ امرأتي؛ قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابنُ تسع وتسعين سنة، وإسحاق وهو ابن مئةٍ واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جُبَير: بُشِّر إبراهيمُ بإسحاق بعد عشرٍ ومئةِ سنة[1]. ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: واجعلْ من ذريتي من يُقيمها. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: عبادتي كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الدعاءُ مُخُّ العبادة» وقد تقدم في «البقرة»[2]. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: استغفرَ إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبُتَ عنده أنهما عَدُوَّان لله. قال القُشَيريُّ: ولا يبعدُ أن تكون أمُّه مسلمةً؛ لأنَّ اللهَ ذكر عُذرَه في استغفاره لأبيه دون أمه[3].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٨ - ٣٩، وفيه: بشِّر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مئة وسبع عشرة سنة.

(٢) ٣/ ١٧٨ بلفظ: «الدعاء هو العبادة» من حديث النعمان بن بشير. وأما الحديث بلفظ: «الدعاء مخُّ العبادة» فقد أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٨.

قلت: وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير: «رَبِّ اغْفِرْ لي ولوالِدي» يعني أباه[١].

وقيل: استغفر لهما طمعاً في إيمانهما[٢]. وقيل: استغفر لهما بشرط أن يُسلما[٣]. وقيل: أراد آدم وحوّاء[٤]. وقد رُويَ أن العبد إذا قال: اللهمَّ اغفر لي ولوالديَّ، وكان أبواه قد ماتا كافِرَين، انصرفتِ المغفرةُ إلى آدم وحواء؛ لأنهما والدا الخلق أجمع. وقيل: إنه أراد ولدَيه إسماعيل وإسحاق، وكان إبراهيم النَّخَعي يقرأ: «وَلِوَلَدَيَّ» يعني ابنَيه، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر، ذكره الماوردي والنحاس[٥]. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: من أمة محمدٍ ﷺ[٦]. وقيل: للمؤمنين كلِّهم[٧]. وهو أظهر. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: يوم يقوم الناس للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بعد أن عَجَّبَهُ[٨] من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم، أي: اصبِرْ كما صبر إبراهيم، وأَعلِمِ المشركينَ أنَّ تأخيرَ العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سُنَّةُ الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مِهْران: هذا وعيدٌ للظالم، وتعزيةٌ للمظلوم[٩]. ﴿إِنَّمَا

(١) المحتسب ١/ ٣٦٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٣) الوجيز (بهامش مراح لبيد) ١/ ٤٣٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٥، والنكت والعيون ٣/ ١٣٩، وزاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٣٧ والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٣٩.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩.

(٨) من (ظ)، وفي باقي النسخ: أعجبه.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٣ - ٧٠٤، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٦٣٦)، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٨٣ - ٨٤.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني: مشركي مكة، يُمهِلُهم ويؤخِّرُ عذابَهم[١]. وقراءة العامة «يُؤَخِّرُهُمْ» بالياء[٢]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾. وقرأ الحسن والسُّلمي ورُوِيَ عن أبي عَمرٍو أيضاً: «نُؤَخِّرُهُمْ» بالنون للتعظيم[٣]. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تغمَضُ من هولِ ما تراه في ذلك اليوم. قاله الفراء. يقال: شَخَص الرجلُ بَصَرَه، وشَخَص البصرُ نفسُه، أي: سَما وطَمَح من هول ما يرى[٤]. قال ابن عباس: تَشخَصُ أبصارُ الخلائق يومئذٍ إلى الهواء؛ لشدة الحَيرةِ فلا يغمضون[٥].

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين. قاله الحسن وقَتادة وسعيد بن جُبير[٦]، مأخوذٌ من أهطع يُهطع إهطاعاً: إذا أسرع. ومنه قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر:٨] أي: مسرعين. قال الشاعر:

بـدجْـلَـةَ دارُهُـمْ ولـقـد أراهُـمْ بـدجْلَـةَ مُـهْـطِـعِـيـنَ إلى الـسَّـمـاعِ[٧]

وقيل: المُهطع الذي ينظر في ذلٍّ وخشوع، أي: ناظرين من غير أن يَطرِفوا. قاله ابن عباس[٨]. وقال مجاهد والضحَّاك: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مُديمي النظر[٩]. وقال النحاس[١٠]: والمعروف في اللغة أن يُقال: أهطعَ إذا أسرع. قال أبو عبيد: وقد

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٧٠٤ ، والوسيط ٣/ ٣٥ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ .
(٢) النشر ٢/ ٤٠٠ ، والسبعة ص٣٦٣ .
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٤ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠ .
(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وتهذيب اللغة ٧/ ٧٢ .
(٥) في (م) و(ظ): لا يرمضون، وفي (د): لا يرتمضون، والمثبت من الوسيط للواحدي ٢/ ٣٥ .
(٦) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، والوسيط ٣/ ٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣ ، والطبري ١٣/ ٧٠٤ - ٧٠٥ عن قتادة.
(٧) النكت والعيون ٣/ ١٣٠ ، والبيت ليزيد بن مُفرِّغ، وهو في ديوانه ص١١٠ ، وفيه: «أهلها» بدل: «دارهم».
(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٥ .
(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٠٦ عنهما، ولفظ الضحاك بالمعنى.
(١٠) في معاني القرآن ٣/ ٥٣٨ .

يكون الوجهان جميعاً، يعني: الإسراع مع إدامة النظر. وقال ابن زيد: المُهطع الذي لا يرفع رأسه[(١)]. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعي رؤوسهم ينظرون في ذُلٍّ. وإقناعُ الرأس: رفعُه. قاله ابن عباس ومجاهد[(٢)]. قال ابن عرفة والقُتَبيُّ وغيرهما: المُقنِعُ: الذي يرفع رأسه، ويُقبِلُ ببصره على ما بين يديه، ومنه الإقناع في الصلاة[(٣)] وأقنعَ صوتَه: إذا رفعه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذٍ إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد[(٤)]. وقيل: ناكسي رؤوسهم[(٥)]. قال المهدويُّ: ويقال: أقنعَ: إذا رفعَ رأسه، وأقنع: إذا طأطأ رأسَه ذِلَّةً وخُضوعاً، والآية محتملةٌ للوجهين[(٦)]. وقاله المبرِّد[(٧)]. والقول الأول أعرَفُ في اللغة؛ قال الراجز:

أَنْغَضَ نَحْوي رَأْسَهُ وأَقْنَعا كأنَّما أَبْصَرَ شيئاً أَطْمَعا[(٨)]

وقال الشَّمَّاخ يصِفُ إبلاً:

يُباكِرْنَ العِضاهَ بِمُقْنَعاتٍ نَواجِذُهنَّ كالْحَدَأ الوَقيعِ[(٩)]

يعني: برؤوسٍ مرفوعاتٍ إليها لتتناولهنَّ. ومنه قيل: مِقْنَعةٌ؛ لارتفاعها. ومنه قَنِعَ الرجلُ: إذا رَضِيَ، أي: رفع رأسَه عن السؤال. وقَنَع: إذا سأل، أي: أتى ما يتقنَّعُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٧٠٦ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٧٠٨ عنهما.

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٣٣ .

(٤) نقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٥ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(٥) نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٠ عن المؤرِّج وقتادة.

(٦) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٣٩ .

(٧) في الكامل ٢/ ١٠٢٧ .

(٨) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٤ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٩) ديوان الشماخ ص٢٢٠ ، قوله: والعِضاه: كل شجر يعظُم وله شوك، والحَدأ جمع حَدَأة: وهي الفأس ذات الرأسين. الصحاح (عضه) و(حدأ).

منه. عن النحاس[١]. وفَمٌ مُقْنَعٌ، أي: معطوفةٌ أسنانُه إلى داخل. ورجل مُقَنَّعٌ ـ بالتشديد ـ أي: عليه بَيْضَة. قاله الجوهري[٢].

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجِعُ إليهم أبصارُهم من شدة النظر، فهي شاخصةُ النظر[٣]. يُقال: طَرَفَ الرجلُ يَطْرِفُ طَرْفاً: إذا أطبق جَفْنَه على الآخر[٤]، فسُمِّيَ النظرُ طَرْفاً؛ لأنه به يكون[٥]. والطَّرْفُ: العين؛ قال عَنْتَرَة[٦]:

وَأَغُضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارتي حتَّى يُواري جارتي مَأْواها

وقال جَميل:

وَأَقْصِرُ طَرْفي دُونَ جُمْلٍ كَرامةً لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذي أنا قاصِرُهْ[٧]

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: لا تعي[٨] شيئاً من شدّة الخوف. ابن عباس: خاليةٌ من كلِّ خير[٩]. السُّدِّيّ: خرجت قلوبهم من صدورهم، فنَشِبت في حلوقهم[١٠]. وقال مجاهد ومُرَّة وابن زيد: خاويةٌ خَرِبةٌ مُنخرقةٌ؛ ليس فيها خيرٌ ولا عقل، كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء: إنما هو هَواءٌ. وقاله ابن عباس[١١].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٥٤٠ .

(٢) في الصحاح (قنع).

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧١ .

(٤) الصحاح (طَرِفَ).

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٦) في ديوانه ص٧٦ .

(٧) لم نقف عليه في ديوانه، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤١ .

(٨) تحرفت في النسخ إلى: تغني، والتصويب من معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٤٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١١ .

(١٠) ذكره عنه بنحوه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٠ ، وهو قول قتادة أخرجه عنه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٣ ، والطبري ١٣/ ٧١٣ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧١ .

(١١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٧١٠ - ٧١٢ بألفاظٍ مقاربة.

والهواء في اللغة: المجوَّفُ الخالي، ومنه قول حسان:

ألا أَبـلِـغْ أبـا سُـفْـيـانَ عَـنِّـي فـأنـتَ مُـجـوَّفٌ نَـخِـبٌ هَـواءُ[1]

وقال زهير يصف ناقةً صغيرة الرأس:

كـأنَّ الـرَّحْـلَ مِـنـهـا فـوقَ صَـعْـلٍ مـن الـظِّـلْـمـانِ جُـؤْجُـؤهُ هَـواءُ[2]

فارغٌ، أي: خالٍ، وفي التنزيل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠] أي: من كلِّ شيءٍ إلا من همِّ موسى. وقيل: في الكلام إضمار، أي: ذاتُ هواءٍ وخلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عباس: أراد أهل مكة[3]. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، أي: خَوِّفْهم ذلك اليوم، وإنما خصَّه[4] بيوم العذاب ـ وإن كان يوم الثَّواب ـ لأنَّ الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي. ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: في ذلك اليوم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أي: أمْهِلْنا[5]. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهرَ الحقُّ في الآخرة[6]. ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي: إلى الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٤، والبيت في ديوان حسان ص٩.

(٢) ديوان زهير ص٦٣، وفي (م) و(د): الرجل. قوله: صَعْل، أي: دقيق الرأس والعنق، وظليم: هو الذكر من النَّعام، جمعها: ظِلمان. قال ثعلب في شرحه للديوان: كأن الرحل منها: من هذه الناقة. فوق صعلٍ: فوق ظليمٍ دقيق العُنق صغير الرأس. جؤجؤه: صدره. هواءٌ: لا مُخَّ فيه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢.

(٤) في (ظ): خُصَّ، وفي (ز) و(د) و(م): خصَّهم، والمثبت من (ف)، وهو موافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٤٢، (والكلام منه) وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٠.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٤٢.

ٱلرُّسُلَۗ﴾. فيُجابون: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ يعني: في دار الدنيا[1]. ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ قال مجاهد: هو قَسَمُ قريش أنهم لا يُبعثون[2]. ابن جُرَيج: هو ما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾[3] [النحل: ٣٨].

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: ما لكم من انتقالٍ عن الدنيا إلى الآخرة، أي: لا تُبعثون ولا تُحشرون. وهذا قول مجاهد. والثاني: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ أي: من العذاب[4]. وذكر البيهقيُّ[5] عن محمد بن كعب القُرَظيِّ قال: لِأهلِ النَّارِ خمسُ دَعَواتٍ: يُجيبهم اللهُ في أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [غافر: ١١]. فيُجيبهم الله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]. ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ فيُجيبهم اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧] فيُجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]. ويقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، فيُجيبهم

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٢ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧١٥ - ٧١٦ بمعناه.

(٣) لم نقف عليه من قول ابن جريج، وإنما هو تتمة كلام مجاهد السالف.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٤٢ وعزا القول الثاني للحسن، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٣/ ٧١٥ بنحوه.

(٥) في البعث والنشور (٦٦٠)، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف.

الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]. فلا يتكلمون بعدها أبداً. خرَّجه ابن المبارك في «رقائقه» بأطْوَلَ من هذا ـ وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»[(١)] ـ وزاد في الحديث: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ قال: هذه الثالثة، وذكر الحديث، وزاد بعد قوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فانقطع عند ذلك الدعاءُ والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض؛ ينبَح بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم. قال: فحدَّثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكرَ له أن ذلك قوله: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: في بلاد ثمود ونحوها، فهلَّا اعتبرتُم بمساكنهم بعد ما تبيَّن لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن[(٢)]. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي: «ونُبَيِّنْ لَكُمْ» بنون، والجزم على أنه مستقبل، ومعناه الماضي[(٣)]، وليناسب قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾. وقراءة الجماعة: «وَتَبَيَّنَ»، وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبيَّنُ لهم إلا بتبيين اللهِ إيَّاه.

---

(١) ص٤١٧ - ٤١٩ ، ولم نقف عليه في الرقائق لابن المبارك، وقد ذكر المصنف هناك في التذكرة أن ابن المبارك رواه عن الحكم، والحكم هذا: هو ابن ظهير، وهو متروك، واتهمه ابن معين. تقريب التهذيب.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢١٠ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٢ .

(٣) القراءات الشاذة ص٦٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٥ ، ونقل فيه ابن عطية أيضاً عن أبي عبد الرحمن أنه قرأ بضم النون ورفع النون الأخيرة، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٧٢ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي: بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة. عن ابن عباس وغيره[١]. ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ «إن» بمعنى «ما» أي: ما كان مكرُهم لتزولَ منه الجبال؛ لضعفه ووهنه. و«إن» بمعنى «ما» في القرآن في مواضع خمسة: أحدها هذا. الثاني: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]. الثالث: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: ما كنا. الرابع: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]. الخامس: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقرأ الجماعة: «وإن كان» بالنون. وقرأ عمر وعليّ[٢] وابن مسعود وأُبيٌّ: «وإن كاد» بالدال[٣]. والعامة على كسر اللام في «لِتزولَ» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً[٤]. وقرأ ابن مُحيْصِن وابن جُريج والكِسائي: «لَتَزُولُ»[٥] بفتح اللام الأولى على أنَّها لامُ الابتداء، ورفعِ الثانية، و«إنْ» مخفَّفة من الثَّقيلة، ومعنى هذه القراءة: استعظامُ مكْرِهم، أي: ولقد عظُمَ مكرُهُم حتى كادتِ الجبالُ تزول منه[٦].

قال الطَّبري[٧]: الاختيار القراءة الأولى؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة.

قال أبو بكر الأنباري: ولا حجةَ على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدَّثناه أحمد بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدّثنا وكيع بن الجرَّاح، عن

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٢ .

(٢) في (ز) و(د) و(م): عمرو بن علي، وهو خطأ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣ ، والمحتسب ١/ ٣٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦ ، والنكت والعيون ٣/ ١٤٣ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٤ .

(٤) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ .

(٥) قراءة الكسائي من السبعة، وينظر السبعة ص٣٦٣ ، والتيسير ص١٣٥ ، وذكرها الطبري ١٣/ ٧٢٠ عن ابن جُريج عن مجاهد.

(٦) ينظر الحجة في القراءات لابن زنجلة ص٣٧٩ والوسيط ٣/ ٣٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٦ .

(٧) في تفسيره ١٣/ ٧٢٤ .

إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن دانيال قال سمعت عليَّ بن أبي طالبٍ ﷺ يقول: إنَّ جبَّاراً من الجبابرة قال: لا أنتهي حتَّى أعلم من في السماوات، فعَمَدَ إلى فراخِ نُسُورٍ، فأمر أن تُطعَم اللحم، حتى إذا[1] اشتدَّتْ وعَضَلتْ واستعلجتْ؛ أمرَ بأن يُتَّخذَ تابوتٌ يسَعُ فيه رجلين، وأن يُجعَلَ فيه عصاً؛ في رأسها لحمٌ شديدٌ حُمرتُه، وأن يُسْتَوثَقَ من أرجلِ النسور بالأوتاد، وتُشدَّ إلى قوائم التابوت، ثم جلس هو وصاحبٌ له في التابوت، وأثَارَ النُّسورَ، فلما رأتِ اللحمَ طلَبَتْه، فجعلت ترفع التابوتَ، حتى بلغت به ما شاء الله، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتحِ البابَ فانظُرْ ما ترى؟ فقال: أرى الجبالَ كأنَّها ذبابٌ. فقال: أغلقِ الباب؛ ثم صعَدَتْ بالتابوت ما شاء الله أن تصعَدَ، فقال الجبَّارُ لصاحبه: افتحِ الباب فانظُرْ ما ترى؟ فقال: ما أرى إلا السماء، وما تزداد مِنَّا إلا بُعْداً. فقال: نَكِّسِ العصا. فنكَّسها، فانقضَّتِ النُّسور، فلما وقع التابوت على الأرض سُمِعتْ له هَدَّةٌ كادتِ الجبالُ تزولُ عن مراتبها منها. قال: فسمعتُ عليًّا ﷺ يقرأ: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية[2].

وقد ذكر الثَّعلبيُّ[3] هذا الخبر بمعناه، وأن الجبَّار هو النُّمرود الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه؛ قال عكرمة: كان معه في التابوت غلامٌ أمرد، وقد حمل القوس والنَّبل، فرمى بهما، فعاد إليه مُلطَّخاً بالدم، وقال: كُفيتَ نَفْسَكَ[4] إلهَ السَّماء. قال عكرمة: تَلطَّخَ بدم سمكةٍ من السماء، قذفتْ نفسَها إليه من بحرٍ في الهواء مُعلَّق. وقيل: طائرٌ من الطير أصابه السَّهمُ، ثم أمر نُمرودُ صاحبَه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم،

(١) لفظة: إذا من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢١ من طريق وكيع، به وأخرجه الطبري ١٣/ ٧١٨ من طريق سفيان الثوري، و ١٣/ ٧١٩ من طريق شعبة، كلاهما عن أبي إسحاق، به. لكن وقع في روايتيهما تسمية الراوي عن علي: عبد الرحمن بن أذنان، وهو مجهول، فقد ترجم له البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢٥٥، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٥/ ٢١٠، ولم يذكرا عنه راوياً سوى أبي إسحاق، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقاته ٥/ ٨٧ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٣) في عرائس المجالس ص٩٨ - ٩٩.

(٤) هكذا في النسخ، وفي العرائس: كفيت شغل.

فهبطتِ النُّسورُ بالتابوت، فسمعتِ الجبالُ حفيفَ التابوتِ والنّسورِ ففزعت، وظنَّتْ أنه قد حدَثَ بها حدَثٌ من السماء، وأنَّ الساعة قد قامت، فذلك قوله: «وإنْ كانَ مكرهُمْ لَتَزُولُ منهُ الجبالُ». قال القُشَيريُّ: وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال.

وذكر الماورديُّ[١] عن ابن عباس: أنَّ النُّمرود بن كنعان بَنَى الصَّرح في قرية الرَّسِّ من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً، وصعد منه مع النُّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصناً، وجمع فيه أهله وولده ليتحصَّنَ فيه، فأتى اللهُ بنيانَه من القواعد، فتداعى الصَّرحُ عليهم، فهلكوا جميعاً، فهذا معنى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾.

وفي الجبال التي عنى زوالها بمكرهم وجهان: أحدهما: جبال الأرض، والثاني: الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال[٢].

وقال القُشَيريُّ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: هو عالمٌ بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاءُ مكرهم، فحذف المضاف.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ بكسر اللام، أي: ما كان مكرهم مكراً يكون له أثرٌ وخطرٌ عند الله تعالى، فالجبال مَثَلٌ لأمر النبي ﷺ[٣]. وقيل: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ» في تقديرهم «لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» ويؤثّر في إبطال الإسلام. وقُرِئَ: «لَتَزُولُ منهُ الجبالُ» بفتح اللام الأولى وضم الثانية، أي: كان مكراً عظيماً تزول منه الجبال[٤]. ولكنَّ اللهَ حفِظَ رسولَه ﷺ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ١٤٢ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٦ – ١٦٧ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٧ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٦٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٧٤ – ٣٧٥ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٩ . والقراءة المذكورة هي قراءة الكسائي، وقد ذكرها المصنف قريباً.

والجبال لا تزول، ولكنَّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ اسمُ الله تعالى و«مخلف» مفعولا تحسب؛ و«رُسُلَهُ» مفعول «وَعْدِهِ»، وهو على الاتساع، والمعنى: مخلفَ رُسُلِهِ وَعْدَه[1] قال الشاعر:

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ ... وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ[2]

قال القُتَبيُّ[3]: هو من المُقدَّم الذي يوضِّحه التأخير، والمؤخَّر الذي يوضِّحه التقديم، وسواءٌ في قولك: مخلف وعدِه رسلَه، ومخلف رسلِه وعدَه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: من أعدائه. ومن أسمائه: المنتقم، وقد بيَّنَّاه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[4].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أُذكُرْ يوم تبدَّل الأرض، و«غيرَ» نعتٌ لمحذوف، التقدير: أرضاً غيرَ الأرض. ويحتمل أن يكون المراد: إنَّ اللهَ عزيزٌ

---

(١) وقع في النسخ غير (ظ): مخلف وعده رسله، وفي (ظ): رسله وعده، دون لفظة: مخلف، والمثبت من مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٠٨ .

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٣ ، والبيان لابن الأنباري ٢/ ٦٢ .

(٣) في تأويل مشكل القرآن ص١٤٨ .

(٤) لم نقف عليه في المطبوع منه.

ذو انتقامٍ يومَ تُبدَّلُ الأرض[1]، فيكون متعلقاً[2] بما قبله. وقيل: هو صفةٌ لقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[3].

واختُلِفَ في كيفية تبديل الأرض، فقال كثيرٌ من الناس: إنَّ تبدُّل الأرض عبارةٌ عن تغير صفاتها، وتسويةِ آكامها، ونسفِ جبالها، ومدِّ أرضها. ورواه ابن مسعود ﷺ، خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[4]. وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال: حدَّثني ابنُ عباس قال: إذا كان يوم القيامة مُدَّتِ الأرضُ مدَّ الأديم، وزِيدَ في سَعتها كذا وكذا؛ وذكر الحديث[5].

ورُوي مرفوعاً من حديث أبي هُريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرضِ، فيبسُطُها ويمدُّها مدَّ الأديم العُكَاظيِّ، لا ترى فيها عِوجاً ولا أَمْتاً، ثم يزجرُ اللهُ الخلقَ زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى، مَن كان في بطنها ففي بطنها، ومَن كان على ظهرها كان على ظهرها» ذكره الغَزْنَويّ[6].

وتبديلُ السماءِ تكويرُ شمسِها وقمرِها، وتناثرُ نجومها. قاله ابن عباس. وقيل: اختلاف أحوالها، فمرَّةً كالمُهْل ومرَّةً كالدِّهان. حكاه ابن الأنباري[7]. وقد ذكرنا هذا الباب مُبيَّناً في كتاب «التذكرة»[8] وذكرنا ما للعلماء في ذلك، وأنَّ الصحيح إزالة هذه

---

(١) من قوله: و«غير» إلى هذا الموضع من (ظ).

(٢) المثبت من (ظ)، وفي باقي النسخ: فتكون متعلقةً.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦٩ .

(٤) برقم (٤٠٨١)، وأخرجه أحمد (٣٥٥٦) عن ابن مسعود مرفوعاً، وفي إسناديهما مؤثر بن عفازة، وهو مجهول.

(٥) الزهد لابن المبارك ـ زوائد نعيم بن حماد ـ (٣٥٣)، وشهر بن حوشب ضعيف.

(٦) وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٥ - ٧٣٦ من طريق إسماعيل بن رافع القاص، عن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة مرفوعاً. إسماعيل بن رافع ويزيد بن أبي زياد متروكان. ميزان الاعتدال ١/ ٢٢٧ و ٤/ ٤٢٥ .

(٧) نقله عنهما ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٦ .

(٨) ص١٩٠ - ١٩٣ .

الأرض حسب ما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ:

روى مسلم[١] عن ثَوْبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنتُ قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه حَبْرٌ من أحبار اليهود فقال: السلامُ عليك... وذكر الحديث، وفيه: فقال اليهوديُّ: أين يكون الناس يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الظُّلمة دون الجِسر»[٢]. وذكر الحديث.

وخرَّجَ عن عائشة قالت: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناسُ يومئذٍ؟ قال: «على الصراط». خرَّجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء، وخرَّجه الترمذيُّ عن عائشة وأنها هي السائلة، وقال: هذا حديث حسن صحيح[٣].

فهذه الأحاديث تنصُّ على أنَّ السماواتِ والأرضَ تُبدَّل وتُزال، ويخلق اللهُ أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر.

وفي «صحيح مسلم» عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ الناسُ يومَ القيامة على أرضٍ بيضاءَ عَفْراء كقُرْصَة النَّقِيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»[٤].

وقال جابر: سألتُ أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: تُبدَّل خُبْزةً يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿وَمَا

---

(١) في صحيحه (٣١٥).

(٢) أي: الصراط. إكمال المعلم ٢/ ٦٥٣.

(٣) صحيح مسلم (٢٧٩١)، وسنن ابن ماجه (٤٢٧٩)، وسنن الترمذي (٣١٢١)، وهو في مسند أحمد (٢٤٠٦٩).

(٤) صحيح مسلم (٢٧٩٠)، وأخرجه البخاري (٦٥٢١)، وقوله: «ليس فيها علمٌ لأحد» ليس من كلام النبي ﷺ، وجاء التصريح بذلك في رواية البخاري، ونبَّه الحافظ في الفتح ١١/ ٣٧٥ على أن هذه العبارة أُدرجت في الحديث في رواية مسلم. ومعناه: أنه ليس فيها علامة سكنى أو بناء أو أثر. والعفراء: البيضاء المائلة إلى الحمرة؛ والنَّقيّ: هو الدقيق الحوري، وهو الدرمك. شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٣٤.

جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[(١)] [الأنبياء:٨].

وقال ابن مسعود: إنها تُبدَّلُ بأرضٍ غيرِها بيضاءَ كالفضة، لم يُعْمَلْ عليها خطيئة[(٢)]. وقال ابن عباس: بأرضٍ من فضَّةٍ بيضاء[(٣)]. وقال عليٌّ ﷺ: تُبدَّل الأرض يومئذٍ من فضة، والسماءُ من ذهب[(٤)]. وهذا تبديل العين، وحسبُكَ. ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: من قبورهم، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهم المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: مشدودين ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: وهي الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صَفَدتُه صَفْداً، أي: قَيَّدته، والاسمُ: الصَّفَد، فإذا أردتَ التكثير قلتَ: صَفَّدتُه تصفيداً؛ قال عمرو بن كُلْثوم[(٥)]:

فـآبُـوا بـالـنِّـهَـابِ وبـالـسَّـبـايـا وأُبْـنَـا بـالـمُـلـوكِ مُـصَـفَّـديـنـا

أي: مقيَّدينا. وقال حسان[(٦)]:

مِـن كـلِّ مـأسُـورٍ يُـشَـدُّ صِـفَـادُهُ صَـقْـرٍ إذا لاقَـى الـكـريـهـةَ حـامـي

أي: غلُّهُ، وأصفدتُه إصفاداً: أعطيتُه. وقيل: صَفَدتُه وأَصْفَدتُه جاريان في القيد والإعطاء جميعاً؛ قال النابغة:

---

(١) مجمع البيان ١٣/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢٩ و ٧٣٠، وأبو الشيخ في العظمة (٦٠٠)، والحاكم ٤/ ٥٧٠ وصحَّح إسناده.
وأخرجه البزار (١٨٥٩)، والطبراني في الكبير (١٠٣٢٣)، وفي الأوسط (٧١٦٧)، وابن عدي ٢/ ٥٤٧ عن ابن مسعود مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٥: رواه البزار، وفي إسناده جرير بن أيوب، وهو مجمعٌ على ضعفه.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٣٤ وفيه «الجنة» بدل «السماء».

(٥) في معلقته ص١٠٠.

(٦) ديوانه ص٢١٥.

فَلَمْ أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللعْنَ بالصَّفَدِ[١]

فالصَّفَدُ: العطاء؛ لأنه يُقيِّد ويُعَبِّد[٢]؛ قال أبو الطيب:

وقَيَّدتُ نفسي في ذَرَاكَ مَحَبَّةً ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تَقيَّدا[٣]

قيل: يُقرَنُ كلُّ كافرٍ مع شيطانٍ في غُلٍّ، بيانه قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] يعني: قرناءهم من الشياطين. وقيل: إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي[٤].

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: قُمُصُهُم. عن ابن دُرَيد وغيره، واحدها سِرْبال[٥]، والفعل: تَسربلتُ وسَربلتُ غيري؛ قال كعب بن مالك:

تَلْقَاكُمُ عَصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ مِنْ نَسْجِ دَاودَ في الْهَيْجا سَرابيلُ[٦]

﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ يعني: قَطِران الإبل الذي تُهْنَأ به. قاله الحسن[٧]. وذلك أبلَغُ لاشتعال النار فيهم[٨].

وفي الصحيح: أنَّ النائحةَ إذا لم تَتُبْ قبل موتها تُقام يومَ القيامة وعليها سِربالٌ من قَطِرانٍ ودِرْعٌ من جَرَب[٩]. ورُوي عن جماعةٍ[١٠] أنهم قالوا: هو النُّحاس[١١].

---

(١) وصدره: هذا الثناءُ فإن تسمَعْ به حسناً، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٣٧ .

(٢) أي: يُذَلِّل .

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢/ ١٥ . وقوله: ذَرَاك، أي: كنفك. الصحاح (ذرا).

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ١٤٨-١٤٩ ، والنكت والعيون ٢/ ١٤٤-١٤٥ .

(٥) جمهرة اللغة ٣/ ٣٠٥ لابن دريد، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٥ والنكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٥ .

(٦) ديوان كعب ص٢٠٣ ، وفيه: مما يُعِدُّون للهيجا، بدل: من نسج داود في الهيجا.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٣/ ٧٤٣ ، ونقله أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢١٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٧ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٠ .

(٩) صحيح مسلم (٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشعري، وأخرجه أحمد (٢٢٩٠٣).

(١٠) من (ظ)، وفي بقية النسخ: حماد.

(١١) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٤٣ ، ٧٤٤ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة.

وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء[١]. وفيه قراءة ثالثة: كسر القاف وجزم الطاء[٢]؛ ومنه قول أبي النَّجْم:

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحا لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ والْمُسُوحا[٣]

وقراءة رابعة: «مِنْ قِطْرٍ آنٍ» رُويت عن ابن عباس وأبي هُريرة وعكرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب[٤]. والقِطْرُ: النحاس، والصُّفْر المُذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦]. و«آن»[٥]: الذي قد انتهى حرُّه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾[٦] [الرحمن: ٤٤].

﴿وَتَغۡشَىٰ﴾ أي: تضرب ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فتُغشِّيها. ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ أي: بما كسبت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تقدَّم[٧].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي أنزلنا إليك بلاغٌ؛ أي: تبليغٌ وعِظَةٌ. ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليُخوَّفوا عقابَ الله عزَّ وجلَّ. وقُرِئَ: «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال[٨]، يقال: نَذِرتُ بالشيء أَنْذَرُ: إذا علمتَ به فاستعددتَ له، ولم يستعملوا منه مصدراً كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم استغنَوا بأن والفعل، كقولك: سَرَّني أن نَذِرتُ بالشيء.

---

(١) ذكر الطبري ١٣/ ٧٤٢ أن عيسى بن عمر كان يقرأ: «من قِطْران» بكسر القاف، أما قراءة فتح القاف وإسكان الطاء فقد ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٤٤٠ عن عمر وعلي.

(٢) وهي قراءة عيسى بن عمر فيما ذكره الطبري كما في التعليق السابق.

(٣) ديوان أبي النجم ص٨٣ . قوله: جَوْن، أي: أسود، أو أبيض (ضدٌّ). أو الأسود المشرب حمرة. والمُسوح: جمع مِسْح، وهو الكساء من الشعر.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٠ ، والمحتسب ١/ ٣٦٦ . وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٧٧ . والقراءة المشهورة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٥) من (ظ)، وفي غيرها: الآن.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٠ ، والنكت والعيون ٣/ ١٤٥ .

(٧) ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٨) المحتسب ١/ ٣٦٧ .

﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وليتَّعِظَ أصحاب العقول[١]. وهذه اللامات في «وَلِيُنْذَرُوا» «وَلِيَعْلَمُوا» «وَلِيَذَّكَّرَ» متعلقةٌ بمحذوف؛ التقدير: ولذلك أنزلناه[٢].

وروى يَمان بن رِئَاب أنَّ هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ[٣].

وسُئِلَ بعضُهم: هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم. قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ إلى آخرها.

تمَّ تفسير سورة إبراهيم عليه السلام، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٣/١٤٦، والوسيط للواحدي ٣/٣٧.

(٢) ينظر الوسيط للواحدي ٣/٣٧، وزاد المسير ٤/٣٧٨.

(٣) النكت والعيون ٣/١٤٦.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾

تقدَّم معناه[1]. و«الكتاب» قيل فيه: إنَّه اسمٌ لجنسِ الكتب المتقدِّمةِ من التوراة والإنجيل، ثم قرنَهما بالكتابِ المبين. وقيل: الكتابُ هو القرآنُ، جَمَع له بينَ الاسمين[2].

قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

«رُبَّ» لا تدخلُ على الفعل، فإذا لَحِقَتْها «ما»؛ هيَّأتها[3] للدخول على الفعل، تقولُ: ربَّما قام زيدٌ، وربما يقومُ زيد. ويجوزُ أن تكونَ «ما» نكرةً بمعنى شيء، و«يودُّ» صفةٌ له، أي: رُبَّ شيءٍ يودُّ الكافر[4].

وقرأ نافعٌ وعاصمٌ: «رُبَما» مخفَّف الباء. الباقون مشدَّدة[5]، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهلُ الحجازِ يُخفِّفون «ربَّما»[6]؛ قال الشاعر[7]:

---

(١) ١٠/٤٤٥ - ٤٤٧ .

(٢) ينظر النكت والعيون للماوردي ٣/١٤٧ .

(٣) في (ظ) و(د) و(ز): لحقه... هيأه.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/٦ ، ومعاني القرآن للأخفش ٢/٦٠٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/١٧٣ ، وأمالي ابن الشجري ٢/٥٦٦ - ٥٦٧ .

(٥) السبعة ص٣٦٦ ، والتيسير ص١٣٥ .

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/٣٧٥ .

(٧) هو عدي بن الرَّعلاء الغسَّاني، وسلف البيت ٥/١٢ .

رُبَّما ضربةٍ بسيفٍ صقيلٍ بين بُصْرَى وطعنةٍ نجلاءِ

وتميمٌ وقيس وربيعةُ يثقِّلونها[(١)]. وحُكيَ فيها: رَبَّمَا ورَبَمَا، ورَبَّتَمَا ورَبَتَمَا، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً[(٢)]. وأصلُها أن تُستعمَل في القليلِ، وقد تُستعمَل في الكثيرِ، أي: يَودُّ الكفارُ في أوقاتٍ كثيرةٍ لو كانوا مسلمين[(٣)]؛ قاله الكوفيون. ومنه قولُ الشاعر:

ألا ربَّما أهْدَتْ لك العينُ نظرةً قُصاراكَ منها أنَّها عنك لا تُجدِي[(٤)]

وقال بعضهم: هي للتقليلِ في هذا الموضع؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها[(٥)]؛ لشغلِهم بالعذاب، والله أعلم. وقال: «رُبَمَا يَوَدُّ» وهي إنَّما تكون لما وقع؛ لأنه لِصدقِ الوعد كأنه عِيانٌ قد كان.

وخرَّج الطبرانيُّ أبو القاسم من حديثِ جابر بنِ عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ ناساً من أمَّتي يدخلون النارَ بذنوبهم، فيكونون في النارِ ما شاءَ الله أن يكونوا، ثم يُعيِّرُهم أهلُ الشرك[(٦)]، فيقولون: ما نرى ما كنتم تُخالفونا فيه من تصديقِكم وإيمانِكم نَفَعكم، فلا يبقَى موحِّدٌ إلَّا أخرجَه اللهُ من النار، ثم قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾»[(٧)].

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٥، وفيه: «بكر» بدل «ربيعة».

(٢) وقال ابن هشام في المغني ص١٨٤: وفي ربَّ ستَّ عشرةَ لغةً: ضمُّ الراء وفتحها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف، والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ساكنة أو محركة ومع التجرد منها، فهذه اثنتا عشرة، والضمُّ والفتح مع إسكان الباء، وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف.

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩.

(٤) في (د) و(ز): تجزي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٨.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٤٨.

(٦) في (ظ): النار.

(٧) المعجم الأوسط للطبراني (٥١٤٢)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢ لابن مردويه، وصحح إسناده. وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٧٩: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، غير بسام الصيرفي وهو ثقة.

قال الحسن: إذا رأى المشركون المؤمنين[١] وقد دخلوا الجنةَ، ومأواهم[٢] في النار، تمنَّوا أنَّهم كانوا مسلمين. وقال الضَّحَّاك: هذا التمنِّي إنَّما هو عند المعاينةِ في الدنيا حين تبيَّن[٣] لهم الهدى من الضلالة. وقيل: في القيامةِ إذا رأوا كرامةَ المؤمنين، وذُلَّ الكافرين[٤].

قولُه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ تهديدٌ لهم. ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: يَشغلُهم عن الطاعة. يُقال: ألهاه عن كذا، أي: شَغله، ولَهِيَ هو عن الشيء يَلْهَى[٥]. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا رأَوا القيامة، وذاقوا وَبالَ ما صنعوا. وهذه الآيةُ منسوخةٌ بالسيف[٦].

الثانية: في «مسند» البزار، عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعةٌ من الشقاءِ: جُمودُ العينِ، وقساوةُ[٧] القلب، وطُولُ الأمل، والحِرْصُ على الدُّنيا»[٨].

وطولُ الأمل داءٌ عُضالٌ ومرضٌ مُزمن، ومتى تمكَّن من القلب فسدَ مِزاجُه، واشتدَّ علاجه، ولم يفارقه داءٌ، ولا نجع[٩] فيه دواء، بل أعيا الأطباءَ، ويئس من

(١) في (د) و(ز) و(م): المسلمين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/١٤٨.
(٢) في (ظ) و(د) و(ز): وما رأوهم، وفي النكت والعيون ٣/١٤٨: وصاروا هم.
(٣) في (ظ): حتى يتبين.
(٤) النكت والعيون ٣/١٤٧ - ١٤٨.
(٥) تهذيب اللغة ٦/٤٢٨.
(٦) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/٣٥٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/٣٨٢، وآية السيف هي قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].
(٧) في (د) و(ز): وقساء.
(٨) كشف الأستار (٣٢٣٠)، وسلف ٢/٢٠٥، ونقلنا ثمة كلام الذهبي فيه: حديث منكر.
(٩) في (ظ): ينجع.

بُرْئِه الحكماءُ والعلماء. وحقيقةُ الأملِ: الحرصُ على الدنيا، والانكبابُ عليها، والحب[(١)] لها، والإعراضُ عن الآخرة.

ورُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «نجا أولُ هذه الأمةِ باليقين والزهدِ، ويَهلِك آخرُها بالبخل والأمل»[(٢)].

ويُروى عن أبي الدرداءِ ﷺ، أنَّه قامَ على دَرَجِ مسجد دمشق، فقال: يا أهلَ دمشقَ، ألَا تسمعونَ من أخٍ لكم ناصح، إنَّ مَن كان قبلَكم؛ كانوا يجمعون كثيراً، ويبنون مُشَيَّداً، وَيأمُلون بعيداً، فأصبح جمعُهم بُوراً، وبنيانُهم قبوراً، وأملُهم غروراً، هذه عادٌ قد ملأتِ البلادَ أهلاً ومالاً، وخيلاً ورجالاً، فمَن يشتري مني اليوم تركتَهم بدرهمين[(٣)]؟! وأُنشد[(٤)]:

يا ذا[(٥)] المؤملُ آمالاً وإن بَعُدت ... منه ويزعمُ أنْ يَحْظَى بأقصاها

أنَّى تفوزُ بما ترجوه وَيْكَ وما ... أصبحتَ في ثقةٍ من نَيْلِ أدناها

وقال الحسن: ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلا أساء العملَ. وصدقَ ﷺ؛ فالأمل يُكسِلُ عن العمل[(٦)]، ويُورثُ التراخيَ والتوانيَ، ويُعقِبُ التشاغلَ والتقاعُس، ويُخلِدُ إلى

---

(١) في (ظ): والحث.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا في اليقين (٣) من طريق عبد الله بن لهيعة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٨٩٦). وعبد الله بن لهيعة ضعيف.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٤٦)، والخطيب في تاريخ بغداد ١٨٦/٧، والمزي في تهذيب الكمال ١٠٦/٥ - ١٠٧، من طريق إبراهيم بن ميسرة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً. قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٠٢) و(٤٨٩٥): إسناده محتمل للتحسين، ومتنه غريب.

(٣) أخرجه ـ مختصراً مطولاً ـ ابن المبارك في الزهد (٨٤٧)، وابن أبي شيبة ٣٠٥/١٣ - ٣٠٦، وأبو نعيم في الحلية ٢١٣/١، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣٩) و(١٠٧٤٠)، والخطيب في تاريخ بغداد ٩٥/٤ - ٩٦.

(٤) في (ظ): وأنشدوا، ولم نقف على هذين البيتين.

(٥) في (ظ): يأتي.

(٦) في (ظ): فالعمل يكسل عنه الأمل.

الأرض، ويُميلُ إلى الهوى. وهذا أمرٌ قد شُوهد بالعِيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يُطْلَب صاحبُه ببرهان، كما أنَّ قِصَر الأمل يبعث على العمل، ويَحمِل[١] على المبادرة، ويحثُّ على المسابقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾

أي: أجلٌ مؤقَّت كُتِب لهم في اللوحِ المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

«من» صلةٌ؛ كقولك: ما جاءني من أحدٍ، أي: لا تتجاوزُ أجلَها فتزيدُ عليه، ولا تتقدَّم قبلَه[٢]. ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾

قاله كفارُ قريش لمحمدٍ ﷺ على جهةِ الاستهزاء، ثم طلبوا منه إتيانَ الملائكة دَلالةً على صدقِه. و«لَوْ مَا» تحضيضٌ على الفعل، كـ «لولا» و«هلَّا»[٣]. وقال الفرَّاء: الميم في «لو ما» بدلٌ من اللامِ في «لولا». ومثلُه: استولى على الشيء. واسْتَوْمَى عليه، ومثلُه: خالَمْتُه وخاللته، فهو خِلِّي وخِلْمي، أي: صديقي[٤].

وعلى هذا يجوز «لو ما» بمعنى الخبر، تقول: لوما زيدٌ لضُرِب عمرٌو. قال الكسائي: لولا ولوما سواءٌ في الخبر والاستفهام. قال ابن مُقْبِل:

لَوْمَا الحياءُ ولوما الدِّينُ عِبتُكما ... ببعض ما فيكما إذْ عبتُما عَوَرِي[٥]

---

(١) في (د) و(ز) و(م): ويحيل.

(٢) ينظر زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٨٣ .

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٤٠ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٩ ، وينظر اللسان (ولي).

(٥) في (ظ) و(ز): عَودي، والبيت في ديوان ابن مقبل ـ وهو تميم ـ ص٧٦ ، وفيه: لولا، بدل: لوما =

يريد: لولا الحياءُ.

وحكى النحاس[1]: لوما، ولولا، وهلَّا؛ واحدٌ. وأنشدَ أهلُ اللغة على ذلك:

تَعُدُّون عَقْرَ النِّيبِ[2] أفضلَ مَجْدِكم بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعا[3]

أي: هلَّا تَعُدُّون الكَمِيَّ المُقَنَّعا.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

قرأ حفص وحمزةُ والكسائي: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ واختارَه أبو عُبيد. وقرأ أبو بكر والمفضَّل: ﴿ما تُنَزَّلُ الملائكةُ﴾. الباقون: ﴿ما تَنَزَّلُ الملائكةُ﴾[4]. وتقديرُه: ما تتنزل؛ بتاءين، حذفت إحداهما تخفيفاً، وقد شدَّد التاءَ البَزِّيُّ[5]، واختاره أبو حاتم اعتباراً بقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلا بالقرآن. وقيل: بالرسالة؛ عن مجاهد. وقال الحسن: إلَّا بالعذاب إن لم يؤمنوا[6]. ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي: لو تنزلت الملائكةُ بإهلاكِهم؛ لَما أُمْهِلوا، ولا قُبلت لهم توبةٌ. وقيل: المعنى: لو تنزلت الملائكةُ تشهدُ لك، فكفروا بعد ذلك؛ لم يُنظَرُوا[7]. وأصلُ «إذاً»: إذْ أنْ[8]، ومعناه: حينئذٍ، فضُمَّ

= في الموضعين، ورواية المصنف في تفسير الطبري ١٤/ ١٥، ومجاز القرآن ١/ ٣٤٦.

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٠.

(٢) في (د) و(ز): النبت.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٠٧، وسلف ٢/ ٣٤٢ ونسبه المصنف ثمة للأشهب بن رُميلة، و٨/ ٣٦٨.

(٤) السبعة ص٣٦٦، والتيسير ص١٣٥، وأبو بكر: هو شعبة راوي عاصم.

(٥) التيسير ص٨٣.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٤٩، وأثر مجاهد في تفسيره ١/ ٣٣٩، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ١٧ - ١٨.

(٧) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٤٠، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢١٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١.

(٨) نسبه المالقيُّ في رصف المباني في شرح حروف المعاني ص٦٩ - ٧٠ إلى الكوفيين، ثم رده من وجهين، أحدهما: أن الأصل في الحروف البساطة، ولا يدَّعى التركيب إلا بدليل قاطع. والثاني: أنها لو كانت مركبة من «إذ» و«أن» لكانت ناصبة على كل حال، تقدمت أو تأخرت، وعدم العمل أحياناً دليل على عدم التركيب.

إليها أنْ، واستثقلوا الهمزةَ فحذفوها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يُزاد فيه أو يُنقَص منه[1]. قال قتادةُ وثابت البُنَانيُّ: حفِظه الله من أن تزيدَ فيه الشياطين باطلاً، أو تَنقُص منه حقًّا[2]. فتولَّى سبحانه حفظَه، فلم يزل محفوظاً، وقال في غيره: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ [المائدة:٤٤]، فوَكَل حفظَه إليهم، فبدَّلوا وغيروا[3].

أنبأنا الشيخُ الفقيه الإمام أبو القاسم عبدُ الله[4]، عن أبيه الشيخِ الفقيه الإمامِ المحدث أبي الحسن عليِّ بن خلف بن مَعزوز الكُومي التِّلِمْساني قال: قُرئ على الشيخةِ العالمة فخرِ النساء شُهْدَة بنتِ أبي نصر أحمدَ بنِ الفرج الدِّينَورِيِّ، وذلك بمنزلها بدارِ السلام في آخر جُمادَى الآخرة من سنةِ أربع وستين وخمس مائة، قيل لها: أخبركم الشيخ الأجلُّ العامل نقيبُ النقباء أبو الفوارس طِرادُ بن محمد الزينبي قراءةً عليه وأنت تَسمعينَ سنة تسعين وأربع مائة، أخبرنا عليُّ بن عبدِ الله بن إبراهيم، حدَّثنا أبو علي عيسى بنُ محمد بن أحمد بن عمر بن عبدِ الملك بن عبدِ العزيز بن جُريج المعروف بالطُّومَارِي، حدَّثنا الحسينُ بن فهم قال: سمعت يحيى بنَ أكثم[5] يقول: كان للمأمون ـ وهو أميرٌ إذ ذاك[6] ـ مجلسُ نظر، فدخل في جملةِ الناس رجلٌ يهودي حسنُ الثوب، حسنُ الوجه، طيبُ الرائحة. قال: فتكلمَ، فأحسن الكلام

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٤ .

(٢) أخرجه عنهما عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٤٥ ، وأخرجه عن قتادة الطبري في التفسير ١٤/ ١٨ - ١٩ .

(٣) بداية سقط في (ظ).

(٤) هو: عبد الله بن علي بن خلف بن معزوز الكُومي، ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٧٩-٤٨٢ في ترجمة سنجر الأمير علم الدين الدواداري في عداد شيوخه، وقد روى عنه سنجر بمنية بني خصيب.

(٥) هو: قاضي القضاة أبو محمد، يحيى بن أكثم بن محمد بن قَطَن، ولد في خلافة المهدي، وكان من أئمة الاجتهاد، وله تصانيف منها كتاب «التنبيه». (ت ٢٤٢هـ). أخبار القضاة لوكيع ٢/ ١٦١ ، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٥ .

(٦) قوله: وهو أمير إذ ذاك، ليس في (د)، وفي المنتظم لابن الجوزي ١٠/ ٥١ : قبل تقلده الخلافة.

والعبارةَ. قال: فلمَّا تقوَّض المجلسُ، دعاه المأمونُ فقال له: إسرائيليٌّ؟ قال: نعم. قال له: أسلِم حتى أفعلَ لك[1] وأصنع. ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعدَ سنةٍ جاءنا مُسْلماً، قال: فتكلَّم على الفقهِ، فأحسنَ الكلامَ، فلما تقوَّض المجلسُ، دعاه المأمونُ وقال: ألستَ صاحبَنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سببُ إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتِك، فأحببتُ أن أمتحنَ هذه الأديانَ، وأنت تراني حسنَ الخط، فعَمَدتُ إلى التوراةِ، فكتبتُ ثلاث نسخ، فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسةَ، فاشتُرِيت مني، وعَمَدتُ إلى الإنجيل، فكتبتُ ثلاثَ نسخ، فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها البِيعة، فاشتُرِيت مني، وعَمدتُ إلى القرآن، فعملت ثلاثَ نسخٍ، وزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الورَّاقين فتصفَّحوها، فلمَّا أن وجدوا فيها الزيادةَ والنقصان رَمَوا بها، فلم يشتروها، فعلمتُ أنَّ هذا كتابٌ محفوظ، فكان هذا سببَ إسلامي.

قال يحيى بنُ أكثم: فَحَجَجْتُ تلك السنةَ، فلقِيت سفيانَ بنَ عُيينة، فذكرت له الخبرَ، فقال لي: مِصداقُ هذا في كتاب الله عزَّ وجلَّ. قال: قلت: في أيِّ موضعٍ؟ قال: في قولِ الله تباركَ وتعالى في التوراةِ والإنجيل: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فجعلَ حِفظَه إليهم فضاعَ، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فحفظَه الله عزَّ وجلَّ علينا فلم يَضِع[2].

وقيل: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: لمحمد ﷺ من أن يتقوَّل علينا، أو يُتقول[3] عليه. أو ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يُكاد أو يُقتل[4]. نظيرُه ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) في النسخ: بك، والمثبت من المنتظم ١٠/ ٥١.

(٢) نهاية السقط في (ظ)، والقصة بتمامها في المنتظم ١٠/ ٥١.

(٣) في (د) و(ز) و(م): تتقول، والمثبت من (ظ).

(٤) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٥، وتفسير الطبري ١٤/ ١٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١ - ٣٥٢. والكشاف ٢/ ٣٨٨.

و«نحن» يجوز أن يكونَ موضعُه رفعاً بالابتداء و«نزَّلنا» الخبر. والجملةُ خبرُ «إنَّ». ويجوزُ أن يكونَ «نحن» تأكيداً لاسم «إنَّ» في موضع نصبٍ[1]، ولا تكون فاصلةً[2]؛ لأنَّ الذي بعدَها ليس بمعرفةٍ، وإنَّما هو جملةٌ، والجملُ تكون نعوتاً[3] للنكرات، فحكمُها حكمُ النكرات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾

المعنى: ولقد أرسلنا من قَبلِك رسلاً، فحذف. والشِّيَع جمعُ شِيعة، وهي الأُمَّة، أي: في أُممِهم؛ قاله ابنُ عباسٍ وقتادة. الحسن: في فِرَقِهم. والشِّيعةُ: الفِرقةُ والطائفة من الناس المتآلفةُ المتفقة الكلمة، فكأنَّ الشِّيَع الفِرَقُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، أي: فرِقاً[4]، وأصلُه مأخوذٌ من الشِّياع، وهو الحطبُ الصغارُ يوقد به الكبارُ، كما تقدَّم في «الأنعام»[5]. وقال الكلبيُّ: إنَّ الشيَعَ هنا القُرى[6].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾

تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: كما فَعل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فُعِل بمَن قَبلك من الرسل[7].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: الضلالَ والكفرَ، والاستهزاءَ والشركَ. ﴿فِي

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٧.

(٢) وجوَّزه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٧٧.

(٣) في (ظ): والجملة تكون نعتاً.

(٤) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٩، والوسيط ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥، وتفسير الطبري ١٤/ ١٩.

(٥) ٨/ ٤١٤.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٥٠، وفيه «القبائل» بدل «القرى»، وما عندنا نسخة في هامشه.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٢، والوسيط ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٥.

﴿قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك، عن الحسن وقتادة وغيرهما. أي: كما سلكناهُ في قلوبِ مَن تقدم من شِيع الأولين؛ كذلك نَسلكُه في قلوبِ مشركي قومِك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن مَن قبلهم برسلهم. وروى ابنُ جُريح عن مجاهدٍ قال: نسلكُ التكذيبَ[1]. والسَّلْكُ: إدخالُ الشيء في الشيء، كإدخالِ الخيطِ في المِخْيَط. يُقال: سَلَكه يَسْلُكه سَلْكاً وسُلوكاً، وأَسلكه إسلاكاً. وسَلَك الطريقَ سُلُوكاً وسَلْكاً، وأسلكه: دخله، والشيءَ في غيرِه مثله، والشيءَ كذلك، والرُّمْحَ، والخيطَ في الجوهرِ، كلُّه فَعَل وأفعل[2]. وقال عَدِيُّ بن زيد:

وقد سلكوكَ في يومٍ عَصيبٍ[3]

والسِّلكُ، بالكسر الخيطُ. وفي الآيةِ ردٌّ على القَدَرية والمعتزلةِ.

وقيل: المعنى: نسلك القرآنَ في قلوبِهم، فيكذبون به. وقال الحسن ومُجاهد وقتادةُ القولَ الذي عليه أكثرُ أهلِ التفسير، وهو ألزمُ حجةً على المعتزلةِ. وعن الحسن أيضاً: نسلكُ الذكْرَ إلزاماً للحجة[4]؛ ذكره الغَزْنَوِيُّ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت سنةُ الله بإهلاك الكفارِ، فما أقربَ هؤلاءِ من الهلاك! وقيل: «خلت سنة الأولين» بمثلِ ما فعل هؤلاء من التكذيبِ والكفر، فهم يقتدونَ بأولئك[5].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يُقال: ظلَّ يفعل كذا، أي: يفعلُه بالنهار. والمصدرُ: الظُّلولُ. أي: لو أُجيبوا إلى

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٠ - ٢١، والنكت والعيون ٣/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) ينظر الأفعال للسرقسطي ٣/ ٤٩٥، واللسان (سلك).

(٣) عجز بيت، وصدره: وكنتُ لزازَ خصمِك لم أُعرِّد، وهو في مجاز القرآن ١/ ٢٩٤، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٢، والأغاني ٢/ ١١١، وأورده إبراهيم الحربي في غريب الحديث ١/ ٣٠٣ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٥٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٧.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٥، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٤، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢١٥.

ما اقترحوا من الآيات، لأصرُّوا على الكفرِ، وتعلَّلوا بالخيالاتِ[١]، كما قالوا للقرآنِ المعجز: إنه سحرٌ.

«يَعْرُجُون» من عَرَج يَعْرُج، أي: صَعِد. والمعارجُ: المصاعد. أي: لو صَعِدُوا إلى السماء، وشاهدوا الملكوتَ والملائكةَ، لأصرُّوا على الكفر؛ عن الحسنِ وغيره. وقيل: الضميرُ في «عليهِم» للمشركين. وفي «فظَلُّوا» للملائكة، تذهبُ وتَجيء. أي: لو كُشِف لهؤلاء حتى يُعاينوا أبواباً في السماء تصعدَ فيها الملائكةُ وتنزلُ، لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقةَ له؛ عن ابنِ عباسٍ وقتادة[٢].

ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ : سُدَّت بالسِّحرِ؛ قاله ابنُ عباس والضَّحاكُ. وقال الحسن: سُحِرت. الكلبي: أُغشيت أبصارُنا، وعنه أيضاً: عَمِيت. قتادةُ: أُخذت. وقال المُؤَرِّج: دِيرَ بنا، من الدوران، أي: صارت أبصارُنا سكرى. جُوَيْبِر: خُدِعت. وقال أبو عَمرو بنُ العلاء: «سُكِّرت»: غُشِّيت وغُطِّيت. ومنه قولُ الشاعرِ:

وطلعتْ شمسٌ عليها مِغفرُ وجعلت عينُ الحَرورِ تَسْكُرُ[٣]

وقال مجاهد: «سُكِّرت»: حُبِست. ومنه قولُ أوْس بنِ حِجْر:

فصرت على ليلةٍ ساهره فليست بطَلْقٍ ولا سَاكِرَه[٤]

قلتُ: وهذه أقوال[٥] متقاربةٌ يجمعها قولُك: مُنِعت.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٨٦ ، والوسيط ٣/ ٤٠ - ٤١ ، وينظر الطبري ١٤/ ٢٣ .

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣ - ٢٥ ، والوسيط ٣/ ٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣ .

(٣) الرجز لجندل بن المثنى، ونسبه إليه الطبري ١٤/ ٢٩ وأورد الثاني منه، وأورده بتمامه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥١ دون نسبة. والحَرور: الريح الحارة. الصحاح (حرر). والمعنى: يسكن حرها وتخبو. لسان العرب (قبر)، ووقع في (ظ): الجزور.

(٤) البيت في ديوانه ص٣٤ ، وأورده في اللسان (سكر) وفيه «جذلت» بدل «فصرت»، وأورده أيضاً بلفظ:

تزاد ليالِيَّ في طولها فليست بطلق ولا ساكره

وفي النكت والعيون ٣/ ١٥١ : «فصرنَ» بدل: «فصرت».

(٥) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٤/ ٢٥ - ٢٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٥١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٦ .

قال ابنُ عُزَيز[١]: «سُكِّرت أبصارُنا»: سُدَّت أبصارُنا؛ هو من قولك: سَكَّرتُ النهرَ: إذا سَدَدْتَه. ويقال: هو من سُكْرِ الشراب، كأنَّ العينَ يلحقُها ما يلحقُ الشاربَ إذا سَكِر.

وقرأ ابنُ كَثير: «سُكِرت» بالتخفيف. والباقون بالتشديد[٢]. قال ابنُ الأعرابي: سُكِرت: مُلِئت[٣].

قال المهدَوِيُّ: والتخفيفُ والتشديدُ في «سُكرت» ظاهران، التشديدُ للتكثير، والتخفيف يؤدِّي عن معناه، والمعروف أنَّ «سَكِرَ» لا يتعدَّى.

قال أبو علي[٤]: يجوزُ أن يكون سُمِع متعدياً في البصر. ومَن قرأ: «سَكِرت»[٥] فإنه شبَّه ما عَرَض لأبصارهم بحالِ السكران، كأنَّها جرت مجرى السكران؛ لعدم تحصيله. وقد قيل: إنَّه بالتخفيفِ، من سُكرِ الشراب، وبالتشديد مأخوذٌ من سكَّرت الماء. وقيل: سُكِرت مخففاً: سُحِرت، وبالتشديد[٦]: أُخِذت، ذكرهما الماوردي.

وقال النَّحاسُ[٧]: والمعروفُ من قراءة مجاهدٍ والحسن: «سُكِرت» بالتخفيف. قال الحسنُ: أي: سُحِرت. وحكى أبو عبيد، عن أبي عبيدة أنَّه يقال: سُكِّرت أبصارُهم: إذا غَشِيها سَمادِير[٨] حتى لا يبصروا. وقال الفراء: مَن قرأ: «سَكِرت»

(١) في نزهة القلوب ص٢٧٦ .

(٢) السبعة ص٣٦٦ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٣) ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٥٥ ، ولسان العرب (سكر).

(٤) هو الفارسي، وينظر كلامه بنحوه في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣ - ٤٤ ، وينظر الدر المصون ٧/ ١٤٩ .

(٥) هي قراءة الزهري كما في البحر المحيط ٥/ ٤٤٨ .

(٦) قوله: مأخوذ من سكرت، إلى هذا الموضع من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٥١ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٤ .

(٨) السَّمادير: قيل: هو الشيء الذي يتراءى للإنسان من ضعف بصره عند السُّكر من الشراب، وغشي النعاس والدوار. اللسان (سمدر)، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٧ ، وقد نقله عنه المصنف بواسطة معاني القرآن للنحاس.

أخذه من سُكورِ الريحِ[(١)].

قال النحاسُ: وهذه الأقوالُ متقاربةٌ، والأصلُ فيها ما قال أبو عَمرو بنُ العلاء رحمه الله تعالى، قال: هو من السُّكرِ في الشرابِ[(٢)].

وهذا قولٌ حسن، أي: غَشِيهم ما غطَّى أبصارَهم، كما غَشِيَ السكرانَ ما غطَّى عقلَه[(٣)]. وسكورُ الريحِ: سكونُها وفُتورُها، فهو يرجعُ إلى معنى التحيير[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

لمَّا ذكر كفرَ الكافرين، وعَجْزَ أصنامِهم، ذكر كمالَ قدرته؛ ليُستَدلَّ بها على وَحدانيتِه. والبروجُ: القصورُ والمنازل. قال ابنُ عباس: أي: جعلنا في السماء بروجَ الشمسِ والقمر، أي: منازلَهما. وأسماءُ هذه البروجِ: الحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسَّرطان، والأَسَد، والسُّنبُلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدَّلو، والحوت[(٥)]. والعربُ تَعُدُّ المعرفةَ لمواقع النجومِ وأنوائها[(٦)] من أَجلِّ العلومِ، ويستدلُّونَ بها على الطرقاتِ والأوقاتِ، والخِصبِ والجَدْب. وقالوا: الفَلَكُ اثنا عشرَ بُرجاً، كلُّ برجٍ مِيلان ونصفٌ[(٧)]. وأَصلُ البروجِ الظهورُ؛ ومنه تَبرُّجُ المرأةِ بإظهارِ زينتها، وقد تقدَّم هذا المعنى في النساءِ[(٨)]. وقال الحسن وقتادةُ: البروجُ: النجومُ،

---

(١) في (د) و(ظ) ومعاني النحاس: سكون الريح، وعبارة الفراء في معاني القرآن ٢/ ٨٦ : قد سكرت الريح إذا سكنت وركدت، ونقل المصنف كلام الفراء بواسطة معاني القرآن للنحاس.

(٢) معاني القرآن ٤/ ١٤ ، وينظر الطبري ١٤/ ٢٦ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٦ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٨ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٥ .

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٧ ، و ينظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ١٦١ .

(٦) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: وأبوابها.

(٧) كذا في النسخ غير (ظ)، ففيها: ليلتان ونصف، ولعل الصواب: منزلتان وثلث. كما ذكر المصنف في تفسير الآية (٣٩) من سورة ياسين، وينظر مفتاح دار السعادة ٢/ ١٩٥ ، ولسان العرب (برج).

(٨) ٦/ ٤٦٤ - ٤٦٧ .

وسُميت بذلك؛ لظهورِها وارتفاعِها. وقيل: الكواكبُ العظامُ؛ قاله أبو صالحٍ، يعني: السبعةَ السَّيَّارةَ[١]. وقال قومٌ: «بروجاً»؛ أي: قصوراً وبيوتاً فيها الحرَسُ، خَلقها الله في السماءِ[٢]. فالله أعلم. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ يعني: السماءَ، كما قال في سورةِ المُلْك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾: للمعتبرين والمُتفكّرين.

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

أي: مرجوم. والرَّجمُ: الرميُ بالحجارةِ. وقيل: الرجمُ: اللَّعنُ والطردُ. وقد تقدَّم[٣]. وقال الكسائي: كلُّ رَجمٍ[٤] في القرآنِ فهو بمعنى الشَّتمِ. وزعم الكلبيُّ أنَّ السماواتِ كلَّها لم تُحفظ من الشياطين إلى زمنِ عيسى، فلما بَعثَ اللهُ تعالى عيسى، حُفِظ منها ثلاثُ سماوات إلى مَبعَثِ رسولِ الله ﷺ، فحُفِظ جميعُها بعدَ بَعثِه، وحُرِست منهم بالشُّهُب[٥]. وقاله ابنُ عباس ﷺ. قال ابنُ عباس: وقد كانتِ الشياطين لا يُحجَبون عن السماء، فكانوا يدخُلونها، ويُلقون أخبارَها إلى[٦] الكهنةِ، فيزيدونَ عليها تسعاً، فيحدِّثون بها أهلَ الأرض، الكلمةُ حقٌّ والتسعُ باطلٌ؛ فإذا رأوا شيئاً مما قالوه، صدَّقوهم فيما جاؤوا به، فلمَّا وُلِد عيسى ابنُ مريم عليهما السلام، مُنِعوا من ثلاثِ سماوات، فلمَّا وُلِد محمدٌ ﷺ، مُنِعوا من السماواتِ كلِّها، فما منهم من أحدٍ يريدُ استراقَ السمعِ إلا رُمِيَ بشِهابٍ[٧]، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

أي: لكن مَنِ استرقَ السّمع، أي: الخَطْفةَ اليسيرة. فهو استثناءٌ منقطع. وقيل:

---

(١) وهي: زُحَل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٥٢، وزاد المسير ٤/ ٣٨٧.

(٣) ١١/ ٢٠١.

(٤) في (د) و(ز) و(م): رجيم.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥٢.

(٦) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: على.

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢١٦، والوسيط ٣/ ٤١، وزاد المسير ٤/ ٣٨٩.

هو مُتصل، أي: إلا ممَّن استرقَ السمع[١]. أي: حَفِظنا السماءَ من الشياطين أنْ تسمعَ شيئاً من الوحي وغيره[٢]، إلا منِ استرق[٣] السمعَ، فإنَّا لم نحفظْها منه أن تَسمعَ الخبرَ من أخبارِ السماءِ سوى الوحي، فأمَّا الوحيُ، فلا تَسمعُ منه شيئاً[٤]؛ لقولهِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. وإذا استمعَ الشياطينُ إلى شيءٍ ليس بوحي، فإنَّهم يَقذِفونه إلى الكَهَنةِ في أسرعَ من طرفةِ عين، ثم تَتبَعُهم الشُّهبُ فتَقْتُلهم أو تَخبِلُهم، ذكره الحسنُ وابنُ عباس[٥].

قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أتبعه: أدركه ولَحِقَه. شِهابٌ: كوكبٌ مُضيءٌ[٦]. وكذلك: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]. وقولُه: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧] أي: بشعلةِ نارٍ في رأسِ عودٍ، قاله ابنُ عُزَيز[٧]. وقال ذو الرُّمَّةِ:

كأنَّه كوكبٌ في إثْرِ عِفْريَةٍ مُسَوَّمٌ في سَوادِ الليلِ مُنْقَضِبُ[٨]

وسُميَ الكوكبُ شِهاباً لأنه[٩] لبريقِه يُشبِهُ النارَ. وقيل: شهابٌ: شعلة من نار تبينُ لأهلِ الأرض[١٠]، فتحرقُهم ولا تعودُ إذا أحرقَت، كما إذا أحرقتِ النارُ لم تَعُدْ، بخلافِ الكوكبِ، فإنَّه إذا أحرقَ، عادَ إلى مكانِه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٨، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٦، وتفسير الطبري ١٤/ ٣٢ - ٣٣.

(٢) بعدها في (ظ): من أخبار السماء.

(٣) قوله: من استرق، ليس في (ظ).

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٥٢، وزاد المسير ٤/ ٣٩٠.

(٥) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٩٠، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٤/ ٣٢ - ٣٣.

(٦) الوسيط ٣/ ٤١ - ٤٢، وزاد المسير ٤/ ٣٩٠.

(٧) في (ظ): عرفة، وكلام ابن عُزيز في نزهة القلوب ص٣٦٧، دون قوله: في رأس عود.

(٨) البيت في ديوانه ١/ ١١١، قال شارحه أبو نصر الباهلي: وعفرية: شيطان، ومسوَّم: مُعْلَمٌ مسوَّم بالبياض في سواد الليل، ويكون مسوم: مخلًّى عنه. ومنقضب: مُنقضٌّ.

(٩) ليست في (د) و(ز) و(م).

(١٠) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: لشعلة من نار قبس لأهل الأرض.

قال ابنُ عباسٍ: تصعدُ الشياطينُ أفواجاً تسترقُ السمعَ، فَينفردُ الماردُ منها فَيعلو، فَيُرْمَى بالشهابِ، فيصيبُ جبهتَه أو أنفَه أو ما شاء الله، فَيلتهبُ، فيأتي أصحابَه وهو يلتهبُ، فيقولُ: إنَّه كان من الأمرِ كذا وكذا، فيذهبُ أولئك إلى إخوانِهم من الكَهَنةِ، فَيزيدون عليها تسعاً، فيُحدِّثون بها أهلَ الأرضِ، الكلمةُ حقٌّ والتسعُ باطلٌ، فإذا رأوا شيئاً مما قالوا قد كان، صَدَّقوهم بكلِّ ما جاؤوا به من كذِبهم[1]. وسيأتي هذا المعنى مرفوعاً في سورة «سبأ» إن شاء الله تعالى[2].

واختُلِف في الشهابِ، هل يَقتُل أم لا؟ فقالَ ابن عباس: الشهابُ يَجرحُ ويُحرِق ويَخبِلُ، ولا يقتلُ. وقالَ الحسنُ وطائفةٌ: يَقتلُ؛ فعلى هذا القولِ؛ في قتلِهم بالشُّهبِ قبلَ إلقاءِ السمعِ إلى الجنِّ قولان:

أحدُهما: أنَّهم يُقتلون قبلَ إلقائِهم ما استَرقُوه من السمعِ إلى غيرهم، فعلى هذا؛ لا تصلُ أخبارُ السماءِ إلى غيرِ الأنبياء، ولذلك انقطعتِ الكِهانةُ.

والثاني: أنَّهم يُقتَلون بعد إلقائِهم ما استرقوه من السمعِ إلى غيرِهم من الجنِّ، ولذلك ما يعودون إلى استراقِه، ولو لم يصلْ، لانقطعَ الاستراقُ، وانقطع الإحراقُ. ذكره المَاورديُّ[3].

قلتُ: والقولُ الأوّل أصحُّ على ما يأتي بيانُه في «الصَّافات»[4].

واختُلِف: هل كانَ رميٌ بالشُّهُب قبلَ المبعثِ؟ فقال الأكثرون: نعم. وقيل: لا، وإنَّما ذلك بعدَ المبعث[5]. وسيأتي بيانُ هذه المسألةِ في سورةِ الجن إن شاءَ الله تعالى. وفي «الصَّافات» أيضاً. قال الزَّجاجُ[6]: والرميُ بالشهبِ من آياتِ النبيِّ ﷺ،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢ ، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٦ .

(٢) في الآية: ٢٣ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٥٣ .

(٤) الآية: ٨ .

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٧ - ٣٨٩ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٧٦ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٨٨ .

ممَّا حدثَ بعد مولِده؛ لأنَّ الشعراءَ في القديم لم يذكروهُ في أشعارِهم، ولم يُشَبِّهوا الشيءَ السريعَ به، كما شَبَّهوا بالبرقِ وبالسَّيلِ.

ولا يبعدُ أن يقالَ: انقضاضُ الكواكبِ كان في قديمِ الزمانِ، ولكنَّه لم يكن رجوماً للشياطين، ثم صار رجوماً حين وُلِد النبيُّ ﷺ[١].

وقال العلماءُ: نحنُ نرى انقضاضَ الكواكب، فيجوزُ أن يكونَ ذلك كما نرى، ثم يصير ناراً إذا أدركَ الشيطانَ. ويجوز أن يقال: يُرمَوْن بشعلةٍ من نارٍ من الهواء، فيُخيَّل إلينا أنَّه نجمٌ سَرَى. والشِّهابُ في اللغةِ: النارُ السَّاطعةُ[٢].

وذكر أبو داود[٣]، عن عامر الشعبيِّ قالَ: لمَّا بُعث النبيُّ ﷺ رُجمت الشياطينُ بنجومٍ لم تكن تُرجَم بها قبلُ، فأتَوا عبدَ ياليل بنَ عمرو الثقفيَّ، فقالوا: إنَّ الناسَ قد فَزِعوا، وقد أعتقوا رقيقَهم، وسَيَّبوا أنعامَهم؛ لما رأَو في[٤] النجومِ. فقالَ لهم، وكان رجلاً أعمى: لا تَعجَلُوا، وانظروا، فإنْ كانتِ النجومُ التي تُعرفُ فهو[٥] عند فناءِ الناسِ، وإن كانت لا تُعرف فهو من حَدَثٍ، فنَظروا؛ فإذا هي نجومٌ لا تُعرفُ، فقالوا: هذا من حَدَثٍ، فلم يَلبَثوا حتى سَمِعوا بالنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ هذا من نِعَمِه أيضاً، وممَّا يدلُّ على كمالِ قدرته. قال ابنُ عباس: بَسطناها على وجهِ الماء[٦]؛ كما قالَ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤ - ٣٥٥.

(٢) اللسان (شهب).

(٣) ليس عند أبي داود، إنما ذكره ابن عبد البر في الدرر ص١٦ - ١٧، عن أبي داود، وقد نقله المصنف عنه.

(٤) في (ظ): ما في.

(٥) في (د) و(ز) و(م): فهي (في الموضعين)، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الدرر.

(٦) تفسير الرازي ١٩/ ١٧٠.

[النازعات:٣٠] أي: بَسَطها. وقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨]. وهو يَردُّ على مَن زعم أنَّها كالكرة. وقد تقدّم[١]. ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: جبالاً ثابتة؛ لئلا تتحركَ بأهلها. ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ أي: مقدَّر معلوم؛ قاله ابنُ عباس وسعيدُ بن جبير. وإنما قال: «موزون»؛ لأنَّ الوزنَ يُعرَف به مقدارُ الشيءِ. قال الشاعرُ:

قد كنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ   عندي لكلِّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ[٢]

وقال قتادةُ: موزونٌ يعني: مقسوم. وقال مجاهدٌ: موزونٌ: معدودٌ[٣]. ويقال: هذا كلامٌ موزونٌ، أي: منظومٌ غيرُ منتثر[٤].

فعلى هذا؛ أي: أنبتنا في الأرضِ ما يُوزَن من الجواهرِ والحيوانات والمعادنِ. وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في الحيوان: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران:٣٧]، والمقصودُ من الإنباتِ الإنشاءُ والإيجادُ. وقيل: ﴿أَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ أي: في الجبالِ ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ من الذهب والفضةِ والنحاسِ والرَّصاص والقَزدير[٥]، حتى الزِّرنيخ والكُحل، كلُّ ذلك يُوزن وزناً؛ رُوي معناه عن الحسن، وابن زيد. وقيل: أَنْبَتْنَا في الأرض الثمارَ مما يُكال ويُوزن. وقيل: ما يوزنُ فيه الأثمانُ؛ لأنَّه أجلُّ قدراً، وأعمُّ

---

(١) ص٨ من هذا الجزء، وما ذكر عن الأرض أنها كالكرة لم يعد بحاجة إلى ردّ.

(٢) أورده الطبري في التفسير ٢٤/ ٥٩٤، والفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٧، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٤، وابن منظور في اللسان (وزن) دون نسبة. والمعنى كما قال الفراء: عندي وزن كلامه ونقضه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٥٣ - ١٥٤. وأخرج عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٤٦، والطبري في التفسير ١٤/ ٣٦، عن قتادة في قوله تعالى ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ قال: معلوم.
وكذلك قول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٤٠، وفيه: مقدر مقدور، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٦ بلفظ: مقدور بقدر، وأورده ابنُ الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٩١.

(٤) في النسخ الخطية: منتشر، وهما بمعنى.

(٥) هو القصدير، المعدن المعروف.

نفعاً مما لا ثمنَ له[١].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ يعني: المطاعمَ والمشاربَ التي يعيشون بها؛ واحدُها معيشةٌ؛ بسكون الياء. ومنه قولُ جريرٍ:

تُـكـلِّـفُـنـي مَـعِـيـشَـةَ آلِ زيـدٍ   ومَـنْ لـي بـالـمـرقَّـق والـصِّـنـابِ[٢]

والأصلُ: مَعْيِشةٌ؛ على مَفْعِلة؛ بتحريك الياء. وقد تقدَّم في الأعراف[٣]. وقيل: إنَّها الملابسُ؛ قاله الحسن. وقيل: إنها التصرفُ في أسبابِ الرزق مدةَ الحياة. قال المَاورديُّ[٤]: وهو الظاهرُ.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يريد الدَّوابَّ والأنعام؛ قاله مجاهدٌ[٥]. وعنده[٦] أيضاً: همُ العبيدُ والأولادُ الذين قالَ الله فيهم: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. ولفظ «من» يجوز أن يتناولَ العبيدَ والدوابَّ إذا اجتَمعوا؛ لأنه إذا اجتمعَ مَن يَعقِل وما لا يَعقل؛ غُلِّبَ مَن يعقل، أي: جعلنا لكم فيها معايشَ وعبيداً وإماءً ودوابَّ وأولاداً نرزقُهم ولا تَرزقونهم. فـ «من» على هذا التأويل في موضعِ نصبٍ؛ قال معناه مجاهدٌ وغيرُه. وقيل: أرادَ به الوحشَ. قال سعيدٌ: قرأ علينا منصورٌ: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال: الوحشُ. فـ «مَن» على هذا تكون لِما لا يَعقِلُ؛ مثلُ ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/٣٦ - ٣٧، ومعاني القرآن للزجاج ٣/١٧٦، والنكت والعيون ٣/١٥٤، والوسيط ٣/٤٢، وزاد المسير ٤/٣٩١.

(٢) البيت في تذييل ديوانه ٢/٨١٢، وطبقات فحول الشعراء ٢/٣٩١ - ٣٩٢، والكامل للمبرد ١/٢٠٢-٢٠٣، ووقع في تذييل الديوان: «بالصلائق» بدل «بالمرقَّق»، والصلائق جمع صَليقة، وهي الخبزة الرقيقة، والقطعة المُشواة من اللحم، كما في اللسان (صلق). والصِّناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب. اللسان (صنب). وزيد هو رجلٌ من أهل اليمامة يُعرف بابن النجار. قاله ابنُ سلّام في الطبقات.

(٣) ٩/١٦٠.

(٤) في النكت والعيون ٣/١٥٤.

(٥) في تفسيره ١/٣٤٠.

(٦) في (ظ): وعنه. ولم نقف عليه عنده، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ٣/١٥٤ إلى ابن بحر.

الآية [النور: ٤٥]، وهي في محلِّ خفضٍ عطفاً على الكافِ والميمِ في قولِه: «لكم». وفيه قبحٌ عند البصريين؛ فإنَّه لا يجوز عندَهم عطفُ الظاهرِ على المضمرِ إلَّا بإعادةِ حرفِ الجرِّ؛ مثل: مررتُ به وبزيدٍ. ولا يجوزُ: مررتُ به وزيدٍ إلَّا في الشعرِ[(١)]. كما قال:

فاليومَ قرَّبتَ[(٢)] تهجُونا وتشتِمُنا فَاذْهَبْ فما بكَ والأيامِ من عَجَبِ[(٣)]

وقد مضى هذا المعنى في «البقرةِ» وسورةِ النساءِ[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: وإن من شيءٍ من أرزاقِ الخلقِ ومنافعِهم إلا عندنا خزائنُه؛ يعني: المطرَ المُنزَّلَ من السماءِ؛ لأنَّ به نباتَ كلِّ شيءٍ. قال الحسنُ: المطرُ خزائنُ كلِّ شيءٍ. وقيل: الخزائنُ: المفاتيحُ، أي: في السماءِ مفاتيحُ الأرزاقِ؛ قاله الكلبيُّ. والمعنى واحدٌ[(٥)].

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: ولكن لا ننزِّله إلا على حَسَبِ مشيئتِنا، وعلى حسب حاجةِ الخلقِ إليه؛ كما قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧]. وروِيَ عن ابنِ مسعود، والحَكَم بن عُتَيْبَة وغيرِهما أنَّه ليس عامٌ أكثرَ مطراً من عام، ولكنَّ اللهَ يُقسِّمه كيفَ شاء، فيُمْطَر قومٌ ويُحرَم

---

(١) الطبري ١٤/ ٣٧ - ٣٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥، وزاد المسير ٤/ ٣٩١ - ٣٩٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٧.

(٢) في (ظ): أقبلتَ.

(٣) أورده سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٨٣، والمبرد في الكامل ٢/ ٩٣١، دون نسبة. وقال البغدادي في خزانة الأدب ٥/ ١٢٣: على أن حرف الجر قد يترك ضرورة عند البصريين، أي: ما بك وبالأيام عجب. ومعنى قربتَ: جعلتَ وأخذتَ.

وقال أيضاً ٥/ ١٢٩: والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها قائل.

(٤) ٦/ ٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥٥.

آخرون. وربَّما كان المطرُ في البحارِ والقِفار[١].

والخزائنُ جمعُ الخزانةِ، وهو الموضعُ الذي يَستُر فيه الإنسانُ ما له. والخِزانةُ أيضاً مصدر خَزَن يَخْزُن[٢]. وما كان في خِزانةِ الإنسانِ كان مُعَدًّا له، فكذلك ما يُقَدِّرُ عليه الربُّ؛ فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيري.

وروى جعفرُ بنُ محمد، عن أبيه، عن جده، أنه قال: في العرشِ مثالُ كلِّ شيءٍ خلقه الله في البرِّ والبحرِ. وهو تأويلُ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[٣]. والإنزالُ بمعنى الإنشاءِ والإيجاد، كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالاً؛ لأنَّ أحكامَ الله إنما تَنزِل من السماء.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ قراءةُ العامةِ: «الرياح» بالجمع. وقرأ حمزةُ بالتوحيد[٤]؛ لأنَّ معنى الريحِ الجمعُ أيضاً وإن كان لفظُها لفظَ الواحد، كما يُقال: جاءتِ الريح من كل جانبٍ[٥]، كما يقال: أرضٌ سَباسِبُ[٦] وثوبٌ أخلاقٌ. وكذلك تفعلُ العربُ في كل شيءٍ اتسعَ. وأما وجهُ قراءةِ العامة، فلأنَّ الله تعالى نعتها

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٣٩ - ٤٠، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥، وزاد المسير ٤/ ٣٩٢.

(٢) ينظر اللسان (خزن).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧.

(٤) التيسير ص٧٨، والسبعة ١٧٢ - ١٧٣.

(٥) حجة القراءات لابن زنجلة ص٣٨٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٤١.

(٦) السبسب: المفازة، أو الأرض المستوية البعيدة. القاموس المحيط (سبب). وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٤١ - ٤٢.

بـ «لواقح» وهي جمع. ومعنى لواقح: حوامل؛ لأنها تحمل الماءَ والتراب والسَّحاب والخير والنفع[١]. قال الأزهري[٢]: وجعلَ الريحَ لاقحاً؛ لأنَّها تحملُ السحابَ؛ أي: تُقِلُّه وتُصرِّفه ثم تَمْريه[٣] فتستَدِرُّه، أي: تُنزله؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي: حملت. وناقةٌ لاقح، ونُوقٌ لواقح: إذا حَملتِ الأجنَّةَ في بطونِها. وقيل: لواقحُ بمعنى مُلْقِحة، وهو الأصلُ، ولكنها لا تُلقِح إلا وهي في نفسها لاقح، كأنَّ الرياحَ لَقِحَت بخير. وقيل: ذوات لَقْح، وكلٌّ ذلك صحيحٌ، أي: منها ما يُلقِح الشجرَ؛ كقولهم: عيشة راضية، أي: فيها رضاً، وليل نائم، أي: فيه نومٌ. ومنها ما تأتي بالسحابِ. يقال: لَقِحَتِ الناقةُ، بالكسر، لَقَحاً ولَقاحاً، بالفتح، فهي لاقح. وألقحها الفحلُ، أي: ألقى إليها الماءَ فَحملته[٤]، فالرياحُ كالفحلِ للسحاب.

قال الجوهري[٥]: ورياحٌ لَواقحُ، ولا يقال: مَلاقح، وهو من النوادر. وحكى المهدويُّ عن أبي عبيدة[٦]: لواقحُ بمعنى ملاقح، ذهبَ إلى أنَّه جمع مُلْقِحة ومُلْقِح، ثم حُذِفت زوائدُه[٧]. وقيل: هو جمعُ لاقحةٍ ولاقحٍ، على معنى ذاتِ اللِّقاحِ؛ على النَّسَب[٨]. ويجوزُ أن يكونَ معنى لاقح حاملاً، والعربُ تقولُ للجَنوب: لاقح وحامل، وللشَّمال: حائل وعقيم.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦ .

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٥٥ - ٥٦ .

(٣) مَرَتِ الريحُ السحاب إذا أنزلت منه المطر. اللسان (مري).

(٤) في تفسير الرازي ١٩/ ١٧٥ . (والكلام فيه بنحوه): ألقى الماء فيها فحملت.

(٥) في الصحاح (لقح).

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٣٤٨ .

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٢ .

(٨) أي: النسب بغير ياء قال رضي الدين الاستراباذي في شرح شافية ابن الحاجب ٢/ ٨٤ : يجيء بعض ما هو على فَعَّال وفاعل بمعنى ذي كذا من غير أن يكون اسم فاعل أو مبالغة فيه. وينظر الدر المصون ٧/ ١٥٤ .

وقال عُبيد بن عُمير: يرسلُ الله المُبشِّرة فتقُمُّ الأرضَ قَمًّا، ثم يرسل المُثيرةَ فتثيرُ السحاب، ثم يرسلُ المُؤلِّفة فتؤلفُه، ثم يَبعثُ اللواقحَ فتُلقِحُ الشجرَ. وقيل: الريحُ الملاقحُ التي تحملُ الندى فتمجُّه في السحابِ، فإذا اجتمعَ فيه صار مطراً[١].

وعن أبي هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الريحُ الجنوبُ من الجنةِ، وهي الريحُ اللواقحُ التي ذكرها اللهُ في كتابِه، وفيها منافعُ للناس»[٢].

ورُوي عنه عليه الصلاة والسلامُ أنه قالَ: «ما هبَّتْ جَنوبٌ إلاأنبعَ الله بها عيناً غَدَقة»[٣].

وقال أبو بكر بنُ عيَّاش: لا تقطرُ قطرةٌ من السَّحابِ إلا بعدَ أن تعملَ الرياحُ الأربعُ فيها، فالصَّبا تُهيِّجُه، والدَّبُور تُلقِحُه، والجَنوبُ تُدِرُّه، والشَّمال تُفرِّقه[٤].

الثانية: روى ابنُ وهب وابنُ القاسم وأشهبُ وابنُ عبد الحكم عن مالكٍ ـ واللفظُ لأشهبَ ـ قال مالكٌ: قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾، فلَقاحُ القمحِ عندي أن يُحبِّبَ ويُسَنْبِلَ، ولا أدري ما يَيْبَسُ في أكمامِه، ولكن يُحبِّب حتى يكونَ لو يَبِس حينئذٍ لم يكن فساداً لا خيرَ فيه[٥]. ولقاحُ الشجرِ كلِّها أن تُثمرَ، ثم يَسقطَ منها ما يسقطُ، ويَثبتَ ما يثبت، وليس ذلك بأن تَورَّد.

قال ابنُ العربي[٦]: إنَّما عوَّل مالكٌ في هذا التفسيرِ على تشبيهِ لَقاحِ الشجرِ بلَقاحِ

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/٤٥ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/٤٦ ، وضعَّف ابن كثير إسناده.

(٣) ذكره البغوي في التفسير ٣/٤٧ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٥ ، وقال الشافعي في الأم ١/ ٢٢٥ ، ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٣/ ٣٦٤ : وبلغني أن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: ما هبت جنوب قط إلا أسالت وادياً.

(٤) تفسير الطبري ١٤/٤٥ - ٤٦ ، والبغوي ٣/ ٤٧ ، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦ - ٣٥٧ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤ . وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٤ .

(٥) في (م): فساد الأخير فيه.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٤ ، والكلام منه من أول المسألة الثانية.

الحَمْل، وأنَّ الولدَ إذا عَقَدَ وخُلِق ونُفِخ فيه الروحُ، كان بمنزلةِ تَحبُّبِ الثمرِ وتَسنبُلِه؛ لأنه سُمي باسمٍ تشترِكُ فيه كلُّ حاملةٍ، وهو اللَّقاحُ، وعليه جاءَ الحديثُ: نهى النبيُّ ﷺ عن بيعِ الحَبِّ حتى يَشتدَّ[1].

قال ابنُ عبدِ البَرّ[2]: الإبَارُ عندَ أهلِ العلم في النخل: التلقيحُ، وهو أن يُؤخذَ شيءٌ من طلعِ[3] النخلِ، فيُدْخَلَ بين ظَهرانَي طلعِ الإناث. ومعنى ذلك في سائرِ الثمارِ ظهورُ[4] الثمرةِ من التينِ وغيرِه حتى تكونَ الثمرةُ مرئيةً منظوراً إليها. والمعتبرُ عند مالكٍ وأصحابِه فيما يُذَكَّر من الثمارِ التذكيرُ، وفيما لا يُذكَّر أن يَثبتَ من نُوَّارِه ما يَثبت، ويَسقطَ ما يَسقط. وحدُّ ذلك في الزرعِ ظُهورُه من الأرض؛ قاله مالكٌ. وقد رُويَ عنه أنَّ إبارَه أن يُحبِّبَ. ولم يختلفِ العلماءُ أن الحائطَ إذا انشقَّ طلعُ إناثِه، فأُخِّر إبارُه؛ وقد أُبِّر غيرُه ممَّن حالُه مثلُ حالِه؛ أنَّ حكمَه حُكْمُ ما أُبِّر؛ لأنه قد جاءَ عليه وقتُ الإبارِ وثمرتُه ظاهرةٌ بعد تغيبها في الجُفِّ[5]. فإن أُبِّر بعضُ الحائط، كان ما لم يُؤبَّر تبعاً له، كما أنَّ الحائطَ إذا بدا صلاحُه، كان سائرُ الحائطِ تبعاً لذلك الصلاحِ في جوازِ بيعِه.

الثالثة: روى الأئمةُ كلُّهم عن ابنِ عمرَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ ابتاعَ نخلاً بعد أن تُؤبَّر؛ فثمرتُها للذي باعَها إلا أن يَشترطَ المبتاعُ. ومنِ ابتاع عبداً؛ فمالُه للذي باعَه إلا أن يَشترطَه المبتاع»[6].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٧١)، والترمذي (١٢٢٨)، وابن ماجه (٢٢١٧)، وأحمد (١٣٣١٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) في التمهيد ١٣/ ٢٩١ .

(٣) بعدها في (م): ذكور.

(٤) في (د) و(ز) و(م): طلوع، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في التمهيد ١٣/ ٢٩١ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): الحب، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في التمهيد ١٣/ ٢٩١ ، والجُفُّ: وعاء الطلع. القاموس (جفف).

(٦) أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣) (٨٠)، وأبو داود (٣٤٣٣)، والترمذي (١٢٤٤)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٢٩٧ ، وفي الكبرى (٤٩٩١)، وابن ماجه (٢٢١١)، وأحمد (٤٥٥٢).

قال علماؤنا: إنَّما لم يَدخلِ الثمرُ المؤبَّرُ مع الأصولِ في البيعِ إلا بالشرطِ؛ لأنَّه عينٌ موجودةٌ يُحاطُ بها، أُمِنَ سقوطُها غالباً، بخلافِ التي لم تُؤبر؛ إذ ليس سُقوطُها مأموناً، فلم يَتحققْ لها وجود، فلم يَجُزْ للبائعِ اشتراطُها، ولا استثناؤها؛ لأنَّها كالجنين، وهذا هو المشهورُ من مذهبِ مالك. وقيل: يجوزُ استثناؤها، وهو قولُ الشافعي.

الرابعة: لو اشتُرِيَ النخلُ وبقي الثمرُ للبائع؛ جازَ لمشتري الأصلِ شراءُ الثمرةِ قبل طِيبها على مشهورِ قولِ مالك، ويرى لها حكمَ التبعية، وإن أُفرِدتْ بالعقد. وعنه في روايةٍ: لا يجوزُ، وبذلك قال الشافعيُّ وأبو حنيفةَ، والثوري وأهلُ الظاهرِ، وفقهاءُ الحديث، وهو الأظهرُ من أحاديثِ النهي عن بيعِ الثمرةِ قبل بُدوِّ صلاحِها[١].

الخامسة: وممَّا يتعلقُ بهذا البابِ النَّهيُ عن بيعِ الملاقح، والمَلاقِحُ: الفحولُ من الإبل، الواحدُ مُلقِح. والمَلاقِحُ أيضاً: الإناثُ التي في بطونِها أولادُها، الواحدةُ مُلقَحة بفتحِ القاف. والملاقيحُ: ما في بطونِ النوقِ من الأجِنَّة، الواحدةُ مَلقوحة، من قولهم: لُقِحَت، كالمحموم من حُمَّ، والمجنون من جُنَّ[٢]. وفي هذا جاء النَّهيُ. وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ: أنه نهى عن المَجْر[٣]، وهو بيعُ ما في بطونِ الإناث، ونَهى عن المَضامينِ والمَلاقيح[٤]. قال أبو عبيد: المضامينُ: ما في البطون، وهي الأجنَّة. والملاقيحُ: ما في أصلابِ الفحول. وهو قولُ سعيدِ بنِ المسيب وغيرِه. وقيل بالعكس: إنَّ المضامينَ ما في ظُهورِ الجمال، والمَلاقيحَ ما في بطونِ الإناث. وهو قولُ ابنِ حبيب وغيرِه. وأيُّ الأمرين كان، فعلماءُ المسلمين مجمعون على أنَّ ذلك لا يجوزُ. وذكر المُزنيُّ عن ابنِ هشامٍ شاهداً بأنَّ الملاقيحَ ما في البطونِ لبعضِ

(١) المفهم ٤/ ٣٩٩.

(٢) الصحاح (لقح).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٤٤٤٠)، والبيهقي ٥/ ٣٤١، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البزار (١٢٦٨ - كشف الأستار)، والطبراني (١١٥٨١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأعراب:

مَنَّيْتَني[1] مَلاقحاً في الأبطُنِ تُنْتَجِ ما تَلْقَحُ بعد أزْمُنِ

وذكر الجوهري[2] على ذلك شاهداً قولَ الراجز:

إنَّا وَجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ خَيراً من التَّأنانِ والمسائلِ

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابلِ مَلقوحةً في بطنِ نابٍ حاملِ[3]

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السَّحاب. وكلُّ ما علاك فأظلَّك يُسمَّى سماء. وقيل: من جهةِ السَّماء. ﴿مَآءً﴾ أي: قَطْراً. ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا ذلك المطرَ لسُقياكم ولشُربِ مواشيكم وأرضِكم. وقيل: سَقى وأسقى بمعنًى. وقيل: بالفرقِ، وقد تقدَّم[4].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: ليست خَزائنُه عندكم، أي: نحنُ الخازنون لهذا الماءِ نُنزله إذا شِئنا، ونُمسِكه إذا شئنا. ومثلُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون:١٨]. وقال سفيانُ: لستم بمانعين المطرَ[5].

---

(١) في (م) واللسان (لقح): منيتي، والمثبت من النسخ الخطية، والتمهيد لابن عبد البر ١٣/ ٣١٥ ، وعنه نقل المصنف، وتهذيب اللغة ٤/ ٥٣ ، واللسان (لقح). ووقع في التمهيد «شهاب» بدل «هشام»، وقد جاء مصرَّحاً به في التهذيب واللسان وهو: عبد الملك بن هشام.

(٢) في الصحاح (لقح).

(٣) في تهذيب اللغة ٤/ ٥٢ ، والصحاح واللسان وأساس البلاغة (لقح): «حائل» بدل: «حامل»، ونَسَبه الزمخشري إلى مالك بن الريب. والمعنى كما قال الحسن اليوسي في المحاضرات ٢/ ٥٥٠-٥٥١ : إنَّ سرقة الإبل الهوامل - أي: التي لا راعي معها - خير لنا من الأنين والتشكي وسؤال الناس، فهذا يردنا، وهذا يَعِدنا بالعطاء في العام أو القابل جنيناً في بطن أمه.

(٤) ٢/ ١٣٥ .

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٤٦ - ٤٧ ، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: مَنْ قَدَر على هذه الأشياء قادرٌ على الإماتةِ ثم الإحياء بعدها ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[(١)] أي: الأرضَ ومَن عليها، ولا يبقى شيءٌ سوانا. نظيرُه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]. فمُلكُ كلِّ شيءٍ لله تعالى، ولكن مَلَّكَ عبادَه أملاكاً، فإذا ماتوا، انقطعتِ الدَّعاوى، فكانَ الله وارثاً من هذا الوجه[(٢)]. وقيل: الإحياءُ في هذه الآية إحياءُ النطفة في الأرحامِ، فأمَّا البعثُ، فقد ذَكَره بعدَ هذا في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيه ثمانِ تأويلاتٍ:

الأوَّلُ: «المستقدِمين»: في الخلقِ إلى اليوم، و«المستأخرين»: الذين لم يُخلَقوا بعد؛ قاله قتادةُ وعكرمةُ وغيرُهما.

الثاني: «المستقدِمين»: الأموات، و«المستأخرين»: الأحياء؛ قاله ابنُ عباس والضَّحاك.

الثالث: «المستقدمين»: مَن تقدَّم أمةَ محمد ﷺ، و«المستأخرين»: أُمةُ محمدٍ ﷺ؛ قاله مجاهد.

الرابع: «المستقدمين»: في الطاعةِ والخير، و«المستأخرين»: في المعصيةِ والشر؛ قاله الحسنُ وقتادةُ أيضاً.

الخامس: «المستقدمين» في صفوفِ الحرب، و«المستأخرين» فيها؛ قاله سعيدُ ابنُ المسيب.

---

(١) قوله: أي: من قدر إلى هنا ليس في (د) و(ز) و(م).

(٢) ينظر تفسير الوسيط للواحدي ٣/ ٤٢ - ٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨، وتفسير الرازي ١٩/ ١٧٧.

السادس: «المستقدمين»: مَنْ قُتِل في الجهاد، و«المستأخرين»: مَن لم يُقتَل؛ قاله القُرَظي.

السابع: «المستقدمين»: أَوَّلُ الخَلق، و«المستأخرين»: آخرُ الخلق؛ قاله الشَّعبي.

الثامن: «المستقدمين»: في صفوفِ الصَّلاة، و«المستأخرين» فيها بسبب النساء[1]. وكلُّ هذا معلومٌ لله تعالى، فإنَّه عالمٌ بكلِّ موجودٍ ومعدوم، وعالمٌ بمَن خُلِق وما هو خَالِقُه إلى يومِ القيامة. إلا أنَّ القولَ الثامن هو سببُ نزولِ الآية؛ لما رواه النَّسائيُّ والترمذيُّ[2] عن أبي الجَوزاءِ، عن ابنِ عباسٍ قال: كانتِ امرأةٌ تصلي خلفَ رسولِ الله ﷺ حسناءُ من أحسنِ الناس، فكانَ بعضُ القومِ يَتقدَّمُ حتى يكونَ في الصفِّ الأوَّل؛ لئلَّا يراها، ويتأخَّرُ بعضُهم حتى يكونَ في الصفِّ المؤخر، فإذا ركعَ، نظرَ من تحتِ إبْطِه، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. ورُوي عن أبي الجوزاءِ ولم يُذكر ابنُ عباس، وهو أصحُّ.

الثانية: هذا يدلُّ على فضل أوَّل الوقتِ في الصَّلاة، وعلى فضلِ الصفِّ الأوَّل؛ قال النبيُّ ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في النداءِ والصفِّ الأوَّل، ثم لم يجِدوا إلا أن يَستَهِموا عليه؛ لاستَهَمُوا»[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٤٨ - ٥٤، وتفسير مجاهد ١/٣٤١، وتفسير السمرقندي ٢/٢١٧ - ٢١٨، والنكت والعيون ٣/١٥٦ - ١٥٧، والوسيط ٣/٤٣، وزاد المسير ٤/٣٩٦ - ٣٩٧، وتفسير الرازي ١٩/١٧٧ - ١٧٨. ونسب ابن الجوزي والرازي القولَ الخامس إلى الضحاك بدلاً من ابن المسيب. وعدَّ ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١١١٥ خمسة أقوال فقط.

(٢) النسائي في المجتبى ٢/١١٨، وفي الكبرى (١١٢٧٣)، والترمذي (٣١٢٢)، وابن ماجه (١٠٤٦)، وأحمد (٢٧٨٣). وأبو الجوزاء: هو أوس بن عبد الله الرَّبَعي.

وقال الترمذي: وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء نحوه، ولم يذكر فيه ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: حديث غريب جدًّا، وفيه نكارة شديدة. ثم رجح أن يكون من كلام أبي الجوزاء.

(٣) سلف ٥/ ١٣٣.

فإذا جاءَ الرجلُ عند الزوال، فنزلَ في الصفِّ الأوَّل مجاورَ الإمام؛ حازَ ثلاثَ مراتبَ في الفضل: أَوَّلَ الوقت، والصفَّ الأوَّل، ومُجاورةَ الإمام. فإن جاء عند الزوالِ، فنزلَ في الصف الآخِر، أو فيما نزلَ عن الصفِّ الأوَّل؛ فقد حازَ فضلَ أوَّلِ الوقت، وَفاتَه فضلُ الصفِّ الأوَّلِ والمجاورة. فإن جاءَ وقتَ الزوال، ونزلَ في الصف الأوَّل دون ما يلي الإمام؛ فقد حازَ فضلَ أوَّلِ الوقت، وفضلَ الصفِّ الأوّل، وفاتَه مجاورة الإمام. فإن جاءَ بعد الزوال، ونزلَ في الصفِّ الأوّل؛ فقد فاتَه فضيلةُ أوَّلِ الوقت، وحاز فضيلةَ الصفِّ الأوّل، ومجاورةِ الإمام. وهكذا.

ومجاورةُ الإمامِ لا تكونُ لكلّ أحد، وإنَّما هي كما قالَ ﷺ: «لِيَلِني منكم أُولو الأَحلام والنُّهَى»[١] الحديث. فما يلي الإمامَ ينبغي أن يكونَ لمن كانت هذه صفتَه، فإن نَزلَها غيرُه أُخِّر، وتقدَّم هو إلى الموضعِ؛ لأنه حقُّه بأمرِ صاحبِ الشرع، كالمحرابِ هو موضعُ الإمامِ تقدَّم أو تأخر؛ قاله ابنُ العربي[٢].

قلتُ: وعليه يُحملُ قولُ عمرَ ﷺ: تَأَخَّرْ يا فلان، تَقدَّم يا فلان. ثم يتقدَّمُ فيُكَبِّر[٣]. وقد رُويَ عن كعب، أنَّ الرجلَ من هذه الأمةِ لَيَخِرُّ ساجداً، فيغفرُ لمَن خَلفه. وكان كعبٌ يتوخَّى الصفَّ المؤخَّرَ من المسجدِ رجاءَ ذلك، ويَذكُر أنَّه وَجَده كذلك في التوراة. ذكرهُ الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادرِ الأصول»[٤]. وسيأتي في سورةِ الصَّافات زيادةُ بيانٍ لهذا البابِ إن شاءَ الله تعالى.

الثالثة: وكما تدلُّ هذه الآيةُ على فضلِ الصف الأوّل في الصلاة، فكذلك تدلُّ على فضلِ الصفِّ الأوَّل في القتال؛ فإنَّ القيامَ في نحر العدوِّ، وبيعَ العبدِ نفسَه من اللهِ تعالى لا يُوازيه عملٌ، فالتقدُّمُ إليه أفضلُ، ولا خلافَ فيه، ولا خفاءَ به. ولم يكن

---

(١) سلف ٢/ ٤٨ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٥ - ١١١٦ .

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٩/ ٦٥٣ .

(٤) نوادر الأصول ص٢٩ ، الأصل العشرون.

أحدٌ يتقدَّم في الحربِ بين يدي رسولِ الله ﷺ؛ لأنَّه كان أشجعَ الناس. قال البَرَاءُ: كنَّا ـ واللهِ ـ إذا احمرَّ البأسُ نتَّقي به، وإنَّ الشجاعَ منَّا لَلَّذي يُحاذي به. يعني النبيَّ ﷺ[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: للحسابِ والجزاء. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تقدم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ يعني: آدمَ عليه السَّلام. ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: من طينٍ يابسٍ؛ عن ابن عباس وغيره[٣]. والصَّلْصَالُ: الطينُ الحرُّ خُلِط بالرمل، فصارَ يَتصلصَلُ إذا جَفَّ، فإذا طُبِخ بالنار، فهو الفَخَّار؛ عن أبي عبيدة[٤]. وهو قولُ أكثرِ المفسرين[٥]. وأنشد أهلُ اللغة:

كَعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجَوَّالِ[٦]

وقال مجاهد[٧]: هو الطِّينُ المُنْتِن. واختارُه الكِسائيُّ[٨]. قال: وهو من قولِ العربِ[٩]: صلَّ اللَّحمُ وأصلَّ: إذا أنتن، مطبوخاً كان أو نِيْئاً، يَصِلُّ صُلولاً. قال الحُطَيْئة:

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١١٦، وقول البراء أخرجه مسلم (١٧٧٦) (٧٩).

(٢) ١/٤٢٩.

(٣) تفسير الطبري ١٤/٥٧ – ٥٨.

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٣٥٠.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٤/٥٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/٨٨، والنكت والعيون ٣/١٥٧، والمحرر الوجيز ٣/٣٥٨، وزاد المسير ٤/٣٩٧.

(٦) عجزُ بيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، وصدره: عنتريس تعدو إذا مسَّها السوط. وهو في ديوانه ص٥٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥٠ – ٣٥١، واللسان (صلل).

(٧) في تفسيره ١/٣٤١، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/٥٨ – ٥٩.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩.

(٩) الصحاح (صلل).

ذاكَ فــتًــى يــبــذلُ ذا قِــدْرِه لا يُفسِدُ اللحمَ لَدَيه الصُّلولُ[١]

وطينٌ صَلّالٌ ومِصْلالٌ، أي: يُصوِّتُ إذا نَقَرْتَه، كما يُصوِّتُ [الفَخّارُ] الجَديدُ[٢].
فكان أوّلَ تراباً، أي: مُتفرِّقَ الأجزاءِ، ثم بُلَّ فصارَ طيناً، ثم تُرِك حتى أنتنَ، فصارَ حَمَأً مسنوناً، أي: متغيراً، ثم يَبِس فصارَ صَلصالاً؛ على قولِ الجمهورِ. وقد مضَى في «البقرة» بيانُ هذا[٣].

والحَمَأُ: الطينُ الأسودُ، وكذلك الحَمْأة، بالتسكين، تقولُ منه: حَمَأْتُ[٤] البئرَ حَمْأً؛ بالتسكين: إذا نَزعتَ حَمْأَتها. وحَمِئَتِ البئرُ حَمَأً؛ بالتحريك: كَثُرتْ حَمْأَتُها. وأَحْمَأْتُها إحماءً: ألقيتُ فيها الحَمْأَةَ؛ عن ابنِ السِّكِّيت[٥]. وقال أبو عبيدة: الحَمْأَةُ، بسكونِ الميم، مثلُ الكَمْأة. والجمعُ حَمْءٌ، مثل: تَمْرةٌ وتَمر. والحَمَأُ المصدرُ، مثل: الهَلَعِ والجَزَع، ثم سُمِّي به[٦].

و«المسنونُ»: المتغيِّرُ. قال ابنُ عباس: هو الترابُ المبتلُّ المنتنُ، فجُعِل صَلصالاً كالفخّار. ومثلُه قولُ مجاهدٍ وقتادةَ، قالا: المنتنُ: المُتغيِّر[٧]؛ من قولِهم: قد أَسِنَ الماءُ: إذا تغيَّر، ومنه: «يَتَسَنَّه»، و«ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ». ومنه قولُ أبي قيس بن الأسلت[٨]:

---

(١) ديوانه ص١٧٦ ، واللسان (صلل)، وصدره عند أبي حاتم السجستاني في فعلت وأفعلت ص١٢٠ : هو الفتى كلُّ الفتى فاعلموا.

(٢) في النسخ: الحديد، والمثبت من الصحاح وما بين حاصرتين منه، ووقع في اللسان (صلل): الخزف، بدل: الفخّار .

(٣) ٤١٨/١ .

(٤) في (م): حمئت.

(٥) الصحاح (حمأ)، وكلام ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٢٥٥ .

(٦) مجاز القرآن ٣٥١/١ ، والمحرر الوجيز ٣٥٩/٣ ، وزاد المسير ٣٩٧/٤ ، وتفسير الرازي ١٨٠/١٩ .

(٧) تفسير الطبري ٦١/١٤ - ٦٢ .

(٨) النكت والعيون ١٥٨/٣ .

سَقَتْ صداي رُضاباً غيرَ ذي أسنٍ ... كالمسكِ فُتَّ على ماءِ العناقيدِ

وقال الفَراء: هو المتغيرُ، وأصلُه من قولِهم: سَنَنْتُ الحجرَ على الحجرِ: إذا حَكَكْتَه به، وما يخرجُ من الحجرينِ يقال له: السنانة والسَّنِين، ومنه المِسَنُّ[1]. قال الشاعر:

ثم خاصرتُها إلى القبةِ الحمـ ... ـراءِ تمشي في مَرْمَرٍ مسنونِ

أي: محكوك مُمَلَّس. حُكي أنَّ يزيدَ بنَ معاوية قال لأبيه: ألا ترى عبدَ الرحمن ابنَ حسَّان يُشبِّب بابنتِك؟ فقال معاويةُ: وما قال؟ فقال: قال:

هي زَهْراءُ مثلُ لؤلؤةِ الغَوَّ ... اصِ مِيزَتْ من جوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاويةُ: صدَق! فقال يزيدُ: إنه يقول:

وإذا ما نَسَبْتَها لم تَجِدْها ... في سَناءٍ من المكارمِ دونِ[2]

فقال: صَدقَ! فقال: أينَ قولُه: ثم خَاصرتها...؟ البيتِ. فقال معاويةُ: كذَبَ.

وقال أبو عبيدة[3]: المَسنونُ: المَصبوبُ. وهو من قولِ العربِ: سَننتُ الماءَ وغيرَه على الوجهِ، إذا صَبَبْتَه. والسَّنُّ: الصَّبُّ[4].

وروى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس قال: المسنونُ: الرَّطبُ[5]. وهذا

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٨٨ . للفراء، دون قوله: السنانة، ولم ينقلها أحدٌ ممَّن نقل كلام الفراء هذا، وينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٠١ ، واللسان (سنن).

(٢) اختلف في نسبة هذه الأبيات، فمنهم مَن نسبها إلى أبي دَهْبَل الجمحي كما في الأغاني ٧/ ١٢٣-١٢٤ ، والكامل للمبرد ١/ ٣٨٧ ، ومنهم من نسبها إلى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كما في الأغاني ١٥/ ١٠٩ - ١١٠ ، والعقد الفريد ٥/ ٣٢٢ - ٣٢٣ ، والشعر والشعراء ١/ ٤٨٤ - ٤٨٥ ، والصحاح واللسان (سنن)، وقال المبرد في الكامل ١/ ٣٨٧ : والذي كأنه إجماع أنه لعبد الرحمن بن حسان، وهو في بنت معاوية. وفي جميع المصادر: «القبة الخضراء» بدل «القبة الحمراء».

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٥١ .

(٤) ينظر الأفعال للسرقسطي ٣/ ٥٠٢ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٣٠١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٦٢ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

بمعنى المَصْبوب؛ لأنَّه لا يكونُ مصبوباً إلا وهو رَطبٌ. النَّحاس[١]: وهذا قولٌ حسن؛ لأنه يُقال: سَنَنْتُ الشيء، أي: صَببتُه. قاله[٢] أبو عمرو بنُ العلاء. ومنه الأثرُ المرويُّ عن ابن[٣] عمر أنه كان يَسُنُّ الماءَ على وجهِه ولا يَشُنُّه. والشَّنُّ، بالشين: تفريقُ الماءِ، وبالسينِ المهملةِ: صبُّه من غيرِ تفريق.

وقال سيبويه: المسنونُ: المصوَّرُ. أُخِذ من سُنَّةِ الوجهِ، وهي[٤] صورتُه. وقال ذو الرُّمَّة:

تُـريـك سُـنَّـةَ وجـهٍ غـيـرَ مُـقْـرِفـةٍ   مـلـسـاءَ لـيـس بـهـا خـالٌ ولا نَـدَبُ[٥]

وقال الأخفش[٦]: المسنونُ: المنصوبُ القائِم، من قولهم: وجهٌ مسنونٌ: إذا كان فيه طولٌ. وقد قيل: إن الصَّلصالَ الترابُ المدقَّق[٧]؛ حكاه المهدويُّ. ومَن قال: إنَّ الصَّلصالَ هو المنتنُ، فأصلُه صلَّال، فأُبدل من إحدى اللامين الصاد[٨]. و﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ مُفسِّرٌ لجنسِ الصَّلصال؛ كقولك: أخذتُ هذا من رجلٍ من العرب.

قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ خلقِ آدمَ. وقال الحسنُ: يعني:

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٤ - ٢٦ .

(٢) في النسخ: قال، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ١٥٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

(٣) ليست في النسخ، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٦٧ ، والغريب للخطابي ١/ ٤٣٩ ، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤١٣ ، واللسان (سنن).

(٤) في (د) و(ز) و(م): وهو، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤ ، وتفسير الرازي ١٩/ ١٨٠ .

(٥) ديوان ذي الرمة ١/ ٢٩ ، وقوله: غير مقرفة، أي: ليست بهجينة، وهي عتيقة كريمة. والندب: آثار الجراح. وينظر الصحاح (سنن).

(٦) نقله عنه السمرقندي في التفسير ٢/ ٢١٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٨ .

(٧) في (ظ): المرقق.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤ .

إبليسَ، خَلقه اللهُ تعالى قبل آدمَ عليه السلام. وسُمِّيَ جانًّا؛ لتواريه عن الأعين. وفي «صحيح مسلم»[١] من حديثِ ثابتٍ، عن أنس، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لمَّا صوَّر الله تعالى آدمَ عليه السلام في الجنةِ، تَركه ما شاءَ الله أن يتركَه، فَجعلَ إبليسُ يُطيفُ به، يَنظرُ ما هو، فلمَّا رآه أَجوفَ، عَرفَ أنَّه خُلِق خَلقاً لا يَتمالك».

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قال ابنُ مسعود: نارُ السَّمومِ التي خَلقَ اللهُ منها الجانَّ جزءٌ من سبعينَ جزءاً من نارِ جَهنَّم. وقال ابنُ عباس: السَّمومُ الريحُ الحارةُ التي تقتل[٢]. وعنه: أنَّها نارٌ لا دُخانَ لها، والصَّواعقُ تكونُ منها، وهي نارٌ تكونُ بين السماء والحجاب[٣]. فإذا أحدثَ اللهُ أمراً اخترقت الحجابَ، فَهَوتِ الصَّاعقةُ إلى ما أُمِرت، فالهَدَّةُ التي تَسمعون خَرقُ ذلك الحجابِ. وقال الحسنُ: نارُ السَّموم نارٌ دونها حجابٌ، والذي تَسمعون من انعطاطِ[٤] السحابِ صوتُها. وعن ابنِ عباس أيضاً قال: كان إبليسُ من حيٍّ من أحياءِ الملائكةِ يقالُ لهم: الجنُّ، خُلقوا من نارِ السَّموم من بين الملائكةِ. قال: وخُلِقت الجنُّ الذين ذُكِروا في القرآنِ من مارجٍ من نار[٥].

قلتُ: هذا فيه نظرٌ؛ فإنه يحتاجُ إلى سندٍ يقطعُ العُذرَ؛ إذ مثلُه لا يقالُ من جهةِ الرأي. وقد خرَّج مسلمٌ[٦] من حديثِ عروةَ، عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقت الملائكةُ من نورٍ، وخُلِق الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلق آدمُ ممَّا وُصِف لكم». فقولُه: «خُلِقت الملائكةُ من نورٍ» يقتضي العمومَ. والله أعلم.

---

(١) برقم (٢٦١١)، وهو عند أحمد (١٢٥٣٩).

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣ - ٦٤ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٠ .

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٨ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): انعطاط، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٨ ، والانعطاط: الانشقاق. اللسان (عطط).

(٥) تفسير الطبري ١/ ٤٨٢ و ١٤/ ٦٤ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٥٩ ، والوسيط ٣/ ٤٤ - ٤٥ . وقال ابن كثير في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة: هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها.

(٦) برقم (٢٩٩٦)، وهو عند أحمد (٢٥١٩٤).

وقال الجوهريُّ: مارج من نار: نارٌ لا دخانَ لها خُلق منها الجانُّ[١]. والسَّمومُ: الريحُ الحارةُ تُؤنَّث؛ يقال منه: سُمَّ يومُنا؛ فهو يومٌ مسمومٌ، والجمعُ سَمائمُ. قال أبو عبيدة: السَّمُومُ بالنهار، وقد تكونُ بالليل، والحَرُورُ بالليل، وقد تكونُ بالنهار[٢]. القشيريُّ: وسُمِّيتِ الريحُ الحارةُ سَموماً؛ لدخولِها في مَسامِّ البدن[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تقدمَ في «البقرة»[٤]. ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ﴾: من طين. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: سوَّيتُ خَلْقَه وصوَّرتُه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ النفخُ: إجراءُ الريحِ في الشيء. والرُّوحُ: جسمٌ لطيفٌ، أجرى اللهُ العادةَ بأن يَخلُق الحياةَ في البدن مع ذلك الجسمِ. وحقيقتُه إضافةُ خَلْقٍ إلى خالق؛ فالروحُ خلقٌ من خلقِه أضافَه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: أرضي، وسمائي، وبيتي، وناقة الله، وشهر الله. ومثلُه: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وقد تقدَّم في «النساء» مبيَّناً[٥]. وذكرنا في كتابِ «التذكرة»[٦] الأحاديثَ الواردةَ التي تدل على أنَّ الروحَ جسمٌ لطيف، وأنَّ النفسَ والروحَ اسمان لمسمًّى واحدٍ. وسيأتي ذلك إن شاء الله. ومَن قال: إنَّ الرُّوحَ هو الحياةُ قال: أرادَ: فإذا ركَّبْتُ فيه الحياةَ ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي: خِرُّوا له ساجدين. وهو سجودُ تحيةٍ وتكريمٍ لا سجودُ عبادة[٧]. ولِله أنْ يُفضِّل مَن يريد، ففضَّل الأنبياءَ على الملائكة. وقد تقدَّم في «البقرة» هذا المعنى[٨]. وقال القَفَّال:

---

(١) الصحاح (مرج).
(٢) الصحاح (سمم).
(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٥٩ .
(٤) ١/ ٣٩١ .
(٥) ٧/ ٢٣١ ، وينظر الوسيط ٣/ ٤٥ .
(٦) ص١٢٤ .
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٦٥ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٨ .
(٨) ١/ ٤٣٥ .

كانوا أفضلَ من آدم، وامتحنَهم بالسجودِ له تعريضاً لهم للثوابِ الجزيل. وهو مذهبُ المعتزلة. وقيل: أُمِروا بالسجود لِله عندَ آدم، وكان آدمُ قِبلةً لهم[1].

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣١﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: لا شكَّ أنَّ إبليسَ كان مأموراً بالسُّجود؛ لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢]، وإنَّما منَعه من ذلك الاستكبارُ والاستِعظام؛ كما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[2]. ثم قيل: كانَ من الملائكةِ، فهو استثناءٌ من الجِنس. وقال قومٌ: لم يكن منَ الملائكة، فهو استثناءٌ منقطِع. وقد مضَى في «البقرة» هذا كلُّه مُستوفًى[3].

وقال ابنُ عباس: الجانُّ: أبو الجن، وليسُوا شياطينَ. والشَّياطينُ: ولدُ إبليسَ، لا يموتونَ إلا مع إبليس. والجنُّ يموتون، ومنهم المؤمنُ، ومنهم الكافر. فآدمُ أبو الإنس، والجانُّ أبو الجن، وإبليسُ أبو الشياطين. ذكره الماورديُّ[4]. والذي تقدَّم في «البقرةِ» خلافُ هذا، فتأمَّله هناك.

الثانية: الاستثناءُ من الجنس غيرِ الجنسِ صحيحٌ عند الشافعيِّ، حتى لو قال: لفلانٍ عليَّ دينارٌ إلَّا ثوباً، أو عشرةُ أثواب إلا قفيزَ حنطةٍ، وما جانسَ ذلك؛ كان مقبولاً، ويسقط عنه من المبلغِ قيمةُ الثوبِ والحِنطة. ويستوي في ذلك المكيلاتُ والموزوناتُ والمُقدَّرات. وقال مالكٌ وأبو حنيفةَ ﷺ: استثناءُ المكيلِ من الموزونِ، والموزونِ من المكيل جائزٌ، حتى لوِ استثنى الدراهمَ من الحِنطةِ، والحنطةَ من الدراهم قُبِل، فأمَّا إذا استثنى المقوَّمات من المكيلاتِ أو الموزونات، والمكيلاتِ

---

(١) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٨٢ .

(٢) ١/ ٤٤١ .

(٣) ١/ ٤٣٨ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ١٥٨ .

من المقوَّمات، مثل أن يقولَ: عليَّ عشرةُ دنانيرَ إلا ثوباً، أو عشرة أثواب إلا ديناراً، لا يصحُّ الاستثناء، ويَلزمُ المُقِرَّ جميعُ المبلغ. وقال محمدُ بنُ الحسن: الاستثناءُ من غيرِ الجنس لا يصحُّ، ويلزمُ المُقرَّ جملةُ ما أقرَّ به[١]. والدليلُ لقولِ الشافعيِّ[٢] أنَّ لفظَ الاستثناء يُستعمل في الجنسِ وغيرِ الجنس، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥]، فاستثنى السَّلامَ من جملة اللَّغو، ومثلُه ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وإبليسُ ليس من جملةِ الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال الشَّاعر:

وَبَلْدةٍ ليس بها أنيسُ إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ[٣]

فاستثنى اليعافيرَ وهي ذكورُ الظباء، والعِيسَ وهي الجِمالُ البيضُ، من الأَنيس؛ ومثلُه قولُ النابغة[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: ما المانعُ لك. ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: في ألَّا تكونَ.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ بيَّن تكبُّرَه وحسدَه،

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٤٧١، ومختصر اختلاف العلماء ٤/ ٤١٤ - ٤١٥، والوسيط في المذهب ٣/ ٣٥٤ - ٣٥٥، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٧١٣.

(٢) نهاية المحتاج ٥/ ١٠٦.

(٣) البيت لجران العَود النميري، وهو في ديوانه ص٩٧، وسلف ٧/ ٦.

(٤) يشير إلى قوله:

وقفت فيها أُصَيلاناً أسائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأواري لأياً ما أبينها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

والبيتان في ديوانه ص٣٠، وسلفا في موضعين ١/ ٤٦٠ و ٧/ ٦، واستشهد بهما على المسألة نفسها.

وأنه خيرٌ منه؛ إذ هو من نارٍ، والنارُ تأكلُ الطين[١]؛ كما تقدَّم في «الأعراف» بيانُه[٢].
﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السَّماوات، أو من جنةِ عَدْن، أو من جملةِ الملائكةِ[٣].
﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجومٌ بالشُّهب. وقيل: ملعونٌ مشتوم[٤]. وقد تقدَّم هذا كلُّه مستوفًى في «البقرةِ» و«الأعراف»[٥]. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ أي: لعنتي، كما في سورة (ص) [آية: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هذا السؤالُ من إبليسَ لم يكن عن ثقةٍ[٦] منه بمنزلتِه عندَ الله تعالى، وأنَّه أهلٌ أن يُجاب له دعاءٌ، ولكنْ سأل تأخيرَ عذابِه زيادةً في بلائِه، كفعلِ الآيسِ من السَّلامة. وأرادَ بسؤالِه الإنظارَ إلى يوم يبعثون، ألَّا يموتَ؛ لأنَّ يوم البعثِ لا موتَ فيه، ولا بعده. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ يعني: من المؤجَّلين. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ قال ابنُ عباس: أرادَ به النفخةَ الأولى، أي: حين تموتُ الخلائقُ. وقيل: الوقتُ المعلومُ الذي استأثرَ اللهُ بعلمه، ويجهلُه إبليسُ، فيموتُ إبليس ثم يُبعَث؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وفي كلامِ الله تعالى له قولان: أحدهما: كلَّمه على لسانِ رسول[٧]. الثاني: كلَّمه تغليظاً في الوعيدِ، لا على وجهِ التَّكرمةِ والتقريبِ[٨].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٦٦ - ٦٧.
(٢) ٩/١٦٥.
(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٦١.
(٤) في (د) و(ز) و(م): مشؤوم، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير الطبري ١٤/٦٧، والمحرر الوجيز ٣/٣٦١.
(٥) ١/١٤١ و ٩/١٧٣ - ١٧٤، وينظر ١/٤٧٤ - ٤٧٥.
(٦) في (م) ثقته، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/١٥٩.
(٧) في (م) و(د): رسوله.
(٨) النكت والعيون ٣/١٥٩ - ١٦٠.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم معنى الإغواءِ والزينة في «الأعراف»[١]. وتَزيينُه هنا يكون بوجهين: إمَّا بفعلِ المعاصي، وإما بشغلِهم بزينةِ الدنيا عن فعلِ الطَّاعة. ومعنى ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأُضلَّنَّهم عن طريق الهدى[٢].

وروى ابنُ لَهيعة عبدُ الله، عن دَرَّاج أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إبليسَ قال: يا ربِّ، وعِزَّتِك وجَلالِك لا أزال أُغوي بني آدمَ ما دامت أرواحُهم في أجسامهم[٣]، فقال الربُّ: وعزتي وجَلالي لا أزال أغفرُ لهم ما استغفروني»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قرأ أهلُ المدينة وأهلُ الكوفة بفتح اللام، أي: الذين استخلَصتَهم وأخلصتَهم. وقرأ الباقون بكسرِ اللام[٥]، أي: الذين أخلصوا لك العبادةَ من فسادٍ أو رياءٍ. حكى أبو ثُمامةَ أنَّ الحواريِّين سَألوا عيسى عليه السلام عن المخلِص[٦] لله، فقال: الذي يَعملُ، ولا يُحبُّ أن يَحمَدَه النَّاس.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قال عمرُ بن الخطاب: معناهُ: هذا صراطٌ يستقيمُ بصاحبِه حتى يَهجُمَ به على الجَنَّة. الحسن: «عليَّ» بمعنى: إليَّ. مجاهدٌ والكسائيُّ: هذا على الوعيدِ والتهديدِ؛

---

(١) ٩/ ١٧٠ و ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٦٠ - ١٦١.

(٣) في (ظ): أجسادهم.

(٤) أخرجه أحمد (١١٢٣٧) و(١١٢٤٤) وأبو يعلى (١٣٩٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٦٥)، والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣).

(٥) التيسير ص١٢٨، والسبعة ص٣٤٨.

(٦) في (د) و(ز) و(م): المخلصين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٦١.

كقولك لمن تُهدِّده: طريقُك عليَّ ومَصيرُك إليَّ. وكقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] فكان معنى الكلام: هذا طريقٌ مرجعُه إليَّ، فأُجازي كُلًّا بعملِه، يعني: طريقَ العُبودية. وقيل: المعنى عليَّ أن أدلَّ على الصراطِ المستقيم بالبيانِ والبُرهان. وقيل: بالتوفيقِ والهِدايةِ[1].

وقرأ ابنُ سِيرين وقتادةُ، والحسن وقيسُ بن عُبَاد، وأبو رجاء وحُميد، ويعقوب: «هذا صِراطٌ عليٌّ مستقِيم» برفع «عليّ» وتنوينِه[2]، ومعناه: رفيعٌ مستقيم، أي: رفيعٌ في الدين والحقِّ. وقيل: رفيعٌ أن يُنالَ، مستقيمٌ أن يُمالَ[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قال العلماءُ: يعني: على قلوبِهم. وقال ابن عُيينةَ: أي: في أن يُلقيَهم في ذنبٍ يمنعُهم عفوي، ويُضيِّقُه عليهم. وهؤلاءِ الذين هَداهُم الله، واجتَباهم، واختارَهم، واصطَفاهم[4].

قلتُ: لعلَّ قائلاً يقول: قد أخبرَ الله عن صفة[5] آدمَ وحواء عليهما السلام بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦]، وعن جملةٍ من أصحابِ نبيِّه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فالجوابُ ما ذُكِر، وهو أنَّه ليس له سلطانٌ على قلوبِهم، ولا موضعِ إيمانِهم، ولا يُلقيهم في ذنبٍ يَؤولُ إلى عدمِ القَبول، بل تُزيلُه التوبةُ، وتَمحُوه الأَوْبَةُ. ولم يكن خروجُ آدمَ عقوبةً لما تناول، على

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٦١ .

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٧١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٦١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥١ ، والمحتسب ٢/ ٣ . وقراءة يعقوب من العشرة. ينظر النشر ٢/ ٣٠١ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٦١ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥١ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٢ .

(٥) في (ظ): صفيه.

ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[١]. وأمَّا أصحابُ النبيِّ ﷺ، فقد مضَى القولُ عنهم في «آل عمران»[٢]. ثم إنَّ قولَه سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ يحتمل أن يكونَ خاصًّا فيمن حَفِظه الله، ويحتمل أن يكونَ في أكثرِ الأوقاتِ والأحوال، وقد يكون في تسلُّطِه تفريجُ كربةٍ، وإزالةُ غُمةٍ، كما فَعل ببلال، إذ أتاه يُهَدِّيه كما يُهدَّى الصَّبيُّ حتى نام[٣]، ونامَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه، فلم يَستيقِظوا حتى طلعتِ الشَّمس، وفَزِعوا وقالوا: ما كفارةُ ما صَنعنا بتفريطِنا في صلاتِنا؟ فقال لهم النبيُّ ﷺ: «ليسَ في النومِ تفريطٌ»، ففُرِّجَ عنهم[٤].

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: الضَّالِّين المشركين[٥]. أي: سلطانه على هؤلاء؛ دليله ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

الثانية: وهذه الآيةُ والتي قبلَها دليلٌ على جوازِ استثناءِ القليلِ من الكثيرِ، والكثيرِ من القليلِ، مثل أن يقولَ: عشرةٌ إلا درهماً. أو يقول: عشرة إلا تسعةً. وقال أحمدُ ابن حنبل: لا يجوزُ أن يُستَثنَى إلا قدرُ النصفِ فما دونَه، وأمَّا استثناءُ الأكثرِ من الجملةِ فلا يصحُّ. ودليلُنا هذه الآيةُ، فإنَّ فيها استثناءَ «الغاوين» من العبادِ، والعبادِ من الغاوين، وذلك يدلُّ على أن استثناءَ الأقلِّ من الجملة، واستثناءَ الأكثرِ من الجملة جائزٌ[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: إبليسَ ومَن اتبعَه. ﴿لَهَا سَبْعَةُ

(١) ١/ ٤٧٦.
(٢) ٥/ ٣٧٢.
(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٤ – ١٥ عن زيد بن أسلم مرسلاً.
(٤) ينظر حديث أبي هريرة وحديث أبي قتادة عند مسلم (٦٨٠)، و(٦٨١).
(٥) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٠.
(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢، والمغني لابن قدامة ٧/ ٢٩٢ – ٢٩٤.

﴿أَبْوَٰبٍ﴾ أي: أطباق، طبقٌ فوقَ طبق ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ أي: لكل طبقةٍ ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: حظٌّ معلوم[1]. ذكر ابنُ المباركِ قال: أخبرنا إبراهيمُ أبو هارون الغَنَوِيُّ قال: سمعت حِطَّان بنَ عبد الله الرَّقَاشي يقول: سمعتُ عليًّا ﷺ يقولُ: هل تدرونَ كيفَ أبوابُ جهنمَ؟ قلنا: هي مثلُ أبوابِنا. قال: لا، هي هكذا بعضُها فوقَ بعض[2]. زاد الثَّعلبيُّ: ـ ووضعَ إحدى يَدَيهِ على الأخرى ـ وإنَّ الله وضعَ الجنانَ على الأرض، والنيرانَ بعضَها فوقَ بعض، فأسفلُها جهنمُ، وفوقَها الحُطَمةُ، وفوقها سَقَرُ، وفوقَها الجحيمُ، وفوقها لظَى، وفوقها السَّعير، وفوقها الهاوية، وكلُّ بابٍ أشدُّ حَرًّا من الذي يليه سبعينَ مرةً[3].

قلت: كذا وقعَ هذا التفسير، والذي عليه الأكثرُ من العلماءِ أن جهنمَ أعلى الدَّرَكات، وهي مختصَّةٌ بالعُصاة من أمةِ محمد ﷺ، وهي التي تُخْلَى من أهلها، فتَصفِقُ الرياحُ أبوابَها، ثم لَظَى، ثم الحُطَمةُ، ثم سعيرُ، ثم سَقَرُ، ثم الجحيمُ، ثم الهاوية؛ قال الضحَّاك: في الدَّرْكِ الأعلى المُحمديُّون، وفي الثاني النَّصارى، وفي الثالث اليهودُ، وفي الرابعِ الصَّابئون، وفي الخامسِ المجوسُ، وفي السادسِ مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآلُ فرعونَ ومَن كفرَ من أهلِ المائدة[4]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ـ وقد تقدم في النساء[5] ـ، وقال: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وقَسَّم معاذُ بنُ جبل ﷺ العلماءَ السُّوءَ من هذه الأمةِ تقسيماً على تلك الأبواب،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٧٢ – ٧٣ .

(٢) الزهد لابن المبارك ص٨٥ زوائد نعيم بن حماد، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٤ ، والطبري في تفسيره ١٤/ ٧٣ – ٧٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٥١ ، والوسيط ٣/ ٤٥ – ٤٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٣ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٢-٤٠٣ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥١ ، والوسيط ٣/ ٤٦ ، وزاد المسير ٣/ ٤٦ .

(٥) ٧/ ١٩٥ – ١٩٦ .

ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(١)].

وروى الترمذيُّ[(٢)] من حديثِ ابنِ عمر قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «لجهنمَ سبعةُ أبواب: باب منها لمَنْ سَلَّ سيفَه على أمتي» قال: حديثٌ غريب.

وقال أُبَيُّ بن كعب: لجهنمَ سبعةُ أبواب: باب منها للحَرُورِية. وقال وَهْبُ بنُ مُنبِّه: بينَ كلِّ بابين مسيرةُ سبعينَ سنةً، كلُّ بابٍ أشدُّ حَرًّا من الذي فوقَه بسبعين ضعفاً. وقد ذكرنا هذا كلَّه في كتابِ «التذكرة»[(٣)].

وروى سَلَّامُ الطويلُ، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ في قولِ الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: جزءٌ أشركوا بالله، وجزءٌ شَكُّوا في الله، وجزءٌ غَفِلوا عن الله، وجزءٌ آثروا شهواتِهم على الله، وجزءٌ شَفَوا غيظَهم بغضبِ الله، وجزءٌ صَيَّروا رغبتَهم بحظهم من الله، وجزء عَتَوْا على الله. ذكره الحَلِيمي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب «منهاج الدين» له[(٤)]، وقال: فإن كان ثابتاً، فالمشركون بالله همُ الثَّنَوِيَّة. والشَّاكون همُ الذين لا يَدرون أنَّ لهم إلهاً أو لا إلهَ لهم، ويَشكُّون في شريعتِه أنها مِن عندِه أم لا. والغافلون عن اللهِ همُ الذينَ يَجحدونه أصلاً ولا يُثبِتونه، وهم الدَّهْرية. والمُؤْثِرونَ شهواتِهم على اللهِ هُمُ المنهمكون في المعاصي؛ لتكذيبِهم رسلَ الله وأمرَه ونهيَه. والشَّافون غيظَهم بغضبِ الله هم القاتلونَ أنبياءَ الله، وسائرَ الداعين إليه، المعذِّبون مَن ينصحُ لهم، أو يذهبُ غيرَ مذهبِهم، والمُصيِّرون رغبتَهم بحظِّهم من الله هم المنكرونَ البعثَ[(٥)] والحساب؛

---

(١) ص٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) في سننه (٣١٢٣)، وهو في مسند أحمد (٥٦٨٩).

(٣) ص٣٨٣ - ٣٨٤، وينظر التخويف من النار لابن رجب ص٥٨.

(٤) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٧٢ - ٤٧٣، وسلَّام الطويل: هو التميمي، السعدي، وهو متروك. وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٩/ ٢٩، بلفظ: جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله.

(٥) المثبت من (ظ)؛ وفي غيرها: بالبعث.

فهم يَعبُدون ما يرغبون فيه، لهم جميعُ حظِّهم من الله تعالى. والعاتونَ على الله الذينَ لا يبالون بأن يكونَ ما هم فيه حقًّا أو باطلاً، فلا يتفكرون، ولا يَعتبِرون، ولا يَستدلون. واللهُ أعلمُ بما أرادَ رسولُه ﷺ إنْ ثبتَ الحديثُ.

ويُروى أنَّ سلمان الفارسيَّ ﷺ لمَّا سَمِع هذه الآيةَ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فرَّ ثلاثةَ أيامٍ من الخوفِ لا يَعقِل، فجيءَ به إلى رسولِ الله ﷺ فسأله، فقال: يا رسولَ الله، أُنزلت هذه الآيةُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فوالذي بعثَك بالحقِّ لقد قَطَعت قلبي. فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[1] [الحجر: ٤٥].

وقال بلالٌ: كان النبيُّ ﷺ يُصلي في مسجدِ المدينة وَحْدَه، فمرَّتْ به امرأةٌ أعرابيةٌ، فصَلَّت خلفه ولم يعلمْ بها، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآيةَ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فخرَّتِ الأعرابية مغشيًّا عليها، وسمعَ النبيُّ ﷺ وَجْبَتها[2]، فانصرفَ ودعا بماءٍ فصُبَّ على وجهها حتى أفاقت وجَلَست، فقالَ النبيُّ ﷺ: «يا هذهِ، مَا لَكِ؟» فقالت: أهذا شيءٌ من كتابِ الله المُنزَّلِ، أو تَقولُه من تِلقاءِ نفسِك؟ فقال: «يا أعرابيةُ، بل هو من كتابِ اللهِ تعالى المنزَّل»، فقالت: كلُّ عضوٍ من أعضائي يُعذَّب على كلِّ باب منها؟ قال: «يا أعرابيةُ، بل لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم يُعذَّبُ أهلُ كلٍّ منها على قدر أعمالِهم»، فقالت: واللهِ إني امرأةٌ مسكينةٌ، مالي مالٌ، وما لي إلا سبعةُ أَعْبُد، أُشهِدك يا رسولَ الله، أنَّ كلَّ عبدٍ منهم عن كلِّ بابٍ من أبوابِ جهنم حُرٌّ لوجه الله تعالى. فأتاه جبريلُ فقال: يا رسولَ الله، بشِّرِ الأعرابيةَ أنَّ الله قد حَرَّم عليها أبوابَ جهنمَ كلَّها، وفتح لها أبوابَ الجنةِ كلَّها[3].

---

(١) نسبه السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول إلى الثعلبي.

(٢) الوَجْبَةُ: السقطةُ مع الهدة. الصحاح (وجب).

(٣) نسبه ابن رجب الحنبلي في التخويف من النار ص٥٨ – ٥٩ ، إلى الثعلبي في تفسيره بإسناد مجهول إلى منصور بن عبد الحميد بن أبي رباح...، فذكره، وقال: وهذا حديث لا يصح مرفوعاً، ومنصور =

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين اتقوا الفواحشَ والشركَ. ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين[١]. ﴿وَعُيُونٍ﴾: هي الأنهارُ الأربعةُ: ماء، وخمر، ولبن، وعسل. وأمَّا العيونُ المذكورةُ في سورةِ الإنسان: الكافورُ والزَّنْجَبيل والسَّلسبيل، وفي «المطففين»: التَّسنيم، فيأتي ذكرُها وأهلها إن شاءَ الله.

وضمُّ العينِ من «عُيونٍ» على الأصلِ، والكسرُ مراعاةً للياء، وقُرِئ بهما[٢].

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ قراءةُ العامةِ: «ادخلوها» بوصلِ الألفِ وضمِّ الخاء، مِن دخل يدخُل، على الأمر. تقديرُه: قيل: ادخُلوها. وقرأ الحسنُ وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب: «ادخِلُوها» بضم التنوين ووصلِ الألف وكسرِ الخاء على الفعلِ المجهول[٣]، من أُدخِل، أي: أدخلَهم اللهُ إياها. ومذهبُهم كسرُ التنوين في مثل ﴿بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٩] وشبهِه، إلا أنَّهم هاهنا ألقَوا حركةَ الهمزةِ على التنوين؛ إذ هي ألفُ قطعٍ، ولكن فيه انتقالٌ من كسرٍ إلى ضمٍّ ثم من ضمٍّ إلى كسرٍ، فيَثقلُ على اللسان.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: بسلامةٍ من كلِّ داءٍ وآفة. وقيل: بتحيةٍ من اللهِ لهم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من الموتِ والعذابِ، والعزلِ والزوالِ[٤].

= ابن عبد الحميد قال فيه ابن حبان: لا تحل الرواية عنه. والصحيح ما روى مخلد بن الحسن عن هشام بن حسان قال: خرجنا حجاجاً فنزلنا منزلاً في بعض الطريق، فقرأ رجل معنا هذه الآية..، فذكره مختصراً.

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٠، والوسيط ٣/ ٤٦.

(٢) قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وهشام بضم العين، والباقون بكسرها. التيسير ص١٣٦.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٣٩٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٦، والنشر ٢/ ٣٠١. وقراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ المتواترة عنه كقراءة حمزة وعاصم وأبي عمرو وابن ذكوان، بكسر التنوين، وضم الخاء.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٦١ - ٣٦٢، وزاد المسير ٤/ ٤٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قال ابنُ عباس: أوَّلُ ما يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ تَعرِضُ لهم عينانِ، فيشربون مِن إحدى العينين، فيُذهب الله ما في قلوبهم من غِلٍّ، ثم يدخلون العينَ الأخرى، فيغتسلون منها، فتشرقُ ألوانُهم وتصفُو وجوهُهم، وتجري عليهم نَضْرةُ النعيم[١]. ونحوُه عن عليٍّ ﷺ[٢].

وقال عليُّ بنُ الحسين: نزلت في أبي بكر وعمر وعليٍّ والصحابة[٣]، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغِلِّ. والقول الأوَّل أظهرُ؛ يدلُّ عليه سياقُ الآية. وقال عليٌّ ﷺ: أرجو أن أكون أنا وطلحَةُ والزُّبير من هؤلاء[٤].

والغِلُّ: الحِقدُ والعداوةُ، يقال منه: غَلَّ يَغِلُّ. ويقال من الغُلولِ، وهو السرقةُ من المَغْنَم: غَلَّ يَغُلُّ. ويقال من الخيانة: أَغَلَّ يُغِلُّ[٥]. كما قال[٦]:

جَزَى اللهُ عنا حَمْزَةَ ابنةَ نَوْفَلٍ ... جَزاءَ مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذبِ

وقد مضى هذا في آل عمران.

﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي: لا ينظر بعضُهم إلى قَفَا بعضٍ؛ تواصلاً وتحابُباً، عن مجاهدٍ[٧] وغيرِه. وقيل: الأَسِرَّة تدور كيفما شاؤوا، فلا يرى أحدٌ قفا

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٠٠ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٦ ، وابن أبي شيبة ١٣/ ١١٢ ، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٢٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٢٦٢ (١٨٤١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٦٧ (١٢٤٠٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٨١ ، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٠/ ٣٣٨ و ٥٤/ ٢٨٩ .

(٤) سلف ٩/ ٢٢٢ .

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٢٠٠ ، وسلف ٥/ ٣٨٨ .

(٦) هو النَّمِر بن تولب، وسلف ٥/ ٣٨٨ .

(٧) أخرجه نعيم بن حماد في زوائده على زهد ابن المبارك (٤٣٤)، وهنَّاد في الزهد (٨٠)، والطبري في التفسير ١٤/ ٨٠ ، وسيأتي من قول عكرمة أيضاً في سورة الصافات، الآية (٤٤).

أحدٍ[(١)]. وقيل: «متقابلين»: قد أقبلت عليهم الأزواجُ، وأقبلوا عليهنَّ بالوُدِّ[(٢)].

وسُرُر: جمع سرير، مثل جديد وجُدُد. وقيل: هو من السرور؛ فكأنه مكانٌ رفيعٌ ممهَّدٌ للسرور[(٣)]. والأوّل أظهر. قال ابن عباس: على سُرُر مكلَّلة بالياقوت والزَّبَرْجَد والدُّرِّ، السريرُ ما بين صنعاءَ إلى الجابية، وما بين عدنٍ إلى أيْلة[(٤)].

و«إخواناً»: نصب على الحال من «المتقين»[(٥)] أو من المضمَر في «ادخلوها»، أو من المضمَر في «آمنين»، أو يكون حالاً مقدَّرة مِن الهاءِ والميمِ في «صدورهم»[(٦)].

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: إعياءٌ وتعب[(٧)]. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيمَ الجنةِ دائمٌ لا يزول، وأن أهلَها فيها باقون ﴿أُكُلُها دائم﴾؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[(٨)].

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

هذه الآية وزانُ قوله عليه الصلاة والسلام: «لو يَعلمُ المؤمنُ ما عند اللهِ من العقوبةِ ما طمع بجنَّته أحدٌ، ولو يَعلمُ الكافرُ ما عند اللهِ من الرحمةِ ما قَنِط مِن رحمتِه

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ١٤/ ٣٠، والكشاف ٢/ ٣٩٢.

(٢) حكاه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٢ عن القاسم.

(٣) ينظر الصحاح (سرر) وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥١، وتفسير الطبري ١٤/ ٨٠، والرازي ١٩/ ١٩٣.

(٤) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠٤، والرازي في التفسير ١٩/ ١٩٣، والجابية: قرية من أعمال دمشق. معجم البلدان ٢/ ٩١، وأيلة: مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام. معجم البلدان ١/ ٢٩٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٢.

(٦) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٤، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٩٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٦، وزاد المسير ٤/ ٤٠٤.

(٨) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٨١.

أحدٌ». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدّم في الفاتحة[1]. وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكُر نفسَه وغيرَه، فيخوِّفَ ويرجِّيَ، ويكون الخوفُ في الصحة أغلبَ عليه منه في المرض[2]. وجاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم الجنَّةُ والنَّارُ؟!». فشقَّ ذلك عليهم، فنزلت الآية[3]. ذكره الماورديُّ والمهدويُّ.

ولفظ الثعلبيِّ عن ابنِ عمرَ قال: اطَّلع علينا النبيُّ ﷺ من البابِ الذي يَدخُل منه بنو شَيْبةَ ونحن نضحكُ، فقال: «ما لكم تضحكون؟ لا أراكم تضحكون»، ثم أدبَر حتى إذا كان عند الحِجْر رجع القَهْقَرى، فقال: «إني لمَّا خرجتُ؛ جاءني جبريلُ فقال: يا محمَّد لم تُقنِّطُ عبادي من رحمتي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾»[4]. فالقُنوطُ إياسٌ، والرجاءُ إهمالٌ، وخيرُ الأمور أوساطُها.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ضيفُ إبراهيم: هم الملائكةُ الذين

---

(١) ١/ ٢١٥ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٩٥ .

(٣) أخرجه البزار (٢٢١٦) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٦ ونسبه للطبراني وقال: رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. اهـ، ولم نقف عليه عند الطبراني، وأورده أيضاً البغوي في معالم التنزيل ٣/ ٥٢ ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٥٧) وقال: وليس في إسناده من تُرك ولا اتُّهم. اهـ

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٩٢)، والطبري في التفسير ١٤/ ٨٢ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وفي إسناده: مصعب بن ثابت، وعاصم بن عبيد الله، وهما ضعيفان، كما في تقريب التهذيب. وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠٤ – ٤٠٥ .

بشَّروه بالولد وبهلاكِ قومِ لوط، وقد تقدّم ذكرهم[١]. وكان إبراهيمُ عليه السلام يُكْنَى أبا الضِّيْفان، وكان لقَصْرِه أربعةُ أبواب؛ لكَيلا يفوتَه أحدٌ[٢]. وسمِّي الضيفُ ضيفاً؛ لإضافته إليك، ونزولِه عليك[٣]. وقد مضى من حكم الضيف في «هود» ما يكفي، والحمد لله.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ جُمع الخبَرُ؛ لأنَّ الضيفَ اسمٌ يصلُح للواحد والجمْع والتثنية، والمذكَّر والمؤنَّث، كالمصدر[٤]. ضافَه: مال إليه[٥] وأضافَه: أماله[٦]؛ ومنه الحديثُ: «حين تَضيَّف الشمسُ للغروبِ»[٧]، وضيفوفة السهم[٨]، والإضافة النحوية.
﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلِّموا سلاماً[٩].

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فزعونَ خائفونَ، وإنما قال هذا بعد أن قرَّب العجلَ ورآهم لا يأكلون، على ما تقدَّم في هود[١٠]. وقيل: أنكر السلامَ، ولم يكن في بلادهم رَسْمُ السلام.

(١) في سورة هود، الآية (٦٩).
(٢) أخرجه بهذا اللفظ يحيى بن معين (برواية الدوري ١٥٦٢)، وأبو نعيم في الحلية ٣/٣٣٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦١٨)، وأخرجه ـ أيضاً ـ يحيى بن معين (برواية الدوري ١٥٦٣)، وابن سعد في الطبقات ١/٤٧، وهناد في الزهد (٦٥٠)، وأبو نعيم في الحلية ٣/٣٣٥، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦١٧)، والبغوي في التفسير ١/٤٨٤ مقتصرين على القسم الأول، وهو من قول عكرمة ﷺ.
(٣) تهذيب اللغة ١٢/٧٣.
(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/٨٣، والمحرر الوجيز ٣/٢٢١.
(٥) قوله: مال إليه، من (ظ).
(٦) ينظر غريب الحديث لأبي عبيد ١/١٧ - ١٨، والصحاح (ضيف) وتهذيب اللغة ١٢/٧٣.
(٧) قطعة من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ. أخرجه مسلم (٨٣١)، وأوله: «ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصليَ فيهن...
(٨) ضاف السهم يضيف: إذا عدل عن الهدف. تهذيب اللغة ١٢/٧٣.
(٩) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/١٨٠.
(١٠) عند تفسير الآية (٧٠) منها.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي: قالت الملائكةُ: لا تخف. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: حليم؛ قاله مقاتل. وقال الجمهور: عالم. وهو إسحاق[١].

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ «أنْ» مصدرية، أي: على مسِّ الكِبَرِ إيَّايَ وزوجتي، وقد تقدَّم في هود وإبراهيم[٢]. [و] حيث يقول: «فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» استفهامُ تعجُّب. وقيل: استفهامٌ حقيقيٌّ[٣]. وقرأ الحسنُ: «تُوجل» بضمِّ التاء[٤]. والأعمش: «بشرتموني» بغير ألف[٥]، ونافع وشيبة: ﴿تُبَشِّرُونِ﴾ بكسر النون والتخفيف؛ مثل «أتحاجُّوني» وقد تقدَّم تعليله[٦]. وقرأ ابنُ كَثير وابنُ محيصن: «تُبَشِّرونِّ» بكسر النونِ مشدَّدة، تقديره: تبشرونني، فأدغم النونَ في النونِ. الباقون: «تُبشرونَ» بنصبِ النونِ بغير إضافة[٧].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما لا خُلْفَ فيه، وأنَّ الولدَ لابُدَّ منه. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي: من الآيسين مِن الولدِ، وكان قد أيِسَ من الولد؛ لفَرْط الكِبَر. وقراءةُ العامَّة: «مِن القانِطِين» بالألف. وقرأ الأعمشُ ويحيى بنُ وثَّاب: «من القَنِطين» بلا ألفٍ. وروي عن أبي عمرو. وهو مقصورٌ من «القانطين». ويجوز أن يكون من لغةِ مَن قال: قَنِط يَقْنَط؛ مثل حذِر يحذَر[٨]. وفتحُ النون وكسرُها مِن «يقنط» لغتان

(١) النكت والعيون ٣/١٦٣ ، وقوله: وهو إسحاق. أخرجه ابن أبي حاتم ٦/٢٠٥٧ من قول قتادة.

(٢) عند الآية ٧١ من سورة هود، والآية ٣٩ من سورة إبراهيم.

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٦٤ ، والوسيط ٣/ ٤٧ .

(٤) القراءات الشاذة ص٧١ ، والمحتسب ٢/ ٤ .

(٥) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٥/٤٥٨ للأعرج.

(٦) ٨/ ٤٤٣ .

(٧) السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ ، وقراءة ابن محيصن في إتحاف الفضلاء ص٣٤٧ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٣ - ٣٨٤ ، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩ .

قُرئ بهما[١]. وحكي فيه «يقنُط» بالضمّ[٢]. ولم يأتِ فيه «قنُط يقنُط». ومن فتَح النونَ في الماضي والمستقبل فإنه جمعَ بين اللغتَين، فأخذ في الماضي بلغة مَن قال: قَنَط يقنِط، وفي المستقبل بلغة مَن قال: قَنِط يقنَط[٣]. ذكره المهدويُّ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: المكذِّبون الذاهبون عن طريقِ الصواب. يعني أنه استبعدَ الولدَ؛ لكِبَر سنِّه، لا أنه قنَط مِن رحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: لما علم أنَّهم ملائكةٌ ـ إذ أخبروه بأمرٍ خارقٍ للعادة، وهو بُشراهم بالولد ـ قال: فما خطبكم؟ والخطب: الأمرُ الخطيرُ. أي: فما أمرُكم وشأنُكم، وما الذي جئتم به؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين ضالِّين. وفي الكلام إضمارٌ، أي: أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين؛ لنهلكَهم.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾: أتباعَه وأهلَ دينه. ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿لَمُنْجُوهُم﴾ بالتخفيف، من «أَنجى». الباقون: بالتشديد، من «نَجَّى»[٤]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. والتنجية والإنجاءُ: التخليصُ.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثنى مِن آلِ لوط امرأتَه، وكانت كافرةً، فالتحقَتْ بالمجرمين في

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي من السبعة بكسر النون، والباقون بفتحها. السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٢) وهي قراءة زيد بن علي والأشهب. البحر المحيط ٥/ ٤٥٩ ، والمحتسب ٢/ ٥ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ ، والمحتسب ٢/ ٥ ، والصحاح، وتهذيب اللغة ١٦/ ٢٧٩ .

(٤) السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ .

الهلاك. وقد تقدَّمت قصةُ قوم لوطٍ في «الأعراف»[1] وسورة «هود»[2] بما فيه كفايةٌ.

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: قضينا وكتبنا إنها لمنَ الباقين في العذاب. والغابر: الباقي.

قال[3]:

لا تَكْسَعِ[4] الشَّوْلَ[5] بأَغْبارِها إنَّك لا تدري مَنِ النَّاتِجُ

الأغبار: بقايا اللَّبن.

وقرأ أبو بكرٍ والمفضَّل: «قَدَرنا» بالتخفيف هنا[6] وفي النمل[7]، وشدَّد الباقون. الهَرَوِيُّ: يقال: قدَّر وقَدَر، بمعنًى.

الثانية: لا خلافَ بين أهلِ اللسان وغيرِهم أنَّ الاستثناءَ من النفي إثباتٌ، ومن الإثباتِ نفيٌ؛ فإذا قال رجل: له عليَّ عشرةُ دراهمَ إلا أربعةً إلا درهماً؛ ثبت الإقرارُ بسبعة؛ لأنَّ الدرهمَ مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت؛ لأنه مستثنًى من منفيٍّ، وكانت الأربعة منفيَّةً؛ لأنها مستثناةٌ من موجب، وهو العشرةُ، فعاد الدرهمُ إلى الستَّةِ، فصارت سبعةً.

وكذلك لو قال: عليَّ خمسةُ دراهمَ إلا درهماً إلا ثُلثَيْه؛ كان عليه أربعةُ دراهمَ

---

(١) ٩/٢٧٣ .

(٢) ١١/١٧٣ وما بعدها .

(٣) الحارث بن حلِّزة، والبيت في ديوانه ص١١١ ، وكَسَع الناقةَ بغُبرها: تَرَكَ في خِلْفها بقيَّةً من اللبن، يريد بذلك تغزيرها، والشول: الناقة التي لم يبقَ في ضرعها إلا بقية من اللبن، والمعنى: لا تُبْقِ ذلك اللبنَ لتسمنَ الأولاد، فإنك لا تدري من ينتجها فلعلك تموت، فتكون للوارث، أو يُغار عليها. الكامل للمبرد ١/٤٨٤ ، واللسان: (شول) و(كسع).

(٤) في (د): تكشع، وفي (ظ): تلسع.

(٥) في (د): النار.

(٦) قراءة أبي بكر ـ وهو شعبة بن عياش الراوي عن عاصم ـ في السبعة ص٣٦٧ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٧) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الآية (٥٧).

وثلثٌ. وكذلك إذا قال: لفلانٍ عليَّ عشرةٌ إلا تسعةً إلا ثمانيةً إلا سبعةً؛ كان الاستثناءُ الثاني راجعاً إلى ما قَبْلَه، والثالثُ إلى الثاني، فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرةَ إثباتٌ، والثمانيةَ إثباتٌ، فيكون مجموعها ثمانيةَ عشَر، والتسعةُ نفيٌ، والسبعةُ نفيٌ، فيكون ستَّة عشَر، تسقط من ثمانيةَ عشَر، ويبقى درهمان، وهو القَدْر الواجبُ بالإقرار لا غير.

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فاستثنى آلَ لوطٍ من القومِ المجرمين، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فاستثناها من آلِ لوط، فرجعت في التأويل إلى القومِ المجرمين كما بيَّنَّا.

وهكذا الحُكم في الطلاقِ، لو قال لزوجته: أنتِ طالقٌ ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدةً، طلقت ثنتين؛ لأن الواحدةَ رجعت إلى الباقي من المستثنى منه، وهي الثلاث. وكذا كلُّ ما جاء من هذا، فتفهَّمه[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا أعرفكم. وقيل: كانوا شباباً ورأى جمالاً، فخاف عليهم من فتنةِ قومه؛ فهذا هو الإنكار.

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكُّون أنه نازلٌ بهم، وهو العذابُ. ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق. وقيل: بالعذاب. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: في هلاكهم.

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٥، والنكت والعيون ٣/ ١٦٤، وأحكام القرآن ٣/ ١١١٦ – ١١١٧، والمحصول لابن العربي ص٨٢ – ٨٥.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في هود[1] .﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: كن من ورائِهم؛ لئلَّا يتخلفَ منهم أحدٌ فينالَه العذابُ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ نُهوا عن الالتفاتِ ليجِدُّوا في السير، ويتباعدوا عن القريةِ قبل أن يُفاجِئَهم الصُّبح. وقيل: المعنى: لا يتخلَّف.

﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابنُ عباسٍ: يعني الشَّام[2]. مقاتل: يعني صُغَر[3]، قريةٌ من قُرى لوطٍ[4]. وقد تقدَّم[5]. وقيل: إنه مضى إلى أرضِ الخليلِ بمكان يُقال له: اليقينُ، وإنما سُمِّيَ اليقينَ؛ لأنَّ إبراهيمَ لما خَرجت الرسلُ شيَّعهم، فقال لجبريلَ: من أين يُخسَف بهم؟ قال: مِن هاهنا. وحَدَّ له حَدًّا، وذهب جبريلُ؛ فلما جاء لوطٌ، جلس عند إبراهيمَ، وارتقبا ذلك العذابَ، فلما اهتزتِ الأرضُ قال إبراهيم: أيقنتُ باللهِ، فسُمِّيَ اليقينَ.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: أوحينا إلى لوط .﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ نظيره: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٥].

---

(١) ١١/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٤ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٧ .

(٣) في (ز) و(د): صغو، وفي (م): صفد، وفي (ظ): صَعَر، والمثبت من معجم البلدان ٣/ ٤١١ وفيه أن صُغَر على وزن زُفَر وصُرَد، وهي زُغَر التي تقدم ذكرها عنده ٣/ ١٤٢ ، ـ وكذا ذكرها البغوي في تفسيره ٣/ ٥٤ ـ وأنها نَجَتْ لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة.

(٤) زاد المسير ٤/ ٤٠٧ ونسبه إلى ابن السائب.

(٥) ١١/ ١٨٥ - ١٨٦ .

﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: عند طلوع الصُّبح. وقد تقدَّم[1].

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: أهلُ مدينةِ لوطٍ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: مستبشرينَ بالأضيافِ؛ طمعاً منهم في ركوبِ الفاحشة. ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ أي: أضيافي. ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي: تُخجِلُون. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ يجوز أن يكون من الخِزْي، وهو الذلُّ والهوان، ويجوز أن يكون من الخَزاية، وهو الحياءُ والخَجَل. وقد تقدَّم في هودٍ[2]. ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن أن تضيفَ أحداً؛ لأنَّا نريدُ منهم الفاحشةَ. وكانوا يقصدونَ بفعلهم الغرباءَ؛ عن الحسن. وقد تقدَّم في الأعراف[3]. وقيل: أو لم ننهكَ عن أن تُكلِّمنا في أحدٍ من الناسِ إذا قصدناه بالفاحشة. ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: فتزوَّجوهُنَّ ولا تَركنوا إلى الحَرَام. وقد تقدَّم بيانُ هذا في هود[4].

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ[5]: قال المفسرون بأجمعهم: أقْسَم اللهُ تعالى هاهنا بحياةِ محمَّدٍ ﷺ تشريفاً له، أنَّ قومَه من قريشٍ في سَكْرتهم يَعْمَهُون، وفي حَيْرتهم يتردَّدون.

قلت: وهكذا قال القاضي عِياض: أجمع أهلُ التفسيرِ في هذا أنه قسمٌ من اللهِ جلَّ جلاله بمدَّة حياةِ محمَّد ﷺ. وأصله ضمُّ العينِ؛ من العُمُر، ولكنَّها فُتحت؛ لكثرة الاستعمالِ. ومعناه: وَبَقائِكَ يا محمَّد. وقيل: وحياتِكَ. وهذا نهايةُ التعظيم، وغايةُ

---

(١) ٨/ ٣٨١ .

(٢) عند تفسير الآية (٧٨).

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤ ، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٩ ، وتقدم ٩/ ٢٧٧ .

(٤) ١١/ ١٨٥ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٨ .

البِرِّ والتشريف. قال أبو الجوزاء[١]: ما أقسم اللهُ بحياةِ أحدٍ غيرِ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنه أكرمُ البَرِيَّة عنده[٢].

قال ابنُ العربيِّ[٣]: ما الذي يَمنَعُ أن يُقسِم اللهُ سبحانه وتعالى بحياةِ لوطٍ، ويَبلغ به من التشريفِ ما شاء؟ وكلُّ ما يُعطِيه اللهُ تعالى للوطٍ من فَضْلٍ يُؤتي ضعفَيْه من شرفٍ لمحمَّدٍ ﷺ؛ لأنه أكرمُ على اللهِ منه؛ أوَلا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيمَ الخُلَّة، وموسى التكليمَ، وأعطى ذلك لمحمَّدٍ، فإذا أقسم بحياةِ لوطٍ، فحياةُ محمَّد أرْفعُ. ولا يَخرج من كلامٍ إلى كلامٍ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ لغير ضرورةٍ.

قلت: ما قاله حسنٌ؛ فإنه كان يكون قَسَمُه سبحانه بحياةِ محمَّد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوطٍ. قال القشيريُّ أبو نصر عبدُ الرحيمِ بنُ عبدِ الكريم في تفسيرِه: ويحتمل أن يقال: يَرجِعُ ذلك إلى قومِ لوط، أي: كانوا في سَكْرتهم يَعْمَهون. وقيل: لما وعَظ لوطٌ قومَه، وقال: هؤلاء بناتي. قالت الملائكةُ: يا لوطُ: «لعَمْرُك إنَّهم لفي سَكْرتهم يَعْمَهون» ولا يدرون ما يَحِلُّ بهم صباحاً.

فإن قيل: فقد أقسَم تعالى بالتينِ والزيتونِ وطورِ سِينين؛ فما في هذا؟ قيل له: ما من شيءٍ أقسَم اللهُ به إلا وذلك دلالةٌ على فَضْله على ما يدخل في عِدادِه، فكذلك نبيُّنا ﷺ يجب أن يكون أفضلَ ممن هو في عِدادِه.

والعَمْر والعُمْر ـ بضمِّ العينِ وفتحِها ـ لغتان، ومعناهما واحدٌ؛ إلا أنه لا يُستَعمل في القَسَم إلا بالفتح؛ لكثرة الاستعمال[٤]. وتقول: عَمْرَكَ اللهَ، أي: أسألُ اللهَ تعميرَك. و«لَعَمْرُكَ»: رفعٌ بالابتداءِ، وخبرُه محذوفٌ. المعنى: لعَمْرُك مما أُقسِم به[٥].

---

(١) أوس بن عبد الله الرَّبَعي، بصري، يرسل كثيراً، ثقة، (ت ٨٣هـ). تقريب التهذيب.

(٢) الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٦ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩ .

(٥) إعراب القرآن ٢/ ٣٨٧ ، ومعاني القرآن ٤/ ٣٤ للنحاس، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٨ .

الثانية: كره كثيرٌ من العلماءِ أن يقول الإنسانُ: لَعَمْري؛ لأنَّ معناه: وحياتي. قال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ[١]: يُكره للرجل أن يقول: لَعَمْري؛ لأنه حَلِفٌ بحياةِ نفسِه، وذلك من كلام ضَعَفةِ الرجال. ونحو هذا قال مالكٌ: إنَّ المستضعفينَ من الرجال والمؤنَّثين يُقسِمون بحياتِك وعَيْشِك، وليس من كلامِ أهلِ الذُّكْران، وإن كان اللهُ سبحانه أقسَم به في هذه القصَّة؛ فذلك بيانٌ لشَرَف المنزلةِ والرفعةِ لمكانه، فلا يُحمَل عليه سواه، ولا يُستَعمل في غيرِه. وقال ابنُ حبيبٍ: ينبغي أن يُصرف «العَمْرك» في الكلام لهذه الآيةِ. وقال قتادةُ: هو من كلامِ العرب. قال ابنُ العربيِّ: وبه أقول، لكنَّ الشرعَ قد قَطَعه في الاستعمال، وردَّ القَسَم إليه[٢].

قلت: القَسَم بـ «العمرك» و«لعمري» ونحوه في أشعارِ العربِ وفصيحِ كلامها كثيرٌ[٣].

قال النابغة[٤]:

لَعَمْري وما عَمْرِي عليَّ بهيِّنٍ ... لقد نَطقتْ بُطْلاً عَلَيَّ الأقارعُ

آخر:

لعَمْرُك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ[٥]

آخر:

أيُّها المنكحُ الثُّرَيَّا سُهيلاً ... عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يَلْتقيانِ[٦]

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٩٣ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١١١٨ - ١١١٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩ .

(٤) في ديوانه ص٨٠ .

(٥) قائله طرفة بن العبد، والبيت في ديوانه ص٣٤ ، والطِّوَل: الحبل الذي يُطوَّل للدابة فترعى فيه. الصحاح (طول).

(٦) قائله عمر بن أبي سلمة، وهو في ديوانه ص٢٢٩ .

آخر:

إذا رَضِيتْ عليَّ بنو قُشَيْرٍ لعَمْرُ اللهِ أعْجبني رضاها[١]

وقال بعض أهل المعاني: لا يجوز هذا؛ لأنه لا يُقال: للهِ عُمْرٌ، وإنما هو تعالى أزليٌّ. ذكره الزهراويُّ.

الثالثة: قد مضى الكلامُ فيما يُحلَف به وما لا يجوز الحَلِفُ به في «المائدة»[٢]، وذكرنا هناك قولَ أحمدَ بنِ حنبل فيمن أقسَم بالنبيِّ ﷺ لزمته الكفَّارةُ.

قال ابنُ خُوَيْزِمَنْدَاد: من جوَّز الحَلِفَ بغير اللهِ تعالى مما يجوز تعظيمُه بحقٍّ من الحقوقِ، فليس يقول إنَّها يمينٌ تتعلَّق بها كفَّارة؛ إلا أنه من قصَد الكذبَ كان ملوماً؛ لأنه في الباطن مستخِفٌّ بما وجبَ عليه تعظيمُه.

قالوا: وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وحياتِكَ. وإذا أقسَم اللهُ تعالى بحياة نبيِّه فإنَّما أرادَ بيانَ التصريح لنا أنه يجوزُ لنا أن نَحْلِفَ بحياتِه. وعلى مذهب مالكٍ معنى قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، ﴿وَالطُّورِ . وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١-٢]، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ١-٣] كل هذا معناه: وخالقِ التينِ والزيتونِ، وبربِّ الكتابِ المَسْطُور، وبربِّ البلدِ الذي حَلَلْتَ به، وخالقِ عيشِكَ وحياتِكَ، وحقِّ محمَّدٍ؛ فاليمينُ والقَسَم حاصلٌ به سبحانه لا بالمخلوقِ.

قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: ومن جَوَّز اليمين بغير اللهِ تعالى تأوَّل قولَه ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»[٣]. وقال: إنَّما نَهى عن الحَلِفِ بالآباء الكفَّارِ، ألَا ترى أنه قال لما حَلَفوا بآبائهم: «لَلْجَبَلُ عند اللهِ أكرمُ من آبائكم الذين ماتوا في الجاهليةِ»[٤]. ومالك حَمَلَ

---

(١) القائل هو القحيف العقيلي، وهو في أدب الكاتب ص٥٠٦، والخصائص ٢/ ٣١١.

(٢) ٨/ ١٣١ - ١٣٢ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤٨)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) لم نقف عليه.

الحديثَ على ظاهرِه.

قال ابن خُوَيْزِمنداد: واستدل أيضاً من جوَّز ذلك؛ بأنَّ أيمانَ المسلمين جَرَتْ منذ عهدِ النبيِّ ﷺ إلى يومِنا هذا أن يَحْلفوا بالنبيِّ ﷺ، حتى إنَّ أهلَ المدينة إلى يومِنا هذا إذا حاكَم أحدهم صاحبَه قال: احْلِفْ لي بحقِّ ما حواه هذا القبرُ، وبحقِّ ساكنِ هذا القبرِ، يعني النبيَّ ﷺ، وكذلك بالحرَمَ، والمشَاعِر العظام، والرُّكنِ، والمَقام، والمِحْراب، وما يُتْلى فيه[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ نصبٌ على الحال، أي: وقتَ شُروقِ الشمس. يقال: أشرقتِ الشمسُ، أي: أضاءت، وشَرقت: إذا طَلَعت. وقيل: هما لغتان بمعنًى. وأشرقَ القومُ، أي: دخلوا في وقتِ شُروقِ الشمسِ. مثل: أَصبحوا وأَمْسَوْا، وهو المرادُ في الآية. وقيل: أرادَ شروقَ الفَجْر. وقيل: أوَّلُ العذابِ كان عند الصبحِ، وامتدَّ إلى شُروق الشمسِ، فكان تمامُ الهلاكِ عند ذلك، والله أعلم[2]. و«الصيحة»: العذابُ[3]. وتقدّم ذكر «سِجِّيل»[4].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ روى الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[5]

---

(١) أكثر الفقهاء على عدم جواز الحلف بغير الله. وينظر تفصيل المسألة في فتح الباري ١١/ ٥٣١ .

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٧ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٤ ، والوسيط ٣/ ٤٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٩ ، والصحاح (شرق).

(٣) الوسيط ٣/ ٤٩ .

(٤) ١١/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٥) لم نقف عليه في المطبوع منه.

من حديث أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للمتفرِّسين»، وهو قولُ مجاهدٍ[١].

وروى أبو عيسى التِّرمذيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمنِ؛ فإنَّه يَنْظُرُ بنورِ اللهِ» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. قال: هذا حديثٌ غريبٌ[٢]. وقال مقاتلٌ وابنُ زيدٍ: للمتوسمين: للمتفكِّرين[٣]. الضحاك: للناظرين[٤]. قال الشاعر[٥]:

أَوَ كُلَّما وَرَدَتْ عُكاظَ قبيلةٌ ... بعثُوا إليَّ عريفَهم يتوسَّمُ

وقال قتادة: للمعتبرين[٦]. قال زهير[٧]:

وفيهنَّ مَلْهًى للصديقِ ومنظَرٌ ... أنيقٌ لِعَيْنِ الناظرِ المتوسِّمِ

وقال أبو عبيدة[٨]: للمتبصِّرين. والمعنى متقارب.

وروى الترمِذيُّ الحكيمُ[٩] من حديثِ ثابتٍ عن أنس بنِ مالك قال: قال

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٤٢ ، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٤/ ٩٤ - ٩٥ . وهو عند ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠ .

(٢) سنن الترمذي (٣١٢٧).

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١ ، والوسيط ٣/ ٤٩ ، والنكت والعيون ٣/ ١٦٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥ ، وزاد المسير ٤/ ٤١٠ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٩٥ و ٩٧ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٧ .

(٥) القائل هو طريف بن تميم العنبري، وهو في الأصمعيات ص١٢٧ ، والبيان والتبيين ٣/ ١٠١ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٩ ، والطبري في تفسيره ١٤/ ٩٦ ، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠)، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٧ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٩ .

(٧) ديوانه ص١٠ (بشرح ثعلب).

(٨) في مجاز القرآن ١/ ٣٥٤ .

(٩) نوادر الأصول ص٢٧١ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٣٥)، والبزار (٣٦٣٢ كشف الأستار). وفي إسناده: بكر بن الحكم أبو بشر المُزَلِّق، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٣٤٤ : روى خبراً منكراً، وذكر الحديث.

رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لِلهِ عزَّ وجلَّ عباداً يَعرِفونَ الناسَ بالتوسُّم».

قال العلماءُ: التوسُّمُ: تفعُّل؛ من الوَسْم، وهي العَلَامةُ التي يُستدلُّ بها على مطلوبٍ غيرِها. يقال: توسَّمتُ فيه الخيرَ: إذا رأيتَ مِيسَم ذلك فيه[١]، ومنه قولُ عبدِ الله بنِ رَوَاحةَ للنبيِّ ﷺ:

إني توسَّمتُ فيكَ الخيرَ أعرِفهُ ... واللهُ يَعْلَمُ أنّي ثابتُ البَصَرِ[٢]

آخر:

توسَّمْتُهُ لما رأيتُ مهابةً ... عليه وقُلتُ المرءُ مِن آلِ هاشمِ[٣]

واتَّسم الرجلُ: إذا جعَل لنفسِه عَلَامة يُعرف بها. وتوسَّم الرجلُ: طلَب كلأَ الوَسْمِيِّ[٤]. وأنشد:

وأَصْبَحْنَ كالدَّوْمِ النّواعِم غُدْوةً ... على وِجْهةٍ من ظاعنٍ مُتَوَسِّمِ[٥]

وقال ثعلب: الواسمُ: الناظرُ إليك مِن فَرْقك إلى قَدَمِك. وأصل التوسُّم: التثبُّت والتفكُّر؛ مأخوذ من الوَسْم، وهو التأثيرُ بحديدةٍ في جِلْد البعير وغيرِه، وذلك يكون بجودةِ القَريحة، وحِدَّة الخاطر، وصفاءِ الفِكْر. زاد غيرُه: وتفريغِ القلبِ من حَشْو الدنيا، وتطهيرِه من أدناسِ المعاصي، وكدُورةِ الأخلاقِ، وفُضُولِ الدنيا. روى نَهْشَلُ عن ابنِ عباس: «للمتوسمين» قال: لأهلِ الصلاحِ والخير. وزعمت الصوفيَّةُ أنَّها

---

(١) ينظر لسان العرب (وسم).

(٢) ديوانه ص٩٤ ، والبيت فيه:

إنّي تفرَّستُ فيكَ الخيرَ أعرفه ... فراسةً خالَفَتْهم في الذي نظروا

(٣) البيت لأعرابي أضاف عبيدَ اللهَ بنَ العباس، وكان عند الأعرابي شاة لا يملك غيرها فذبحها له، وقدَّمها بين يديه، فكافأه عليها خمسَ مئة دينار، فقال فيه قصيدة هذا مطلعها، وذكر تتمتها المبرد في الفاضل ص٣٢ ، والبغدادي في خزانة الأدب ٨/ ٢٨٢ .

(٤) الصحاح ولسان العرب (وسم)، وأرض موسومة: أصابها الوسميُّ، وهو مطر يكون بعد الخَرَفيِّ في البرد.

(٥) ذكره نشوان الحميري في الحور العين ص٤١ .

كرامةٌ. وقيل: بل هي استدلالٌ بالعلاماتِ، ومن العلاماتِ ما يبدو ظاهراً لكلِّ أحدٍ، وبأوَّل نَظْرة، ومنها ما يَخفى فلا يبدو لكلِّ أحدٍ، ولا يُدرَك ببادئِ النظر. قال الحسن: المتوسِّمون: هم الذين يتوسَّمون الأمورَ فيعلمونَ أنَّ الذي أهلَك قومَ لوطٍ قادرٌ على أن يُهلِك الكفَّارَ؛ فهذا من الدلائلِ الظاهرة.

ومثله قولُ ابنِ عباس: ما سألَني أحدٌ عن شيء إلا عَرَفْتُ أفقيهٌ هو أو غيرُ فقيهٍ.

وروي عن الشافعي ومحمد بنِ الحسنِ أنَّهما كانا بفناء الكعبةِ، ورجلٌ على بابِ المسجد، فقال أحدهما: أراه نجاراً، وقال الآخَرُ: بل حدَّاداً، فتبادَرَ من حضَر إلى الرجلِ فسأله، فقال: كنت نجَّاراً، وأنا اليوم حدَّادٌ[1].

وروي عن جُنْدُبِ بنِ عبدِ الله البَجَليِّ أنه أتى على رجلٍ يَقرأُ القرآنَ فوقف، فقال: من سَمَّع سمَّع اللهُ به، ومن رَاءى راءى اللهُ به. فقلنا له: كأنَّكَ عرَّضْتَ بهذا الرجل، فقال: إنَّ هذا يَقرأ عليكَ القرآنَ اليوم، ويخرج غداً حَرُورِيًّا؛ فكان رأسَ الحرُورِيَّة، واسمه مِرْداس[2].

وروي عن الحسن البصري أنه دخَل عليه عمرو بنُ عبيدٍ فقال: هذا سيِّدُ فتيانِ البَصرةِ إن لم يُحدِث، فكان من أمرِه من القَدَر ما كان، حتى هجرَه عامَّةُ إخوانِه. وقال لأيوبٍ: هذا سيِّدُ فتيانِ أهل البصرةِ؛ ولم يستثنِ، وروي عن الشَّعْبيِّ أنَّه قال لداودَ الأوديِّ[3] وهو يُماريه: إنَّك لا تموتُ حتى تُكْوَى في رأسِك، وكان كذلك[4].

وروي أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ ﷺ دخل عليه قومٌ من[5] مَذْحِجْ فيهم الأشترُ، فصعَّد

---

(١) الرسالة القشيرية ٣/١٧٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١١١٩.

(٢) لم نقف عليه، ومرداس: هو ابن أُدَيَّة ـ وهي أمه ـ ابن حُدير، أبو بلال التميمي. ينظر الكامل لابن الأثير ٢/٥١٧ و٥٨٢ حوادث سنتي (٥٨) و(٦١) هـ.

(٣) في (ز) و(د) و(م): الأزدي، والمثبت من (ظ) ومصدر التخريج.

(٤) نوادر الأصول ص٢٧١.

(٥) بعدها في (ظ): بني.

فيه النظرَ وصوَّبه وقال: أيُّهم هذا؟ قالوا: مالكُ بنُ الحارثِ. فقال: ما له قاتَلَه اللهُ؟! إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً؛ فكان منه في الفتنةِ ما كان(١).

ورُوي عن عثمانَ بنِ عفان ﷺ: أنَّ أنسَ بنَ مالك دخل عليه، وكان قد مَرَّ بالسُّوق، فنظر إلى امرأةٍ، فلما نظرَ إليه، قال عثمانُ: يَدخُل أحدُكم عليَّ وفي عينيه أَثَرُ الزِّنى؟! فقال له أنسٌ: أَوَحْياً بعدَ رسولِ الله ﷺ؟! فقال: لا! ولكن برهانٌ وفِراسةٌ وصِدْقٌ(٢). ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين.

الثانية: قال أبو بكر بن العربي: إذا ثبت أنَّ التوسُّم والتفرُّس من مدارِكِ المعاني؛ فإنَّ ذلك لا يترتَّب عليه حُكم، ولا يُؤخَذ به موسومٌ ولا متفرِّس. وقد كان قاضي القضاةِ الشاميُّ المالكيُّ ببغدادَ أيام كوني بالشام يَحكُم بالفِراسةِ في الأحكام، جَرْياً على طريق إياسِ بنِ معاويةَ أيام كان قاضياً، وكان شيخُنا فخرُ الإسلام أبو بكر الشاشيُّ صنَّف جزءاً في الردِّ عليه، كتبه لي بخطِّه وأعطانِيْه. وذلك صحيحٌ؛ فإن مدارِكَ الأحكامِ معلومةٌ شرعاً، مُدرَكة قطعاً، وليست الفِراسةُ منها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني: قرى قومِ لوط. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: على طريقِ قومِكَ يا محمَّد إلى الشام(٣). ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لَعبرةً للمصدِّقِين(٤). ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ يريد قومَ شعيب، كانوا أصحابَ غِياضٍ ورياضٍ

---

(١) أخرجه أحمد في العلل ١/ ٣١٥، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ١١٩ - ١٢٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٥٦/ ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٣/ ١٨٣.

(٣) الوسيط ٣/ ٥٠ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٥.

وشجرٍ مثمرٍ[١]. والأَيْكةُ: الغَيْضةُ[٢]، وهي جماعةُ الشجر، والجَمْعُ: الأَيْك[٣].
ويُروى أنَّ شجرَهم كان دَوْماً، وهو المُقْل[٤]. قال النابغة:

تَجْلُو بقادِمَتَيْ حمامةِ أَيْكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُه بالإِثْمِدِ[٥]

وقيل: الأيكة: اسمُ القرية. وقيل: اسمُ البَلْدة[٦]. وقال أبو عبيدة: الأَيْكَة ولَيْكة: مدينتُهم، بمنزلة بَكَّة من مكَّة[٧]. وتقدّم خبرُ شعيبٍ وقومِه[٨]. ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريقٍ واضحٍ في نفسِه، يعني مدينةَ قومِ لوطٍ وبقعةَ أصحابِ الأيْكة، يَعْتَبِرُ بهما من يَمرُّ عليهما[٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

الحِجْر ينطلق على معانٍ: منها حِجْرُ الكعبة. ومنها: الحَرَام؛ قال الله تعالى: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣] أي: حراماً محرَّماً. والحِجْرُ: العَقْلُ؛ قال الله تعالى: ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥] والحِجْر: حِجْرُ القميص؛ والفتح أفصحُ. والحِجْرُ: الفرس

---

(١) ينظر الوسيط ٣/ ٥٠ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١ ، وتفسير الطبري ١٤/ ١٠٠ وعزاه إلى الضحاك، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٨ إلى مجاهد.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٢٠٤ ، ولسان العرب (أيك).

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ١٠٠ ، والنكت والعيون ٣/ ١٦٨ ، وزاد المسير ١٩/ ٢٠٤ ، وعزاه الطبري إلى قتادة، وابن الجوزي إلى ابن عباس رضي الله عنهما. والمُقْلُ: ثَمَر شجر الدَّوْم، مُقَوٍّ للمعدة. القاموس (مقل)، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧١ ، وتهذيب اللغة ١٠/ ٤١٥ .

(٥) ديوان النابغة ص٤٠ ، والقادمة؛ جمعها قوادم، وهي أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، شبَّه الشاعر الشفتين لرقتهما بقادمتي حمامة، وشبَّه الأسنان بالبَرَد لشدة بياضه. القاموس المحيط (قدم)، وديوان المعاني للعسكري ١/ ٢٣٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٥ ، والصحاح (أيك).

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٦٨ ، ولسان العرب (أيك).

(٨) ٩/ ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٩) تفسير الطبري ١٤/ ٩٨ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٣ ، والوسيط ٣/ ٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤١٠ .

الأُنثى. والحِجْر: ديارُ ثمودَ، وهو المراد هنا، أي: المدينة؛ قاله الأزهريُّ[١]. قتادة: وهي ما بين مكَّة وتَبُوك، وهو الوادي الذي فيه ثمود[٢]. الطبريُّ: هي أرضٌ بين الحجازِ والشام، وهم قومُ صالح[٣]. وقال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهو صالحٌ وحْدَه، ولكن من كذَّب نبيًّا؛ فقد كذَّب الأنبياءَ كلَّهم؛ لأنَّهم على دينٍ واحدٍ في الأصول، فلا يجوز التفريقُ بينهم. وقيل: كذَّبوا صالحاً ومَن تَبِعَه ومَن تقدَّمه من النبيِّين أيضاً[٤]. والله أعلم.

روى البخاريُّ[٥] عن ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لما نزل الحِجْرَ في غزوةِ تَبُوك أَمَرَهم ألَّا يشربوا من بئرِها، ولا يَسْتَقُوا منها. فقالوا: قد عَجَنَّا واستقَينا. فأَمَرَهم رسولُ الله ﷺ أن يُهَرِيْقُوا الماء، وأن يَطْرحوا ذلك العجينَ.

وفي «الصحيح»[٦] عن ابنِ عمرَ أنَّ الناسَ نزلوا مع رسولِ الله ﷺ على الحِجْرِ أرضِ ثمودَ، فاسْتَقَوْا مِن آبارِها وعَجنوا به العجينَ، فأَمَرَهم رسولُ اللهِ ﷺ أن يُهَرِيقوا ما استقَوْا، ويَعلِفوا الإبلَ العجينَ، وأَمَرَهم أن يَسْتَقُوا مِن البئرِ التي تَرِدها الناقةُ.

ورَوى أيضاً عن ابنِ عمرَ قال: مَرَرْنا مع رسولِ اللهِ ﷺ على الحِجْرِ، فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «لا تَدخلوا مساكنَ الذين ظَلموا أنفسَهم إلا أنْ تكونوا باكِيْنَ؛ حَذَراً أن يُصِيبَكم مثلُ ما أَصابَهُم». ثم زَجَرَ فأَسْرَع[٧].

قلت: ففي هذه الآيةِ التي بيَّن الشارعُ حكمَها وأوضحَ أَمْرَها ثمان مسائلَ، استنبطها العلماءُ واختَلف في بعضِها الفقهاءُ:

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ١٣٠ - ١٣٣ ، وينظر الصحاح (حجر).

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٦٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٢ ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٤١ ونسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥ ، والكشاف ٢/ ٣٩٦ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٥) في صحيحه (٣٣٧٨).

(٦) البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١) واللفظ له.

(٧) البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠): (٣٩) واللفظ له.

فأوَّلها: كراهةُ دخولِ تلك المواضعِ، وعليها حَمل بعضُ العلماء دخولَ مقابرِ الكفَّار؛ فإن دَخل الإنسانُ شيئاً من تلك المواضعِ والمقابرِ فعلى الصفةِ التي أرْشَد إليها النبيُّ ﷺ من الاعتبارِ والخَوْفِ والإسراعِ. وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَدخُلوا أرضَ بابلَ؛ فإنَّها ملعونةٌ»[١].

مسألة: أمَرَ النبيُّ ﷺ بهَرْقِ ما استَقَوْا مِن بئرِ ثمودَ، وإلقاءِ ما عُجِنَ وخُبِزَ به؛ لأجلِ أنَّه ماءُ سُخْطٍ، فلم يجزِ الانتفاعُ به؛ فراراً من سَخَطِ اللهِ. وقال: «اعلفُوه الإبلَ»[٢].

قلت: وهكذا حكمُ الماءِ النَّجِسِ وما يُعجَن به.

وثانيها: قال مالكٌ: إنَّ ما لا يجوز استعمالُه مِن الطعامِ والشرابِ يجوز أن تَعْلِفَه الإبلَ والبهائمَ؛ إذ لا تكليفَ عليها؛ وكذلك قال في العسلِ النَّجِسِ: إنَّه يَعلِفُه النحلَ[٣].

وثالثها: أمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بعَلْفِ ما عُجن بهذا الماءِ الإبلَ، ولم يَأْمُرْ بطَرْحِه كما أمَرَ في لحومِ الحُمُر الإنسيَّة يومَ خَيْبر[٤]؛ فدلَّ على أنَّ لحمَ الحُمُر أشدُّ في التحريمِ وأغلظُ في التنجيسِ. وقد أمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بكَسْبِ الحجَّام أن يُعلَف الناضحَ والرقيقَ، ولم يكن ذلك لتحريمٍ ولا تنجيسٍ. قال الشافعيُّ: ولو كان حراماً لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه؛ لأنه متعبَّد فيه كما تُعبِّد في نفسه[٥].

---

(١) المفهم ٧/ ٣٥٢، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، بل الوارد ما أخرجه أبو داود (٤٩٠) عن علي ﷺ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلِّيَ في المقبرة، ونهاني أن أصلِّيَ في أرض بابل فإنها ملعونة. وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١/ ٥٣٠ . وسيرد ص٢٤٥ من هذا الجزء وعلقه البخاري في الصلاة، باب ٥٣، بلفظ: ويُذكر أن علياً ﷺ كره الصلاة بخسف بابل.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، ولعله ذكره بالمعنى، وسلف الحديث قريباً.

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢١ .

(٤) أخرجه البخاري (٤٢١٥)، ومسلم (٥٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) ينظر اختلاف الحديث للشافعي (بهامش الأم) ٧/ ٣٤٤ - ٣٤٥ .

ورابعها: في أَمْرِه ﷺ بعَلْف الإبلِ العجينَ دليلٌ على جواز حَمْلِ الرجلِ النجاسةَ إلى كلابِه ليأكلوها؛ خلافاً لمن منَع ذلك مِن أصحابنا، وقال: تُطلَق الكلابُ عليها ولا يَحملُها إليهم[١].

وخامسها: أَمْرُه ﷺ أن يَسْتَقُوا من بئرِ الناقةِ دليلٌ على التبرُّك بآثارِ الأنبياءِ والصالحينَ، وإن تقادمتْ أعصارُهم، وخَفِيَتْ آثارُهم؛ كما أنَّ في الأوَّل دليلاً على بُغْضِ أهلِ الفسادِ، وذمِّ ديارِهم وآثارِهم. هذا، وإن كان التحقيقُ أنَّ الجماداتِ غيرُ مؤاخذاتٍ، لكنَّ المقرونَ بالمحبوبِ محبوبٌ، والمقرونَ بالمكروهِ المبغوضِ مبغوضٌ؛ كما قال كُثَيِّر[٢]:

أحبُّ لحبِّها السودانَ حتى ... أحبُّ لحبِّها سودَ الكلابِ

وكما قال آخر:

أَمُرُّ على الدِّيارِ ديارِ لَيْلَى ... أُقبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارا

وما تلك الديارُ شَغَفْنَ قلبي ... ولكنْ حبُّ مَن سَكَنَ الديارا[٣]

وسادسها: منَع بعضُ العلماءِ الصلاةَ بهذا الموضع، وقال: لا تجوز الصلاةُ فيها؛ لأنَّها دارُ سُخْطٍ، وبقعةُ غَضَبٍ[٤]. قال ابنُ العربيِّ: فصارت هذه البقعةُ مستثناةً مِن قوله ﷺ: «جُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[٥] فلا يجوز التيمُّم بترابِها، ولا الوضوءُ من مائِها، ولا الصلاةُ فيها.

وقد روى الترمذيُّ عن ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى أن يُصلَّى في سَبْعة مواطنَ: في المَزْبلة، والمَجْزَرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفي الحمَّام، وفي معاطِنِ الإبل،

---

(١) المفهم ٧/ ٣٥٥.

(٢) المفهم ٧/ ٣٥٥، وسلف ٣/ ٦.

(٣) الشعر لقيس بن الملوّح، وهو في ديوانه ص١٧٠، وفيه: وما حبُّ الديار، بدل: وما تلك الديار.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢١.

(٥) سلف ٢/ ٢٨٣.

وفوقَ بيتِ الله. [قال:] وفي الباب عن أبي مَرْثد، وجابرٍ، وأنسٍ، [و] حديثُ ابنِ عمرَ إسنادُه ليس بذاك القويِّ، وقد تُكُلِّم في زيد بن جَبيرة من قِبَل حفظِه[١].

وقد زاد علماؤنا: الدارَ المغصوبةَ، والكنيسةَ، والبِيعةَ، والبيتَ الذي فيه تماثيلُ، والأرضَ المغصوبةَ، أو موضعاً تَستقبِلُ فيه نائماً، أو وَجْهَ رجلٍ، أو جداراً عليه نجاسةٌ. قال ابنُ العربيِّ[٢]: ومن هذه المواضعِ ما مُنِعَ لحقِّ الغير، ومنه ما مُنِعَ لحقِّ اللهِ تعالى، ومنه ما مُنِعَ لأجْلِ النجاسةِ المحقَّقة أو لغلبتِها؛ فما مُنِعَ لأجلِ النجاسةِ إن فُرِشَ فيه ثوبٌ طاهرٌ كالحمَّام والمقبرة فيها أو إليها، فإنَّ ذلك جائزٌ في «المدوَّنة»[٣]. وذكر أبو مصعبٍ عنه الكراهةَ. وفرَّق علماؤنا بين المقبرةِ القديمةِ والجديدةِ لأجلِ النجاسة، وبين مقبرةِ المسلمينَ والمشركينَ؛ لأنها دارُ عذابٍ، وبقعةُ سَخَطٍ؛ كالحِجر. وقال مالكٌ في «المجموعة»: لا يُصلِّي في أعطانِ الإبلِ وإن فَرش ثوباً. كأنَّه رأى لها علَّتين: الاستتارَ بها، ونفارَها، فتُفسِد على المصلِّي صلاتَه، فإن كانت واحدةً فلا بأسَ؛ كما كان النبيُّ ﷺ يفعل؛ في الحديثِ الصحيح[٤].

وقال مالكٌ: لا يصلِّي على بساطٍ فيه تماثيلُ إلا من ضرورةٍ. وكَره ابنُ القاسمِ الصلاةَ إلى القِبْلةِ فيها تماثيلُ، وفي الدارِ المغصوبة، فإن فعل أجزأه. وذكر بعضُهم عن مالكٍ أنَّ الصلاةَ في الدارِ المغصوبةِ لا تُجزئ.

قال ابنُ العربيِّ[٥]: وذلك عندي بخلافِ الأرض، فإنَّ الدارَ لا تُدخَل إلا بإذنٍ، والأرضَ وإن كانت مِلكاً فإنَّ المسجديَّة فيها قائمةٌ لا يُبطِلها المِلكُ.

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٦) و(٣٤٧)، وما بين حاصرتين منه. وسيرد الكلام عليه.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٢، وما قبله منه.

(٣) ١/ ٧٦ .

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٧)، ومسلم (٥٠٢) عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه كان يُعرِّض راحلته فيُصلِّي إليها، قلت: أفرأيت إذا هبَّت الركاب؟ قال: كان يأخذ هذا الرحل فيعدِّله، فيصلِّي إلى آخرته، أو قال: مؤخَّره. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يفعله.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٢ .

قلت: الصحيحُ ـ إن شاء اللهُ ـ الذي يدل عليه النظرُ والخَبَر أنَّ الصلاةَ بكلِّ موضعٍ طاهرٍ جائزةٌ صحيحةٌ. وما رُويَ من قوله ﷺ: «إنَّ هذا وادٍ به شيطانٌ»[١] وقد رواه معمر عن الزهريِّ فقال: «واخرجوا عن المَوْضِعِ الذي أصابتكم فيه الغفلةُ»[٢]. وقولِ عليٍّ: نهاني رسولُ الله ﷺ أن أصلِّيَ بأرضِ بابل؛ فإنها ملعونةٌ. وقولِه عليه السلام حين مرَّ بالحِجْر من ثمودَ: «لا تَدخُلوا على هؤلاءِ المعذَّبين إلا أنْ تكونوا باكِيْنَ» ونهيِه عن الصلاةِ في معاطنِ الإبلِ[٣]، إلى غير ذلك مما في هذا الباب، فإنَّه مردودٌ إلى الأصول المجتمع عليها، والدلائلِ الصحيح مجيئها.

قال الإمام الحافظ أبو عمر[٤]: المختار عندنا في هذا البابِ أنَّ ذلك الواديَ وغيرَه مِن بِقاع الأرضِ جائزٌ أن يُصلَّى فيها كلِّها ما لم تكن فيها نجاسةٌ متيقَّنةٌ تَمنع من ذلك، ولا معنى لاعتلالِ من اعتلَّ بأن موضعَ النومِ عن الصلاة موضعُ شيطانٍ، وموضعٌ ملعونٌ لا يجب أن تقام فيه الصلاةُ.

وكلُّ ما رُوي في هذا الباب من النهي عن الصلاةِ في المقبرة، وبأرضِ بابل، وأعطانِ الإبل، وغيرِ ذلك مما في هذا المعنى، كلُّ ذلك عندنا منسوخٌ ومدفوعٌ بعموم قولِه ﷺ: «جُعلت ليَ الأرضُ كلُّها مسجداً وطَهوراً»[٥]، وقولِه ﷺ مخبراً أنَّ ذلك من فضائلِه ومما خُصَّ به.

وفضائلُه عند أهلِ العلم لا يجوز عليها النَّسْخُ ولا التبديلُ ولا النقصُ، قال ﷺ: «أوتيتُ خمساً»[٦] وقد روي: ستاً[٧]، وقد روي: ثلاثاً[٨]، و: أربعاً[٩]، وهي تنتهي

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ١/ ١٤ عن زيد بن أسلم مرسلاً وهو عند مسلم ٦٨٠ (٣١٠) بنحوه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، إلا أنه قال: «وتحولوا» بدل: «واخرجوا».

(٣) سلفت هذه الأحاديث قريباً.

(٤) في التمهيد ٥/ ٢١٧ - ٢١٨ .

(٥) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٦) هو الحديث السابق.

(٧) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٨) أخرجه مسلم (٥٢٢) من حديث حذيفة ﷺ.

(٩) أخرجه أحمد (١٣٦١) من حديث علي ﷺ.

إلى أزيدَ من تسع[1]، قال فيهن: «لم يُؤْتَهُنَّ أحدٌ قبلي: بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسودِ، ونُصرت بالرُّعْبِ، وجُعلت أمتي خيرَ الأُمم، وأُحِلَّت ليَ الغنائم، وجُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وَطَهوراً، وأُوتيتُ الشفاعةَ، وبُعثتُ بجوامعِ الكَلِم، وبينا أنا نائمٌ أُتِيْتُ بمفاتيحِ الأرضِ، فوضعتْ في يدي، وأُعطيتُ الكوثر، وخُتم بي النبيون». رواها جماعةٌ من الصحابة[2]. وبَعضُهم يَذكُر بعضَها، ويَذكُر بعضُهم ما لم يَذكُر غيرُه، وهي صحاح كلُّها. وجائزٌ على فضائله الزيادةُ، وغيرُ جائزٍ فيها النقصانُ؛ ألا ترى أنه كان عبداً قبل أنْ يكون نبيًّا، ثم كان نبيًّا قبل أنْ يكون رسولاً؛ وكذلك روي عنه[3]. وقال: «ما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم» ثم نزلت: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[4] [الفتح: ٢]. وسمع رجلاً يقول له: يا خيرَ البريَّة؛ فقال: «ذاك إبراهيم»[5]، وقال: «لا يقولنَّ أحدكم: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى»[6]، وقال: «السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»[7] ثم قال بعد ذلك كلِّه: «أنا

---

(١) في (د) و(ظ): سبع، وينظر اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٨٦٢ وما بعدها، وإكمال المعلم ٢/ ٤٣٨ ، وفتح الباري ١/ ٤٣٩ .

(٢) رُويت هذه الفضائل في أحاديث متفرقة عن عدد من الصحابة في «الصحيحين» كما مرَّ آنفاً، دون قوله: «وأعطيت الكوثر» فقد أخرجه البزار (٣/ ١٤٧ كشف الأستار)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ. وجوّد إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٩ . وينظر التمهيد ٥/ ٢٢٣ ، والاستذكار ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) أخرج عبد الرزاق ٢/ ٢٠٥ عن عطاء قال: وبينا النبي ﷺ يُعلِّم التشهد فقال رجل: وأشهد أن محمداً رسوله وعبده، فقال النبي ﷺ: قد كنت عبداً قبل أن أكون رسولاً، قل: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وينظر الاستذكار ١/ ٣٣٦ .

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣ - ٤٠٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٤١٩٧)، والبخاري (٣٤١٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٧) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٠٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٢٨ و ٨/ ٢٠٢ : فيه: نافع أبو هرمز، وهو ضعيف، أو: متروك.

سيِّدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْرُ»[١]. ففضائلُه ﷺ لم تَزَلْ تزدادُ إلى أنْ قبضَه اللهُ؛ فمن هاهنا قلنا: إنَّه لا يجوزُ عليها النَّسْخُ ولا الاستثناءُ ولا النقصانُ، وجائزٌ فيها الزيادةُ[٢].

وبقوله ﷺ: «جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[٣] أجزنا الصلاةَ في المقبرةِ، والحمَّام، وفي كلِّ موضعٍ من الأرض إذا كان طاهراً من الأنجاسِ[٤]. وقال ﷺ لأبي ذرٍّ: «حيثما أدْرَكَتْكَ الصلاةُ فصَلِّ؛ فإنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ» ذكره البخاريُّ[٥]، ولم يَخُصَّ موضعاً من موضع.

وأما مَن احتجَّ بحديثِ ابنِ وهبٍ قال: أخبرني يحيى بنُ أيوبَ، عن زيدِ بنِ جَبيرة، عن داودَ بنِ حُصَين، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ - حديث الترمذيِّ الذي ذكرناه[٦] - فهو حديث انفردَ به زيدُ بنُ جَبِيرة، وأنكروه عليه، ولا يُعرَف هذا الحديثُ مسنداً إلا برواية يحيى بنِ أيوبَ، عن زيدِ بنِ جَبيرة. وقد كتب الليثُ بنُ سعدٍ إلى عبدِ اللهِ بنِ نافعٍ[٧] مولى ابنِ عمرَ يسأله عن هذا الحديث؟ فكتب إليه عبدُ الله بنُ نافعٍ: لا أعلم من حدَّث بهذا عن نافعٍ إلا قد قال عليه الباطل. ذكره الحُلْوانيُّ عن سعيدِ بنِ أبي مريم، عن الليثِ، وليس فيه تخصيصُ مقبرةِ المشركينَ مِن غيرِها[٨].

وقد رُويَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ قال: نهاني حبيبي ﷺ أن أُصلِّيَ في المقبرة،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري، وهو عند مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة دون قوله: «ولا فخر».

(٢) التمهيد ٥/ ٢١٨ - ٢٢٠ .

(٣) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٤) التمهيد ٥/ ٢٢٠ .

(٥) في صحيحه (٣٤٢٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (٥٢٠).

(٦) وهو أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة،... الحديث، وقد سلف قريباً.

(٧) ليست في النسخ الخطية (في الموضعين)، والمثبت من (م)، والتمهيد ٥/ ٢٢٦ .

(٨) التمهيد ٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ .

ونهاني أن أُصلِّيَ في أرضِ بابل؛ فإنَّها ملعونةٌ[١]. وإسناده ضعيفٌ مجتمع على ضعفه، وأبو صالح الذي رواه عن عليٍّ هو سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن الغِفاريُّ، مصريٌّ[٢] ليس بمشهورٍ، ولا يصحُّ له سماعٌ عن عليٍّ، ومَن دونَه مجهولون لا يُعرفون.

قال أبو عمر[٣]: وفي البابِ عن عليٍّ من قولِه غير مرفوع حديثٌ حسنُ الإسنادِ، رواه الفَضْلُ بنُ دُكَيْن قال: حدثنا المغيرةُ بنُ أبي الحُرِّ الكِنْديُّ، قال: حدَّثني أبو العَنْبَس حُجْرُ بنُ عَنْبَس قال: خرجنا مع عليٍّ إلى الحروريَّة، فلما جاوزنا سُورا[٤] وقع بأرضِ بابلَ، قلنا: يا أميرَ المؤمنين أمسيتَ، الصلاةَ الصلاةَ؛ فأبى أن يُكلِّم أحداً. قالوا: يا أميرَ المؤمنين، قد أمسيت. قال: بلى، ولكن لا أُصلِّي في أرضٍ خَسَفَ اللهُ بها[٥]. والمغيرة بنُ أبي الحُرِّ: كوفيٌّ ثقةٌ؛ قاله يحيى بنُ مَعين وغيرُه. وحُجر بن عنبس مِن كبارِ أصحابِ عليٍّ[٦].

وروى الترمذيُّ[٧] عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الأرضُ كلُّها مسجدٌ إلا المقبرةَ والحمَّامَ». قال الترمذيُّ: رواه سفيانُ الثوريُّ، عن عمرِو بنِ يحيى، عن أبيه، عن النبي ﷺ مُرْسلاً، وكأنَّه أثبتُ وأصحُّ.

---

(١) ذكره المصنف ص٢٣٩ من هذا الجزء بلفظ: «لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة».

(٢) في النسخ: بصري، والتصويب من التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٩١ ، والجرح والتعديل للرازي ٤/ ٣٩-٤٠ ، والتمهيد ٥/ ٢٢٤ .

(٣) في التمهيد ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: سوريا، والمثبت من التمهيد ٥/ ٢٢٤ ، قال الحموي في معجم البلدان ٣/ ٢٧٨ : سُورَا: موضع بالعراق من أرض بابل.

(٥) هكذا أورده ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٢٤ ، وأخرجه عبد الرزاق (١٦٢٣)، وابن أبي شيبة ٢/ ٣٧٧ ، ومن طريقه البغدادي في تاريخ بغداد ٨/ ٢٧٤ بنحوه. قال ابن حجر في «تغليق التعليق» ٢/ ٢٣١ : إسناده حسن. اهـ وسلف مرفوعاً قريباً.

(٦) التمهيد ٥/ ٢٢٤ .

(٧) في السنن (٣١٧).

قال أبو عمر[١]: فسقط الاحتجاجُ به عند من لا يَرَى المرسلَ حجَّةً، ولو ثبت كان الوجهُ ما ذكرنا. ولسنا نقولُ كما قال بعضُ المنتحِلين لمذهبِ المدنيين: إنَّ المقبرةَ في هذا الحديثِ وغيرِه أُرِيدَ بها مقبرةُ المشركينَ خاصَّةً؛ فإنَّه قال: «المقبرةَ والحمامَ» بالألِفِ واللَّام؛ فغيرُ جائزٍ أن يُرَدَّ ذلك إلى مقبرةٍ دون مقبرةٍ، أو حمَّامٍ دون حمَّامٍ بغير توقيفٍ عليه، فهو قولٌ لا دليلَ عليه من كتابٍ ولا سُنَّة ولا خبرٍ صحيحٍ، ولا مدخلَ له في القياس، ولا في المعقول، ولا دَلَّ عليه فحوى الخطاب، ولا خُرِّجَ عليه الخبرُ.

ولا يخلو تخصيصُ مَنْ خصَّ مقبرةَ المشركين مِن أحدِ وجهين: إما أن يكونَ مِن أجْلِ اختلافِ الكفَّار إليها بأقدامهم، فلا معنى لخصوصِ المقبرةِ بالذِّكْر؛ لأنَّ كلَّ موضعٍ هم فيه بأجسامِهم وأقدامِهم فهو كذلك، وقد جَلَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يَتكلَّم بما لا معنى له. أو يكون مِن أجْلِ أنَّها بقعةُ سُخْطٍ، فلو كان كذلك ما كان رسولُ الله ﷺ ليَبْنِيَ مسجِدَه في مقبرةِ المشركين، وينبِشها، ويسوِّيها، ويَبْني عليها[٢].

ولو جاز لقائلٍ أن يَخُصَّ مِن المقابرِ مقبرةً للصلاة فيها، لكانت مقبرةُ المشركين أولى بالخصوصِ والاستثناءِ مِن أجْلِ هذا الحديث. وكلُّ مَن كَره الصلاةَ في المقبرةِ لم يَخُصَّ مقبرةً مِن مقبرةٍ؛ لأنَّ الألِفَ واللَّام إشارةٌ إلى الجنسِ لا إلى معهودٍ، ولو كان بين مقبرةِ المسلمين والمشركين فَرْقٌ لبيَّنه ﷺ ولم يُهْمِلْه؛ لأنَّه بُعِثَ مبيِّناً. ولو ساغَ لجاهلٍ أن يقول: مقبرةُ كذا؛ لجاز لآخَرَ أن يقول: حمَّامُ كذا؛ لأنَّ في الحديثِ المقبرةَ والحمَّامَ. وكذلك قوله: المزبلةَ والمجزرةَ؛ غيرُ جائزٍ أن يُقال: مزبلةُ كذا، ولا مَجْزَرةُ كذا، ولا طريقُ كذا؛ لأنَّ التحكُّم في دين الله غيرُ جائزٍ[٣].

وأجمع العلماءُ على أنَّ التيمُّمَ على مقبرةِ المشركينَ إذا كان الموضع طيِّباً طاهراً

---

(١) التمهيد ٥/ ٢٢٥ - ٢٢٧.

(٢) التمهيد ٥/ ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) التمهيد ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤.

نظيفاً جائزٌ. وكذلك أجمعوا على أنَّ مَن صلَّى في كنيسةٍ أو بِيعةٍ على موضعٍ طاهرٍ، أنَّ صلاتَه ماضيةٌ جائزةٌ[١]. وقد تقدَّم هذا في سورة براءة[٢].

ومعلومٌ أنَّ الكنيسةَ أقربُ إلى أن تكونَ بقعةَ سُخْطٍ مِن المقبرة؛ لأنَّها بُقعةٌ يُعصى اللهُ ويُكفَر به فيها، وليس كذلك المقبرةُ[٣].

وقد وردت السُّنَّةُ باتخاذِ البِيَعِ والكنائسِ مساجدَ. روى النَّسائيُّ[٤] عن طَلْقِ بنِ عليٍّ قال: خرجنا وَفْداً إلى النبيِّ ﷺ فبايَعْناه وصَلَّينا معه، وأخبرناه أنَّ بأرضنا بِيعةً لنا، وذكر الحديثَ. وفيه: «فإذا أتيتم أرضَكم، فاكسروا بِيعتَكُم واتَّخِذوها مسجداً». وذكر أبو داود[٥] عن عثمانَ بنِ أبي العاص أنَّ النبيَّ ﷺ أمَره أن يَجعل مسجدَ الطائفِ حيث كانت طواغيتُهم. وقد تقدَّم في «براءة». وحَسْبُك بمسجدِ النبيِّ ﷺ الذي أُسِّس على التقوى مبيناً في مقبرةِ المشركين؛ وهو حجَّة على كلِّ من كَره الصلاةَ فيها.

وممن كَره الصلاةَ في المقبرة، سواء كانت لمسلمينَ أو مشركينَ؛ الثوريُّ، وأبو حنيفةَ، والأوزاعيُّ، والشافعيُّ وأصحابُهم. وعند الثوريِّ: لا يُعيد. وعند الشافعيِّ: أجزأه إذا صلَّى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسةٌ؛ للأحاديث المعلومة[٦] في ذلك، ولحديث أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «صَلُّوا في بيوتِكم ولا تتخذوها قبوراً»[٧]، ولحديث أبي مَرْثَدٍ الغَنويِّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا تُصَلُّوا إلى القبورِ، ولا تَجلسوا عليها»[٨]. وهذان حديثانِ ثابتانِ مِن جهةِ الإسناد، ولا حجَّة فيهما؛

---

(١) التمهيد ٥/ ٢٢٩ .

(٢) عند الآية (١٠٧).

(٣) التمهيد ٥/ ٢٢٧ .

(٤) في المجتبى ٢/ ٣٨ .

(٥) في السنن (٤٥٠)، وسلف ٨/ ٢٥٥ .

(٦) في (د) و(ز): المعلولة، وكذا جاء في التمهيد ٥/ ٢٢٩ .

(٧) أخرجه مسلم (٧٧٧) (٢٠٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه مسلم (٩٧٢) (٩٨).

لأنَّهما محتملانِ للتأويل، ولا يَجبُ أن يمتنع من الصلاةِ في كلِّ موضعٍ طاهرٍ إلا بدليلٍ لا يحتمل تأويلاً. ولم يُفرِّق أحدٌ مِن فقهاءِ المسلمين بين مقبرةِ المسلمين والمشركين إلَّا ما حكيناه مِن خَطَل[١] القولِ الذي لا يُشتَغل بمثلِه، ولا وجْهَ له في نظر، ولا في صحيحِ أثَرٍ[٢].

وثامنها[٣]: الحائطُ يُلقَى فيه النَّتْنُ والعَذِرَةُ ليُكْرَم[٤]، فلا يُصلَّى فيه حتى يُسقَى ثلاثَ مرَّات؛ لما رواه الدارقطنيُّ عن مجاهدٍ، عن ابن عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ في الحائط يُلقَى فيه العِذَرةُ والنَّتْنُ قال: «إذا سُقي ثلاثَ مرَّات، فَصَلِّ فيه». وخرَّجه أيضاً من حديث نافعٍ عن ابنِ عمرَ أنَّه سُئل عن هذه الحيطانِ التي تُلقَى فيها العَذِراتُ وهذا الزِّبْلُ: أيُصلَّى فيها؟ فقال: إذا سُقِيَتْ ثلاثَ مرَّات، فَصَلِّ فيها. رَفَع ذلك إلى النبيِّ ﷺ. اختلفا في الإسناد[٥]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بآياتِنا. كقوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف:٦٢] أي: بغدائِنا. والمراد: الناقةُ، وكان فيها آياتٌ جَمَّةٌ: خروجُها مِن الصخرة، ودُنُوُّ نِتاجِها عند خروجِها، وعِظَمُها حتى لم تُشْبِهها ناقةٌ، وكثرةُ لبنِها حتى تكفيَهم جميعاً[٦]. ويحتمل أنه كان لصالحٍ آياتٌ أُخَرُ سوى الناقةِ، كالبئرِ وغيرِه[٧]. ﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لم يعتبروا.

---

(١) الخَطَل: المنطق الفاسد المضطرب. الصحاح (خطل).

(٢) التمهيد ٥/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٣) كذا في النسخ، ولم يذكر السابعة.

(٤) كَرَمَ أرضَه كَرْماً: دَمَلَها (أي: أصلحها) بالسِّرقين، فزكت وطابت. معجم متن اللغة (كرم).

(٥) الدارقطني (٨٨٠) و(٨٨١).

(٦) الوسيط ٣/ ٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

النَّحْتُ في كلام العرب: البَرْيُ والنَّجْر. نَحَتَه يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نحتاً، أي: بَرَاه. والنُّحاتة: البُراية. والمِنْحَت: ما يُنْحَتُ به[١]. وفي النزيل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥] أي: تَنْجُرون وتَصْنعون. فكانوا يتخذونَ من الجبال بيوتاً لأنفسِهم بشدَّة قوَّتهم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: مِن أن تَسْقُطَ عليهم أو تَخْرَب. وقيل: آمنين مِن الموتِ. وقيل: مِن العذابِ[٢]. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: في وقت الصبح، وهو نصبٌ على الحال. وقد تقدَّم ذِكْرُ الصيحةِ في هود والأعراف[٣]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأموالِ والحُصُون في الجبال، ولا ما أُعْطُوه مِن القوَّة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للزوالِ والفَناء. وقيل: أي: لأجازيَ المحسنَ والمُسِيءَ[٥]؛ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ أي: لكائنةٌ فيُجزَى كلٌّ بعملِه. ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ مثلُ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠] أي: تجاوز عنهم يا محمَّد، واعفُ عفواً حسناً؛ ثم نُسِخَ بالسيف[٦]. قال قتادةُ: نسخه قولُه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

---

(١) الصحاح (نحت).

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٦٩ .

(٣) ١١/ ١٥٦ و ٩/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٤١٢ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٥ .

(٥) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٦ .

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[١] [النساء: ٩١]. وأنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «لقد جئتكم بالذَّبح، وبُعثتُ بالحصادِ، ولم أبعث بالزراعة»؛ قاله عكرمةُ ومجاهدٌ[٢]. وقيل: ليس بمنسوخٍ، وأنَّه أمر بالصَّفْح في حقِّ نفسِه فيما بينه وبينهم. والصَّفحُ: الإعراض؛ عن الحسنِ وغيرِه[٣]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أي: المقدِّر للخَلْق والأخلاق. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأهل الوِفاقِ والنفاق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

اختلف العلماءُ في السبعِ المثاني؛ فقيل: الفاتحةُ؛ قاله عليُّ بنُ أبي طالب، وأبو هريرة، والربيعُ بنُ أنس، وأبو العالية، والحسنُ وغيرُهم[٤]، ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ مِن وجوهٍ ثابتةٍ، مِن حديث أُبَيِّ بنِ كعبٍ، وأبي سعيدِ بنِ المُعَلَّى. وقد تقدَّم في تفسير الفاتحةِ[٥].

وخرَّج الترمذيُّ مِن حديثِ أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ للهِ أمُّ القرآنِ، وأمُّ الكتابِ، والسَّبْعُ المثاني». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وهذا نصٌّ، وقد تقدَّم في الفاتحة[٦]. وقال الشاعر:

نَشَدْتُكم بِمُنْزِلِ القرآنِ ... أمِّ الكتابِ السبعِ مِن مَثَاني[٧]

وقال ابنُ عباسٍ: هي السَّبْعُ الطُّوَل: البقرةُ، وآلُ عمران، والنِّساءُ، والمائدةُ،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٠٦، وأورده النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٢.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٧٠، وأخرجه أيضاً ابن سعد ١/ ١٠٥ عن مجاهد، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٠٧ عن سفيان بن عيينة، وهو ضعيف لإرساله.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٠.

(٤) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ١٤/ ١١٦، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠، وزاد المسير ٤/ ٤١٣.

(٥) سلف ١/ ١٦٦ - ١٦٧.

(٦) الترمذي (٣١٢٤)، وسلف ١/ ١٧٢.

(٧) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ص ١/ ٣٥٤، والماوردي في النكت والعيون ١/ ٢٦ و ٣/ ١٧٠ ولم ينسباه.

والأنعامُ، والأعرافُ، والأنفالُ والتوبةُ معاً؛ إذ ليس بينهما التسميةُ[١]. روى النَّسائيُّ[٢]: حدَّثنا عليُّ بنُ حُجْر، أخبرنا شَريكٌ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيدِ بنِ جُبير، عن ابنِ عباسٍ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: السَّبْعُ الطُّوَل.

وسمِّيت مثانيَ؛ لأنَّ العِبَرَ والأحكامَ والحدودَ تُنِّيت فيها. وأنكر قومٌ هذا، وقالوا: أُنزلت هذه الآيةُ بمكَّة، ولم يَنزل مِنَ الطُّوَل شيء إذ ذاك. وأُجيب بأنَّ الله تعالى أنزل القرآن إلى السماءِ الدُّنيا، ثم أنزله منها نجوماً، فما أنزله إلى السماء الدُّنيا فكأنَّما آتاه محمداً ﷺ وإنْ لم يَنزل عليه بَعْدُ[٣].

وممَّن قال إنَّها السَّبْعُ الطُّوَل: عبدُ اللهِ بنُ مسعود، وعبدُ اللهِ بنُ عُمر، وسعيدُ بنُ جبير، ومجاهدٌ[٤]. وقال جريرٌ[٥]:

جزى اللهُ الفرزدقَ حين يُمْسِي مُضِيعاً للمفَصَّل والمثاني

وقيل: المثاني: القرآنُ كلُّه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]. هذا قولُ الضحاكِ وطاوس وأبي[٦] مالكٍ، وقاله ابنُ عباس[٧].

وقيل له: مثاني؛ لأنَّ الأنباءَ والقَصَص ثُنِّيت فيه[٨]. وقالت صفيَّة بنتُ عبدِ المطلب ترثي رسولَ اللهِ ﷺ:

فقد كان نوراً ساطعاً يُهتَدى به يُخَصُّ بتنزيل المثاني المعظَّمِ[٩]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.

(٢) المجتبى ٢/ ١٤٠، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٤٥٩)، وسلف ١/ ١٧٥.

(٣) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٤، وزاد المسير ٤/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.

(٤) أخرج قولهم الطبري في التفسير ١٤/ ١٠٧ - ١٠٩.

(٥) ديوانه ص٤٦٦، وفيه: لحى، بدل: جزى.

(٦) في (د) و(ز) و(م): وأبو. والمثبت من (ظ).

(٧) أخرج قولهم الطبري في التفسير ١٤/ ١٢٠ - ١٢١، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠ - ١٧١، وزاد المسير ٤/ ٤١٤.

(٨) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣.

(٩) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧١.

أي: القرآن.

وقيل: المراد بالسَّبْعِ المثاني: أقسامُ القرآن؛ من الأَمْرِ والنهي، والتبشيرِ والإنذار، وضَرْبِ الأمثال، وتعديد نِعَم، وأنباءِ قرونٍ؛ قاله زيادُ بنُ أبي مريمَ[(١)].

والصحيحُ الأوَّلُ؛ لأنه نصٌّ. وقد قدَّمنا في الفاتحة[(٢)] أنَّه ليس في تَسْميتها بالمثاني ما يَمنع من تسميةِ غيرِها بذلك؛ إلا أنَّه إذا وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ؛ وثَبَتَ عنه نصٌّ في شيء لا يَحتمل التأويلَ؛ كان الوقوفُ عنده[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فيه إضمارٌ، تقديرُه: وهو أنَّ الفاتحةَ القرآنُ العظيمُ؛ لاشتمالِها على ما يتعلَّق بأصولِ الإسلام. وقد تقدَّم في الفاتحة[(٤)]. وقيل: الواو مُقْحَمة، التقدير: ولقد آتيناكَ سبعاً مِن المثاني القرآن العظِيم[(٥)]. ومنه قولُ الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ ... وليثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ[(٦)]

وقد تقدَّم عند قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[(٧)] [البقرة: ٢٣٨].

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧١ ، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ١١٩ - ١٢٠ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٤١٤ .

(٢) ١/ ١٧٥ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٢١ .

(٤) ١/ ١٧٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

(٦) لم نقف على قائله، وأورده ابن الأنباري في الإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٤٦٩ ، والزمخشري في الكشاف ١/ ١٣٣ ، والبغدادي في خزانة الأدب ١/ ٤٥١ و ٥/ ١٠٧ و ٦/ ٩١ ولم ينسبوه.

(٧) ١/ ١٨١ ، عند القول التاسع في تعيين الصلاة الوسطى.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى: قد أَغْنَيْتُكَ بالقرآنِ عما في أيدي الناسِ، فإنَّه: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»[1]؛ أي: ليس منَّا مَن رأى أنَّه ليس يَغْنَى بما عندَه مِن القرآن حتى يطمحَ بصرُه إلى زخارفِ الدنيا، وعنده معارفُ المولى[2].

يقال: إنه وافى سَبْعُ قوافلَ من البُصْرَى[3] وأَذْرِعاتٍ[4] ليهودِ قُريظةَ والنَّضِيرِ في يومٍ واحدٍ، فيها البَزُّ[5] والطِّيبُ والجوهرُ وأمتعةُ البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموالُ لنا؛ لتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي: فهي خيرٌ لكم من القوافلِ السَّبْع، فلا تَمُدُّنَّ أعينَكم إليها[6].

وإلى هذا صار ابنُ عُيينةَ، وأورد قولَه عليه الصلاة والسلام: «ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن» أي: مَن لم يَسْتَغْنِ به[7]. وقد تقدَّم هذا المعنى في أوّل الكتاب[8]. ومعنى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمثالاً في النِّعَم، أي: الأغنياءُ بعضُهم أمثالُ بعضٍ في الغِنَى، فهم أزواجٌ[9].

الثانية: هذه الآيةُ تقتضي الزَّجْرَ عن التشوُّف إلى متاعِ الدنيا على الدَّوام، وإقبالَ العبدِ على عبادةِ مولاه. ومثله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ الآية [طه:١٣١]. وليس كذلك؛ فإنه روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال:

---

(١) سلف ١/ ٢١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٤ - ١١٢٥ .

(٣) من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. معجم البلدان ١/ ٤٤١ .

(٤) بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمَّان. معجم البلدان ١/ ١٣٠ ، وتسمى الآن: دَرعا، وتبعد ١١٠ كم جنوبي دمشق.

(٥) في (د) و(ظ) و(م): البر، والمثبت من (ز) ومصدر التخريج.

(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٢ ونسبه للحسين بن الفضل، وهو عند الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٩٨ دون نسبة.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١ ، وتفسير الطبري ١٤/ ١٢٧ .

(٨) ١/ ٢١ - ٢٢ .

(٩) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٧١ .

«حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكُم النساءُ، والطِّيْبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»[١]. وكان عليه الصلاة والسلام يتشاغلُ بالنساءِ جِبِلَّةَ الآدَمِيَّة، وتشوُّفَ الخِلْقَةِ الإنسانيةِ، ويحافظُ على الطِّيْبِ، ولا تقرُّ له عينٌ إلا في الصلاة لدى مناجاةِ المولى، ويَرَى أنَّ مناجاتَه أحرى مِن ذلك وأولى[٢].

ولم يكن في دين محمد الرهبانيَّةُ والإقبالُ على الأعمالِ الصالحةِ بالكليَّة كما كان في دينِ عيسى، وإنما شَرَعَ اللهُ سبحانه حنيفيَّةً سمحةً خالصةً عن الحَرَج، خفيفةً على الآدميِّ، يأخذ من الآدميَّة بشهواتِها، ويَرجع إلى اللهِ بقلبٍ سليم.

ورأى القرَّاء والمخلصون من الفضلاءِ الانكفافَ عن اللَّذات والخلوصَ لربِّ الأرضِ والسماوات اليومَ أولى؛ لِمَا غَلَب على الدنيا مِن الحرام، واضْطُرَّ العبدُ في المعاشِ إلى مخالطةِ مَن لا تجوز مخالطتُه، ومصانعةِ مَن تَحْرُم مصانعتُه، فكانت القراءةُ أفضلَ، والفرارُ عن الدنيا أصوبَ للعبِد وأعدلَ؛ قال ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ يكون خيرُ مالِ المسلمِ غَنَماً يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بدينِه مِن الفتن»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولا تَحزن على المشركينَ إن لم يُؤمِنوا. وقيل: المعنى: لا تَحزن على ما مُتِّعوا به في الدنيا؛ فَلَكَ في الآخرةِ أفضلُ منه. وقيل: لا تَحزن عليهم إن صاروا إلى العذابِ؛ فهم أهلُ العذاب[٤].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أَلِنْ جانِبَكَ لمن آمَنَ بكَ وتواضَعْ لهم. وأصله أنَّ الطائرَ إذا ضَمَّ فَرْخَهُ إلى نفسِه بَسَطَ جناحَه ثم قَبَضَه على الفَرْخِ، فجعل ذلك وصفاً لتقريبِ الإنسانِ أتباعَه. ويقال: فلانٌ خافضُ الجناحِ، أي: وقورٌ ساكنٌ. والجناحان

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٦١ - ٦٢ ، من حديث أنس ﷺ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٥ ، والكلام الآتي منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ١١٢٥ ، والحديث أخرجه البخاري (٣٦٠٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٧١ .

مِن ابنِ آدمَ: جانباه؛ ومنه ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] وجناح الطائرِ: يدُه[1].
وقال الشاعر:

وحَسْبُكَ فتيةً لزعيمِ قومٍ يَمُدُّ على أخي سَقَمٍ جَناحا[2]

أي: تواضعاً وليناً.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾

في الكلام حذف؛ أي: إني أنا النذيرُ المبينُ عذاباً، فحذف المفعول، إذ كان الإنذارُ يدلُّ عليه، كما قال في موضع آخر: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. وقيل: الكاف زائدة، أي: أنذرتُكم ما أنزلنا على المقتسِمِين؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقيل: أنذرتُكم مثلَ ما أنزلنا بالمقتسمِين[3].
وقيل: المعنى كما أنزلنا على المقتسمِين، أي: مِن العذابِ وكفيناكَ المستهزئين، فاصْدَعْ بما تُؤمر، وأعرض عن المشركين الذين بغَوْا، فإنَّا كفيناكَ أولئك الرؤساءَ الذين كُنْتَ تَلقى منهم ما تَلقى.

واختلف في «المُقْتَسِمِينَ» على أقوالٍ سبعة:

الأوّل: قال مقاتلٌ والفراءُ: هم ستَّةَ عَشَرَ رجلاً بعثَهم الوليدُ بنُ المغيرة أيَّامَ الموسمِ، فاقتسموا أعقابَ مكَّة وأنقابَها وفِجاجَها يقولون لمن سَلَكها: لا تغترُّوا بهذا الخارجِ فينا يدَّعي النبوَّةَ؛ فإنَّه مجنونٌ، وربَّما قالوا: ساحرٌ، وربَّما قالوا: شاعرٌ، وربَّما قالوا: كاهنٌ. وسُمُّوا المقتسِمِين؛ لأنَّهم اقتسموا هذه الطرقَ، فأماتهم اللهُ شرَّ مِيتة، وكانوا نصبوا الوليدَ بنَ المغيرة حَكَماً على بابِ المسجد، فإذا سألوه عن

---

(١) الصحاح ولسان العرب (خفض) و(جنح).

(٢) كذا في النكت والعيون ٣/ ١٧١، وجاء في ديوان إبراهيم بن هرمة ص٨٨ قوله:

وحسبُكَ تهمةً ببريءِ قومٍ يضمُّ على أخي سَقَمٍ جناحا

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ٥٢، وتفسير الرازي ١٩/ ٢١٢.

النبيِّ ﷺ قال: صَدَقَ أولئك[(١)].

الثاني: قال قتادةُ: هم قومٌ من كفَّار قريشٍ؛ اقتسموا كتابَ اللهِ، فجعلوا بعضَه شعراً، وبعضَه سحراً، وبعضَه كهانةً، وبعضَه أساطيرَ الأوَّلين[(٢)].

الثالث: قال ابنُ عباسٍ: هم أهلُ الكتابِ؛ آمنوا ببعضِه وكفَروا ببعضه[(٣)].

وكذلك قال عكرمةُ: هم أهلُ الكتاب، وسُمُّوا مقتسِمين؛ لأنَّهم كانوا مستهزئينَ، فيقول بعضهم: هذه السورةُ لي، وهذه السورةُ لَكَ. وهو القول الرابع.

الخامس: قال قتادةُ: قسموا كتابَهم ففرَّقوه وبدَّدوه وحرَّفوه[(٤)].

السادس: قال زيدُ بنُ أسلَمَ: المرادُ: قومُ صالحٍ، تقاسموا على قتلِه فسُمُّوا مقتسِمين؛ كما قال تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾[(٥)] [النمل: ٤٩].

السابع: قال الأخفشُ: هم قومٌ اقتسموا أيماناً تحالفوا عليها. وقيل: إنَّهم العاصُ بنُ وائلٍ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ، وأبو جهلِ بنُ هشام، وأبو البَخْتَرِيِّ بنُ هشامٍ، والنَّضرُ بنُ الحارثِ، وأميَّةُ بنُ خَلَف، ومنبِّه بنُ الحجَّاج؛ ذكره الماورديُّ[(٦)].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

هذه صفةُ المقتسِمين. وقيل: هو مبتدأ، وخبرُه: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾[(٧)].

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١ - ٩٢ ، والنكت والعيون ٣/ ١٧٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٨ ، وتفسيرالرازي ١٩/ ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٧٢ ، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٥ ، وذكره الرازي في تفسيره ١٩/ ٢١٢ ونسبه لمقاتل بن حيان.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٢ . وسيأتي تخريج قوله تقريباً.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٧٢ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٧٢ ونسبه إلى ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٢ - ١٣٣ ، وكذا ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١٤/ ٤١٨ .

(٦) في النكت والعيون ٣/ ١٧٣ .

(٧) تفسير الرازي ١٩/ ٢١٣ .

وواحد العِضِين: عِضَة، من عضَّيتُ الشيءَ تعضِيةً، أي: فرَّقتُه؛ وكلُّ فرقةٍ عِضَة[١]. وقال بعضُهم: كانت في الأصل عِضْوَة، فنقصت الواو، ولذلك جُمعت عِضِين؛ كما قالوا: عِزِين في جمع عِزَة، والأصل: عِزْوة. وكذلك ثُبَة وثِبِين[٢]. ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين. قال ابن عباس: آمنوا ببعض وكفروا ببعض[٣]. وقيل: فرَّقوا أقاويلَهم فيه، فجعلوه كذباً، وسحراً، وكَهانة، وشِعراً. عَضَوْتُه، أي: فَرَّقْتُه[٤]. قال الشاعر ـ هو رؤبة ـ:

وليس دينُ اللهِ بالمُعَضَّى[٥]

أي: بالمفرَّق.

ويقال: نقصانه الهاءُ، وأصله: عِضَهَة؛ لأنَّ العِضَةَ والعِضِينَ في لغة قريشٍ: السِّحرُ. وهم يقولون للساحر: عاضِه، وللساحرة: عاضِهة[٦]. قال الشاعر:

أعوذُ بربِّي مِن النافِثا ... تِ في عُقَدِ العاضِه المُعْضِهِ[٧]

وفي الحديث: «لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ العاضِهة والمُسْتَعْضِهة»[٨]، وفُسِّر: الساحِرة والمستسحِرة[٩]. والمعنى: أكثَروا البُهْتَ على القرآن، ونوَّعوا الكذبَ فيه، فقالوا:

---

(١) الوسيط ٣/ ٥٢ ، والنكت والعيون ٣/ ١٧٣ .

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤ ، وتهذيب اللغة ١/ ١٣٠ - ١٣١ ، ولسان العرب (عضه).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠٥)، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٥ ، والحاكم ٢/ ٣٥٥ .

(٤) الصحاح (عضه).

(٥) ديوانه ص٨١ ، وبعده: إنَّ لنا هوَّاسةً عِرَبْضا

(٦) الصحاح (عضه).

(٧) هو في غريب الحديث للهروي ٣/ ١٨١ ، وتهذيب اللغة ١/ ١٣٠ ، والصحاح واللسان (عضه) دون نسبة.

(٨) أخرجه ابن عدي في التراجم الساقطة من الكامل ص١٠٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص٩٤ : في إسناده: زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان.

(٩) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٥٥ .

سحرٌ، وأساطيرُ الأوَّلين، وأنَّه مفترًى، إلى غيرِ ذلك.

ونظيرُ عِضَة في النقصان: شَفَة، والأصل: شفَهَة، كما قالوا: سَنَة، والأصل: سَنْهة، فنقصوا الهاءَ الأصليَّةَ، وأُثبتت هاءُ العلامَة وهي للتأنيثِ.

وقيل: هو من العَضْه، وهي: النميمةُ. والعَضِيهةُ: البُهتانُ: وهو أن يعضه الإنسانَ ويقول فيه ما ليس فيه. يقال: عَضَهه عَضْهاً: رماه بالبهتان. وقد أعْضَهْتَ: أي: جِئْتَ بالبُهتان. قال الكسائيُّ: العِضَةُ: الكذبُ والبُهتانُ، وجمعها عِضُون؛ مثل عِزَة وعِزُون؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1]. ويقال: عَضَوه، أي: آمنوا بما أَحبُّوا منه وكفروا بالباقي، فأحبط كفرُهم إيمانَهم. وكان الفرَّاءُ يذهب إلى أنَّه مأخوذٌ مِن العِضاه، وهي شجرُ الوادي، ويَخرج كالشَّوك[2].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لَنسئلنَّ هؤلاء الذين جَرَى ذِكْرُهم عمَّا عَملوا في الدنيا. وفي البخاريِّ[3]: وقال عِدَّةٌ مِن أهل العلم في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: عن لا إله إلا الله.

قلت: وهذا قد رُويَ مرفوعاً، روى الترمذيُّ الحكيمُ[4] قال: حدثنا الجَارود بنُ معاذ، قال: حدَّثنا الفَضْلُ بنُ موسى، عن شَريك، عن ليث، عن بشير بن نَهِيك، عن أنس بنِ مالكٍ، عن رسولِ الله ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال: «عن قول: لا إله إلا الله»[5]. قال أبو عبد الله: معناه عندنا: عن

---

(١) الصحاح (عضه).

(٢) ذكر الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ٩٢ أن العضين في كلام العرب: السحر بعينه. وكذا نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٣، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧٤، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤.

(٣) في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب ١٨، قبل حديث (٢٦).

(٤) في نوادر الأصول ص٢٤٦ - ٢٤٧، وهو أبو عبد الله الآتي ذكره.

(٥) أخرجه الترمذي (٣١٢٦)، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٩ - ١٤٠، وهو عند البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٨٦ و ٨/ ١٣٣. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

صِدْقِ: لا إله إلا الله، ووفائِها؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر في تنزيلِه العملَ فقال: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: عمَّا كانوا يقولون، وإن كان قد يجوز أن يكون القولُ أيضاً عملَ اللسانِ، فإنَّما المعنيُّ به ما يعرفه أهلُ اللغة أنَّ القولَ قولٌ، والعملَ عملٌ. وإنما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «عن: لا إله إلا الله» أي: عن الوفاءِ بها والصِّدْق لمقالِها. كما قال الحسنُ البصريُّ: ليس الإيمانُ بالتحلِّي ولا الدِّينُ بالتمنِّي، ولكن ما وقَر في القلوبِ وصدَّقَتْه الأعمالُ.

ولهذا[١] قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن قال: لا إله إلا الله مخلصاً؛ دخلَ الجنةَ» قيل: يا رسولَ اللهِ، وما إخلاصُها؟ قال: «أنْ تَحجُزه عن محارمِ الله». رواه زيدُ بنُ أرقم[٢].

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عَهِدَ إليَّ ألَّا يأتيَني أحدٌ مِن أمَّتي بلا إلهَ إلا اللهُ، لا يَخْلِطُ بها شيئاً؛ إلا وَجَبت له الجنَّةُ» قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما الذي يخلط بلا إلهَ إلا اللهُ؟ قال: «حرصاً على الدنيا، وجَمْعاً لها، ومَنْعاً لها، يقولون قولَ الأنبياء، ويعملونَ أعمالَ الجبابرة»[٣].

وروى أنسُ بنُ مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله تمنَع العبادَ مِن سَخَطِ اللهِ، ما لم يؤثروا صفقةَ دنياهم على دينِهم، فإذا آثروا صفقةَ دنياهم على دينهم، ثم قالوا: لا إله إلا الله، رُدَّتْ عليهم، وقال اللهُ: كذبتُم». أسانيدها في «نوادر الأصول»[٤].

قلت: والآيةُ بعمومِها تدلُّ على سؤالِ الجميعِ ومحاسبتِهم كافرِهم ومؤمنِهم، إلا

---

(١) بعدها في (ز) و(د) و(م): ما، والمثبت من (ظ).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٠٧٤) وفي الأوسط (١٢٥٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٨ وقال: في إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، وهو وضَّاع.

(٣) هو في نوادر الأصول ص٢٤٦ ، ولم نقف عليه عند غيره.

(٤) ص٢٤٦ - ٢٤٧ ، والحديث أخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الزهد ص١٤٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٩٧). قال الرازي في العلل ٢/ ١٢١ - ١٢٢ : هذا خطأ إنما هو سهيل عن مالك بن أنس عن النبي ﷺ مرسل.

مَن دخل الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ على ما بيَّنَّاه في كتاب «التذكرة»[1].

فإن قيل: وهل يُسْأَلُ الكافرُ ويُحاسَب؟ قلنا: فيه خلافٌ، وذكرناه في «التذكرة»[1]. والذي يظهر سؤالُه؛ للآية وقولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وقولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]. فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؟ قلنا: القيامةُ مواطنُ، فموطنٌ يكون فيه سؤالٌ وكلامٌ، وموطنٌ لا يكونُ ذلك فيه. قال عكرمةُ: القيامةُ مواطنُ، يُسْأَلُ في بعضِها، ولا يُسْأَلُ في بعضِها. وقال ابنُ عباسٍ: لا يَسْأَلُهم سؤالَ استخبارٍ واستعلام؛ هل عملتم كذا وكذا؛ لأنَّ اللهَ عالمٌ بكلِّ شيءٍ، ولكن يَسْأَلُهم سؤالَ تقريعٍ وتوبيخٍ، فيقول لهم: لِمَ عصيتُم القرآنَ، وما حجَّتُكم فيه؟ واعتمد قُطْرُب هذا القولَ[2]. وقيل: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: المؤمنينَ المكلَّفين؛ بيانُه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. والقول بالعمومِ أولى كما ذُكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: بالذي تُؤمَر به، أي: بلِّغ رسالةَ اللهِ جميعَ الخَلْق؛ لتقومَ الحُجَّةُ عليهم، فقد أمَرَك اللهُ بذلك.

والصَّدْعُ: الشَّقُّ. وتصدَّع القومُ، أي: تفرَّقوا، ومنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يتفرَّقون. وصَدَعْتُه فانْصَدَع: أي: انْشَقَّ. وأصلُ الصَّدْع: الفَرْق والشَّقُّ[3]. قال أبو ذُؤَيب[4] يصف الحمارَ وأُتُنَه:

---

(١) ص١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤١/٤ - ١٤٢ ، والبغوي ٥٨/٣ - ٥٩ ، وزاد المسير ٤١٩/٤ - ٤٢٠ .

(٣) ينظر الصحاح، وتهذيب اللغة ٢/٤ - ٦ ، ولسان العرب (صدع).

(٤) هو: خويلد بن خالد، الهذلي، جاهلي إسلامي. والبيت في ديوان الهذليين ص٦ ، قال شارحه: الرِّبابة: خرقة تُغطَّى بها القداح، ويقال: الرِّبابة هنا هي القداح، واليَسَر: الذي يضرب بها. ويَصْدَع: يُفَرِّق ويصيح.

وكــأنَّــهــنَّ رِبَــابــةٌ وكــأنَّــه يَسَرٌ يُفيضُ على القِدَاحِ ويَصْدَعُ

أي: يفرِّق ويشقُّ. فقوله: ﴿اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال الفرَّاءُ[1]: أراد: فاصدع بالأمْرِ، أي: أَظْهِر دينَك، فـ «ما» مع الفعلِ على هذا بمنزلةِ المصدر. وقال ابنُ الأعرابي[2]: معنى ﴿اصدع بما تؤمر﴾، أي: اقْصِد. وقيل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: فرِّق جَمْعَهم وكلمتَهم، بأن تدعوَهم إلى التوحيدِ، فإنَّهم يتفرَّقون؛ بأن يجيبَ البعضُ. فيَرجعَ الصَّدْعُ على هذا إلى صَدْعِ جماعةِ الكفَّار.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عن الاهتمامِ باستهزائِهم، وعن المبالاةِ بقولِهم، فقد برَّأك اللهُ عمَّا يقولون. وقال ابنُ عباسٍ: هو منسوخٌ بقولِه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[3] [التوبة:٥]. وقال عبدُ اللهِ بنُ عبيد: ما زال النبيُّ ﷺ مستخفياً حتى نزل قولُه تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابُه[4]. وقال مجاهدٌ: أراد الجَهْرَ بالقرآن في الصلاة[5].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: لا تُبالِ بهم. وقال ابنُ إسحاق[6]: لما تمادَوْا في الشَّرِّ وأكثروا برسولِ الله ﷺ الاستهزاءَ أنزل اللهُ تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. والمعنى: اِصْدَعْ بما تُؤمَر ولا تَخَفْ غيرَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ كافيك مَن آذاك كما كفاكَ المستهزئين.

وكانوا خمسةً من رؤساءِ أهلِ مكَّة، وهم الوليدُ بنُ المغيرة وهو رأسهم، والعاصُ ابنُ وائل، والأسودُ بنُ المطلب بنِ أسدٍ أبو زَمْعَةَ، والأسودُ بنُ عبدِ يَغُوثَ،

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٩٣ .

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٦ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٥ ، والأثر أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٥ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٣ .

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٤٤ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٣ .

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠٩ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٥ - ١٤٦ .

والحارثُ بنُ الطُّلاطِلَة. أهلكهم اللهُ جميعاً قبلَ يومِ بدرٍ في يومٍ واحدٍ؛ لاستهزائِهم برسولِ اللهِ ﷺ[١].

وسببُ هلاكِهم فيما ذكَر ابنُ إسحاقَ[٢]: أنَّ جبريلَ أتى رسولَ الله ﷺ وهم يَطوفون بالبيت، فقامَ وقامَ رسولُ الله ﷺ، فمرَّ به الأسودُ بنُ المطلِّبِ، فرمَى في وجهِه بورقةٍ خضراءَ فعَمِيَ، ووَجِعت عينُه، فجعل يَضرِبُ برأسِه الجدارَ. ومرَّ به الأسودُ بنُ عبدِ يَغُوثَ، فأشار إلى بطنِه، فاستسقى بطنُه، فمات منه حَبَناً؛ يقال: حَبِنَ ـ بالكسر ـ حَبَناً، وحُبِن للمفعول: عَظُمَ بطنُه بالماءِ الأصفرِ، فهو أحبن، والمرأةُ حَبْناء؛ قاله في «الصحاح»[٣]. ومرَّ به الوليدُ بنُ المغيرة، فأشار إلى أَثَرِ جُرْحٍ بأسفلِ كعبِ رِجْله، وكان أصابَه قبل ذلك بسنين وهو يَجُرُّ سَبَلَه[٤]، وذلك أنه مرَّ برجلٍ من خزاعة يَرِيش نَبْلاً له، فتعلَّق سهمٌ من نَبْله بإزارِه فخَدش في رجله ذلك الخدشَ، وليس بشيء، فانتقضَ به، فقتلَه. ومرَّ به العاصُ بنُ وائلٍ، فأشار إلى أَخْمَصِ رِجْله، فخرجَ على حمارٍ له يريد الطائفَ، فرَبَض به على شِبْرِقة[٥]، فدخلت في أَخْمَصِ رِجْله شوكةٌ، فقتلَتْه. ومرَّ به الحارثُ بنُ الطُّلاطِلة، فأشار إلى رأسِه فامتخط[٦] قيحاً، فقتَلَه. وقد ذُكر في سببِ موتهم اختلافٌ قريبٌ مِن هذا[٧].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧٥، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٦، وورد في (م): قيل: يوم بدر.

(٢) في السير والمغازي ص٢٧٣ - ٢٧٤، وينظر سيرة ابن هشام ١/ ٤١٠، وتفسير الطبري ١٤/ ١٤٦-١٤٧، وتفسير البغوي ٣/ ٥٩.

(٣) الصحاح (حبن).

(٤) السَّبَل: الإزار. تفسير الطبري ١٤/ ١٤٧.

(٥) الشِّبْرق: نبت حجازي يؤكل وله شوك. النهاية في غريب الحديث (شبرق).

(٦) في (ظ): فامتخض.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٧ - ١٥٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥ - ٣٧٦، وزاد المسير ٤/ ٤٢٢-٤٢٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٧، ونسبه للطبراني في الأوسط وقال: فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، ولم أعرفه.

وقيل: إنَّهم المراد بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦]. شبَّه ما أصابَهم في موتِهم بالسقفِ الواقعِ عليهم؛ على ما يأتي[١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾

هذه صفةُ المستهزئين. وقيل: هو ابتداءٌ، وخبرُه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي: قلبُك؛ لأنَّ الصدرَ محلُّ القلب[٣]. ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بما تسمعه مِن تكذيبِك وردِّ قولِك، وتنالُه وينالُه أصحابُك مِن أعدائك.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فافزع إلى الصلاةِ، فهي غايةُ التسبيحِ، ونهايةُ التقديسِ[٤]؛ وذلك تفسيرٌ لقوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، ولا خفاءَ أنَّ غايةَ القُرب في الصلاة حالُ السجود، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أقربُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ، فأخلِصوا الدعاءَ»[٥]. ولذلك خصَّ السجود بالذِّكْر.

الثانية: قال ابنُ العربي[٦]: ظنَّ بعضُ الناسِ أنَّ المرادَ بالأمْرِ هنا السجودُ نفسُه، فرأى هذا الموضعَ محلَّ سجودٍ في القرآن، وقد شاهدتُ الإمامَ بمحرابِ زكريا مِن

---

(١) في سورة النحل، عند الآية ٢٦ .

(٢) الإملاء (بهامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٤٣٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٦ .

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه: فأكثروا الدعاء، بدل: فأخلصوا الدعاء.

(٦) أحكام القرآن ٣/ ١١٢٦ .

البيتِ المقدسِ طهَّره اللهُ، يسجد في هذا الموضعِ وسجدتُ معه فيها، ولم يَرَهُ جماهيرُ العلماء.

قلت: قد ذكر أبو بكرٍ النقَّاشِ أنَّ هاهنا سجدةً عند أبي حذيفةَ ويَمان بنِ رِئاب، ورأى أنَّها واجبةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

فيه مسألةٌ واحدةٌ، وهو أنَّ اليقينَ الموتُ. أمرَه بعبادتِه إذ قصَّر عبادُه في خدمتِه، وأنَّ ذلكَ يجبُ عليه[١].

فإن قيل: فما فائدةُ قولِه: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وكان قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ كافياً في الأمْرِ بالعبادة؟ قيل له: الفائدةُ في هذا أنَّه لو قال: «واعبد ربك» مطلقاً، ثم عبَده مرَّةً واحدةً، كان مطيعاً؛ وإذا قال: «حتى يأتيك اليقين» كان معناه: لا تُفارِق هذا حتى تموتَ.

فإن قيل: كيف قال سبحانه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ولم يقل: أبداً؟ فالجوابُ أنَّ «اليقينَ» أبلغُ مِن قولِه: أبداً؛ لاحتمالِ لفظِ الأبدِ للحظةِ الواحدة، ولجميعِ الأبدِ. وقد تقدَّم هذا المعنى[٢].

والمراد: استمرارُ العبادةِ مدَّة حياتِه، كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. ويترتَّب على هذا أنَّ الرجلَ إذا قال لامرأته: أنتِ طالقٌ أبداً، وقال: نويتُ يوماً أو شهراً، كانت عليه الرجعةُ. ولو قال: طلَّقتُها حياتَها، لم يُراجِعْها[٣].

والدليل على أنَّ اليقينَ الموتُ حديثُ أمِّ العلاءِ الأنصارية، وكانت مِن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٧ .

(٢) ٢/ ٢٥٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٧ .

المبايِعات، وفيه: فقال رسولُ الله ﷺ: «أما عثمانُ ـ أعني عثمانَ بنَ مَظْعُونٍ ـ فقد جاءه اليقينُ، وإني لأرجو له الخيرَ، واللهِ ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يُفعَل به» وذكَر الحديثَ. انفرد بإخراجِه البخاريُّ[1] رحمه الله!.

وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيز يقول: ما رأيتُ يقيناً أشبَه بالشَّكِّ مِن يقينِ الناسِ بالموت، ثم لا يَسْتَعِدُّونَ له؛ يعني كأنَّهم فيه شاكُّون[2].

وقد قيل: إنَّ اليقينَ هنا الحقُّ الذي لا ريبَ فيه مِن نصرك على أعدائك؛ قاله ابن شجرة؛ والأوَّلُ أصحُّ، وهو قول مجاهدٍ وقتادةَ والحسنِ[3]. والله أعلم.

وقد روى جُبير بنُ نُفير، عن أبي مسلمٍ الخَوْلانيِّ أنَّه سمعَه يقولُ: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما أوحيَ إليَّ أن أجمع المالَ وأكونَ من التاجرين، ولكن أُوحيَ إليَّ أن سبِّح بحمدِ ربِّك وكُنْ من الساجدينَ، واعبُد ربَّك حتى يأتيَك اليقينُ»[4].

تمَّ تفسير سورة الحجر، والحمد لله.

---

(١) في «صحيحه» (٢٦٨٧)، وهو عند أحمد (٢٧٤٥٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٤٣) بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٦ ، وأخرجه عنهم الطبري في تفسيره ١٤/ ١٥٥ - ١٥٦ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٣١ ، وهو ضعيف لإرساله، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٤ عن جبير بن نفير مرسلاً أيضاً، وينظر الكامل لابن عدي ٣/ ٩٣٩ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النحل

وهي مكِّيَّة كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر[1].

وتسمَّى: سورة النِّعم؛ بسبب ما عدَّد اللهُ فيها من نِعَمه على عباده. وقيل: هي مكية غيرَ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية [١٢٦]؛ نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد، وغيرَ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الآية:١٢٧]، وغيرَ قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ الآية [١١٠]. وأما قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [٤١] فمكِّيٌّ، في شأن هجرة الحبشة[2].

وقال ابن عباس: هي مكِّيَّة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهي قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [٩٥-٩٧][3].

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قيل: «أَتى» بمعنى يأتي، فهو كقولك: إنْ أكرمتني أكرمتك. وقد تقدَّم أنَّ أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٤٤][4].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٧ .

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤٢٧ .

و«أمرُ اللهِ»: عقابُه لمن أقام على الشركِ وتكذيبِ رسولهِ؛ قاله الحسنُ وابنُ جُريج[١].

الضحَّاك: إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه[٢]. وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أنَّ أحداً من الصحابة استعجلَ فرائضَ الله من قبلِ أن تُفرض عليهم، وأما مستعجلو العذابِ والعقابِ فذلك منقول عن كثير من الكفارِ؛ قريشٍ وغيرِهم[٣]، حتى قال النَّضر بن الحارث: «اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ مِن عِندِك» الآية [الأنفال:٣٢] فاستعجلَ العذاب[٤].

قلت: قد يستدلُّ الضحاك بقول عمر ﷺ: وافقتُ ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارَى بدر؛ خرَّجه مسلمٌ والبخاريّ[٥]. وقد تقدَّم في سورة البقرة[٦]. وقال الزجاج[٧]: هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم، وهو كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠].

وقيل: هو يوم القيامة أو ما يدلُّ على قربها من أشراطها.

قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١] قال الكفّار: إنَّ هذا يزعم أنَّ القيامةَ قد قَرُبت، فأمسِكوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسَكوا وانتظروا فلم يَرَوا شيئاً، فقالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ الآية [الأنبياء:١]. فأشفَقوا وانتظَروا قرب الساعة، فامتدَّتِ الأيامُ فقالوا: ما نرى

---

(١) مجمع البيان ١٤/ ٥٠ . وأخرجه الطبري ١٣/ ١٥٨ - ١٥٩ عن ابن جريج.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٨ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٧٦ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ٣/ ١٦٠ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٦١ .

(٥) صحيح مسلم (٢٣٩٩) واللفظ له، وصحيح البخاري (٤٠٢) من حديث أنس ﷺ. وهو في مسند أحمد (١٥٧).

(٦) ٢/ ٣٧٤ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٨٩ .

شيئاً! فنزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فوثبَ رسولُ الله ﷺ والمسلمون وخافوا؛ فنزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا، فقال النبيُّ ﷺ: «بُعثت أنا والساعةُ كهاتَين» وأشار بأصبعَيه؛ السبابة والتي تليها. يقول: إنْ كادت لتسبقني، فسبقتُها[١].

وقال ابن عباس: كان بَعْثُ النبيِّ ﷺ مِنْ أشراط الساعة، وإنَّ جبريلَ لَمَّا مَرَّ بأهل السماوات مبعوثاً إلى محمد ﷺ قالوا: الله أكبر، قد قامتِ الساعةُ[٢].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزيهاً له عمَّا يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة، وذلك أنهم يقولون: لا يقدر أحدٌ على بَعْثِ الأموات. فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوقُ، وذلك شركٌ. وقيل: «عَمَّا يُشْرِكُونَ» أي: عن إشراكهم. وقيل: «ما» بمعنى الذي، أي: ارتفع عن الذين أشركوا به.

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

قرأ المفضَّل عن عاصم: «تَنَزَّل الملائكةُ[٣]»، والأصل تتنزَّل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعمش: «تُنَزَّلُ الملائكةُ» غير مسمَّى الفاعل[٤]. وقرأ الجُعْفيُّ عن أبي بكر عن عاصم: «نُنَزِّلُ الملائكةَ» بالنون مسمَّى الفاعل[٥]، الباقون: «يُنَزِّل» بالياء مسمى الفاعل[٦]،

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٦١، وأسباب النزول للواحدي ص٢٨٣، وزاد المسير ٤/ ٤٢٦. وأخرج نحوه الطبري ١٤/ ١٥٩ عن ابن جريج. وقوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» أخرجه أحمد (١٢٢٤٥)، والبخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أيضاً البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٦١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨، وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وقرأ بها من العشرة يعقوب في رواية روح. النشر ٢/ ٣٠٢.

(٤) هذه الرواية عن عاصم ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٣٧٠، والفارسي في الحجة ٥/ ٥٣. وهي غير المشهورة عنه. وقراءة الأعمش في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨.

(٥) نسبها في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨ لابن أبي عبلة.

(٦) لكن قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يُنْزِل» بسكون النون وتخفيف الزاي. السبعة ص٣٧٠، والتيسير ص٧٥.

والضمير فيه لاسم الله عزَّ وجلَّ. ورُوي عن قتادة: «تُنْزِل الملائكةَ» بالنون والتخفيف[١]. وقرأ الأعمش: «تَنْزِل» بفتح التاء وكسر الزاي[٢]، من النزول، «الملائكةُ» رفعاً مثل: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر: ٤].

﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي، وهو النبوَّة؛ قاله ابنُ عباس؛ نظيره: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. الربيع بن أنس: بكلام الله، وهو القرآن. وقيل: هو بيانُ الحقِّ الذي يجب اتباعه. وقيل: أرواح الخلق؛ قاله مجاهد، لا ينزل ملكٌ إلا ومعه روح[٣]. وكذا رُوي عن ابن عباس أن الروح خلقٌ من خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ كصُوَرِ ابنِ آدم، لا ينزل من السماء مَلَكٌ إلا ومعه واحدٌ منهم[٤]. وقيل: بالرحمة؛ قاله الحسن وقتادة. وقيل: بالهداية؛ لأنها تحيا بها القلوبُ كما تحيا بالروح[٥] الأبدان، وهو معنى قول الزجاج؛ قال الزجاج[٦]: الروح ما كان فيه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره. وقال أبو عبيدة[٧]: الروح هنا جبريل. والباء في قوله: «بالروح» بمعنى مع، كقولك: خرج بثيابه، أي: مع ثيابه.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بأمره. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أي: على الذين اختارهم الله للنبوَّة. وهذا ردٌّ لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ تحذيرٌ من عبادة الأوثان، ولذلك جاء

---

(١) ذكر هذه القراءة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨ ، وهي من القراءات السبعة، كما سلف في التعليق قبله.

(٢) لم نقف عليها.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٨ . وأخرج الطبري ١٤/ ١٦٢ و ١٦٣ هذه الأقوال.

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٣ .

(٥) في (م): بالأرواح. والمثبت من النسخ موافق للنكت والعيون ٣/ ١٧٨ ، وعنه نقل المصنف.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٩٠ .

(٧) في (ز) و(ظ): أبو عبيد.

الإنذار؛ لأنَّ أصله التحذير مما يخاف منه. ودلَّ على ذلك قوله: «فاتقون». و«أنْ» في موضع نصب بنزع الخافض؛ أي: بأن أنذِروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله، فـ«أن» في محل نصب بسقوط الخافض، أو بوقوع الإنذار عليه[١].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للزوال والفناء. وقيل: «بالحق» أي: للدلالة على قدرته، وأنَّ له أنْ يتعبَّد العبادَ بالطاعة، وأن يحييَ الخلقَ بعد الموت. ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من هذه الأصنام التي لا تقدر على خلق شيء.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لَمَّا ذكر الدليل على توحيده؛ ذَكر بعدَه الإنسانَ ومناكدتَه وتعدِّيَ طورِه. «والإنسان» اسم للجنس.

ورُويَ أنَّ المراد به أُبَيُّ بنُ خَلَف الجُمَحيّ؛ جاء إلى النبيِّ ﷺ بعظم رَميم فقال: أترى يحيي اللهُ هذا بعد ما قد رَمَّ[٢]. وفي هذا أيضاً نزل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] أي: خلق الإنسان من ماءٍ يَخرج من بين الصُّلب والترائب، فنقَلَه أطواراً إلى أنْ وُلِدَ ونَشَأ بحيث يخاصِم في الأمور. فمعنى الكلام: التعجيب[٣] من الإنسان: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ [يس: ٧٨].

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي: مخاصِم، كالنسيب بمعنى المناسب، أي: يخاصم اللهَ عزَّ وجلَّ في قدرته. و﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر الخصومة. وقيل: يُبين عن نفسه الخصومةَ بالباطل. والمبين: هو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٨ - ٣٧٩.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٤.

(٣) في النسخ الخطية: التعجب، والمثبت من (م).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ﴾ لَمَّا ذَكَر الإنسانَ؛ ذَكَر ما مَنَّ به عليه. والأنعام: الإبل والبقر والغنم. وأكثر ما يقال: نَعَم وأنعام؛ للإبل، ويقال للمجموع، ولا يقال للغنم مفردة[1].

قال حسان:

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجِوَاءُ ... إلى عَذْراءَ مَنْزِلُها خَلاءُ
دِيارٌ من بَنِي الحَسْحَاسِ قَفْرٌ ... تُعَفِّيها الرَّوامِسُ والسماءُ
وكانت لا يزالُ بها أنيسٌ ... خلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشَاءُ[2]

فالنَّعَم هنا الإبل خاصّةً.

وقال الجوهري[3]: والنَّعَمُ واحدُ الأنعام، وهي المالُ الراعيةُ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. قال الفَرَّاء: هو ذَكَرٌ لا يؤنَّث، يقولون: هذا نَعَم وارد، ويجمع على نُعْمان، مثل: حَمَل وحُمْلان. والأنعام تذكَّر وتؤنَّث؛ قال الله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ [النحل:٦٦]، وفي موضع: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون:٢١].

وانتصب «الأنعامَ»[4] عطفاً على الإنسان، أو بفعل مقدَّر، وهو أوجه[5].

الثانية: قوله تعالى: ﴿دِفْءٌ﴾ الدِّفْءُ: السَّخانة، وهو ما اسْتُدْفِئ به من أصوافها

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٩.

(٢) ديوان حسان ص٧. وتقدم البيت الأخير ٥/ ٥٤. عَفَت: دَرَسَت. وذات الأصابع والجواء: موضعان في الشام. وعذراء: موضع على بريد من دمشق. وبنو الحسحاس: أولاد الحسحاس بن مالك من بني النجار. والروامس: الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار، أي: تدفنها. والسماء: المطر.

(٣) في الصحاح (نعم). وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٥.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): والنصب والأنعام. والمثبت من (ف) و(م).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٩.

وأوبارها وأشعارها، ملابسَ ولُحُفٍ وقُطُف. ورُوِيَ عن ابن عباس: دفؤها: نسلُها[١]؛ والله أعلم.

قال الجوهري في الصحاح[٢]: الدِّفءُ: نِتاجُ الإبل وألبانُها وما ينتفع به منها؛ قال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾. وفي الحديث: «لنا مِنْ دِفئِهم ما سَلَّمُوا بالميثاق»[٣]. والدِّفْءُ أيضاً: السُّخونة، تقول منه: دَفِئ الرجلُ دَفَاءةً؛ مثلُ: كَرِهَ كراهة. وكذلك: دَفِئَ دَفَأً؛ مثلُ: ظَمِئَ ظَمَأً. والاسم: الدِّفْءُ ـ بالكسر ـ وهو الشيءُ الذي يُدفئُكَ، والجمع: الأدفاء. تقول: ما عليه دِفْءٌ؛ لأنه اسم. ولا تقول: ما عليك دَفاءة؛ لأنه مصدر. وتقول: اقْعُدْ في دِفْءِ هذا الحائط؛ أي: كِنِّه. ورَجُلٌ دَفِئٌ على فَعِلٍ: إذا لبس ما يُدفِئه. وكذلك: رَجلٌ دَفْآنُ، وامرأةٌ دَفْأى. وقد أدفأه الثوبُ، وتدفَّأَ هو بالثوب واسْتَدْفَأَ به، وادَّفَأَ به، وهو افتعل، أي: لَبِسَ ما يُدفئه. ودَفُؤَتْ ليلتُنا، ويومٌ دَفِيءٌ على فَعِيل، وليلةٌ دفِيئةٌ، وكذلك الثوبُ والبيتُ. والمُدْفِئة: الإبلُ الكثيرة؛ لأنَّ بعضها يدفِئُ بعضاً بأنفاسها، وقد يُشَدَّد. والمُدْفَأة: الإبلُ الكثيرةُ الأوبارِ والشحومِ؛ عن الأصمعي، وأنشد للشمَّاخ:

وكيف يَضِيعُ صاحبُ مُدْفَآتٍ على أَثْباجِهِنَّ من الصَّقِيعِ[٤]

قوله تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ قال ابن عباس: المنافع: نسل كل دابة[٥]. مجاهد:

---

(١) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٨ . وأخرج عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٣ ، والطبري ١٤/ ١٦٧ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ قال: نسل كل دابة. وسيرد قريباً. قال النحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٤ : وأحسب مذهب ابن عباس أن المنافع النسل؛ لا الدفء، على أن الأموي قد رَوى أن الدفء عند العرب نتاج الإبل والانتفاع بها، فيكون هذا فيه.

(٢) مادة (دفأ).

(٣) لم نقف عليه. وأورده ابن الأثير في النهاية (دفأ) بلفظ: «لنا من دفئهم وصرامهم...».

(٤) ديوان الشماخ ص٢٢٠ . والأثباج؛ جمع ثَبَج: ما بين الكاهل إلى الظهر، وقيل، ثبج كل شيء وَسَطه. مختار الصحاح (ثبج).

(٥) سلف ذكره في الحاشية.

الرُّكوب والحَمل والألبان واللحوم والسَّمْن[١].

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذِّكر؛ لأنها معظم المنافع. وقيل: المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح.

الثالثة: دلَّت هذه الآية على لباس الصُّوف، وقد لبسه رسولُ الله ﷺ والأنبياءُ قبله كموسى وغيره. وفي حديث المغيرة: فغَسَلَ وجهَه وعليه جُبَّةٌ من صوف شاميَّة ضيِّقة الكُمَّين... الحديث، خرَّجه مسلم وغيره[٢]. قال ابنُ العربيّ[٣]: وهو شِعارُ المتقين، ولباسُ الصالحين، وشارةُ الصحابة والتابعين، واختيارُ الزهَّاد والعارفين، وهو يُلبس ليِّناً وخشناً، وجيداً ومُقارِباً ورديئاً، وإليه نُسب[٤] جماعةٌ من الناس الصوفية؛ لأنه لباسُهم في الغالب، فالياء للنَّسَب[٥] والهاء للتأنيث[٦]. وقد أنشدني بعضُ أشياخهم بالبيت المقدس طهَّره الله:

تشاجرَ الناسُ في الصوفيِّ واختلفوا ... فيه وظنُّوه مشتقًّا من الصُّوفِ
ولستُ أَنْحَلُ هذا الاسمَ غيرَ فتًى ... صافَى فصُوفيَ حتى سُمِّيَ الصُّوفي[٧]

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥﴾

الجَمالُ: ما يُتجمَّل به ويُتزيَّن. والجَمال: الحُسْنُ. وقد جَمُل الرجلُ ـ بالضم ـ جمالاً فهو جَمِيل، والمرأة جميلة، وجَمْلاءُ أيضاً؛ عن الكسائي؛ وأنشد:

فهي جَمْلاءُ كبدرٍ طالعٍ ... بَذَّتِ الخَلْقَ جميعاً بالجَمالْ[٨]

---

(١) أخرج نحوه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٤) (٧٩)، وهو عند أحمد (١٨١٩٣)، والبخاري (٣٦٣).

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٨ .

(٤) في النسخ الخطية: ينسب. والمثبت من (م) وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٥) قوله: (فالياء للنسب)؛ من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٦) في النسخ الخطية: للمبالغة. والمثبت من (م) وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٧) نسبها القيرواني في زهر الآداب ٢/ ٨١٣ لأبي الفتح البستي.

(٨) ذكره في الصحاح (جمل)، والكلام منه. وقوله: بذَّت: سبقت وغلبت. اللسان (بذذ).

وقول أبي ذؤيب:

جَمالَكَ أيُّها القلبُ القَريحُ[١]

يريد: اِلْزَمْ تجمُّلَكَ وحياءكَ، ولا تجزع جَزَعاً قبيحاً.

قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلْقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال.

فأما جَمال الخِلْقة؛ فهو أمرٌ يدركه البصرُ، ويلقيه إلى القلب متلائماً، فتتعلق به النفسُ من غير معرفةٍ بوجهِ ذلك، ولا نسبته لأحد من البشر.

وأما جَمال الأخلاق؛ فكونُها على الصفات المحمودة من العِلم والحكمة، والعدلِ والعِفَّةِ، وكظمِ الغيظ، وإرادةِ الخير لكلِّ أحد.

وأما جَمال الأفعال؛ فهو وجودها ملائمةً لمصالح الخلق، وقاضيةً لجلبِ المنافع فيه، وصَرْفِ الشرِّ عنهم.

وجَمال الأنعام والدوابِّ من جَمال الخِلْقة، وهو مرئيٌّ بالأبصار، موافق للبصائر. ومن جَمالها كثرتُها[٢]، وقولُ الناس إذا رأوها: هذه نَعَم فلان؛ قاله السُّدِّيّ[٣]. ولأنها إذا راحت توفَّر حُسْنُها، وعَظُم شأنُها، وتعلَّقت القلوبُ بها[٤]؛ لأنها إذْ ذاك أعظمُ ما تكون أسنمةً وضروعاً؛ قاله قتادة[٥]. ولهذا المعنى قدَّم الرّواح على السراح؛ لتكامل دَرِّها وسرور النفس بها إذ ذاك[٦]. والله أعلم.

ورَوَى أشهب عن مالك قال: يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ

(١) ديوان الهذليين ص٦٨، وعجزه: ستلقى مَن تحبُّ فتستريح.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٩.
(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٠.
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٩.
(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٣، والطبري ١٤/ ١٦٩.
(٦) النكت والعيون ٣/ ١٨٠.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ وذلك في المواشي حين تروحُ إلى المرعى وتسرحُ عليه[١].

والرَّوَاح: رجوعها بالعَشِيِّ من المَرْعَى، والسَّراح بالغداة؛ تقول: سَرَحْتُ الإبلَ أَسْرَحُها سَرْحاً وسُروحاً؛ إذا غدوتَ بها إلى المَرْعَى فخلَّيتَها، وسَرَحَتْ هي، المتعدّي واللازم واحد[٢].

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقالُ أثقالُ الناسِ من متاعٍ وطعامٍ وغيرِه، وهو ما يُثقل الإنسانَ حَمْلُه. وقيل: المراد أبدانهم؛ يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢].

والبلد: مكة؛ في قول عكرمة. وقيل: هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر[٣].

وشِقُّ الأنفس: مشقَّتُها وغايةُ جهدها. وقراءة العامة بكسر الشين. قال الجوهري[٤]: والشِّقُّ: المَشقة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة[٥].

قال المهدوِيُّ: وكسرُ الشينِ وفتحُها في «شِقّ» متقاربان، وهما بمعنى المشقة، وهو من الشّقّ في العصا ونحوها؛ لأنه ينال منها؛ كالمشقة من الإنسان.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٠ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٥ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٠ . وقول عكرمة أخرجه الطبري ١٤/ ١٧٠ .

(٤) في الصحاح (شقق).

(٥) في الصحاح: أبو عبيد. وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥٦ .

وقال الثعلبي: وقرا أبو جعفر: ﴿إِلَّا بِشَقِّ الأَنْفُسِ﴾[1] وهما لغتان، مثل: رِقّ ورَقّ، وجِصّ وجَصّ، ورِطْل ورَطْل. وينشد قولَ الشاعر[2] بكسر الشين وفتحها:

وذي إبلٍ يَسْعَى ويحسِبُها له أخِي نَصَبٍ من شقِّها ودُؤوبِ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من: شَقَقت عليه أشُقُّ شَقًّا.

والشِّقُّ أيضاً بالكسر: النِّصْفُ، يقال: أخذت شِقَّ الشاة وشِقَّةَ الشاة[3]. وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى، أي: لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوَّة، وذهاب شِقٍّ منها، أي: لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم، وذهابِ النصفِ الآخر.

والشِّقُّ أيضاً: الناحية من الجبل. وفي حديث أمِّ زَرْع: وجدني في أهل غُنيمة بِشَقٍّ[4]. قال أبو عبيد[5]: هو اسم موضع.

والشِّقُّ أيضاً: الشقيق، يقال: هو أخي وشِقُّ نفسي. وشِقٌّ: اسم كاهن من كهّان العرب[6].

والشِّقُّ أيضاً: الجانب؛ ومنه قول امرئ القيس:

إذا ما بكَى مِنْ خَلْفِها انصرفَتْ له بِشِقٍّ وتحتِي شِقُّها لم يُحوَّلِ[7]

فهو مشترك.

---

(١) النشر ٢/ ٣٠٢.

(٢) هو النمر بن تولب، كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠، واللسان (شقق).

(٣) الصحاح (شقق).

(٤) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٥) في غريب الحديث ٢/ ٣٠١. ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (شقق) وما قبله منه.

(٦) الصحاح (شقق).

(٧) ديوان امرئ القيس ص١٢، وفيه: (انحرفت) بدل: (انصرفت). و(وشق عندنا) بدل: (وتحتي شقها).

الثانية: مَنَّ اللهُ سبحانه بالأنعام عموماً، وخَصَّ الإبلَ هنا بالذِّكر في حملِ الأثقال على سائر الأنعام؛ فإنَّ الغنمَ للسَّرْح والذبح، والبقرَ للحرث، والإبلَ للحمل[(١)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجلٌ يسوقُ بقرةً له، قد حَمَلَ عليها، التفتتْ إليه البقرةُ فقالت: إني لم أُخلقْ لهذا، ولكنِّي إنما خُلقتُ للحَرْثِ». فقال الناس: سبحان الله، تعجُّباً وفَزَعاً، أبقرةٌ تَكَلَّم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وإني أُومِن به وأبو بكرٍ وعمر»[(٢)]. فدلَّ هذا الحديث على أنَّ البقرَ لا يُحمل عليها ولا تُركب، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل[(٣)].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على جوازِ السفر بالدوابِّ، وحملِ الأثقال عليها، ولكن على قَدْر ما تحتمله، من غير إسراف في الحمل، مع الرفق في السير. وقد أمر النبيُّ ﷺ بالرِّفق بها، والإراحةِ لها، ومراعاةِ التفقد لعلفها وسقيها[(٤)].

ورَوَى مسلمٌ من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سَافَرْتُم في الخِصْبِ؛ فأعطُوا الإبلَ حظَّها منَ الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَة؛ فبادروا بها نِقْيَها»[(٥)]. رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن مَعْدان[(٦)].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٣٨٨). وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩٦٣)، والبخاري (٣٤٧١).

(٣) الرِّسْل: اللَّبَن.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

(٥) صحيح مسلم (١٩٢٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩١٨).

والسَّنة: القحط. والنِّقي؛ بكسر النون وإسكان القاف: المخ. أي: إن سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوّتها، ولا يقللوا السير فيلحقها الضرر؛ لأنها لا تجد ما ترعى فتضعف ويذهب نقيها. شرح النووي ١٣/ ٦٩ .

(٦) الموطأ ٢/ ٩٧٩ بنحوه، وأوله: «إن الله رفيق يحب الرفق...»، ونقله المصنف عن أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣١ .

ورَوَى معاوية بن قُرَّة قال: كان لأبي الدَّرداء جَمَلٌ يقال له: دمون، فكان يقول: يا دمون، لا تخاصمني عند ربك[١]. فالدوابُّ عُجْمٌ لا تقدر أن تحتالَ لنفسها ما تحتاج إليه، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها، فمن ارتفق بمرافقها، ثم ضيَّعها من حوائجها؛ فقد ضيَّع الشكرَ، وتعرَّض للخصومة بين يدي الله تعالى.

ورَوَى مطر بن محمد قال: حدَّثنا أبو داود قال: حدَّثنا أبو خَلدة[٢] قال: حدَّثنا المسيَّب بن دارم[٣] قال: رأيتُ عمرَ بنَ الخطاب ﷺ ضَرَبَ جمَّالاً وقال: تحمل على بعيرك ما لا يطيق[٤]؟

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ﴾ بالنصب معطوف، أي: وخلق الخيل. وقرأ ابنُ أبي عَبْلة: «والخيلُ والبِغالُ والحميرُ» بالرفع فيها كلِّها. وسُمِّيت الخيلُ خيلاً لاختيالها في المِشْية[٥]. وواحد الخيل: خائل، كضائن واحد ضَيْن. وقيل: لا واحد له. وقد تقدَّم هذا في «آل عمران»[٦]، وذكرنا الأحاديث هناك.

ولمّا أفرد سبحانه الخيلَ والبغالَ والحميرَ بالذِّكرِ؛ دلَّ على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام. وقيل: دخلت؛ ولكن أفردها بالذِّكر لِمَا يتعلق بها من الركوب؛ فإنه يكثر

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٤١٤ ، وابن عساكر في تاريخه ١٣/ ٧٧٦ (مخطوط دار البشير).

(٢) في النسخ: ابن خالد. وهو خطأ، والتصويب من مصادر التخريج والتهذيب. وأبو خلدة هو خالد بن دينار.

(٣) في النسخ: المسيب بن آدم. وهو خطأ، والتصويب من مصادر التخريج والتهذيب.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٧/ ١٢٧ ، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه ١٦/ ٥١٦ (مخطوط). وأبو داود هو سليمان بن داود الطيالسي.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٠ .

(٦) ٥/ ٥٠ .

في الخيل والبغال والحمير.

الثانية: قال العلماء: ملَّكنا اللهُ تعالى الأنعامَ والدوابَّ، وذلَّلها لنا، وأباحَ لنا تسخيرَها والانتفاعَ بها رحمةً منه تعالى لنا، وما مَلَكه الإنسانُ وجاز له تسخيرُه من الحيوان؛ فكِراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا اختلافَ بينهم في ذلك. وحُكم كِراء الرواحلِ والدوابِّ مذكور في كتب الفقه.

الثالثة: لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدوابِّ والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ الآية. وأجازوا أن يُكرِيَ الرجلُ الدابَّةَ والراحلةَ إلى مدينة بعينها؛ وإن لم يُسَمِّ أين ينزل منها، وكم من مَنْهل[١] ينزل فيه، وكيف صفة سيره، وكم ينزل في طريقه، واجتَزَوا بالمتعارف بين الناس في ذلك. قال علماؤنا: والكِراء يجري مجرَى البيوع فيما يحلُّ منه ويحرم.

قال ابن القاسم فيمن اكترى دابةً إلى موضعٍ كذا بثوبٍ مَرَويٍّ ولم يصف رُقعته وذرعه: لم يجز: لأن مالكاً لا يجيز هذا في البيع، ولا يجيز في ثمن الكِراء إلا ما يجوز في ثمن البيع[٢].

قلت: ولا يُختلف في هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة.

قال ابن المنذر[٣]: وأجمع كلُّ مَن يُحفظ عنه من أهل العلم على أنَّ مَنِ اكترى دابَّةً ليحملَ عليها عشرةَ أقفزة قمح، فحمل عليها ما اشترط، فتلِفت؛ أنْ لا شيءَ عليه. وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعير.

واختلفوا فيمن اكترَى دابةً ليحمل عليها عشرةَ أقفزةٍ، فحمل عليها أحدَ عشر

---

(١) المنهل: المورد، وهو عين ماء ترده الإبل في المراعي، وتسمى المنازل التي في المفاوز على طرق السُّفَّار: مناهل؛ لأن فيها ماءً. مختار الصحاح (نهل).

(٢) ينظر المدونة ٤/ ٤٧٠ .

(٣) في الإشراف ١/ ٢١١ .

قفيزاً؛ فكان الشافعيُّ وأبو ثَوْر يقولان: هو ضامنٌ لقيمة الدابةِ، وعليه الكِراء. وقال ابنُ أبي لَيْلَى: عليه قيمتها، ولا أجر عليه. وفيه قول ثالث وهو: أنَّ عليه الكِراءَ، وعليه جزء من أجر وجزء[١] من قيمة الدابة؛ بقدر ما زاد من الحِمل؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد. وقال ابنُ القاسم صاحبُ مالك[٢]: لا ضمانَ عليه في قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يَفْدح[٣] الدابة، ويُعلم أن مثله لا تعطَب فيه الدابة، ولِرَبِّ الدابةِ أجرُ القفيزِ الزائدِ مع الكِراء الأول؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة. وذلك بخلاف مجاوزة المسافة؛ لأنَّ مجاوزةَ المسافة تَعَدٍّ كلُّه، فيضمن إذا هلكت في قليله وكثيره. والزيادةُ على الحِمل المشترط اجتمع فيه إذنٌ وتعدٍّ، فإذا كانت الزيادةُ لا تُعطِب في مثلها؛ عُلم أنَّ هلاكَها مما أُذن له فيه.

الرابعة: واختلف أهلُ العلم في الرجل يكتري الدابَّةَ بأجر معلوم إلى موضع مسمًّى، فيتعدَّى فيتجاوز ذلك المكان، ثم يرجع إلى المكان المأذونِ له في المصير إليه:

فقالت طائفة: إذا جاوز ذلك المكان ضَمِنَ، وليس عليه في التعدِّي كِراء؛ هكذا قال الثوري.

وقال أبو حنيفة: الأجرُ له فيما سمًّى، ولا أجرَ له فيما لم يسمِّ؛ لأنه خالف فهو ضامن، وبه قال يعقوب.

وقال الشافعيُّ: عليه الكِراءُ الذي سمَّى، وكِراءُ المثلِ فيما جاوزَ ذلك، ولو عَطِبت؛ لزمه قيمتها[٤].

ونحوه قال الفقهاء السبعة، مشيخةُ أهل المدينة؛ قالوا: إذا بلغ المسافةَ، ثم

---

(١) في الإشراف: وعليه جزء من أحد عشر جزءاً.

(٢) في المدونة ٤/ ٤٨١ . ونقله المصنف عنه بواسطة الإشراف.

(٣) يفدح: يثقل. مختار الصحاح (فدح).

(٤) الإشراف ١/ ٢١٠ - ٢١١ . وما قبله منه.

زاد؛ فعليه كِراءُ الزيادة إن سلمت، وإنْ هلكت ضَمِن.

وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور: عليه الكِراء والضمان. قال ابن المنذر(١): وبه نقول.

وقال ابن القاسم: إذا بلغ المكتري الغايةَ التي اكتَرى إليها، ثم زاد ميلاً ونحوَه، أو أميالاً أو زيادة كثيرة فعطِبت الدابة؛ فلربِّها كراؤه الأول؛ والخيارُ في أخذه كِراءَ الزائد بالغاً ما بلغ، أو قيمةَ الدابة يوم التعدِّي.

ابن الموَّاز: وقد روي أنه ضامنٌ ولو زاد خُطوة. وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة المِيل ونحوه: وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن(٢).

وقال ابن حبيب عن ابن الماجِشُون وأَصْبَغ: إذا كانت الزيادة يسيرة، أو جاوز الأمدَ الذي تكاراها إليه بيسير، ثم رجع بها سالمةً إلى موضعِ تكاراها إليه فماتت، أو ماتت في الطريق إلى الموضع الذي تكاراها إليه؛ فليس له إلا كِراءُ الزيادةِ، كردِّه لِمَا تسلَّف من الوديعة. ولو زاد كثيراً مما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغيَّر في مثلها سوقها؛ فهو ضامن، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يُعلم أن ذلك مما لم يُعِنْ على قتلها، فهلاكها بعدَ ردِّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلَّف من الوديعة بعد ردِّه لا محالة، وإن كانت الزيادةُ كثيرةً؛ فتلك الزيادةُ قد أعانت على قتلها(٣).

الخامسة: قال ابن القاسم وابن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فجعلَها للركوب والزينة، ولم يجعلْها للأكل؛ ونحوه عن أشهب(٤). ولهذا قال أصحابنا: لا يجوز أكلُ لحومِ الخيل والبغال والحمير؛ لأن

---

(١) في الإشراف ١/ ٢١١.

(٢) ينظر النوادر والزيادات ٧/ ١١٨.

(٣) ينظر النوادر والزيادات ٧/ ١١٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٢. والموطأ ٢/ ٤٩٧.

الله تعالى لَمَّا نصَّ على الركوب والزينة دلَّ على أنَّ ما عداه بخلافه. وقال في الأنعام: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ مع ما امتنَّ اللهُ منها من الدِّفءِ والمنافع، فأباح لنا أكلَها بالذكاة المشروعة فيها.

وبهذه الآية احتجَّ ابنُ عباس والحَكَمُ بنُ عُتَيْبَة، قال الحَكَم: لحومُ الخيل حرامٌ في كتاب الله، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال: هذه للأكل، وهذه للركوب[1].

وسُئل ابنُ عباس عن لحوم الخيل فكرهها، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب، وقرأ الآية التي قبلها: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ﴾ ثم قال: هذه للأكل[2]. وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعيّ ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم[3]، واحتجُّوا بما خرَّجه أبو داود والنَّسائي والدَّارَقُطْنيّ وغيرُهم عن صالح ابن يحيى بن المِقْدام بن مَعْدِيكَرِب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد: أنَّ رسولَ الله ﷺ نَهَى يومَ خَيْبَر عن أكلِ لحوم الخيلِ والبغالِ والحمير، وكلِّ ذي ناب من السِّباع أو مِخْلَب من الطير. لفظ الدَّارَقُطْنِيّ[4]. وعند النَّسائي[5] أيضاً عن خالد بن الوليد أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لا يَحِلُّ أَكْلُ لُحومِ الخيلِ والبغالِ والحمير».

وقال الجمهور من الفقهاء والمحدِّثين: هي مباحة. ورُوي عن أبي حنيفة. وشَذَّت طائفةٌ فقالت بالتحريم؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا، ورُوي عن أبي حنيفة. حكى الثلاث روايات عنه الرُّويانيُّ في بحر المذهب على مذهب الشافعيِّ.

قلت: الصحيح الذي يدلُّ عليه النظرُ والخبرُ جوازُ أكلِ لحوم الخيل، وأنَّ الآيةَ

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/١٧٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/١٧٣ و ١٧٤ .

(٣) ينظر التمهيد ١٠/١٢٧ .

(٤) سنن الدارقطني (٤٧٦٩) و(٤٧٧٠)، وأبو داود (٣٧٩٠)، والنسائي في المجتبى ٧/٢٠٢ ، وفي الكبرى (٤٨٢٥)، وابن ماجه (٣١٩٨). وهو في مسند أحمد (١٦٨١٧). وإسناده ضعيف.

(٥) في المجتبى ٧/٢٠٢ ، وفي الكبرى (٤٨٢٤).

والحديثَ لا حجَّةَ فيهما لازمةٌ. أمَّا الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلَّت عليه لدلَّت على تحريم لحوم الحُمُر، والسورة مكية، وأيُّ حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحُمر عَامَ خَيْبَر؛ وقد ثبت في الأخبار تحليلُ الخيل على ما يأتي. وأيضاً لَمَّا ذَكَر تعالى الأنعام؛ ذَكَرَ الأغلبَ من منافعها وأهمَّ ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكرِ الركوبِ ولا الحرثَ بها ولا غير ذلك مصرَّحاً به، وقد تُركبُ ويُحرث بها؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]. وقال في الخيل: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فذكر أيضاً أغلبَ منافعها والمقصودَ منها، ولم يذكر حمل الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد، فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بيَّنه نبيُّه عليه الصلاة والسلام الذي جُعل إليه بيانُ ما أُنزل عليه على ما يأتي[١]، ولا يلزم من كونها خُلقت للركوب والزينة ألَّا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقُها الذي أنطق كلَّ شيء فقالت: إنما خُلقتُ للحرث[٢]. فيلزم مَن عَلَّل أنَّ الخيلَ لا تؤكلُ لأنها خُلقت للركوب؛ ألَّا تؤكل البقرُ لأنها خُلقت للحرث، وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسُّنَّة الثابتة فيها؛ روى مسلم من حديث جابر قال: نَهَى رسولُ الله ﷺ يومَ خَيْبَرَ عن لُحوم الحُمُرِ الأهليَّةِ، وأَذِنَ في لُحوم الخيلِ[٣]. وقال النسائيُّ[٤]: عن جابر: أطعَمَنا رسولُ الله ﷺ يومَ خيبر لحومَ الخيلِ، ونهانا عن لُحومِ الحُمُر. وفي رواية[٥] عن جابر قال: كُنَّا نأكلُ لحومَ الخيلِ على عهدِ رسولِ الله ﷺ.

فإن قيل: الروايةُ عن جابر بأنهم أكلوها في خَيْبَر حكايةُ حالٍ، وقضيَّةٌ في عَيْن،

---

(١) عند تفسير الآية ٤٤ من هذه السورة.

(٢) تقدم ص٢٧٧ من هذا الجزء.

(٣) صحيح مسلم (١٩٤١). وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٨٩٠)، والبخاري (٤٢١٩).

(٤) في المجتبى ٧/ ٢٠١، وفي الكبرى (٤٨٢١) و(٤٨٢٢).

(٥) في المجتبى ٧/ ٢٠١، وفي الكبرى (٤٨٢٣).

فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورةٍ، ولا يُحتجُّ بقضايا الأحوال[١].

قلنا: الروايةُ عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسولِ الله ﷺ يُزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلَّمناه؛ فمعَنا حديث أسماء قالت: نَحَرْنا فرساً على عهدِ رسولِ الله ﷺ ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم[٢]. وكلُّ تأويلٍ من غير ترجيح في مقابلة النصِّ فإنما هو دعوى، لا يُلتفت إليه ولا يُعرَّج عليه.

وقد رَوَى الدَّارقطنيّ[٣] زيادةً حسنةً ترفع كلَّ تأويل في حديث أسماء، قالت أسماء: كان لنا فرسٌ على عهد رسول الله ﷺ أرادت أن تموت، فذبحناها فأكلناها. فذَبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال. وبالله التوفيق.

فإن قيل: حيوان من ذوات الحوافر؛ فلا يؤكلُ كالحمار؟

قلنا: هذا قياس الشَّبَه، وقد اختلف أرباب الأصول في القول به، ولئن سلَّمناه؛ فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظِلْف، وقد بايَنَ ذوات الأظلاف، وعلى أنَّ القياسَ إذا كان في مقابلة النصِّ فهو فاسدُ الوضعِ لا التفات إليه.

قال الطبريّ[٤]: وفي إجماعهم على جواز ركوبِ ما ذُكر للأكل دليلٌ على جوازِ أكلِ ما ذُكر للركوب.

السادسة: وأما البغال فإنها تُلحق بالحمير. إن قلنا: إنَّ الخيلَ لا تؤكل؛ فإنها تكون متولِّدة من عينين لا يؤكلان. وإن قلنا: إنَّ الخيل تؤكل، فإنها عينٌ متولدةٌ من مأكولٍ وغيرِ مأكول، فغلب التحريمُ على ما يلزم في الأصول[٥]. وكذلك ذبح المولود بين كافرين، أحدُهما من أهل الذكاة، والآخر ليس من أهلها؛ لا تكون ذكاةً، ولا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٢ .

(٢) في صحيحه (١٩٤٢). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٩١٩)، والبخاري (٥٥١٠).

(٣) في سننه (٤٧٨٤).

(٤) في تفسيره ١٤/ ١٧٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٣ .

تحلُّ به الذبيحة. وقد مضى في «الأنعام»[١] الكلام في تحريم الحُمُر، فلا معنى للإعادة. وقد علل تحريم أكلِ الحمار بأنه أبدَى جوهرَه الخبيثَ، حيث نزا على ذَكَر وتلوَّط؛ فسُمِّي رِجساً[٢].

السابعة: في الآية دليلٌ على أنَّ الخيلَ لا زكاةَ فيها؛ لأنَّ الله سبحانه مَنَّ علينا بما أباحنا منها، وكرَّمنا به من منافعها، فغير جائزٍ أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل. وقد رَوَى مالك، عن عبد الله بن دينار، عن سليمان بن يَسَار، عن[٣] عِرَاك بن مالك، عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَيسَ على المُسْلمِ في عَبْدِهِ ولا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ»[٤].

ورَوَى أبو داود، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «لَيسَ في الخَيْلِ والرَّقيقِ زكاةٌ، إلا زكاةَ الفِطْرِ في الرقيقِ»[٥]؛ وبه قال مالكٌ والشافعيُّ والأوزاعيُّ والليثُ وأبو يوسف ومحمد. وقال أبو حنيفة: إنْ كانت إناثاً كلُّها أو ذكوراً وإناثاً، ففي كلِّ فرسٍ دينارٌ إذا كانت سائمة، وإنْ شاء قوَّمها فأخرج عن كلِّ مئتي درهم خمسةَ دراهم[٦]. واحتجَّ بأثرٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «في الخيلِ السَّائمةِ في كلِّ فَرَسٍ

---

(١) ٩/ ٨٦ - ٨٧ .

(٢) نوادر الأصول ص١٣٢ .

(٣) في (د) و(ظ): وعن. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٧/ ١٢٣ : هكذا هذا الحديث في الموطأ عند جماعة الرواة... وهذا الحديث أخطأ فيه يحيى بن يحيى، كخطئه في الحديث الذي قبله سواء، وأدخل بين سليمان وعراك بن مالك واواً، فجعل الحديث لعبد الله بن دينار وعراك، وهو خطأ غير مشكل، وهذان الموضعان مما عُدَّ عليه من غلطه في الموطأ، والحديث محفوظ في الموطآت كلها وغيرها: لسليمان بن يسار، عن عراك بن مالك، وهما تابعان نظيران، وعراك أسنُّ من سليمان، وسليمان عندهم أفقه، وكلاهما ثقة جليل عالم.

(٤) موطأ مالك ١/ ٢٧٧ . وأخرجه أيضاً أحمد (٧٢٩٥)، والبخاري (١٤٦٣)، ومسلم (٩٨٢).

(٥) سنن أبي داود (١٥٩٤) وفي إسناده: عبيد الله، عن رجل، عن مكحول. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٧/ ١٣٦ : هذه الزيادة جاءت في هذا الحديث كما ترى، ولا ندري من الرجل الذي رواها عن مكحول، وإنما كنا نعرف هذه الزيادة لجعفر بن ربيعة عن عراك بن مالك؛ هذا إن صحت عنه أيضاً... وهذا لم يجئ به غير جعفر بن ربيعة، إلا أنه قد رُوي بأسانيد معلولة كلها، فاحتج بهذه الزيادة بعض من ذهب مذهب العراقيين.

(٦) ينظر التمهيد ٤/ ٢١٥ .

دينارٌ»[١]، وبقوله ﷺ: «الخيلُ ثلاثةٌ...» الحديث، وفيه: «ولم يَنْسَ حَقَّ اللهِ في رِقابها ولا ظُهورِها»[٢].

والجواب عن الأوَّل؛ أنه حديث لم يروِه إلا غَوْرك السَّعْدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر. قال الدَّارَقُطْنِيّ[٣]: تفرَّد به غورك عن جعفر، وهو ضعيف جداً، ومَنْ دونَه ضعفاء.

وأما الحديث؛ فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النَّفيرُ، وتعيَّن بها لقتال العدوِّ؛ إذا تعيَّن ذلك عليه، ويَحمل المنقطعينَ عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجبٌ عليه إذا تعيَّن ذلك، كما يتعيَّن عليه أن يُطعمَهم عند الضرورة، فهذه حقوقُ الله في رقابها.

فإن قيل: هذا هو الحقُّ الذي في ظهورها، وبقي الحقُّ الذي في رقابها.

قيل: قد رُوي: «لا يَنسَى حقَّ الله فيها». ولا فرق بين قوله: «حقُّ الله فيها» أو: «في رقابها وظهورها» فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد؛ لأن الحقَّ يتعلَّق بجملتها.

وقد قال جماعة من العلماء: إنَّ الحقَ هنا حُسْنُ مِلْكها، وتعهُّدُ شبعها، والإحسانُ إليها، وركوبُها غير مشقوق عليها؛ كما جاء في الحديث: «لا تتخذوا ظُهورَها كَراسِيَّ»[٤]. وإنما خصَّ رقابَها بالذكر؛ لأنَّ الرقابَ والأعناق تستعار كثيراً في مواضع الحقوقِ اللازمة، والفروضِ الواجبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. وكثر عندهم استعمالُ ذلك واستعارتُه، حتى جعلوه في

(١) أخرجه الدارقطني (٢٠١٩)، والطبراني في الأوسط (٧٦٦١)، والبيهقي ٤/١١٩ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/٦٩ : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه الليث بن حماد وغورك، وكلاهما ضعيف.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٥٦٣)، والبخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في سننه عقب (٢٠١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٢٩) من حديث معاذ بن أنس الجهني بلفظ: «ولا تتخذوها كراسيَّ لأحاديثكم..».

الرِّباع[١] والأموال؛ ألا ترى قول كُثَيِّر:

غَـمْـرُ الـرداءِ إذا تـبـسَّـمَ ضـاحـكـاً غَـلِـقـتْ لِـضَـحْـكَـتـه رِقـابُ الـمـالِ[٢]

وأيضاً؛ فإنَّ الحيوان الذي تجب فيه الزكاةُ له نصابٌ من جنسه، ولَمَّا خرجتِ الخيلُ عن ذلك؛ عَلِمْنا سقوطَ الزكاةِ فيها.

وأيضاً؛ فإيجابُه الزكاةَ في إناثها منفردةً دون الذكور؛ تناقض منه، وليس في الحديث فصلٌ بينهما. ونقيس الإناثَ على الذكور في نفي الصدقة؛ بأنه حيوان مُقْتَنَى لنسله، لا لدرِّه، ولا تجبُ الزكاةُ في ذكوره، فلم تجب في إناثه، كالبغال والحمير[٣]. وقد رُويَ عنه أنه لا زكاة في إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة، وهذا الذي عليه الجمهور.

قال ابن عبد البر[٤]: الخبر في صدقة الخيل عن عمر صحيحٌ من حديث الزُّهرِيِّ وغيرِه. وقد رُويَ من حديث مالك، رواه عنه جُوَيرية، عن الزهري: أنَّ السائبَ بنَ يزيد قال: لقد رأيت أبي يُقوِّم الخيلَ، ثم يدفعُ صدقتها إلى عمر[٥]. وهذا حجةٌ لأبي حنيفة وشيخِه حمادِ بنِ أبي سليمان، لا أعلم أحداً من فقهاء الأمصار أوجب الزكاةَ في الخيل غيرهما. تفرَّد به جُوَيرِية عن مالك؛ وهو ثقة.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَزِينَةً﴾ منصوبٌ بإضمار فعل؛ المعنى: وجعلها زينة. وقيل: هو مفعول من أجله[٦]. والزينة: ما يُتزيَّن به، وهذا الجمال والتزيين وإنْ كان

---

(١) الرباع؛ جمع الرَّبْع: المنزل ودار الإقامة، وربع القوم: محلتهم. النهاية (ربع).

(٢) التمهيد ٤/ ٢١٠، وما قبله منه. وشعر كثير في ديوانه ص٢٩٥ . وقوله: غمر الرداء: كثير المعروف، سخيّ. وقوله (غلقت): استحقت. القاموس (غمر، غلق).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٥ .

(٤) في التمهيد ٤/ ٢١٧ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٨٨٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ٢٦ .

(٦) أي: وللزينة. مشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٧ .

من متاع الدنيا؛ فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه؛ قال النبيُّ ﷺ: «الإبلُ عِزٌّ لأهلها، والغَنَمُ بركةٌ، والخيلُ في نَواصِيها الخَيرُ». خرَّجه البَرْقانيُّ وابنُ ماجه في السنن. وقد تقدَّم في الأنعام[١].

وإنما جمع النبيُّ ﷺ العِزَّ في الإبل؛ لأنَّ فيها اللباسَ والأكلَ واللَّبَنَ والحَمْلَ والغزْو؛ وإنْ نَقَصَها الكَرُّ والفَرُّ. وجعل البركة في الغنم لِمَا فيها من اللباسِ والطعام والشرابِ وكثرةِ الأولاد؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرّات، إلى ما يتبعه من السَّكِينة، وتحمل صاحبَها عليه من خفضِ الجناح ولينِ الجانب؛ بخلاف الفَدَّادين[٢] أهل الوَبَر. وقرنَ النبيُّ ﷺ الخيرَ بنواصي الخيلِ بقية الدهر؛ لِمَا فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهرِ الأعداء، وغَلَبِ الكفار، وإعلاءِ كلمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قال الجمهور: من الخلق. وقيل: من أنواع الحشرات والهوامِّ في أسافل الأرض والبرِّ والبحر، مما لم يَرَه البشرُ، ولم يسمعوا به. وقيل: «ويخلق ما لا تعلمون» مما أعدَّ اللهُ في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تَرَه عينٌ، ولم تسمع به أذن، ولا خَطَرَ على قَلبِ بشر[٣].

وقال قَتادة والسُّدِّي: هو خَلْقُ السُّوسِ في الثياب، والدودِ في الفواكه[٤]. ابن عباس: عين تحت العرش؛ حكاه الماوَرْدِيّ[٥].

الثعلبي: وقال ابن عباس: عن يمين العرش نهرٌ من النور مثل السماوات السبع

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٣٠٥) من حديث عروة البارقي، وتقدم في آل عمران ٥/ ٥٤ .

(٢) الفدادون: كثيرو الإبل، كان إذا ملك أحدهم المئتين من الإبل إلى الألف؛ قيل له: فداد. النهاية (فدد).

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٦٣ .

(٥) في النكت والعيون ٣/ ١٨٠ .

والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرَّة، يدخله جبريلُ كلَّ سَحَرٍ فيغتسلُ، فيزداد نوراً إلى نوره، وجمالاً إلى جماله، وعِظَماً إلى عِظَمه، ثم ينتفضُ، فيُخرج اللهُ من كلِّ ريشةٍ سبعين ألف قطرة، ويخرج من كلِّ قطرة سبعةُ آلاف مَلَك، يدخل منهم كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك إلى البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى يوم القيامة[١].

وقول خامس: وهو ما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ: «إنها أرضٌ بيضاء، مسيرة الشمس ثلاثين يوماً، مشحونة خلقاً لا يعلمون أنَّ الله تعالى يُعصَى في الأرض». قالوا: يا رسول الله، مِن ولد آدم؟ قال: «لا يعلمون أنَّ الله خلق آدمَ». قالوا: يا رسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال: «لا يعلمون أنَّ الله خلق إبليس»، ثم تلا: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكره الماوردي[٢].

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال: إنَّ لله عباداً من وراء الأندلس، كما بيننا وبين الأندلس، ما يرون أنَّ الله عصاه مخلوقٌ، رَضراضهم[٣] الدُّرُّ والياقوت، وجبالُهم الذهبُ والفضة، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملاً، لهم شجرٌ على أبوابهم لها ثمر؛ هي طعامهم، وشجرٌ لها أوراقٌ عراض؛ هي لباسهم. ذكره في بدء الخلق من كتاب الأسماء والصفات[٤]. وخرّج من حديث موسى بن عقبة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لي أنْ أُحدِّثَ عَنْ مَلَكٍ من ملائكة الله من حَمَلَةِ العرش، ما بين شَحْمةِ أُذنِه إلى عاتقِه مسيرةُ سبع مئة عامٍ»[٥].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٧ ، وفيما يورده الثعلبي من مثل هذه الأخبار نظر.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ١٨١ ، وليس في ذلك خبر صحيح.

(٣) الرضراض: الحصى، أو صغارها. القاموس (رضض).

(٤) حديث (٨٣٠). وهو مقطوع على الشعبي، وفي متنه نظر. ثم إن في إسناده القاسم بن سلمان، لم يذكر في الرواة عنه إلا علي بن ثابت، كما في التاريخ الكبير ٧/ ١٦٥ ، فهو في عداد المجهولين.

(٥) الأسماء والصفات (٨٤٦). وأخرجه أيضاً أبو داود في سننه (٤٧٢٧). قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٦٥ : إسناده على شرط الصحيح.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: على الله بيانُ قصدِ السبيل، فحذف المضافَ؛ وهو البيان. والسبيلُ: الإسلامَ، أي: على الله بيانُه بالرسل والحجج والبراهين. وقَصْدُ السبيلِ: استعانةُ الطريق؛ يقال: طريقٌ قاصد، أي: يؤدِّي إلى المطلوب.

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: ومنَ السبيل جائر، أي: عادلٌ عن الحقِّ، فلا يهتدى به؛ ومنه قول امرئ القيس[1]:

ومنَ الطريقةِ جائرٌ وهُدًى قَصْدُ السبيلِ ومنه ذو دَخْلِ

وقال طَرَفة[2]:

عَدَوْلِيَّةٌ أو مِن سَفِينِ ابنِ يامِنٍ يَجُورُ بها المَلَّاحُ طَوْراً ويَهتدِي

العَدَوْلِيَّة: سفينةٌ منسوبة إلى عَدَوْلَى؛ قرية بالبحرين. والعَدَوْلِيُّ: المَلَّاح؛ قاله في الصحاح[3]. وفي التنزيل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣] وقد تقدَّم[4].

وقيل: المعنى: ومنهم جائرٌ عن سبيلِ الحقِّ، أي: عادلٌ عنه فلا يَهتدي إليه. وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهل الأهواء المختلفة؛ قاله ابنُ عباس[5]. الثاني: مِلَلُ الكفر من اليهودية والمجوسية والنصرانية[6].

---

(١) ديوانه ص٢٣٨ .

(٢) ديوانه ص٢٠ .

(٣) (عدل).

(٤) ٩/١١٥ .

(٥) أخرجه الطبري ١٤/١٧٩ - ١٨٠ .

(٦) نسبه الواحدي في الوسيط ٣/٥٨ للكلبي.

وفي مصحف عبد الله: «ومِنكم جائر»، وكذا قرأ عليٌّ: «ومنكم» بالكاف[١].

وقيل: المعنى: وعنها جائر، أي: عن السبيل. فـ «مِن» بمعنى عن.

وقال ابن عباس: أي: مَن أراد اللهُ أن يهديَه سهَّل له طريقَ الإيمان، ومَن أراد أن يضلَّه ثقَّلَ عليه الإيمانَ وفروعَه.

وقيل: معنى «قَصْدُ السبيل»: مسيركم ورجوعكم.

والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنَّث الكناية فقال: «ومنها»، والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيَّن أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحِّح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويردُّ على القَدَرية ومَن وافقها؛ كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾

الشراب ما يُشرب، والشجر معروف. أي: يُنبت من الأمطار أشجاراً وعروشاً ونباتاً. و﴿تُسِيمُونَ﴾: ترعون إبلكم؛ يقال: سامت السائمة تسوم سَوْماً، أي: رعت، فهي سائمة. والسَّوَام والسائم بمعنًى، وهو المال الراعي. وجمع السائم والسائمة: سوائم. وأسمتُها أنا، أي: أخرجتها إلى الرَّعْي، فأنا مُسِيم وهي مُسامة وسائمة. قال:

أَوْلَى لك ابنَ مُسِيمَةِ الأَجْمالِ[٣]

---

(١) قراءة ابن مسعود أخرجها عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٤ ، والطبري ١٤/ ١٧٩ . وقراءة علي ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٢ ، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٨ . وقال السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٢ : أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن علي أنه كان يقرأ هذه الآية: فمنكم جائر.

(٢) ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٥ .

(٣) قائله الأخطل، وهو في ديوانه ص١٥٩ ، وصدره: مثل ابن بزعة أو كآخر مثله. وتقدم ٥/ ٥٢ .

وأصل السَّوْم: الإبعاد في المرعَى[١].

وقال الزجاج[٢]: أُخِذ من السُّومة، وهي العلامة، أي: إنها تؤثِر في الأرض علامات برعيها، أو لأنها تُعلَّم للإرسال في المرعَى.

قلت: والخيل المسوَّمة تكون المرعِيَّة. وتكون المُعَلَّمة. وقوله: «مُسَوِّمِين»؛ قال الأخفش: تكون مُعَلِّمين، وتكون مُرْسَلين؛ من قولك: سوَّم فيها الخيل، أي: أرسلها، ومنه السائمة، وإنما جاء بالياء والنون؛ لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها[٣].

قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «نُنبِت»؛ بالنون على التعظيم. العامة بالياء[٤]؛ على معنى: ينبت الله لكم.

يقال: نَبَتَتِ الأرضُ وأَنْبَتَتْ بمعنًى، ونَبَتَ البَقْلُ وأَنْبَتَ بمعنًى. وأنشد الفرّاء:

رأيتُ ذوِي الحاجاتِ حَوْلَ بيوتهم قَطِيناً [لهم] حتى إذا أنبتَ البَقْلُ[٥]

أي: نبت. وأنبتَه اللهُ فهو منبوتٌ، على غير قياس. وأنبتَ الغلامُ: نَبتتْ عانتُه. ونَبَّتُّ الشجرَ: غرستُه؛ يقال: نَبِّتْ أَجَلَكَ بين عينيك. ونَبَّتُّ الصبيَّ تنبيتاً: رَبَّيْتُه.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٨١ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٩٢ .

(٣) الصحاح (سوم). وينظر معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٢٠ .

(٤) السبعة ص٣٧٠ ، والتيسير ص١٣٧ .

(٥) البيت لزهير، وهو في شرح ديوانه ص١١١ ، وما بين حاصرتين منه، ووقع في (م): بها. ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء. والقطين: أهل الرجل وحَشَمه، أو الساكن النازل في الدار. شرح ديوان زهير لثعلب ص١١١ .

والمَنْبِتُ: موضع النبات؛ يقال: ما أحسنَ نابِتةَ بني فلان، أي: ما تَنْبُتُ عليه أموالُهم وأولادُهم. وَنَبَتَتْ لهم نابتةٌ: إذا نشأ لهم نَشْءٌ صغار. وإنَّ بني فلان لَنابِتَةُ شَرٍّ. والنَّوابتُ من الأحداث: الأغمار. والنَبِيتُ: حيٌّ من اليمن. واليَنْبُوتُ: شجر؛ كلُّه عن الجوهري[١].

﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ جمع زيتونة. ويقال للشجرة نفسها: زيتونة، وللثمرة: زيتونة. وقد مضى في سورة الأنعام[٢] حكمُ زكاة هذه الثمار، فلا معنى للإعادة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنزالِ والإنباتِ ﴿لَآيَةً﴾ أي: دلالةً ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: للسكون والأعمال؛ كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي: مُذَلَّلات لمعرفة الأوقات، ونضج الثمار والزرع، والاهتداء بالنجوم في الظلمات.

وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر. الباقون بالنصب عطفاً على ما قبله. وقرأ حفص عن عاصم برفع «والنجومُ»، «مسخراتٌ» خبرُه[٣].

وقُرِئ: «والشمسَ والقمرَ والنجومَ» بالنصب، «مسخراتٌ» بالرفع[٤]، وهو خبر ابتداء محذوف، أي: هي مسخرات. وهي في قراءة مَن نَصَبها حالٌ مؤكدة؛ كقوله:

---

(١) في الصحاح (نبت).

(٢) ص٥٣ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) السبعة ص٣٧٠، والتيسير ص١٣٧.

(٤) لم نقف على هذه القراءة.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة:٩١]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: عن الله ما نبّهم عليه، ووفّقهم له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: وسخّر ما ذرأ في الأرض لكم.

«ذَرَأ» أي: خلَق. ذرأ اللهُ الخلقَ، يذروهم ذَرْءاً: خَلَقَهم، فهو ذارئ؛ ومنه الذُّرِّيَّة، وهي نَسْلُ الثَّقَلين، إلَّا أنَّ العربَ تركت هَمْزَها، والجمع: الذراريّ[1]. يقال: أنمى الله ذَرْأَك وذَرْوَك، أي: ذرِّيَّتك[2]. وأصلُ الذَّرْوِ والذَّرْءِ: التفريقُ عن جَمْعٍ. وفي الحديث: ذَرْءُ النارِ[3]، أي: إنَّهم خُلِقُوا لها.

الثانية: ما ذرأه الله سبحانه؛ منه مسخَّرٌ مذلَّلٌ كالدوابِّ والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك. والدليل عليه ما رواه مالك في الموطأ[4] عن كعب الأحبار قال: لولا كلماتٌ أقولهنَّ لجعلتني يهودُ حماراً. فقيل له: وما هنَّ؟ فقال: أعوذ بوجهِ اللهِ العظيمِ الذي ليس شيءٌ أعظمَ منه، وبكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهنَّ بَرٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلِّها ما علمتُ منها وما لم أعلم، مِن شرِّ ما خَلَقَ وبَرَأ وذَرَأ.

---

(١) الصحاح (ذرأ).

(٢) تهذيب اللغة ١٥/٣.

(٣) أخرجه عبد بن حميد - كما في الدر المنثور ٣/١٤١ - عن ابن عباس موقوفاً، قال: (إن الله ضرب بيمينه على منكب آدم، فخرج منه مثل اللؤلؤ في كفه، فقال: هذا للجنة، وضرب بيده الأخرى على منكبه الشمال، فخرج منه سواد مثل الحمم فقال: هذا ذرء النار). وأورد أبو عبيد في غريب الحديث ٣/٣٢٨ أن عمر ﷺ كتب إلى خالد بن الوليد... وإني أظنكم آل المغيرة ذرء النار.

(٤) ٢/٩٥١ - ٩٥٢.

وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال: أُسْرِي برسولِ الله ﷺ، فرأى عفريتاً مِنَ الجنِّ يطلبه بشُعلة من نار، الحديث، وفيه: وشرِّ ما ذَرَأَ في الأرض[1]. وقد ذكرناه وما في معناه في غير هذا الموضع[2].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ﴾ «مختلِفاً» نصبٌ على الحال. و«ألوانُه»: هيئاتُه ومناظرُه، يعني الدوابَّ والشجرَ وغيرَها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في اختلاف ألوانها. ﴿لَءَايَةً﴾ أي: لعبرة. ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي يتَّعظون ويعلمون أنَّ في تسخيرِ هذه المكوَّناتِ لَعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يَقْدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ تسخيرُ البحرِ هو تمكينُ البشرِ من التصرُّفِ فيه، وتذليلُه بالركوب والإرفاءِ[3] وغيرِه، وهذه نعمة من نِعَمِ اللهِ علينا، فلو شاء سلَّطه علينا وأغرقنا. وقد مضى الكلام في البحر وفي صيده[4]. وسمَّاه هنا لحماً.

واللحومُ عند مالك ثلاثةُ أجناس: فلحمُ ذواتِ الأربع جنسٌ، ولحمُ ذواتِ

---

(١) موطأ مالك ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١، وأخرجه من طريقه النسائي في السنن الكبرى (١٠٧٢٦)، وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١١٢.

(٢) سيأتي عند تفسير الآية ٣٩ من سورة النمل.

(٣) قال في الصحاح (رفأ): أرفأت السفينة: قربتها من الشط، وذلك الموضع مُرفأ، وأرفأت إليه: لجأت.

(٤) ينظر ٢/ ٩٠ و ٨/ ٢٠٨.

الريش جنسٌ، ولحمُ ذواتِ الماء جنسٌ. فلا يجوز بيعُ الجنسِ من جنسه متفاضلاً، ويجوز بيعُ لحمِ البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضلاً، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضلاً.

وقال أبو حنيفة: اللحوم كلُّها أصنافٌ مختلفة كأصولها؛ فلحمُ البقر صنفٌ، ولحمُ الغنم صنفٌ، ولحمُ الإبل صنفٌ، وكذلك الوحش مختلِفٌ، وكذلك الطير، وكذلك السمك، وهو أحد قولي الشافعيّ. والقولُ الآخر: أنَّ الكلَّ من النَّعَم والصيد والطير والسمك جنسٌ واحد لا يجوز التفاضل فيه. والقول الأوَّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه.

ودليلُنا هو أنَّ الله تعالى فرَّق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام:١٤٣-١٤٤]، فلمَّا أنْ أَمَّ[1] الجميع إلى اللحم قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة:١] فجمعَها بِلحمٍ واحدٍ لتقارب منافعها، كتقارب لحم الضأن والمعز. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢١]، وهذا جَمْعُ طائرٍ الذي هو الواحد، لقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨]، فجَمَعَ لحمَ الطيرِ كلِّه باسم واحد، وقال هنا: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فجمعَ أصنافَ السمكِ بذكرٍ واحد، فكان صِغارُه كِكِبارِه في الجمع بينهما.

وقد رُوي عن ابن عمر أنه سُئل عن لحم المَعْز بلحم الكباش: أشيءٌ واحد؟ فقال: لا[2]. ولا مخالف له، فصار كالإجماع، والله أعلم.

ولا حجة للمخالف في نهيه ﷺ عن بيع الطعام إلَّا مِثْلاً بِمثْلٍ؛ فإنَّ الطعامَ في الإطلاق يتناولُ الحنطةَ وغيرَها من المأكولات، ولا يتناول اللحمَ؛ ألا تَرَى أنَّ

(١) أي قصد.

(٢) لم نقف عليه.

القائلَ إذا قال: أكلتُ اليومَ طعاماً؛ لم يَسبِقِ الفهمُ منه إلى أكلِ اللحم، وأيضاً فإنه مُعارَض بقوله ﷺ: «إذا اختَلفَ الجِنْسَانِ فَبِيعُوا كَيفَ شِئْتُم»[١] وهذان جنسان، وأيضاً فقد اتفقنا على جوازِ بيعِ اللحم[٢] بلحم الطير متفاضلاً، لا لعلَّةٍ[٣] أنه بَيْعُ طعامٍ لا زكاةَ له بِيعَ بلحمٍ ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلاً[٤].

الثانية: وأما الجرادُ فالمشهور عندنا جوازُ بيعِ بعضه ببعض متفاضلاً. وذُكر عن سُحْنون أنه يَمنع من ذلك، وإليه مال بعضُ المتأخرين ورآه مما يدَّخر[٥].

الثالثة: اختلف العلماء فيمَن حلف ألَّا يأكلَ لحماً؛ فقال ابن القاسم: يحنَثُ بكلِّ نوعٍ من هذه الأنواع الأربعة. وقال أشهب في المجموعة: لا يحنث إلَّا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاةً للعُرف والعادة، وتقديماً لها على إطلاق اللفظ اللغويّ[٦]، وهو أحسن.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني به اللؤلؤَ والمَرْجان؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢][٧].

وإخراج الحِلية إنما هي فيما عرف من المِلْح فقط. ويقال: إنَّ في الزمرد بحرياً.

---

(١) أخرجه الربيع في مسنده ص١٥٣ عن ابن عباس مرفوعاً، وتمامه: «إلا ما نهيتكم عنه». وأورده ابن عبد البر في التمهيد ١٩/ ١٨٢ . وأورده الآمدي في الإحكام ٣/ ٢٢٩ بلفظ: «البر بالبر» إلى قوله: «فإذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم يداً بيد». وأخرج نحوه أحمد (٢٢٧٢٧)، ومسلم (١٥٨٧) (٨١) من حديث عبادة بن الصامت ولفظه: «الذهب بالذهب... فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد».

(٢) في (ظ): اللبن، بدل: بيع اللحم.

(٣) لفظة: لا، من (د). ووقع في (ظ): لعلة فيه.

(٤) ينظر المنتقى ٥/ ٢٦ - ٢٨ ، والاستذكار ٢٠/ ١١٢ - ١١٤ .

(٥) ينظر المنتقى ٥/ ٢٦ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٥ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٦ .

وقد خُطِّئ الهُذَليُّ في قوله في وصف الدرَّة:

فجاء بها من دُرَّة لَطَمِيَّة   على وجهها ماء الفرات يَدوم

فجعلها من الماء الحلو(١).

فالحلية حقٌّ، وهي نِحْلَةُ اللهِ تعالى لآدمَ وولدِه. خُلق آدمُ وتُوِّجَ وكُلِّلَ بإكليلِ الجنة، وخُتم بالخاتم الذي ورثه عنه سليمانُ بنُ داود صلوات الله عليهم، وكان يقال له: خاتم العِزِّ، فيما رُوي.

الخامسة: امتنَّ اللهُ سبحانه على الرجال والنساء امتناناً عامًّا بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنما حَرَّم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير(٢).

رَوَى الصحيحُ عن عمرَ بنِ الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَلْبَسُوا الحريرَ، فإنَّه مَنْ لَبِسَهُ في الدنيا؛ لَمْ يَلْبَسْهُ في الآخرة»(٣). وسيأتي في سورة الحج الكلام فيه إن شاء الله(٤).

وروى البخاريُّ عن ابن عمر: أنَّ رسولَ الله ﷺ اتَّخذَ خاتَماً مِنْ ذَهَبٍ، وجَعَلَ فَصَّهُ ممَّا يَلِي باطنَ كَفِّهِ، ونَقَشَ فيه: محمدٌ رسولُ الله؛ فاتَّخَذَ الناسُ مِثْلَه، فلما رَآهم

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٣ . وما قبله منه، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص٥٧ ، ولفظه:

فجاء بها ما شئت من لطمية   يدوم الفرات فوقها ويموج

وكذلك ذكره صاحب اللسان (فرت) وقال: ليس هنالك فرات؛ لأن الدر لا يكون في الماء العذب، وإنما يكون في البحر. قال في تاج العروس (لطم): درَّة لَطَمية: منسوبة إلى اللطائم؛ وهي الأسواق التي تباع فيها العطريات، وقد سئل الأصمعي: هل تكون الدرة في سوق المسك؟ فقال: تحمل معهم في عيرهم. وقيل: لطمية: في عير لطمية. وقيل: لطمية: نسبتها إلى التطام البحر عليها بأمواجها.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٦ .

(٣) صحيح البخاري (٥٨٣٠)، وصحيح مسلم (٢٠٦٩) (١١) واللفظ له. وهو في مسند أحمد (٩٢) بنحوه.

(٤) عند تفسير الآية ٢٣ منها.

قدِ اتَّخَذُوها رَمَى به، وقال: «لَا أَلْبَسُهُ أبداً». ثمَّ اتَّخَذَ خَاتَماً مِنْ فِضَّةٍ، فاتَّخَذَ الناسُ خواتيمَ الفِضَّة. قال ابنُ عمر: فَلبِسَ الخاتمَ بعد النبيِّ ﷺ أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمان، حتى وَقَعَ من عثمانَ في بئر أرِيس[1]. قال أبو داود[2]: لم يختلفِ الناسُ على عثمانَ حتى سَقَطَ الخاتمُ من يده.

وأجمع العلماء على جواز التختم بالوَرِق على الجملة للرجال. قال الخطابيُّ[3]: وكُره للنساء التختمُ بالفضة؛ لأنه من زِيِّ الرجال، فإنْ لم يجدْنَ ذهباً فليصفِّرنه بزعفران أو بشبهه.

وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجالِ خاتمَ الذهب؛ إلا ما رُوي عن أبي بكر بن عبد الرحمن[4] وخَبَّاب، وهو خلافٌ شاذٌّ، وكلٌّ منهما لم يبلغهما النهي والنسخ[5]. والله أعلم.

وأما ما رواه أنسُ بن مالك أنه رَأى في يَدِ رسول الله ﷺ خاتماً من وَرِقٍ يوماً واحداً، ثم إنَّ الناس اصطنعوا الخواتمَ من وَرِقٍ ولبِسوها، فطَرَحَ رسولُ الله ﷺ خاتَمه، فطرح الناسُ خواتيمهم ـ أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاريِّ[6] ـ فهو عند

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٦٦). وأخرجه أيضاً أحمد (٦٣٣١)، ومسلم (٢٠٩١).

(٢) في سننه عقب الحديث (٤٢١٨).

(٣) في معالم السنن ٤/ ١٩٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٥/ ٤١١ .

(٤) كذا نقل المصنف عن أبي العباس القرطبي في المفهم ٥/ ٤٠٨ ، والكلام للقاضي عياض في إكمال المعلم ٦/ ٦٠٣ ، وفيه: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وكذلك أورده من قبله ابن عبد البر في التمهيد ١٧/ ١٠٩ ؛ قال: وقد روي عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه كان يتختم بالذهب. قال: وهذا ـ إن صح عنه أو عن غيره ـ فلا معنى له لشذوذه... وجائز أن لا يبلغه الخبر بالنهي عن ذلك.

(٥) ينظر المفهم ٥/ ٤٠٨ . وأخرج أحمد (٤٠٢٥)، والبخاري (٤٣٩١) الحديث عن خباب مطولاً، وفيه: ثم التفت (أي: ابن مسعود) إلى خباب وعليه خاتم من ذهب فقال: ألم يأنِ لهذا الخاتم أن يلقى؟ قال: أما إنك لن تراه عليَّ بعد اليوم، فألقاه. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ١٠١ : ولعل خباباً كان يعتقد أن النهي عن لبس الرجال خاتم الذهب للتنزيه، فنبهه ابن مسعود على تحريمه، فرجع إليه مسرعاً.

(٦) صحيح البخاري (٥٨٦٨)، ومسلم (٢٠٩٣) (٦٠). وهو في مسند أحمد (١٢٦٣١).

العلماء وَهَمٌ من ابن شهاب؛ لأنَّ الذي نَبَذَ رسولُ الله ﷺ إنما هو خاتم الذهب. رواه عبد العزيز بن صُهيب وثابت وقتادة عن أنس، وهو خلاف ما رَوَى ابنُ شهاب عن أنس، فوجب القضاءُ بالجماعة على الواحد إذا خالفها، مع ما يشهد للجماعة من حديث ابن عمر[١].

السادسة: إذا ثبتَ جوازُ التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلِّي به، فقد كره ابنُ سِيرين وغيرُه من العلماء نقشَه، وأن يكون فيه ذكرُ الله. وأجاز نقشَه جماعةٌ من العلماء[٢].

ثم إذا نقش عليه اسمَ اللهِ أو كلمةَ حِكْمةٍ أو كلماتٍ من القرآن، وجعله في شماله، فهل يدخل به الخلاء ويستنجي بشماله؟ خفَّفه سعيدُ بن المُسيِّب ومالك[٣].

قيل لمالك: إن كان في الخاتم ذِكْرُ اللهِ، ويلبسه في الشمال، أيستنجي به؟ قال: أرجو أن يكون خفيفاً[٤]. ورُوي عنه الكراهة، وهو الأَوْلى[٥]. وعلى المنع من ذلك أكثرُ أصحابِه.

وقد رَوَى هَمَّام، عن ابن جُرَيج، عن الزُّهري، عن أنس قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا دَخَلَ الخَلاءَ وَضَعَ خَاتمه[٦]. قال أبو داود: هذا حديث منكر، وإنما يُعرف عن ابن جُريج، عن زياد بن سعد، عن الزُّهري، عن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ اتَّخذ خاتماً من وَرِق، ثم ألقاه. قال أبو داود: لم يحدِّث بهذا إلَّا هَمَّام[٧].

---

(١) ينظر الاستذكار ٢٦/ ٣٥٤ ، والمفهم ٥/ ٤١٢ - ٤١٣ .

(٢) ينظر الاستذكار ٢٦/ ٣٦٠ .

(٣) المفهم ٥/ ٤١١ .

(٤) الاستذكار ٢٦/ ٣٦٠ .

(٥) المفهم ٥/ ٤١١ .

(٦) أخرجه أبو داود (١٩)، والترمذي (١٧٤٦)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٧٨ ، وفي الكبرى (٩٤٧٠)، وابن ماجه (٣٠٣). قال الترمذي: حديث حسن غريب. وقال النسائي: هذا الحديث غير محفوظ.

(٧) سنن أبي داود عقب الحديث (١٩). وينظر تلخيص الحبير ١/ ١٠٧ - ١٠٨ .

السابعة: رَوَى البخاري عن أنس بن مالك: أَنَّ رسولَ الله ﷺ اتَّخَذَ خَاتماً من فِضَّةٍ، ونَقَشَ فيه: «محمد رسول الله»، وقال: «إنِّي اتَّخَذْتُ خَاتماً مِن وَرِق، ونَقَشْتُ فيه: محمدٌ رَسولُ الله، فلا يَنْقِشَنَّ أَحَدٌ على نَقْشِهِ»[١].

قال علماؤنا: فهذا دليلٌ على جوازِ نَقْشِ اسمِ صاحبِ الخاتم على خاتمه[٢].

قال مالك: ومن شأن الخلفاءِ والقضاةِ نقشُ أسمائهم على خواتيمهم، ونهيُه عليه الصلاة والسلام: لا ينقشنَّ أحدٌ على نَقْشِ خاتمه؛ من أجل أنَّ ذلك اسمُه وصِفتُه برسالةِ الله له إلى خلقه.

ورَوَى أهلُ الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغير ذي سلطان[٣]. وروى في ذلك حديثاً عن أبي رَيحانة[٤]، وهو حديثٌ لا حجةَ فيه لضعفه. وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينقشنَّ أحدٌ على نقشه» يردُّه، ويدلُّ على جوازِ اتخاذ الخاتم لجميع الناس؛ إذا لم يُنقشْ على نقشِ خاتمه.

وكان نقش خاتم الزُّهريِّ: «محمدٌ يَسأل اللهَ العافية». وكان نقش خاتم مالك: «حسبي الله ونعم الوكيل»[٥]. وذكر الترمذيُّ الحكيم في نوادر الأصول أنَّ نقشَ خاتم موسى عليه السلام: «لكل أجل كتاب»[٦] وقد مضى في الرعد[٧].

وبلغَ عمرَ بنَ عبد العزيز أنَّ ابنه اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه: إنه بلغني

---

(١) صحيح البخاري (٥٨٧٧). وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٠٩١)، ومسلم (٢٠٩٢).

(٢) المفهم ٥/ ٤١١ .

(٣) ينظر الاستذكار ٢٦/ ٣٥٨ .

(٤) أخرجه أحمد (١٧٢١١)، وأبو داود (٤٠٤٩)، والنسائي في المجتبى ٨/ ١٤٣ - ١٤٤ وفي الكبرى (٩٣١٣). ولفظه عند أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن الخاتم إلا لذي سلطان.

(٥) ذكرهما ابن رجب في كتاب أحكام الخواتيم ص٧٥ .

(٦) لم نقف عليه في مطبوع نوادر الأصول. وذكره ابن رجب في كتاب أحكام الخواتيم ص٦٦ .

(٧) ص٨٧ من هذا الجزء.

أنكَ اشتريتَ خاتماً بألف درهم، فبِعْهُ وأطعمْ منه ألفَ جائع، واشترِ خاتماً من حديدٍ بدرهم، واكتب عليه: رَحِمَ اللهُ امْرَأً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِه[1].

الثامنة: مَنْ حَلَفَ ألّا يلبسَ حُلِيًّا، فلبس لؤلؤاً؛ لم يحنثْ؛ وبه قال أبو حنيفة. قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: لأن هذا وإن كان الاسمُ اللغويُّ يتناولُه فلم يقصده باليمين، والأيمان تُخَص بالعرف، ألّا تَرى أنه لو حلف ألّا ينامَ على فراشٍ، فنام على الأرض؛ لم يحنَث، وكذلك لا يستضيء بسراج، فجلس في الشمس؛ لا يحنث، وإنْ كان اللهُ تعالى قد سَمَّى الأرضَ فراشاً، والشمس سراجاً.

وقال الشافعيُّ وأبو يوسف ومحمد: مَنْ حلف ألّا يلبس حُلِيًّا، ولبس اللؤلؤَ، فإنه يحنث؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والذي يخرج منه: اللؤلؤ والمرجان[2].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ قد تقدَّم ذكر الفُلْك وركوب البحر في «البقرة»[3] وغيرها.

وقوله: «مَوَاخِرَ» قال ابن عباس: جَوارِيَ[4]، من جَرَت تجري. سعيد بن جُبير: معترضة. الحسن: مواقر[5]. قتادة والضحاك: أي: تذهب وتجيء، مقبلةً ومدبرةً بريحٍ واحدة[6]. وقيل: «مواخر»: ملججة في داخل البحر؛ وأصلُ المَخْرِ: شقُّ الماء عن يمين وشمال.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/٣٠٦ . وأورده المناوي في فيض القدير ٤/٢٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٣٦ .

(٣) ٢/٩٠ و ٤٩٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٤٨٥).

(٥) أخرجه الطبري ١٤/١٨٦ . وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/٤٣٥ وقال: يعني المملوءة.

(٦) أخرج عبد الرزاق ٢/٣٥٤ ، والطبري ١٤/١٨٨ قول قتادة. وأخرج ابن أبي حاتم (١٢٤٨٨) قول الضحاك، وذكره النحاس في معاني القرآن ٤/٥٩ .

مَخَرتِ السفينةُ تَمْخَرُ وتَمْخُرُ مَخْراً ومُخوراً: إذا جَرَتْ تشقُّ الماءَ مع صوت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ يعني جَوارِيَ؛ قاله الجوهري[١]. ومَخَرَ السابحُ: إذا شَقَّ الماءَ بصدره، ومَخَرَ الأرضَ: شقَّها للزراعة، ومَخَرَها بالماء: إذا حبسَ الماءَ فيها حتى تصير أرِيضة، أي: خليقةً بجودة نبات الزرع.

وقال الطبري[٢]: المَخْرُ في اللغة: صوتُ هبوبِ الريح. ولم يقيِّد كونه في ماء. وقال: إنَّ من ذلك قولَ واصل مولى أبي عُيينة: إذا أرادَ أحدُكم البولَ فليتمخَّرِ الريح[٣]، أي: لينظر في صوتها في الأجسام من أين تَهُبُّ، فيتجنَّب استقبالَها؛ لئلا تردَّ عليه بَوْلَه.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ولتركبوه للتجارة وطلب الربح. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تقدم جميع هذا في «البقرة»[٤]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثابتة. رَسَا يرسو: إذا ثبت وأقام. قال:

فصَبَرْتُ عارِفةً لذلك حُرَّةً ... ترسو إذا نفسُ الجبان تطلَّعُ[٥]

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلَّا تَميدَ؛ عند الكوفيين. وكراهية أن تميد؛ على قول البصريين. والمَيْد: الاضطراب يميناً وشمالاً[٦]؛ ماد الشيءُ، يَميدُ ميداً: إذا تحرك؛

(١) في الصحاح (مخر).

(٢) في تفسيره ١٤/١٨٨ .

(٣) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٢/١٩٣ . وينظر تلخيص الحبير ١/١٠٧ .

(٤) ٢/٤٩٤ .

(٥) قائله عنترة، وهو في ديوانه ص٤٩ . وتقدم ٢/ ٦٥ .

(٦) تفسير الرازي ٢٠/ ٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٣ .

ومادتِ الأغصانُ: تمايلت، ومادَ الرجلُ: تبختر[١].

قال وهب بن مُنَبِّه: خلق اللهُ الأرضَ فجعلت تميد وتمور، فقالت الملائكة: إنَّ هذه غير مُقِرَّةٍ أحداً على ظهرها. فأصبحت وقد أُرْسِيت بالجبال، ولم تدرِ الملائكةُ ممَّ خُلقت الجبال[٢].

وقال عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ: لَمَّا خلقَ اللهُ الأرضَ قَمَصَت ومالت، وقالت: أيْ رَبِّ، أتجعل عليَّ مَنْ يعمل بالمعاصي والخطايا، ويُلقي عليَّ الجِيف والنَّتْن! فأرْسَى اللهُ تعالى فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون[٣].

ورَوَى الترمذيُّ في آخر كتاب التفسير: حدَّثنا محمد بن بشار، حدَّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوَّام بن حَوْشَب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأرضَ جعلتْ تَمِيدُ، فخلقَ الجبالَ، فعادَ بها عليها، فاستقرَّت، فعَجِبتِ الملائكةُ مِنْ شِدَّةِ الجبالِ؛ قالوا: يَا ربِّ هل مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الجبالِ؟ قال: نعم، الحديدُ. قالوا: يا رَبِّ، فهلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الحديدِ؟ قال: نعم، النارُ. فقالوا: يا رَبِّ، فهلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ النارِ؟ قال: نعم، الماء. قالوا: يا رَبِّ، فهلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الماءِ؟ قال: نعم، الريحُ. قالوا: يا رَبِّ، فهلْ مِنْ خَلْقِكَ شيءٌ أَشَدُّ مِنَ الريحِ؟ قال: نعم، ابنُ آدمَ؛ تَصَدَّقَ بصَدَقةٍ بيمينِهِ يُخفيها مِنْ شِمالِهِ». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه[٤].

قلت: وفي هذه الآية أدلُّ دليلٍ على استعمال الأسباب، وقد كان قادراً على

---

(١) الصحاح (ميد).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٦٤ . وأخرج نحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٤ ، والطبري ١٤/ ١٩٠ عن الحسن.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٨٩ - ١٩٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٠٦). وحسَّن إسناده ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٣٨٥ . وقوله: قمصت؛ نفرت. النهاية (قمص). وفي العظمة: نطقت بدل: قمصت.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٦٩). وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٢٥٣)، وإسناده ضعيف.

سكونها دون الجبال. وقد تقدَّم هذا المعنى[١].

﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾ أي: وجعل فيها أنهاراً، أو: أَلقَى فيها أنهاراً. ﴿وَسُبُلًا﴾ أي: طُرُقاً ومسالكَ.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى حيث تقصِدون من البلاد، فلا تَضِلُّون ولا تَتحيَّرون[٢].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ﴾ قال ابن عباس: العلاماتُ: معالمُ الطُّرقِ بالنهار، أي: جعل للطُّرق علاماتٍ يقع الاهتداءُ بها. ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني بالليل، والنجمُ يراد به النجوم[٣].

وقرأ ابنُ وَثَّاب: «وبِالنُّجْم». الحسن: بضم النون والجيم جميعاً[٤]، ومراده النجوم، فقصره؛ كما قال الشاعر:

إنَّ الفقيرَ بيننا قاضٍ حَكَمْ   أنْ تَرِدِ الماءَ إذا غابَ النُّجُمْ

وكذلك القول لمن قرأ: «النُّجْم»؛ إلَّا أنه سَكَّنَ استخفافاً. ويجوز أن يكون النُّجُم جمعَ نَجْم، كسُقُف وسَقْف[٥].

واختلف في النجوم؛ فقال الفراء[٦]: الجَدْي والفرقدان.

---

(١) ٥/ ٢٩٠.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٩١ - ١٩٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ١٩٢.

(٤) ذكر ابن خالويه ص٧٢ قراءة الحسن. وذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٨ القراءتين.

(٥) ينظر المحتسب ٢/ ٨. وفيه الرجز دون نسبة.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٩٨.

وقيل: الثريا؛ قال الشاعر:

حتى إذا ما استقلَّ النَّجْمُ في غَلَسٍ وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومحصودُ[١]

أي: منه ملويٌّ، ومنه محصود، وذلك عند طلوع الثريا يكون.

وقال الكَلْبِيُّ: العلامات: الجبال. وقال مجاهد: هي النجوم؛ لأن من النجوم ما يُهتَدى بها، ومنها ما يكون علامة لا يُهتدى بها؛ وقاله قَتادة والنَّخَعِيّ[٢].

وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾، ثم ابتدأ وقال: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[٣]. وعلى الأوَّل: أي: وجعل لكم علاماتٍ ونجوماً تهتدون بها. ومن العلامات الرياح يُهتدَى بها.

وفي المراد بالإهتداء قولان: أحدهما: في الأسفار، وهذا قول الجمهور. الثاني: في القِبْلة. وقال ابن عباس: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ قال: «هو الجَدْيُ يا ابنَ[٤] عباس، عليه قِبلتُكم، وبه تهتدون في بَرِّكم وبَحركم» ذكره الماوردي[٥].

الثانية: قال ابن العربيّ[٦]: أمَّا جميع النجوم فلا يَهتدِي بها إلا العارفُ بمطالعها ومغاربها، والمفرِّقُ[٧] بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل في الآخِرين. وأما

---

(١) قائله ذو الرمة، وهو في شرح ديوانه ٢/١٣٦٦ . وفيه: وأحصد البقل أو مُلْوٍ ومحصود قال شارحه أبو نصر: استقل النجم: أي طلع بعد النور عند الصبح.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٤/ ١٩٢ - ١٩٣ . وينظر زاد المسير ٤/ ٤٣٦ .

(٣) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٦٤ .

(٤) في (ظ): قال ابن. وانظر التعليق التالي.

(٥) في النكت والعيون ٣/ ١٨٢ - ١٨٣ . وحديث ابن عباس ذكره الديلمي في مسند الفردوس (٢٦٤٧). وذكره أبو حيان في البحر ٥/ ٤٨١ إلى قوله: «الجدي» وقال: ولو صح هذا لم يعدل أحد عنه. اهـ وجعل آخر الحديث موقوفاً على ابن عباس، وهو الموافق لـ (ظ).

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١١٣٧ .

(٧) في النسخ: والفرق. والمثبت من أحكام القرآن.

الثُّريَّا فلا يهتدي بها إلا مَن يَهتدي بجميع النجوم. وإنما الهَدْي لكلِّ أحدٍ بالجَدْي والفَرْقَدين؛ لأنها من النجوم المنحصرةِ المطالع، الظاهرةِ السَّمْت، الثابتةِ في المكان، فإنها تدور على القطب الثابت دوراناً مُحصَّلاً، فهي أبداً هَدْيُ الخلق في البَرِّ إذا عميتِ الطرقُ، وفي البحر عند مَجرَى السفن، وفي القِبْلة إذا جُهل السَّمْتُ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطبَ على ظَهْرِ منكبكَ الأيسر، فما استقبلتَ فهو سَمْتُ الجهة.

قلت: وسأل ابنُ عباس رسولَ الله ﷺ عن النجم فقال: «هو الجَدْي، عليه قبلتكم، وبه تهتدون في بَرِّكم وبحركم». وذلك أنَّ آخرَ الجدي بناتُ نَعْشٍ الصغرى والقطب الذي تستوي عليه القبلة بينهما.

الثالثة: قال علماؤنا: وحكم استقبال القبلة على وجهين:

أحدهما: أن يراها ويعاينها، فيلزمَه استقبالُها وإصابتُها وقصدُ جهتها بجميع بدنه.

والآخر: أن تكون الكعبة بحيث لا يراها، فيلزمه التوجُّهُ نحوها وتلقاءها بالدلائل؛ وهي الشمسُ والقمرُ والنجومُ والرياحُ، وكلُّ ما يمكن به بمعرفة جهتها. ومَن غابت عنه، وصلَّى مجتهداً إلى غير ناحيتها، وهو ممن يمكنه الاجتهاد؛ فلا صلاة له. فإذا صلَّى مجتهداً مستدِلًا، ثم انكشف له بعد الفراغ من صلاته أنه صَلَّى إلى غير القبلة، أعاد إن كان في وقتها، وليس ذلك بواجب عليه؛ لأنه قد أدَّى فرضَه على ما أُمِرَ به[1]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[2] مستوفًى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هو الله تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ يريد الأصنام. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تَخلقُ ولا تَضرُّ ولا تنفع، كما يُخبر عمَّن يعقلُ على

(١) الكافي لابن عبد البر ١/١٩٨، وينظر التمهيد ١٧/ ٥٤.

(٢) ٢/ ٤٤٣.

ما تستعمله العرب في ذلك؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذُكرت بلفظ «مَن»، كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ﴾ [الأعراف: ١٩٥] وقيل: لاقتران الضمير في الذِّكر بالخالق.

قال الفراء: هو كقول العرب: اشتبه عليَّ الراكبُ وجملُه، فلا أدري مَن ذا ومَن ذا؛ وإنْ كان أحدُهما غير إنسان[1].

قال المَهْدَوِيّ: ويُسأل بـ «من» عن البارئ تعالى، ولا يُسأل عنه بـ «ما»؛ لأن «ما» إنما يُسأل بها عن الأجناس، والله تعالى ليس بذي جنس، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، ولم يُجب حين قال له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] إلا بجواب «مَن»، وأضرَب عن جواب «ما» حين كان السؤالُ فاسداً. ومعنى الآية: مَن كان قادراً على خَلْقِ الأشياءِ المتقدمةِ الذِّكْرِ، كان بالعبادة أحقَّ ممَن هو مخلوقٌ لا يَضرُّ ولا يَنفع؛ ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١] ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ تقدم في إبراهيم[2]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: ما تُبطنونه وما تظهرونه. وقد تقدَّم جميع هذا مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قراءة العامة: «تدعون» بالتاء؛ لأن ما قبله خطاب. رَوَى أبو بكر عن عاصم وهُبيرة عن حفص: «يدعون» بالياء، وهي

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/٩٨ . ووقع في مطبوعه: وحمله، وهو خطأ.

(٢) ص١٤٥ من هذا الجزء.

قراءة يعقوب[١]. فأما قوله: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما رَوَى هُبيرةُ، عن حفص، عن عاصم أنه قرأ بالياء[٢].

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدرون على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي: هم أموات؛ يعني الأصنامَ، لا أرواح فيها، ولا تَسمع، ولا تُبصر، أي: هي جماداتٌ، فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة؟! ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني الأصنام ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

وقرأ السُّلَمِيُّ: «إِيَّان» بكسر الهمزة[٣]، وهما لغتان، وموضعه نصب بـ«يبعثون» وهي في معنى الاستفهام؛ والمعنى: لا يدرون متى يبعثون. وعَبَّر عنها كما عَبَّر عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تَعقل عنهم وتَعلم وتَشفع لهم عند الله تعالى، فجَرَى خطابهم على ذلك.

وقد قيل: إنَّ اللهَ يبعث الأصنامَ يوم القيامة ولها أرواح، فتتبرأ من عبادتهم، وهي في الدنيا جماد لا تَعلم متى تُبعث.

قال ابن عباس: تُبعث الأصنامُ، وتُركَّبُ فيها الأرواحُ ومعها شياطينها، فيتبرؤون من عَبَدتهم[٤]، ثم يُؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار[٥].

وقيل: إنَّ الأصنامَ تُطرح في النار مع عَبَدتها يوم القيامة؛ دليله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

وقيل: تَمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات، وهذا الموت موت كفر. «وما يشعرون أيان يبعثون» أي: وما

---

(١) لا خلاف عن عاصم بقراءتها بالياء. ينظر السبعة ص٣٧١ ، والتيسير ص١٣٧ ، والنشر ٢/ ٣٠٣ .

(٢) السبعة ص٣٧١ ، والقراءة المتواترة عن عاصم بالتاء، كالجماعة.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٢ ، والمحتسب ٢/ ٩ .

(٤) في (م): عبدتها.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٣٧ - ٤٣٨ .

يدري الكفارُ متى يبعثون، أي: وقت البعث؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدُّوا للقاء الله. وقيل: أي: وما يُدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريباً.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لَمَّا بيَّنَ استحالةَ الإشراكِ بالله تعالى، بيَّنَ أنَّ المعبودَ واحدٌ لا ربَّ غيره، ولا معبودَ سواه. ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أي: لا تقبل الوعظَ، ولا ينجع فيها الذكر، وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متكبِّرون متعظِّمون عن قبول الحق. وقد تقدَّم في «البقرة»[1] معنى الاستكبار.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: من القول والعمل فيجازيهم.

قال الخليل: «لا جرم» كلمةُ تحقيق، ولا تكون إلا جواباً؛ يقال: فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جَرَمَ سيندمون. أي: حقًّا أنَّ لهم النار[2]. وقد مضى القول في هذا في «هود»[3] مستوفًى.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: لا يُثيبهم ولا يثني عليهم.

وعن الحسين بن عليٍّ أنه مَرَّ بمساكين قد قدَّموا كِسَراً بينهم[4] وهم يأكلون، فقالوا: الغداءَ يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم، وقال: «إنه لا يحِبُّ المستكبِرين» فلما فرغ قال: قد أَجبتُكم، فأَجيبوني، فقاموا معه إلى منزله، فأطعمهم، وسقاهم،

(١) ١/٤٤١ .

(٢) ينظر العين للخليل ٦/١١٩ ، وكتاب سيبويه ٣/١٣٨ .

(٣) ١١/٩٤ - ٩٥ .

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): لهم.

وأعطاهم، وانصرفوا[١]. قال العلماء: وكلُّ ذنبٍ يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكِبرَ؛ فإنه فسقٌ يلزمه الإعلان، وهو أصلُ العصيانِ كلِّه. وفي الحديث الصحيح: «إنَّ المتكبرينَ يُحشرون أمثالَ الذَّرِّ يومَ القيامة، يَطؤهم الناسُ بأقدامهم لتكبُّرهم» أو كما قال ﷺ[٢]. تَصْغُر لهم أجسامُهم في المحشر حتى يضرّهم صِغَرُها، وتَعْظُم لهم في النار حتى يضرّهم عِظَمُها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: وإذا قيل لمن تقدَّم ذكرُه ممن لا يؤمن بالآخرة، وقلوبهم منكرة بالبعث: «ماذا أنزل ربكم؟»[٣].

قيل: القائل النضر بن الحارث، وأن الآية فيه نزلت، وكان خرج إلى الحِيرة فاشتَرى أحاديث «كَلِيلة ودِمْنة» فكان يقرأ على قريش ويقول: ما يقرأُ محمدٌ على أصحابه إلا أساطيرَ الأولين، أي: ليس هو من تنزيل ربِّنا[٤]. وقيل: إنَّ المؤمنين هم القائلون لهم اختباراً[٥]، فأجابوا بقولهم: «أساطِير الأوّلِين». فأقرُّوا بإنكار شيء هو أساطير الأوَّلين.

والأساطير: الأباطيل والتُّرَّهات. وقد تقدَّم في الأنعام[٦].

والقول في «ماذا أنزل ربكم» كالقول في «ماذا ينفقون»[٧].

---

(١) أخرج نحوه مختصراً أحمد في الزهد ص٢١٣، والطبري في تفسيره ١٤/١٩٨، وابن العديم في بغية الطلب ٦/ ٢٥٩٠.

(٢) أخرج نحوه أحمد (٦٦٧٧)، والترمذي (٢٤٩٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ولفظه: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم...». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٤.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٧. وتقدم ٩/ ٤٩٥.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٤.

(٦) ٨/ ٣٤٦.

(٧) تقدم ٣/ ٤١٣.

وقوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبرُ ابتداءٍ محذوف؛ التقدير: الذي أنزله أساطير الأولين[1].

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ قيل: هي لام كَي، وهي متعلقةٌ بما قبلها. وقيل: لام العاقبة؛ كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]؛ أي: قولُهم في القرآن والنبيِّ أدَّاهم إلى أن حملوا أوزارهم، أي: ذنوبَهم. ﴿كَامِلَةً﴾ لم يتركوا منها شيئاً لنكبةٍ أصابتهم في الدنيا بكفرهم. وقيل: هي لام الأمر، والمعنى التهدّد[2].

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال مجاهد: يحملون وِزْرَ مَن أضلُّوه، ولا يَنْقُص من إثمِ المُضَلِّ شيءٌ[3].

وفي الخبر: «أيُّما داعٍ دَعَا إلى ضَلالةٍ فَاتُّبِعَ، فإنَّ عليه مِثْلَ أَوْزارِ مَنِ اتَّبَعَهُ، مِنْ غير أنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزارِهم شيءٌ، وأيُّما داعٍ دَعَا إلى هُدًى فَاتُّبِعَ، فَلَهُ مِثْلُ أُجُورِهم، مِنْ غير أنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهم شيءٌ» خرَّجه مسلم بمعناه[4].

و«مِن» للجنس لا للتبعيض؛ فدُعاة الضلالة عليهم مثلُ أوزارِ مَنِ اتَّبعهم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يُضِلُّون الخلقَ جهلاً منهم بما يلزمهم من الآثام؛ إذ لو علموا لَمَا أضلُّوا. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس الوزرُ الذي يحملونه. ونظير هذه الآية: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]. وقد تقدَّم في آخر

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٤.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٣. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٥٠٦)، والطبري ١٤/ ٢٠٠.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبري ١٤/ ٢٠١ عن الربيع مرفوعاً. وأخرجه مسلم (٢٦٧٤) بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

«الأنعام»[١] بيان قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: سبقهم بالكفر أقوامٌ مع الرسل المتقدِّمين، فكانت العاقبةُ الجميلة للرسل. ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما: إنه النُّمْرود بن كنعان وقومُه، أرادوا صعودَ السماء وقتالَ أهله، فبَنَوا الصرحَ؛ ليصعَدوا منه بعد أن صَنَعَ بالنسورِ ما صنع، فخرَّ؛ كما تقدَّم بيانُه في آخر سورةِ إبراهيم[٢]. ومعنى «فَأَتَى اللهُ بنيانَهُم» أي: أتى أمرُه البنيانَ، إمّا زلزلةً أو ريحاً، فخرَّبته.

قال ابن عباس ووهب: كان طولُ الصَّرْح في السماء خمسةَ آلاف ذراعٍ، وعرضُه ثلاثةَ آلاف. وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين، فهبَّت ريحٌ فألقت رأسه في البحر وخرَّ عليهم الباقي. ولمَّا سقط الصرح، تبلبلت ألْسُنُ الناس من الفزع يومئذٍ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً، فلذلك سُمِّيَ بابل، وما كان لسانٌ قبل ذلك إلَّا السُّرْيانية[٣]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[٤].

وقرأ ابن هُرْمز وابن مُحَيْصن «السُّقُف» بضم السين والقاف جميعاً[٥]. وضمَّ مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفاً[٦]، كما تقدَّم في «وبالنجم» في الوجهين[٧].

---

(١) ٩/ ١٤٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٨٥ – ١٨٦ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٠٤ – ٤٠٥ عنهما. وهي أخبار غير صحيحة وسلف الكلام ٩/ ٣٨٠ – ٣٨١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٦٦ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٤ . وردَّ ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٤٠ سبب تسمية بابل بهذا الاسم.

(٤) ١/ ٤٢٣ .

(٥) القراءات الشاذة ص٧٢ ، وينظر البحر المحيط ٥/ ٤٨٥ .

(٦) المحتسب ٢/ ٩ .

(٧) يعني عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الآية ١٦ من هذه السورة.

والأشبهُ أن يكون جمع سقف. والقواعدُ أصولُ البناء، وإذا اختلَّت القواعد، سقط البناء.

وقوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ قال ابن الأعرابي: وُكِّد[١] ليُعلمَك أنَّهم كانوا حالِّين تحته. والعرب تقول: خرَّ علينا سقفٌ، ووقع علينا حائطٌ إذا كان يملكه وإن لم يكن وقعَ عليه، فجاء بقوله: «مِن فوقِهِم» ليخرجَ هذا الشك الذي في كلام العرب، فقال: «من فوقهم»، أي: عليهم وقع وكانوا تحتَه، فهلكوا وما أُفلتوا[٢].وقيل: إنَّ المراد بالسقفِ السماءُ؛ أي: إن العذابَ أتاهم من السماء التي هي فوقهم، قاله ابن عباس[٣]. وقيل: إن قوله: «فأتى اللهُ بنيانَهم من القواعِدِ» تمثيل، والمعنى: أهلكهم، فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه[٤]. وقيل: المعنى أحبط الله أعمالهم، فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه[٥]. وقيل: المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم، فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه[٦]. وعلى هذا اختُلِفَ في الذين خرَّ عليهم السقف، فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدَّم[٧]. وقيل: إنه بُخْتَنَصَّر وأصحابه، قاله بعضُ المفسرين. وقيل: المرادُ المقتسمون الذي ذكرهم الله في سورة الحجر، قاله الكلبيُّ. وعلى هذا التأويل يخرجُ وجهُ التمثيل، والله أعلم.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث ظَنُّوا أنهم في أمان[٨].

---

(١) في (د) و(ظ): وكذا.

(٢) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٥ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٠٦ .

(٤) قاله ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص٢٤٢ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٥ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٣ .

(٧) كذا قال، والذي سلف أنه زيد بن أسلم، وكذلك هو في النكت والعيون ٣/ ١٨٦ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٦٦ ، والوسيط ٣/ ٦٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤٤١ .

وقال ابن عباس: يعني البعوضةَ التي أهلكَ الله بها نُمروداً(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يفضحهم بالعذاب، ويُذلُّهم به ويهينهم. ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أي: بزعمكم وفي دعواكم، أي: الآلهة التي عبدتُم دوني، وهو سؤالُ توبيخ(٢). ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تعادون أنبيائي بسببهم، فَلْيدفعوا عنكم هذا العذاب. وقرأ ابن كَثِير: «شُركَايَ» بياءٍ مفتوحةٍ من غير همز، والباقون بالهمز(٣). نافع: «تُشَاقُّونِ» بكسر النون على الإضافة، أي: تعادونني فيهم. وفتحها الباقون(٤). ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال ابن عباس: أي: الملائكة. وقيل: المؤمنون(٥). ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: الهوان والذل يوم القيامة. ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب(٦). ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هذا من صفةِ الكافرين. و«ظَالِمِي أنفُسِهِم» نَصبٌ على الحال، أي: وهم ظالمون أنفسَهم إذ أوردوها مواردَ الهلاك. ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام(٧). أي: أقرُّوا لله بالربوبية، وانقادوا عند

---

(١) نُمروذ بالذال، وأهل البصرة يقولون: نمرود بالدال. مجالس ثعلب ص١٨١ .

(٢) الوسيط ٣/ ٦٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٨ .

(٣) السبعة ص٣٧١ ، و التيسير ص١٣٧ ، وقراءة ابن كثير هذه هي من رواية البزي بخلاف عنه.

(٤) السبعة ص٣٧١ - ٣٧٢ ، والتيسير ص١٣٧ .

(٥) زاد المسير ٤/ ٤٤١ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢١ ، ونسبَ ابن عطية القول الثاني في المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٨ إلى يحيى بن سلام.

(٦) تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٦٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٨٩ .

الموت، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ أي: من شرك. فقالت لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰٓ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء[١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآيةُ بالمدينة في قومٍ أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فأخرجتهم قريش إلى بدر كُرهاً فقُتِلوا بها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بقبض أرواحِهم[٢]. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في مُقامهم بمكةَ وتركِهم الهجرة. ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني: في خروجِهم معهم. وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه الصلح؛ قاله الأخفش.

الثاني: الاستسلام؛ قاله قُطْرُب.

الثالث: الخضوع؛ قاله مقاتل.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ يعني: من كفر. ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أنَّ أعمالكم أعمالُ الكفار[٣]. وقيل: إنَّ بعض المسلمين لمَّا رأوا قلةَ المؤمنين رجعوا إلى المشركين، فنزلت فيهم[٤]. وعلى القولِ الأول، فلا يخرج كافرٌ ولا منافق من الدنيا حتى ينقادَ ويستسلِم، ويخضعَ ويَذِل، ولا تنفعهم حينئذٍ توبةٌ ولا إيمان، كما قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]. وقد تقدَّم هذا المعنى، وتقدَّم في «الأنفال» أن الكفارَ يُتوفَّون بالضرب والهوان، وكذلك في «الأنعام»[٥]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٦].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٤٢.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٨٩.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٦.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٣.

(٥) الأنفال ١٠/ ٤٤ - ٤٥، والأنعام ٩/ ١٢٧.

(٦) ص١٧ و ٢٠ و ٢٧.

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُقال لهم ذلك عندَ الموت. وقيل: هو بِشارةٌ لهم بعذاب القبر؛ إذ هو بابٌ من أبواب جهنَّم للكافرين. وقيل: لا تصلُ أهلُ الدركة الثانية إليها مثلاً إلَّا بدخول الدركةِ الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة هكذا. وقيل: لكل دركةٍ بابٌ مفرد، فالبعضُ يدخلون من بابٍ، والبعض يدخلون من بابٍ آخر. فاللهُ أعلم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها[١]. ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أي: مقام ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: الذين تكبَّروا عن الإيمان، وعن عبادةِ الله تعالى[٢]، وقد بيَّنهم بقوله الحقّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي: قالوا: أنزل خيراً[٣]، وتَمَّ الكلام. و«ماذا» على هذا اسمٌ واحد[٤]. وكان يَرِدُ الرجلُ من العرب مكَّةَ في أيام الموسم، فيسألُ المشركين عن محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فيقولون: ساحرٌ أو شاعرٌ، أو كاهنٌ أو مجنون، ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزلَ الله عليه الخيرَ والهدى[٥]، والمرادُ القرآن[٦]. وقيل: إنَّ هذا يُقال لأهل الإيمانِ يوم القيامة. قال

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٢٠٩.

(٢) الوسيط ٣/ ٦١.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢١٠، والكشاف ٢/ ٤٠٧، وزاد المسير ٤/ ٤٤٣.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٩٦.

(٥) الوسيط ٣/ ٦١، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠.

الثعلبي: فإن قيل: لِمَ ارتفع الجوابُ في قوله: «أساطِيرُ الأوّلين» وانتصبَ في قوله: «خيراً»؟ فالجوابُ: أنَّ المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنَّهم قالوا: الذي يقوله محمدٌ هو أساطيرُ الأوَّلين. والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيراً[1]. وهذا مفهوم معناه من الإعراب، والحمدُ لله.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل: هو من كلامِ الله عزَّ وجلَّ. وقيل: هو من جملة كلامِ الذين اتقَوا[2]. والحسنةُ هنا: الجنة، أي: مَن أطاع الله فله الجنةُ غداً. وقيل: «للذين أحسنوا» اليومَ حسنةٌ في الدنيا من النصرِ والفتح والغَنِيمة[3]: ﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا[4]؛ لفنائها وبقاءِ الآخرة. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيه وجهان: قال الحسن: المعنى: ولنِعمَ دارُ المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعملِ فيها ثوابَ الآخرة ودخولَ الجنة. وقيل: المعنى: ولنعم دارُ المتقين الآخرة[5]. وهذا قولُ الجمهور، وعلى هذا تكون ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلاً من الدار، فلذلك ارتفع[6]. وقيل: ارتفعَ على تقديرِ: هي جنات، فهي مبيِّنةٌ لقوله: «دَارُ المتَّقِين»، أو تكون مرفوعةً بالابتداء، التقدير: جناتُ عدنٍ نِعمَ دارُ المتقين[7]. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في موضع الصفة، أي: مدخولة. وقيل: «جنات» رُفع بالابتداء، وخبرُه «يدخلونها»[8] وعليه يُخرَّج قولُ الحسن.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢١٠ ، والكشاف ٢/ ٤٠٧ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٦٧ ، وزاد المسير ٤/ ٤٤٣ .

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢١٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٧ ، وزاد المسير ٤/ ٤٤٣ .

(٦) ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية.

(٧) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٩٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠ .

والله أعلم. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ تقدَّم معناه في «البقرة»[١]. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: مما تمنَّوه وأرادوه[٢]. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: مثل هذا الجزاءِ يجزي الله المتقين.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة: «يتوفاهم الملائكة» في الموضعين بالياء، واختاره أبو عبيد؛ لما رُوي عن ابنِ مسعود أنه قال: إنَّ قريشاً زعموا أنَّ الملائكة إناثٌ فذكِّروهم أنتم. الباقون بالتاء[٣]؛ لأن المرادَ به الجماعةُ من الملائكة. و﴿طَيِّبِينَ﴾ فيه ستةُ أقوال:

الأوّل: «طَيِّبين»: طاهرين من الشرك.

الثاني: صالحين.

الثالث: زاكيةً أفعالهم وأقوالهم.

الرابع: طَيِّبة[٤] الأنفس ثقةً بما يَلقَونَه من ثواب الله تعالى.

الخامس: طيبةً نفوسُهم بالرجوعِ إلى الله.

السادس: «طيبين» أن تكون وفاتهم طيِّبةً سهلةً لا صعوبةَ فيها ولا ألَمَ، بخلافِ ما تُقبض به روحُ الكافر والمُخلِّط[٥]. والله أعلم.

﴿يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكونَ السلامُ إنذاراً لهم بالوفاة. الثاني: أن يكون تبشيراً لهم بالجنة؛ لأنَّ السلامَ أمان[٦]. وذكر ابنُ المبارك

---

(١) ١/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٤.

(٣) السبعة ص٣٧٢، والتيسير ص١٣٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٠، وذكر أثر ابن مسعود مكي بن أبي طالب في الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٣٧، وسلف نحوه ٥/ ١١٢.

(٤) في (ظ) و(م): طيبين.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٧، وزاد المسير ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٨٧.

قال: حدَّثني حَيْوَة قال: أخبرني أبو صخر، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ قال: إذا اسْتَنْقَعَتْ نفسُ العبدِ المؤمن؛ جاءه مَلَك الموت فقال: السلامُ عليك وَليَّ الله، الله يقرأُ عليك السلام. ثم نزعَ بهذه الآية: «الذين تتوفاهم الملائكة طيِّبين يقولونَ سلام عليكم»[(١)].

وقال ابن مسعود: إذا جاء ملكُ الموت يقبض روحَ المؤمن قال: ربُّك يُقرئكَ السلام. وقال مجاهد: إنَّ المؤمن لَيُبَشَّرُ بصلاحِ ولده من بعده لِتَقَرَّ عينُه. وقد أتينا على هذا في «كتاب التذكرة»[(٢)] وذكرنا هناك الأخبارَ الواردة في هذا المعنى، والحمد لله.

وقوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون معناه: أبْشِروا بدخولِ الجنة. الثاني: أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: في الدنيا من الصَّالحات[(٣)].

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ هذا راجعٌ إلى الكفار، أي: ما ينتظرون إلَّا أن تأتيَهُم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسِهم. وقرأ الأعمشُ وابن وَثَّاب وحمزة والكسائيُّ وخَلَف: «يأتيهم الملائكة» بالياء، والباقون بالتاء على ما تقدَّم[(٤)]. ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: بالعذاب من القتل، كيومِ بدر، أو الزلزلةِ والخَسْفِ في الدنيا. وقيل: المرادُ يومُ القيامة[(٥)]. والقومُ لم ينتظروا هذه الأشياءَ؛

---

(١) الزهد لابن المبارك ص١٤٩، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة ص٢٠٢، وهو مقطوع، وسلف ١١/ ١٧ - ١٨.

(٢) ص٥٠، وأخرج أثرَ مجاهد أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٨٥، وأخرج أثرَ ابن مسعود المروزيُّ، وابنُ أبي الدنيا، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور ٥/ ٢٠٦.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٧.

(٤) السبعة ص٣٧٢، والتيسير ص١٠٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩١.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢١٤، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٤، وتفسير البغوي ٣/ ٦٨، وزاد المسير ٤/ ٤٤٤.

لأنهم ما آمنوا بها، ولكنَّ امتناعَهم عن الإيمان أوجبَ عليهم العذاب، فأُضيف ذلك إليهم، أي: عاقبتهم العذاب. ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: أصرُّوا على الكفر، فأتاهم أمرُ الله، فهلكوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بتعذيبهم وإهلاكِهم، ولكن ظلموا أنفسَهم بالشرك[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ قيل: فيه تقديمٌ وتأخير، التقدير: كذلك فعلَ الذين من قبلهم فأصابهم سيئاتُ ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون، فأصابهم عقوباتُ كفرهم وجزاءُ الخبيث من أعمالهم[2]. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاطَ بهم ودار. ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: عقاب استهزائِهم[3].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: شيئاً، و«مِن» صلة. قال الزجَّاج[4]: قالوه استهزاءً، ولو قالوه عن اعتقادٍ لكانوا مؤمنين. وقد مضى هذا في سورةِ الأنعام[5] مبيَّناً معنًى وإعراباً، فلا معنى للإعادة.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: مثل هذا التكذيبِ والاستهزاءِ فعلَ مَن كان قبلهم بالرسل، فأُهلكوا. ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: ليس عليهم إلَّا

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٦٨، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٦.

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٩٧.

(٥) ٩/ ١٠٢.

التبليغُ، وأمَّا الهدايةُ؛ فهي إلى الله تعالى[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: بأنِ اعبدوا اللهَ ووحِّدوه. ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اتركوا كُلَّ معبودٍ دون الله، كالشيطانِ والكاهن والصنم، وكلَّ مَن دعا إلى الضَّلالِ. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: أرشده إلى دينِه وعبادته[٢]. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: بالقضاء السَّابق عليه حتى مات على كفره[٣]، وهذا يردُّ على القَدَريَّة؛ لأنهم زعموا أنَّ الله هدى الناسَ كلَّهم ووفَّقهم للهدى، واللهُ تعالى يقول: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ وقد تقدَّم هذا في غيرِ موضع[٤]. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فسيروا معتبرين في الأرض. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: كيف صار آخرُ أمرِهم إلى الخرابِ والعذابِ والهلاك[٥].

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ أي: إن تطلب يا محمدُ بجُهدك هداهم؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: لا يُرشد مَن أضلَّهُ، أي: مَن سبق له مِن الله

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٥، وزاد المسير ٤/ ٤٤٥.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢، والوسيط ٣/ ٦٢، والبغوي ٣/ ٦٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٦٨.

(٤) ينظر ١٠/ ٤٨١ - ٤٨٢.

(٥) الوسيط ٣/ ٦٢، وتفسير البغوي ٣/ ٦٨.

الضلالةُ؛ لم يهده[(١)]. وهذه قراءةُ ابن مسعود، وأهلِ الكوفة[(٢)]. فـ «يَهْدِي» فعلٌ مستقبَل، وماضيه هَدَى. و«مَن» في موضعِ نصب بـ «يهدي». ويجوزُ أن يكونَ هَدَى يَهْدي بمعنى اهتدى يهتدي، رواه أبو عبيد عن الفراء[(٣)] قال: كما قُرِئَ: «أمّن لا يَهْدِي إلَّا أنْ يُهْدَى» [يونس:٣٥] بمعنى يهتدي. قال أبو عبيد: ولا نعلم أحداً روى هذا غير الفراء، وليس بمتَّهمٍ فيما يحكيه. النحاس: حُكيَ لي عن محمد بن يزيد: كأنَّ معنى «لَا يَهْدي مَن يُضِلّ»: مَن عَلِم ذلك منه، وسبقَ ذلك له عنده، قال: ولا يكون يهدي بمعنى يهتدي إلَّا أن يكون يُهْدي أو يُهْدَى[(٤)]. وعلى قولِ الفراء «يَهْدي» بمعنى يهتدي، فيكون «مَن» في موضع رفع، والعائدُ إلى «مَن» الهاء المحذوفة من الصِّلةِ، والعائدُ إلى اسم «إنَّ» الضمير المستكِنّ في «يُضِلُّ»[(٥)]. وقرأ الباقون: «لا يُهْدَى» بضم الياء وفتح الدال[(٦)]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى: مَن أضلَّه الله لم يهدِه هادٍ، دليلُه قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف:١٨٦] و«مَن» في موضع رفعٍ على أنه اسم ما لم يُسَمَّ فاعله[(٧)]، وهي بمعنى الذي، والعائدُ عليها من صلتِها محذوف[(٨)]، والعائد على اسم إنَّ مِن «فإنَّ الله» الضمير المستكِنُّ في «يُضلُّ». ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ تقدَّم معناه[(٩)].

---

(١) ينظر الطبري ١٤/ ٢١٧ ، والوسيط ٣/ ٦٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢ .

(٢) السبعة ص٣٧٢ ، والتيسير ص١٣٧ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٢١٧ - ٢١٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٩٩ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٥ - ٦٦ ، وما قبله منه.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٦٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٢ .

(٦) وهم: ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر. السبعة ص٣٧٢ ، والتيسير ص١٣٧ .

(٧) ينظر الطبري ١٤/ ٢١٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٩٩ ، وحجة القراءات ص٣٨٩ .

(٨) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٦٤ .

(٩) ينظر ٥/ ١٥٦ و ١٩٨ و ٤٧٥ .

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ هذا تعجيبٌ من صنعهم، إذ أقسموا بالله، وبالغوا في تغليظ اليمين بأنَّ الله لا يبعثُ مَن يموت[١]. ووجهُ التعجيب أنهم يُظهرون تعظيمَ الله فيُقسمون به ثم يُعجِّزونه عن بَعثِ الأموات. وقال أبو العالية: كان لرجلٍ من المسلمين على مشرك دينٌ فتقاضاه، وكان[٢] في بعض كلامِه: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشركُ بالله: لا يبعثُ الله مَن يموت. فنزلت الآية. وقال قتادة: ذُكر لنا أنَّ ابن عباس قال له رجل: يا ابن عباس، إنَّ ناساً يزعمون أن عليًّا مبعوثٌ بعدَ الموت قَبْل الساعة، ويتأوَّلون هذه الآية. فقال ابنُ عباس: كَذب أولئك! إنَّما هذه الآيةُ عامةٌ للناس، لو كان عليٌّ مبعوثاً قبلَ القيامة؛ ما نكحنَا نساءَه، ولا قَسمنَا ميراثه[٣].

﴿بَلَىٰ﴾ هذا ردٌّ عليهم، أي: بلى ليبعثنَّهم[٤]. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكِّد؛ لأن قولَه «يبعثهم»[٥] يدلُّ على الوعد، أي: وعد البعث وعداً حقًّا[٦]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مبعوثون. وفي البخاري[٧] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «قال الله تعالى: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ، فقولُه: لن يعيدني كما بدأني، وأما شتمه إيَّايَ فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا

---

(١) الوسيط ٣/ ٦٢ .

(٢) في (ظ): وقال.

(٣) أخرج الطبري ١٤/ ٢١٩ - ٢٢١ أثر أبي العالية وقتادة، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٤٦ - ٤٤٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٣ ، والكشاف ٢/ ٤٠٩ .

(٥) يعني القول المقدر، كما ذكر قبل.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٣ ، والكشاف ٢/ ٤٠٩ ، والوسيط ٣/ ٦٢ - ٦٣ .

(٧) برقم (٤٩٧٤)، وهو عند أحمد (٨٢٢٠).

الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد». وقد تقدَّم، ويأتي[١].

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: ليُظهِرَ لهم. ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من أمر البعث. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالبعث وأقسموا عليه[٢] ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ وقيل: المعنى ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً؛ ليبيِّنَ لهم الذي يختلفون فيه. والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمورٌ: منها البعثُ، ومنها عبادةُ الأصنام[٣]، ومنها إقرار قومٍ بأن محمداً حقٌّ ولكن منعَهم من اتباعِه التقليدُ، كأبي طالب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

أعلَمهم سهولةَ الخلق عليه، أي: إذا أردنا أن نبعثَ مَن يموت، فلا تعبَ علينا ولا نصبَ في إحيائهم، ولا في غير ذلك ممَّا نُحدثه؛ لأنَّا إنَّما نقولُ له: كن، فيكون[٤]. قراءةُ ابن عامر والكسائيِّ: «فيكونَ» نصباً عطفاً على «أن نقول». وقال الزجَّاج: يجوز أن يكون نصباً على جواب «كن»[٥]. الباقون بالرفع على معنى فهو يكون[٦]. وقد مضى القولُ فيه في «البقرة» مستوفًى[٧]. وقال ابنُ الأنباريِّ: أوقعَ لفظَ الشيءِ على المعلومِ عندَ الله قبلَ الخلق؛ لأنه بمنزلةِ ما وُجِد وشوهد[٨].

---

(١) سلف ٢/٣٣٣، وسيرد عند تفسير الآية (٩٣) من مريم، والآية (٥٧) من الأحزاب.

(٢) ينظر الطبري ١٤/٢٢١.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/١٩٨ - ١٩٩.

(٤) تفسير الطبري ١٤/٢٢٢، ومعاني القرآن للزجاج ٣/١٩٨.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣/١٩٨، وأنكر النحاس في إعراب القرآن ٢/٣٩٦ قول الزجاج هذا؛ لأنه إخبار لا يجوز فيه الجواب.

(٦) السبعة ص٣٧٣، والتيسير ص١٣٧.

(٧) ٢/٣٣٨.

(٨) زاد المسير ٤/٤٤٧، ولم ينسبه لابن الأنباري.

وفي الآية دليلٌ على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لو كان قولُه: «كن» مخلوقاً؛ لاحتاج إلى قولٍ ثانٍ، والثاني إلى ثالثٍ، وتسلسل وكان مُحالاً[١].

وفيها دليلٌ على أن الله سبحانه مريدٌ لجميع الحوادثِ كلِّها خيرِها وشرِّها نفعِها وضرِّها، والدليلُ على ذلك أنَّ مَن يرى في سلطانِه ما يكرهه ولا يريده، فلأحدِ شيئين: إمَّا لكونه جاهلاً لا يدري، وإمَّا لكونه مغلوباً لا يطيق، ولا يجوز ذلك في وَصفِه سبحانه، وقد قام الدليلُ على أنه خالقٌ لاكتساب العباد[٢]، ويستحيل أن يكون فاعلاً لشيءٍ وهو غيرُ مريد له؛ لأن أكثر أفعالِنا يحصل على خلاف مقصودِنا وإرادتنا، فلو لم يكنِ الحقُّ سبحانه مريداً لها؛ لكانتْ تلك الأفعالُ تحصل من غير قصدٍ، وهذا قولُ الطبيعيين[٣]، وقد أجمعَ الموحِّدون على خلافِه وفسادِه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قد تقدَّم في «النِّساء» معنى الهجرة[٤]، وهي تركُ الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله، وتركُ السيئات. وقيل: «في» بمعنى اللام، أي: لِله. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي: عُذِّبوا في الله[٥]. نزلت في صُهَيب وبلال وخبَّاب وعمَّار، عذَّبهم أهل مكةَ حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلَّوهم هاجروا إلى المدينة، قاله الكَلْبيُّ[٦]. وقيل: نزلت في أبي جَندل ابن سهيل. وقال قتادة: المرادُ أصحابُ محمد ﷺ، ظلمهم المشركون بمكةَ،

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٣٢.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٦/ ١٤٩ و ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٣) في النسخ الخطية: الطبائع، والمثبت من (م).

(٤) ٧/ ٦٥.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٦٩.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٨٩.

وأخرجوهم حتى لحقَ طائفةٌ منهم بالحبشة، ثم بوَّأهم الله تعالى دارَ الهجرة، وجعلَ لهم أنصاراً من المؤمنين[١]. والآيةُ تعمُّ الجميع.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ في الحسنة ستةُ أقوال:

الأوَّل: نزولُ المدينة، قاله ابنُ عباس والحسن والشَّعْبيُّ وقَتادة.

الثاني: الرزقُ الحسن، قاله مجاهد.

الثالث: النصرُ على عدوِّهم، قاله الضحَّاك.

الرابع: أنه لسانُ صدق، حكاه ابن جُريج[٢].

الخامس: ما استَولَوا عليه من فتوحِ البلاد، وصار لهم فيها من الولايات.

السادس: ما بقي لهم في الدنيا من الثناءِ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف[٣]. وكلُّ ذلك اجتمعَ لهم بفضل الله، والحمد لله.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولأجرُ دارِ الآخرة أكبر، أي: أكبر من أن يعلمَه أحدٌ قبل أن يشاهدَه، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان هؤلاءِ الظالمون يعلمون ذلك. وقيل: هو راجعٌ إلى المؤمنين. أي: لو رأَوا ثوابَ الآخرة وعاينوه؛ لعلِموا أنه أكبرُ من حسنةِ الدنيا[٤]. ورُوِيَ أنَّ عمرَ بن الخطاب ﷺ كان إذا دفعَ إلى المهاجرين العطاءَ قال: هذا ما وَعدكم اللهُ في الدنيا، وما ادَّخرَ لكم في الآخرة أكثرُ، ثم تلا عليهم هذه الآيَة[٥].

---

(١) زاد المسير ٤/٤٤٨ ، وأخرج القولين الطبري ١٤/٢٢٣ و ٢٢٥ . وأبو جندل بن سهيل: اسمه عبد الله، كان من السابقين إلى الإسلام، وممَّن عُذِّب بسبب إسلامه، استشهد باليمامة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. الإصابة ١١/ ٦٤ - ٦٥ .

(٢) كذا في النسخ، وفي النكت والعيون٣/١٨٨ ، والكلام منه: ابن جرير، ونسبه في زاد المسير ٤/٤٤٨ إلى مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٤٧ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٨٨ - ١٨٩ .

(٤) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ٣٤ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٨٩ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٢٤ - ٢٢٥ .

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾

قيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ من «الذين» الأوّل. وقيل: مِن الضمير في «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ»[١] وقيل: هم الذين صَبروا على دينهم[٢]. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كل أمورهم[٣]. وقال بعضُ أهلِ التحقيق: خيارُ الخلق مَن إذا نابَه أمرٌ صبر، وإذا عجزَ عن أمرٍ توكَّل؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ قراءةُ العامة: «يُوحَى» بالياء وفتح الحاء. وقرأ حفص عن عاصم: «نُوحِي إليهم» بنون العَظَمةِ، وكسرِ الحاء[٤]. نزلتْ في مشركي مكةَ حيثُ أنكروا نبوَّةَ محمدٍ ﷺ وقالوا: اللهُ أعظمُ من أن يكونَ رسوله بشراً، فهلَّا بعث إلينا مَلَكاً[٥]، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ إلى الأمم الماضيةِ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ آدميين.

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ قال سفيان: يعني مؤمني أهلِ الكتاب[٦]. ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يُخبرونكم أنَّ جميع الأنبياء كانوا بشراً. وقيل: المعنى: فاسألوا أهلَ الكتاب، فإن لم يؤمنوا، فهم معترفونَ بأنَّ الرسل كانوا من البشر[٧]. رُوِيَ معناه عن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/٣٩٦ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ٣٥ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/٢٢٦ .

(٤) السبعة ص٣٧٣ ، والتيسير ص١٣٠ .

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٢٨٤ – ٢٨٥ .

(٦) أخرجه الطبري ١٤/٢٢٧ بنحوه عن سفيان عن الأعمش.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٠ – ٢٠١ .

ابنِ عباس ومجاهد[١]. وقال ابنُ عباس: أهلُ الذكرِ: أهلُ القرآن[٢]. وقيل: أهل العلم[٣]، والمعنى متقاربٌ.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ قيل: «بالبينات» متعلق بـ «أرسلنا». وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: ما أرسلنا من قبلكَ بالبينات والزُّبُر إلَّا رجالاً ـ أي: غير رجال، فـ «إلَّا» بمعنى غير، كقوله: لا إله إلا الله، وهذا قولُ الكلبيِّ[٤] ـ نوحِي إليهم. وقيل: في الكلام حذفٌ دلَّ عليه: «أرسلنا»، أي: أرسلناهم بالبيناتِ والزبر[٥]. ولا يتعلق «بِالبيِّناتِ» بـ «أرسلنا» الأوَّل على هذا القول؛ لأنَّ ما قبل «إلَّا» لا يعملُ فيما بعدها، وإنما يتعلقُ بـ «أرسلنا» المقدَّرة، أي: أرسلناهم بالبيِّنات. وقيل: مفعول بـ «تعلمون» والباء زائدة[٦]، أو نُصب بإضمار أعني[٧]، كما قال الأعشى:

وليس مُجِيراً إن أتى الحيَّ خائفٌ ... ولا قائلاً إلَّا هو المتعيَّبا[٨]

أي: أعني المتعيِّب. والبينات: الحُجَج والبراهين. والزُّبُر: الكتب. وقد تقدَّم في آل عمران[٩]. ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولِك وفعلِك؛ فالرسول ﷺ مبيِّن عن الله عزَّ وجلَّ مرادَه ممَّا أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغيرِ ذلك مما لم

---

(١) أخرجه الطبري عنهما ١٤/ ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٢٨ - ٢٢٩ عن ابن زيد، وهو كذلك في النكت والعيون ٣/ ١٨٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٤٩ ، وزاد نسبته ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٥ لابن جبير .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٨٨ عن أبي جعفر.

(٤) أورده الطبري ١٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٩٥ دون نسبة.

(٥) نسبه الرازي في تفسيره ٢٠/ ٣٧ إلى الفراء.

(٦) الكشاف ٢/ ٤١١ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣٠ .

(٨) في ديوانه ص١٦٣ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٣٠ .

(٩) سلف ٥/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

يفصِّله. وقد تقدَّم هذا المعنى مستوفًى في مقدِّمة الكتاب[1]، والحمد لله. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتَّعظون.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالسيئات، وهذا وعيدٌ للمشركين الذين احتالوا في إبطال الإسلام. ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: كما خُسِفَ بقارون[2]، يقال: خَسفَ المكانُ يَخسِف خُسوفاً: ذهب في الأرض، وخسف اللهُ به الأرضَ خَسْفاً[3]، أي: غاب به فيها، ومنه قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. وخَسَف هو في الأرض وخُسِف به. والاستفهامُ بمعنى الإنكار، أي: يجب ألَّا يأمَنوا عقوبةً تَلحقهم كما لحقت المكذِّبين[4]. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما فعل بقوم لوطٍ وغيرِهم. وقيل: يريد يومَ بدر[5]؛ فإنهم أُهلكوا ذلك اليوم، ولم يكن شيءٌ منه في حسابهم.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في أسفارهم وتصرُّفهم؛ قاله قتادة[6]. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: مسابقين اللهَ ولا فائتيه. وقيل: «في تَقلُّبِهم»: على فراشهم أينما كانوا[7]. وقال الضحَّاك: بالليل والنهار[8].

(١) ١/ ٦٤ - ٦٨.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٦٤ دون نسبة، وذكره عن ابن عباس ابن الجوزي ٣/ ٥٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ من سورة الأنعام.

(٣) في النسخ: خسوفاً، والمثبت من الصحاح (خسف) والكلام منه.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٦٤.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٤.

(٧) ينظر الوسيط ٣/ ٦٤.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٩، وزاد المسير ٤/ ٤٥١، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٤ عن ابن جريج.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: أي: على تنقُّصٍ من أموالهم ومواشيهم وزروعِهم[١]. وكذا قال ابنُ الأعرابي: أي: على تنقُّص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلَّهم.

وقال الضحاك: هو من الخوف؛ المعنى: يأخذ طائفةً ويَدَعُ طائفةً، فتخاف الباقيةُ أن يَنزلَ بها ما نزل بصاحبتها[٢]. وقال الحسن: «على تَخَوُّفٍ» أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى[٣]، وهذا هو معنى القولِ الذي قبله بعينه، وهما راجعان إلى المعنى الأوَّل، وأنَّ التخوُّف التنقُّصُ؛ تخوَّفه: تنقَّصه، وتخوَّفه الدهرُ وتخوَّنه، بالفاء والنون؛ بمعنًى؛ يقال: تخوَّنني فلانٌ حَقِّي: إذا تنقَّصك[٤]. قال ذو الرُّمَّة:

لا بل هو الشوق مِن دارٍ تَخوَّنها مَرًّا سحابٌ ومَرًّا بارحٌ تَرِبُ[٥]

وقال لبيد:

تخوَّنها نزولي وارتحالي

أي: تنقَّص لحمَها وشحمَها[٦].

وقال الهيثم بن عَدِيٍّ: التخوُّف، بالفاء: التنقُّص، لغةٌ لأزدِ شَنُوءة[٧]. وأنشد:

تخوَّفُ غَدْرِهم مالي وأُهدي سلاسلَ في الحلوق لها صليلُ[٨]

(١) أخرجه الطبري ١٤/٢٣٧ - ٢٣٨ بنحوه. وينظر معاني القرآن للنحاس ٤/٦٩ - ٧٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٦٩ ، وأخرجه الطبري ١٤/٢٣٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٠ .

(٤) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٥٨٣ ، والصحاح (خون).

(٥) ديوانه ١/ ١٩ ، والبارح: الريح الحارة في الصيف. القاموس (برح).

(٦) الصحاح (خون)، وبيت لبيد في ديوانه ص٧٦ (بشرح الطوسي) وصدره: عُذافِرةٌ تَقَمَّصُ بالرُّدافى. وهو في وصف ناقته. والعذافرة: الضخمة القوية الشديدة. تقمص: تنزو به. الرادفى: راكبها الذي يرتدف خلف الراكب. قاله الطوسي.

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٤٥١ .

(٨) هو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٦٠ ، وغريب الحديث لإبراهيم الحربي ٢/ ٨٣٥ ، وتفسير =

وقال سعيد بن المسيب: بينما عمر بنُ الخطاب ﷺ على المنبر قال: يا أيها الناس، ما تقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ فسكت الناسُ، فقال شيخٌ من بني هُذَيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوُّف: التنقُّص. فخرج رجل فقال: يا فلان، ما فعل دَيْنُك؟ قال: تخوَّفته، أي: تنقَّصته؛ فرجع فأخبر عمر، فقال عمر: أتعرف العربُ ذلك في أشعارهم؟ قال: نعم؛ قال شاعرنا أبو كبِيرٍ الهُذَليُّ يصف ناقةً تنقَّصَ السيرُ سنامَها بعد تَمْكِه واكتنازه:

تخوَّفَ الرَّحلُ منها تامِكاً قَرِداً كما تخوَّفَ عُودَ النَّبْعة السَّفَنُ[1]

فقال عمر: يا أيها الناس، عليكم بديوانكم شعرِ الجاهلية؛ فإنَّ فيه تفسيرَ كتابكم ومعانيَ كلامكم[2].

تَمَكَ السَّنامُ يَتْمُكُ تَمْكاً، أي: طال وارتفع، فهو تامِك. والسَّفَن والمِسْفَن: ما يُنْجَر به الخشب[3].

وقال اللَّيث بن سعد: «على تخوُّفٍ» على عَجَل[4]. وقيل: على تقريعٍ بما قدَّموه من ذنوبهم، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضاً. وقال قتادة: «على تخوّف» أن يعاقب

= الطبري ١٤/ ٢٣٥ ، والفائق ١/ ٢٩٩ دون نسبة، والبيت الذي قبله: ألام على الهجاء وكل يوم يلاقيني من الجيران غولُ. وقوله: سلاسل، يعني قوافي.

(١) هكذا نسبه هنا، وكذا في تفسير البيضاوي ٣/ ١٨٢ ، ونسبه الأزهري في تهذيب اللغة ٧/ ٥٩٤ لابن مقبل، وهو في ديوانه ص٤٠٥ ، ونسبه في الصحاح (خوف، سفن) لذي الرُّمَّة، ونسبه الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤١١ وفي أساس البلاغة ص١٧٨ إلى زهير، ونسبه البكري في سمط اللآلي ص٧٣٨ لقعنب ابن أمّ صاحب، ونسبه الأصفهاني في الأغاني في ترجمة حماد الراوية لابن مزاحم الثمالي، وأورده الطبري ١٤/ ٢٣٥ ولم ينسبه.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٣٦ عن رجل، عن عمر ﷺ بنحوه. وينظر الكشاف ٢/ ٤١١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٦ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٣٩ .

(٣) ينظر الصحاح (تمك) و(سفن)، والقَرِد: الذي يركب بعضه بعضاً. والنبع: شجر تتخذ منه القِسِيّ. الصحاح (قرد) و(نبع).

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٩٠ .

أو يتجاوز[1].

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لا يُعاجِل، بل يُمْهِل.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قرأ حمزة والكِسائيُّ وخلفٌ ويحيى والأعمش ﴿تَرَوْا﴾ بالتاء[2]؛ على أنَّ الخطاب لجميع الناس. الباقون بالياء؛ خبراً عن الذين يمكرون السيئات؛ وهو الاختيار. ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يعني: من جسمٍ قائم له ظلٌّ من شجرة أو جبل؛ قاله ابن عباس. وإن كانت الأشياء كلُّها سميعةً مطيعةً لله تعالى.

﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرُهما بالتاء[3]؛ لتأنيث الظِّلال. الباقون بالياء، واختاره أبو عبيد. أي: يميل من جانب إلى جانب، ويكون أولَ النهار على حال ويتقلَّص، ثم يعود في آخر النهار على حالةٍ أخرى، فدورانُها ومَيَلانُها من موضعٍ إلى موضعٍ سجودُها، ومنه قيل للظِلِّ بالعَشِيِّ: فَيْءٌ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أي: رجع. والفَيْءُ: الرجوع[4]، ومنه ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:٩]. رُويَ معنى هذا القولِ عن الضحاك وقتادة وغيرهما[5]، وقد مضى هذا المعنى في سورة الرعد[6]. وقال الزجَّاج[7]: يعني سجودَ الجسم، وسجودُه انقيادُه

(١) أخرجهما الطبري ١٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٣٧٣ ، والتيسير ص١٣٨ ، وقراءة خلف في النشر ٢/ ٣٠٤ ، وقراءة الأعمش في إتحاف فضلاء البشر ص٣٥١ .

(٣) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٣٧٤ ، والتيسير ص١٣٨ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٠٤ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٧١ .

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٦) ص٤٥ من هذا الجزء.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٢ .

وما يُرَى فيه من أَثَر الصَّنْعة، وهذا عامٌّ في كلِّ جسم.

ومعنى ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: خاضعون صاغرون. والدُّخور: الصَّغار والذُّلُّ. يقال: دَخَر الرجلُ، بالفتح؛ فهو داخِر، وأدخره الله[1]. وقال ذو الرُّمَّة:

فلم يبقَ إلَّا داخرٌ في مُخَيَّسٍ ومُنْجَحِرٌ في غير أرضك في جُحْرِ

كذا نسبه الماورديُّ لذي الرُّمَّة، ونسبه الجوهريُّ للفرزدق[2] وقال: المُخَيَّس: اسم سجنٍ كان بالعراق، أي: موضع التذلُّل. وقال:

أمَا تراني كَيِّساً مُكَيَّسا بَنَيْتُ بعدَ نافعٍ مُخَيَّسَا[3]

ووحَّد اليمينَ في قوله: «عنِ اليَمينِ» وجمعَ الشمالَ؛ لأنَّ معنى اليمين وإن كان واحداً الجمعُ. ولو قال: عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال، لجاز؛ لأن المعنى للكثرة. وأيضاً فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيءٍ واحد أن تجمعَ إحداهما وتُفْرِدَ الأخرى، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧]، وكقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] ولو قال: على أسماعهم، وإلى الأنوار، لجاز. ويجوز أن يكون ردُّ اليمين على لفظ «ما» والشمائل على معناها[4]. ومثل هذا في الكلام كثير. قال الشاعر:

الواردون وتَيْمٌ في ذُرَا سَبَإٍ قد عَضَّ أعناقَهم جِلْدُ الجواميسِ[5]

---

(١) الصحاح (دخر).

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٩١ ، والصحاح (خيس). والبيت في ديوان ذي الرمة ٢/ ٩٧٩ .

(٣) قائله علي بن أبي طالب ﷺ كما في العقد الفريد ٤/ ١٨٣ ، وجمهرة الأمثال ١/ ٧٩ ، واللسان (خيس). وجاء فيه: نافع؛ هو سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء، وكان من قصب، فكان المحبوسون يهربون منه، وقيل: إنه نقب وأفلت منه المحبَّسون، فهدمه علي ﷺ، وبنى المخيَّس لهم من مدر.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧١ .

(٥) قائله جرير، وهو في ديوانه ص٢٥٢ ، والشطر الأول فيه: تدعوك تيم وتيم في قرى سبأ. أراد أنهم أسرى، وفي أعناقهم أطواق من جلد الجواميس.

ولم يقل: جلود.

وقيل: وحَّد اليمين؛ لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجِّهٌ إلى القِبلة، انبسط الظلُّ عن اليمين، ثم في حال يميل إلى جهة الشمال، ثم حالات، فسمَّاها شمائل.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: من كل ما يَدِبُّ على الأرض. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: الملائكة الذين في الأرض، وإنما أفردهم بالذِّكر لاختصاصهم بشرف المنزلة، فميَّزهم من صفة الدبيب بالذِّكر وإن دخلوا فيها؛ كقوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]. وقيل: لخروجهم من جملة مَن يَدِبُّ، لِمَا جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة، فلذلك ذُكروا[1]. وقيل: أراد «ولِلهِ يسجد ما في السماواتِ» من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، «وما فِي الأرضِ مِن دابةٍ» وتسجد ملائكةُ الأرض[2]. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة ربِّهم. وهذا ردٌّ على قريش حيث زعموا أنَّ الملائكة بناتُ الله.

ومعنى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أي: عقابَ ربِّهم وعذابَه؛ لأنَّ العذابَ المُهلِكَ إنما ينزل من السماء. وقيل: المعنى: يخافون قدرةَ ربِّهم التي هي فوق قدرتهم؛ ففي الكلام حذف[3]. وقيل: معنى «يخافون ربهم مِن فوقِهِم» يعني الملائكة، يخافون ربَّهم؛ وهي من فوق ما في الأرض من دابَّة ومع ذلك يخافون؛ فلأنْ يخافَ مَن دونَهم أولى؛ دليلُ هذا القولِ قولُه تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني: الملائكة[4].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٩٢ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٩ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٩ .

(٤) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٦٥ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ قيل: المعنى: لا تتخذوا اثنين إلهين[١]. وقيل: جاء قولُه: «اثنينِ» توكيداً. ولمَّا كان الإله الحقُّ لا يتعدَّد، وأنَّ كل مَن يتعدَّد فليس بإله، اقتصر على ذِكْرِ الاثنين؛ لأنَّه قصدَ نفيَ التعديد[٢]. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ يعني ذاتَه المقدَّسة. وقد قام الدليل العقليُّ والشرعيُّ على وحدانيَّته حسبما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٣]، وذكرناه في اسمه الواحدِ في «شرح الأسماء»[٤] والحمد لله. ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي: خافون. وقد تقدَّم في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ الدِّين: الطاعة والإخلاص. و«وَاصِباً» معناه دائماً؛ قاله الفرَّاء[٦]، حكاه الجوهريُّ[٧]. وَصَبَ الشيءُ يَصِب وُصوباً، أي: دام[٨]. ووَصَبَ الرجل على الأمر: إذا واظبَ عليه. والمعنى: طاعةُ اللهِ واجبةٌ أبداً. وممن قال: واصباً: دائماً: الحسنُ ومجاهد وقتادة والضحَّاك[٩]. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩] أي: دائم. وقال الدُّؤَلي:

لا أبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤه ... بذمٍ يكون الدَّهرَ أجمعَ واصبا[١٠]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٩٩.
(٢) ينظر المصدران السابقان.
(٣) ٢/ ٤٨٨ - ٤٨٩.
(٤) ص١٦١ - ١٦٧.
(٥) ٢/ ٩.
(٦) معاني القرآن ٢/ ١٠٤.
(٧) الصحاح (وصب)، وما بعده منه.
(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٢.
(٩) النكت والعيون ٣/ ١٩٣، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٤٧ - ٢٤٩.
(١٠) رواية عجزه في ديوانه ص٥٢. هي كما في البيت التالي، وفيه أيضاً: لا أشتري، بدل: ما أبتغي. وينظر التعليق التالي.

أنشد الغزنويُّ والثعلبيُّ وغيرهما:

ما أبتغي الحمدَ القليلَ بقاؤه يوماً بذمِّ الدهر أَجمعَ واصبا[(١)]

وقيل: الوَصَب: التعبُ والإعياء[(٢)]، أي: تجب طاعة الله تعالى وإن تعب العبدُ فيها. ومنه قولُ الشاعر:

لا يُمسِك الساقَ مِن أَيْنٍ ولا وَصَبٍ ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ[(٣)]

وقال ابن عباس: «واصباً»: واجباً. الفرَّاءُ والكلبي: خالصاً[(٤)].

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: لا ينبغي أن تتقوا غيرَ الله. فـ «غير» نصب بـ «تتقون».

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الفرَّاء[(٥)]: «ما» بمعنى الجزاء،

---

(١) قوله: أنشد الغزنوي... هذا الموضع، ليس في (د) و(ظ) و(ز)، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٣٦١، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٤٧، والنكت والعيون ٣/ ١٩٣، وزاد المسير ٤/ ٤٥٦، والأغاني ١٢/ ٣٠٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٩٣.

(٣) قائله أعشى باهلة عامر بن الحارث أبو قحفان يرثي أخاه لأمه المنتشر بن وهب الباهلي. وهو في الأصمعيات ص٩٠، والكامل ٣/ ١٤٣١، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٤٧. وفي جمهرة أشعار العرب ٢/ ٧١٨ - ٧١٩، والخزانة ١/ ١٩٧ كل شطر منه لبيت، وهما:

لا يتأرَّى لما في القِدر يرقُبه ولا يعض على شرسوفه الصفر
لا يغمز الساق من أين ولا وصب ولا يزال أمام القوم يقتفر

لا يتأرَّى: لا يتحبس ويتلبث. الشرسوف: طرف الضلع. الصفر: دويبة مثل الحية تكون في البطن تعتري من به شدة الجوع. لا يغمز الساق: لا يجسُّها، يصف جَلَده وتحمُّله للمشاقّ. الأين: الإعياء. الاقتفار: اتباع الآثار. قاله البغدادي في الخزانة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٩٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٤/ ٢٤٩، وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٠٤.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٠٤.

والباء في «بكم» متعلِّقةٌ بفعل مضمَر، تقديره: وما يكن بكم. ﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾ أي: صحةِ جسمٍ وَسَعة رزق وولد، فمن الله[1]. وقيل: المعنى: وما بكم من نعمةٍ فمن الله هي. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أي: السّقمُ والبلاء والقَحْط.

﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي: تَضِجُّون بالدُّعاء. يقال: جَار يَجْأَر جُؤاراً. والجُؤار مثلُ الخُوار؛ يقال: جَأَرَ الثورُ يَجْأَر، أي: صاح. وقرأ بعضهم: «عجلاً جسَداً لَهُ جُؤَارٌ» [طه:٨٨]؛ حكاه الأخفش. وجَأَرَ الرجلُ إلى الله، أي: تضرَّع بالدعاء[2]. وقال الأعشى يصف بقرةً:

فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ وكان النكير أن تُضِيفَ وتجأرا[3]

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ أي: البلاء والسقم. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار. فمعنى الكلام التعجيبُ من الإشراك بعد النجاةِ من الهلاك، وهذا المعنى مكرَّر في القرآن، وقد تقدَّم في «الأنعام» و«يونس»، ويأتي في «سبحان» وغيرِها[4]. وقال الزجَّاج[5]: هذا خاصٌّ بمن كفر.

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ أي: ليجحدوا نعمةَ الله التي أنعم بها عليهم مِن كَشْف الضُّرِّ والبلاء. أي: أشركوا ليجحدوا، فاللام لام «كي». وقيل: لام العاقبة[6]. وقيل: «لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْنَاهُمْ» أي: ليجعلوا النعمة سبباً للكفر[7]، وكلُّ هذا فعلٌ خبيثٌ؛ كما

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٤ .

(٢) الصحاح (جأر).

(٣) البيت في ديوان النابغة الجعدي ص٤١ ، ونسبه إليه سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٦٣ ، والبغدادي في الخزانة ٣/ ٣١٧ (دار صادر) وقال: وصف النابغة الجعدي به بقرة وحشية أكل السبعُ ولدَها فطافت، وروي: أقامت ثلاثة أيام وثلاث ليال تطلبه، ولا إنكار عندها ولا غناء إلا الإضافة، وهي الجزع والإشفاق والجؤار. اهـ. وشطره الأول في الديوان: فجالت على وحشيِّها مستثبِّة.

(٤) تقدم ٨/ ٤١٢ - ٤١٣ و ١٠/ ٤٦٤ - ٤٦٥ ، ويأتي عند تفسير الآية (٦٧) من الإسراء.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٤ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٧٢ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٣ .

قال:

والكفرُ مَخْبَثَةٌ لنفس المُنْعِمِ[١]

﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أمرُ تهديد. وقرأ عبد الله[٢]: «قل[٣] تمتعوا». ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبةَ أمركم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ذكر نوعاً آخرَ من جهالتهم، وأنهم يجعلون لِمَا لا يعلمون أنه يضرُّ وينفع ـ وهي الأصنام ـ شيئاً من أموالهم يتقرَّبون به إليه؛ قاله مجاهدٌ وقتادة[٤] وغيرهما. فـ «يعلمون» على هذا للمشركين. وقيل: هي للأوثان، وجرى بالواو والنون مَجرى مَن يعقل[٥]، فهو ردٌّ على «ما»، ومفعولُ «يعلم» محذوف، والتقدير: ويجعل هؤلاء الكفارُ للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً. وقد مضى في «الأنعام» تفسيرُ هذا المعنى في قوله: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾[٦] [الآية: ١٣٦]. ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ وهذا سؤالُ توبيخ. ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي: تختلقونه من الكذب على الله أنَّه أمركم بهذا.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ نزلت في خُزاعة وكِنانة؛ فإنَّهم زعموا أنَّ

---

(١) البيت لعنترة، وصدره: نُبِّئتُ عَمراً غير شاكرِ نعمتي. وهو في ديوانه ص٢٨، والخزانة ١/ ٣٣٦. والكفر هنا: الجحد. ومَخبثة، بفتح الميم: من الخُبث. قاله البغدادي.

(٢) في (د): ووعد الله، وفي (ز): وواعد الله.

(٣) في (ف): قال. ولم نقف على القراءة.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٥٣ عنهما.

(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٥٨.

(٦) ٩/ ٣٦ - ٣٨.

الملائكة بناتُ الله[١]، فكانوا يقولون: ألحِقوا البناتِ بالبنات. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزَّه نفسه وعظَّمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يجعلون لأنفسهم البنينَ ويأنفون من البنات. وموضع «ما» رفعٌ بالابتداء، والخبر «لهم». وتمَّ الكلامُ عند قوله: «سبحانه»[٢]. وأجاز الفرَّاء[٣] كونَها نصباً، على تقدير: ويجعلون لهم ما يشتهون. وأنكره الزجَّاج[٤] وقال: العرب تستعمل في مثل هذا: ويجعلون لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: أُخبر أحدُهم بولادة بنت. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: متغيِّراً، وليس يريد السَّوادَ الذي هو ضدُّ البياض، وإنما هو كنايةٌ عن غَمِّه بالبنت. والعرب تقول لكل مَن لقي مكروهاً: قد اسودَّ وجهُه غمًّا وحزناً؛ قاله الزجَّاج[٥]. وحكى الماورديُّ[٦] أنَّ المراد سوادُ اللون، قال: وهو قولُ الجمهور.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئٌ من الغَمِّ. وقال ابن عباس: حزين. وقال الأخفش: هو الذي يَكظِم غيظه فلا يُظهرُه. وقيل: إنه المغموم الذي يُطْبِق فاه فلا يتكلَّم من الغَمِّ؛ مأخوذٌ من الكِظامة، وهو شدُّ فَمِ القِرْبة؛ قاله عليُّ بنُ عيسى[٧]. وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة يوسف[٨].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٦٧، وتفسير البغوي ٣/ ٧٣، وزاد المسير ٤/ ٤٥٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٨.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ١٠٥.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٢٠٦.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٦.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٩٤، وما قبله منه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٩٤، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٤/ ٢٥٦.

(٨) ١١/ ٤٣٢.

قوله تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: يختفي ويتغيَّب. ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي: من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ ذكَّر الكناية؛ لأنَّه مردودٌ على «ما»[١]. ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوان. وكذا قرأ عيسى الثقفيُّ: «على هوان»[٢]. والهُون: الهوان بلغة قريش؛ قاله اليزيديّ[٣]، وحكاه أبو عبيد عن الكِسائيّ[٤]. وقال الفرَّاء: هو القليل بلغة تميم. وقال الكسائيّ: هو البلاء والمشقَّة[٥]. وقالت الخَنْساء[٦]:

نُهينُ النفوسَ وهُونُ النفو ... س يومَ الكريهةِ أبقى لها

وقرأ الأعمش: «أيمسِكه على سوءٍ» ذكره النحاس[٧]، قال: وقرأ الجَحْدَرِيُّ: «أم يدسُّها في التراب»، يردُّه على قوله: «بالأنثى»، ويلزمه أن يقرأ: «أيمسِكها». ثم قيل: يرجع الهوانُ إلى البنت؛ أي: أيمسكها وهي مهانةٌ عنده. وقيل: يرجع إلى المولود له، أي: أيمسكه على رغم أنفِه أمْ يدسُّه في التراب، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حيَّةً[٨].

قال قتادة: كان مُضَرُ وخُزاعة يدفِنون البناتِ أحياءً؛ وأشدُّهم في هذا تميم.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٧٣ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٣ للجحدري.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٤ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٥٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٧٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٩٤ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٦ - ١٠٧ .

(٦) ديوانها ص١٢١ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٧٦ .

(٨) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ٥٥ .

زعموا خوفَ القهر عليهم، وطمعِ غيرِ الأكفاء فيهنَّ[١].

وكان صَعْصَعة بنُ ناجية عَمُّ الفرزدق[٢] إذا أحسَّ بشيء من ذلك، وجَّه إلى والد البنت إبلاً يستحييها بذلك[٣]. فقال الفرزدق يفتخر:

وعمِّي الذي منَعَ الوائداتْ وأحيا الوَئيدَ فلم يُوأدِ[٤]

وقيل: دَسُّها: إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف، كالمدسوس في التراب؛ لإخفائه عن الأبصار، وهذا محتمِل[٥].

مسألة: ثبت في «صحيح مسلم»[٦] عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني امرأةٌ ومعها ابنتان لها، فسألتني، فلم تجد عندي [شيئاً] غيرَ تمرةٍ واحدة، فأعطيتُها إياها، فأخذَتْها، فقسَمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليَّ النبيُّ ﷺ، فحدَّثته حديثَها، فقال النبيُّ ﷺ: «من ابتُلي من البنات بشيء فأحسن إليهنَّ، كنَّ له سِتْراً من النار». ففي هذا الحديثِ ما يدلُّ على أنَّ البناتِ بليَّة، ثم أخبر أنَّ في الصبر عليهنَّ والإحسان إليهنَّ ما يَقي من النار.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: جاءتني مسكينةٌ تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاثَ تمرات، فأعطت كلَّ واحدةٍ منهما تمرةً، ورفعت إلى فيها تمرةً لتأكلَها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقَّت التمرةَ التي كانت تريد أن تأكلَها بينهما؛ فأعجبني شأنُها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسول الله ﷺ فقال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧٣.

(٢) كذا في تفسير البغوي ٣/ ٧٣، والكلام منه، وقال ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٤٢: وبه جزم أبو عمر، لكن ليس للفرزدق عم اسمه صعصعة، وإنما صعصعة جده.

(٣) أخرجه ضمن حديث طويل البزار (٧٢ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير (٧٤١٢).

(٤) ديوانه ص١٧٣ برواية: ومنا الذي... وفي المصادر: وجدي الذي..

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٩٥.

(٦) برقم (٢٦٢٩)، وهو عند أحمد (٢٤٥٧٢) والبخاري (١٤١٨). وما سيرد بين حاصرتين منها.

أوجب لها بها الجنةَ، أو أعتقها بها من النار».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن عالَ جاريتين حتى تَبْلُغا، جاء يومَ القيامة أنا وهو» وضمَّ أصابعه، خرَّجهما أيضاً مسلم رحمه الله[١].

وخرَّج أبو نُعيم الحافظُ من حديث الأعمش، عن أبي وائلٍ، عن عبدِ الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كانت له بنتٌ فأدَّبها فأحسن أدبَها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، وأسبغَ عليها من نِعَمِ الله التي أسبغَ عليه، كانت له سِتْراً وحجاباً من النار»[٢].

وخُطب إلى عَقيل بنِ عُلَّفة[٣] ابنتُه الجرباء فقال:

إنّي وإن سِيقَ إليَّ المَهْرُ ... ألفٌ وعُبدانٌ وخُورٌ[٤] عَشْرُ

أَحَبُّ أصهاري إليَّ القبرُ[٥]

وقال عبد الله بنُ طاهر[٦]:

---

(١) برقم (٢٦٣٠) و(٢٦٣١). وهما عند أحمد (٢٤٦١١) و(١٢٤٩٨).

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٥٧ ، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٠٤٤٧). قال أبو نعيم: غريب من حديث الأعمش، تفرَّد به الأموي عن طلحة، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٥٨ : فيه طلحة بن زيد، وهو وضاع. اهـ، ويغني عنه ما أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل. . . وفيه: فقال النبي ﷺ: من ابتلي من هذه البنات بشيء كنَّ له ستراً من النار.

(٣) ابن الحارث بن معاوية، يكنى أبا العملَّس وأبا الجرباء، وهو شاعر مجيد مقلٌّ، من شعراء الدولة الأموية، وابنته الجرباء تزوجها يزيد بن عبد الملك. الأغاني ١٢/ ٢٥٤ .

(٤) في المصادر: وذود: وهو ما بين الثنتين إلى التسع من الإبل. النهاية (ذود)، والخور: النُّوق الغُزُر. القاموس (خور).

(٥) ديوان المعاني ٢/ ٢٥١ ، وزهر الآداب ١/ ٤٨٤ ، والصاهل والشاحج ص٥٧٥ ، وبهجة المجالس ٢/ ٧٦٨ .

(٦) كذا وقع في النسخ، والبيتان المذكوران في ديوان المعاني ٢/ ٢٥١ ، وزهر الآداب ١/ ٤٨٤ منسوبان لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وهو الأمير أبو أحمد الخزاعي، ولي شرطة بغداد، وكان رئيساً جليلاً، وشاعراً محسناً، ومترسلاً بليغاً. مات سنة ٣٠٠هـ وأما عبد الله بن طاهر فهو الأمير العادل أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر، له يد في النظم والنثر. مات سنة ٢٣٠هـ السير ١٤/ ٦٢ و ١٠/ ٢٥٢ .

لـكـل أبـي بـنـتٍ يـراعـي شـؤونـهـا ثـلاثـةُ أصـهـارٍ إذا حُـمـد الـصِّـهْـرُ
فَـبَـعْـلٌ يُـراعِـيـهـا وخِـدْرٌ يَـكُـنُّـهـا وقـبـرٌ يُـوارِيـهـا وخـيـرُهـمـا الـقَـبـر

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: في إضافةِ البناتِ إلى خالقِهم وإضافةِ البنين إليهم. نظيرُه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢][1] أي: جائرة، وسيأتي.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: لهؤلاء الواصفينَ لله البنات[2] ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: صفةُ السَّوء مِن الجهل والكفر. وقيل: هو وَصْفُهم اللهَ تعالى بالصَّاحبة والولد[3]. وقيل: أي: العذاب والنار[4].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتادة. وقيل: أي: الصفة العليا بأنه خالقٌ رازق قادر ومُجازٍ[5]. وقال ابن عباس: «مثل السَّوء»: النار، و«المثل الأعلى»: شهادة أنْ لا إله إلا الله[6]. وقيل: ليس كمثله شيء[7]. وقيل: «ولله المثل الأعلى» كقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥].

فإن قيل: كيف أضاف المَثَلَ هنا إلى نفسِه، وقد قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٧٣ .
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٧٣ .
(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٥ .
(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٩ .
(٥) النكت والعيون ٣/ ١٩٥ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٤/ ٢٥٨ .
(٦) تفسير البغوي ٣/ ٧٣ .
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[النحل: ٧٤]؟ فالجواب أنَّ قوله: «فلا تضربوا لله الأمثال» أي: الأمثالَ التي توجب الأشباهَ والنقائص؛ أي: لا تضربوا لله مثلاً يقتضي نَقْصاً وتشبيهاً بالخَلْق؛ والمَثَلُ الأعلى وصفُه بما لا شبيه له ولا نظير، جَلَّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيراً[1]. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم معناه[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي: بكفرهم وافترائهم، وعاجَلَهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض، فهو كنايةٌ عن غير مذكور، لكنْ دلَّ عليه قولُه: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ فإنَّ الدابَّة لا تَدِبُّ إلا على الأرض. والمعنى المراد: مِن دابَّة كافرة، فهو خاصٌّ[3]. وقيل: المعنى: أنَّه لو أهلك الآباءَ بكفرهم، لم تكن الأبناء[4]. وقيل: المراد بالآية العموم[5]، أي: لو آخذ اللهُ الخَلْقَ بما كسبوا، ما ترك على ظهر هذه الأرضِ من دابة من نبيٍّ ولا غيرِه؛ وهذا قول الحسن.

وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو آخذ اللهُ الخلائقَ بذنوب المذنبينَ، لأصاب العذابُ جميعَ الخَلْق حتى الجِعْلانَ[6] في جُحْرها، ولأمسك الأمطارَ من السماء والنباتَ من الأرض، فمات الدوابُّ، ولكنَّ اللهَ يأخذ بالعفو والفَضْل؛ كما قال: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٤/ ٨٨.

(٢) ١/ ٤٢٩، ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٥٩.

(٤) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩٦، وتفسير البغوي ٣/ ٧٤.

(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٥٩.

(٦) جمع جُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٧٠)، والطبري ١٤/ ٢٦٠ مختصراً بنحوه.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجلُ موتهم ومنتهى أعمارِهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقد تقدَّم[1].

فإن قيل: فكيف يَعمُّ بالهلاك مع أنَّ فيهم مؤمناً ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاءً، وهلاكَ المؤمن معوَّضاً بثواب الآخرة[2].

وفي «صحيح مسلم»[3] عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد اللهُ بقوم عذاباً، أصاب العذابُ مَن كان فيهم، ثم بُعثوا على نياتهم[4]».

وعن أمِّ سَلمة وسُئلت عن الجيش الذي يُخسف به ـ وكان ذلك في أيام ابنِ الزبير ـ فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذُ بالبيت عائذ، فيُبعث إليه بَعْث، فإذا كانوا ببَيْداءَ من الأرض خُسِف بهم» فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يُخسَف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيَّته»[5].

وقد أتينا على هذا المعنى مُجَوَّداً في كتاب «التذكرة»[6]، وتقدَّم في «المائدة» وآخر «الأنعام» ما فيه كفاية[7]، والحمد لله. وقيل: «فإذا جاء أجلهم» أي: فإذا جاء يومُ القيامة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: من البنات. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ

---

(١) ٩/ ٢١٢.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ٥٩.

(٣) برقم (٢٨٧٩)، وهو عند أحمد (٤٩٨٥)، والبخاري (٧١٠٨).

(٤) في المصادر: أعمالهم.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٨٢)، وهو عند أحمد (٢٦٤٧٥) بنحوه مختصر.

(٦) ص٥٢٨ - ٥٣٢.

(٧) ٨/ ٢٤٨، ٩/ ١٤٥.

﴿ٱلْكَذِبَ﴾ أي: وتقول ألسنتُهم الكذبَ. ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ قال مجاهد: هو قولهم: إنَّ لهم البنينَ وللهِ البنات[1]. «الكذِبَ» مفعولُ «تصِف»، و«أنَّ» في محل نصبٍ بدل من الكذب؛ لأنَّه بيانٌ له[2]. وقيل: «الحسنى»: الجزاء الحسن؛ قاله الزجَّاج[3].

وقرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وابن مُحَيْصِن: «الكُذُبُ» برفع الكاف والذال والباء؛ نعتاً للألسنة[4]؛ وكذا ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[5] [النحل: ١١٦]. والكُذُب: جمع كَذوب[6]، مثل: رَسُول ورُسُل، وصَبُور وصُبُر، وشَكُور وشُكُر.

﴿لَا﴾ رَدٌّ لقولهم، وتَمَّ الكلام، أي: ليس كما يزعمون. ﴿جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: حقًّا أنَّ لهم النار[7]. وقد تقدَّم مستوفًى[8].

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾: متركون منسيُّون في النار؛ قاله ابنُ الأعرابيِّ وأبو عبيدة والكسائيُّ والفراء، وهو قول سعيد بنِ جبير ومجاهد. وقال ابن عباس وسعيد بنُ جبير أيضاً: مُبعَدون. قتادة والحسن: معجَّلون إلى النار مقدَّمون إليها[9].

والفارط: الذي يتقدم إلى الماء؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «أنا فَرَطُكم على الحوض»

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٢٦٢.

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٠، والمحتسب لابن جني ٢/ ١١.

(٣) معاني القرآن ٣/ ٢٠٧.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٠، فقد نسب القراءة - نقلاً عن أبي حاتم - إلى أهل الشام أو بعضهم. ونسبها في المحتسب ٢/ ١١ لمعاذ، وفي زاد المسير ٤/ ٤٦٠ لأبي العالية والنخعي وابن أبي عبلة.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٣، وابن جني في المحتسب ٢/ ١٢ لمسلمة بن محارب، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٥٠٢ لابن أبي عبلة.

(٦) ينظر المحتسب ٢/ ١١.

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٩٦، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠٧، وزاد المسير ٤/ ٤٦٠.

(٨) ١١/ ٩٤ - ٩٥.

(٩) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٤/ ٢٦٣ - ٢٦٦، وينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٨٠.

أي: متقدِّمكم[١]. وقال القَطاميّ[٢]:

فاسْتَعجَلونا وكانوا مِن صحابتِنا ... كما تَعَجَّلَ فُرَّاطٌ لوُرَّادِ

والفُرَّاط: المتقدِّمون في طلب الماء. والوُرَّاد: المتأخرون[٣].

وقرأ نافعٌ في رواية وَرْش: «مُفْرِطون» بكسرِ الراء وتخفيفها[٤]، وهي قراءةُ عبد الله بنِ مسعود وابنِ عباس[٥]، ومعناه: مُسرِفون في الذنوب والمعصية، أي: أَفرطوا فيها[٦]. يقال: أَفرط[٧] فلانٌ على فلان: إذا أَرْبَى عليه، وقال له أكثرَ مما قال من الشَّرِّ.

وقرأ أبو جعفر القارئ: «مُفَرِّطون» بكسرِ الراء وتشديدها، أي: مضيِّعون أمرَ الله؛ فهو مِن التفريط في الواجب[٨].

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أعمالَهم الخبيثة. هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّ مَن تقدَّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومُهم. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: ناصرُهم في الدنيا على زعمهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل: «فهو وليُّهم» أي: قرينُهم في النار[٩]. ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني يومَ القيامة،

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٩٦ . والحديث سلف ٥/ ٢٥٧ و ٨/ ٣٥٨ .

(٢) ديوانه ص٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٦ .

(٤) وقرأ بها نافع في رواية قالون أيضاً. السبعة ص٣٧٤ ، والتيسير ص١٣٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٤ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩٦ .

(٧) في (د) ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٨٠ : فرط.

(٨) النكت والعيون ٣/ ١٩٧ ، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٠٤ .

(٩) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٤٠ .

وأطلقَ عليه اسمَ اليوم؛ لشهرته. وقيل: يقال لهم يومَ القيامة: هذا وليُّكم فاستنصِروا به لينجيَكم مِن العذاب؛ على جهة التوبيخ لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ﴾ من الدين والأحكام فتقومَ الحجةُ عليهم ببيانك[1]. وعطف «هُدًى ورحمةً» على موضع قوله: «لِتُبَيِّنَ» لأنَّ محلَّه نصبٌ. ومجاز الكلام: وما أنزلنا عليك الكتابَ إلَّا تِبياناً للناس[2]. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَداً ورحمةً للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب. ﴿مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ عاد الكلامُ إلى تعداد النِّعَم، وبيانِ كمال القدرة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: دلالةً على البعث وعلى وحدانيته؛ إذ علموا أنَّ معبودَهم لا يستطيع شيئاً، فتكون هذه الدَّلالة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان[3]؛ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

فيه عشرُ مسائلَ:

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٦٩.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٤١٦، وتفسير الرازي ٢٠/ ٦٢.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٧٥.

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ قد تقدَّم القولُ في الأنعام[1]، وهي هنا الأصنافُ الأربعة: الإبلُ والبقر، والضَّأْنُ والمَعْز[2]. ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: دَلالةً على قدرةِ الله ووَحدانيتِه وعظمتِه. والعِبرةُ أصلُها تمثيلُ الشيءِ بالشيءِ؛ لتُعرَفَ حقيقتُه من طريق المشاكلة، ومنه ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ [الحشر: ٢]. وقال أبو بكر الورَّاق: العبرةُ في الأنعامِ تسخيرُها لأربابِها وطاعتُها لهم، وتَمرُّدُك على ربك وخِلافُك له في كل شيء، ومِن أعظمِ العِبَرِ بريءٌ يَحمِل مذنباً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ قراءةُ أهلِ المدينة وابنِ عامر، وعاصمٍ في رواية أبي بكر: بفتح النون، من سَقَى يَسْقِي. وقرأَ الباقونَ وحفصٌ عن عاصم بضم النونِ، من أسقى يُسقي، وهي قراءةُ الكوفيين وأهلِ مكة. قيل: هما لغتان[3]. وقال لَبِيد:

سَقَى قَومِي بَنِي مَجْدٍ وأَسقَى ... نُمَيْراً والقَبائلَ من هِلالِ[4]

وقيل: يُقال لما كان مِن يدكَ إلى فيه: سَقيتُه، فإذا جعلتَ له شِرْباً، أو عَرَّضتَه لِأنْ يشربَ بفيه، أو بزرعه[5]؛ قلت: أسقيتُه؛ قاله ابنُ عُزَيز[6]، وقد تقدم[7].

وقرأتْ فرقةٌ: «تسقِيكم» بالتاء[8]، وهي ضعيفةٌ[9]، يعني: الأنعام. وقُرِئ بالياء[10]، أي: يَسقِيكم اللهُ عزَّ وجلَّ. والقُراءُ على القراءتين المتقدِّمين؛ ففتحُ النونِ

(١) ٩/ ٧٣.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٤.
(٣) التيسير ص١٣٨، والسبعة ص٣٧٤، وينظر الطبري ١٤/ ٢٧٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠١، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٤٩ - ٣٥٠.
(٤) ديوان لبيد بين ربيعة ص١١٠، وسلف ٢/ ١٣٥.
(٥) في (م): يزرعه.
(٦) في نزهة القلوب ص٨١ - ٨٢.
(٧) ٢/ ١٣٥.
(٨) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. ينظر النشر ٢/ ٣٠٤.
(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥.
(١٠) وهي قراءة أبي رجاء، وهي شاذة ينظر البحر المحيط ٥/ ٥٠٨.

لغةُ قريش، وضمُّها لغةُ حِمير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ اختَلفَ الناسُ في الضميرِ من قوله: «مما في بطونِهِ» على ماذا يَعود؟ فقيل: هو عائدٌ إلى ما قبلَه، وهو جمعُ المؤنث. قال سيبويهِ: العربُ تخبرُ عن الأنعامِ بخبرِ الواحد. قال ابنُ العربيِّ[1]: وما أراه عوَّل عليه إلَّا من هذه الآية، وهذا لا يُشبهُ منصبَه، ولا يليقُ بإدراكه. وقيل: لمَّا كان لفظُ الجمع وهو اسم الجنس يُذكَّر ويؤنث فيقال: هو الأنعامُ وهي الأنعامُ، جازَ عَودُ الضمير بالتذكير؛ وقاله الزجاجُ[2]. وقال الكسائيُّ: معناهُ: ممَّا في بطونِ ما ذكرناه، فهو عائدٌ على المذكور[3]، وقد قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس: ١١] وقال الشاعر:

مثل الفِراخ نَتَقَتْ[4] حواصلُه

ومثلُه كثيرٌ. وقال الكسائيُّ: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ أي: ممَّا في بطونِ بعضِه؛ إذِ الذكورُ لا ألبانَ لها، وهو الذي عوَّل عليه أبو عُبيدة. وقال الفراء[5]: الأنعامُ والنَّعَمُ واحد، والنَّعَم يُذكَّر، ولهذا تقولُ العربُ: هذا نَعَمٌ واردٌ، فرجع الضميرُ إلى لفظِ النَّعَم الذي هو بمعنى الأنعام. قال ابن العربي[6]: إنَّما رجع التذكيرُ إلى معنى الجمع، والتأنيثُ إلى معنى الجماعة، فذكَّره هنا باعتبارِ لفظ الجمع، وأنَّثه في سورة المؤمنين باعتبارِ

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١١٣٩ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٠٩ ونقله المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٧ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٩ .

(٤) في النسخ والمسائل العسكرية لأبي علي الفارسي ص١١٧ ، وشرح شواهد الإيضاح لابن بري ص٣٤٧ ، والمحتسب ٢/ ١٥٣ ، واللسان (نعم) و(خلف): نتفت، والمثبت من مجالس ثعلب كما نبَّه عليه عبد السلام هارون رحمه الله، وكذلك جاء في معاني القرآن للفراء ١/ ١٣٠ و ٢/ ١٠٩ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ونتق نتوقاً: امتلأ جلده شحماً ولحماً، تهذيب اللغة ٩/ ٦٢ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٠٨ .

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١١٣٩ .

لفظ الجماعة فقال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]. وبهذا التأويلِ ينتظمُ المعنى انتظاماً حسناً، والتأنيثُ باعتبارِ لفظ الجماعة، والتذكيرُ باعتبار لفظِ الجمع أكثرُ من رَمل يَبْرِين وتَيْهَاء فِلَسْطِين[١].

الرابعة: استنبطَ بعض العلماء الجِلَّة - وهو القاضي إسماعيلُ - من عَودِ هذا الضَّمير، أنَّ لبن الفحل يُفيد التحريم، وقال: إنَّما جيء به مذكَّراً؛ لأنه راجعٌ إلى ذكرِ النَّعم؛ لأنَّ اللبنَ للذَّكَر محسوبٌ، ولذلك قضى النبيُّ ﷺ بأنَّ لبن الفحلِ يُحرِّم حينَ أنكرته عائشةُ في حديثِ أفْلح أخي أبي القُعَيس[٢]، فللمرأةِ السَّقيُ وللرجلِ اللقاحُ، فجرى الاشتراكُ فيه بينهما[٣]. وقد مضى القولُ في تحريمِ لبن الفحل في «النساء»[٤] والحمدُ لله.

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ نبَّه سبحانه على عظيمِ قدرتِه بخروج اللبنِ خالصاً بين الفَرْث والدم. والفَرْثُ: الزِّبلُ الذي ينزلُ إلى الكَرِش، فإذا خرجَ لم يُسَمَّ فَرْثاً. يقال: أفْرَثْتُ الكَرِشَ: إذا أخرجتَ ما فيها[٥]. والمعنى: أنَّ الطعام يكونُ منه ما في الكَرِش، ويكون منه الدَّم، ثم يخلُص اللبن من الدم، فأعلم الله سبحانه أنَّ هذا اللبنَ يخرجُ من بينِ ذلك، وبينِ الدَّم في العروق[٦]. وقال ابنُ عباس: إنَّ الدابة تأكلُ العلفَ، فإذا استقرَّ في كَرِشِها، طَبَخْته، فكانَ أسفلُه فَرثاً، وأوسطُه لبناً، وأعلاه دماً، والكبدُ مُسلَّط على هذه الأصنافِ، فتَقسِم الدمَ وتُميِّزه

---

(١) يبرين من أصقاع البحرين به منبران وهناك الرمل الموصوف بالكثرة، كما في معجم البلدان ٥/ ٤٢٧. وفي (ظ) وأحكام القرآن: «مها» بدل «تيهاء».

(٢) سلف ٦/ ١٨٥.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٣٩.

(٤) ٦/ ١٨٤.

(٥) الصحاح (فرث).

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٠.

وتُجريه في العروق، وتُجري اللبنَ في الضَّرعِ، ويَبقى الفرثُ كما هو في الكَرِش[١]، ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]. ﴿خَالِصًا﴾ يريدُ من حمرةِ الدمِ، وقذارةِ الفَرْث، وقد جَمعهما وعاءٌ واحد[٢]. وقال ابنُ بحر: خالصاً بياضُه[٣]. قال النابغةُ:

بخَالصةِ الأَرْدانِ خُضْرِ المناكبِ[٤]

أي: بيض الأكمام. وهذه قدرةٌ لا تنبغي إلا للقائمِ على كل شيءٍ بالمصلحة.

السادسة: قال النَّقَّاش: في هذا دليلٌ على أنَّ المَنِيَّ ليس بنجسٍ. وقاله أيضاً غيره، واحتجَّ بأن قال: كما يخرجُ اللبنُ من بين الفَرثِ والدمِ سائغاً خالصاً، كذلك يجوزُ أن يَخرجَ المنيُّ على مخرجِ البولِ طاهراً. قال ابنُ العربي: إنَّ هذا لجهلٌ عظيم، وأخذٌ شنيع. اللبنُ جاء الخبرُ عنه مجيءَ النعمةِ والمِنَّةِ الصادرة عن القدرةِ؛ ليكون عِبرةً، فاقتضى ذلك كلُّه وصفَ الخلوصِ واللذة، وليسَ المَنيُّ من هذهِ الحالةِ حتى يكونَ ملحقاً به أو مَقيساً عليه[٥].

قلت: قد يُعارَض هذا بأن يقال: وأيُّ مِنةٍ أعظمُ وأرفع من خروج المني الذي يكون عنه الإنسانُ المكرم؛ وقد قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢] وهذا غايةٌ في الامتنان. فإن قيل: إنه يَتنجَّس بخروجِه في[٦] مجرى البولِ؟ قلنا: هو ما أردناه، فالنَّجاسةُ عارضةٌ وأصلُه طاهر، وقد قيل: إن مَخْرَجه غيرُ مخرجِ

---

(١) تفسير الوسيط ٣/ ٧٠، وتفسير الرازي ٢٠/ ٦٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٩٧.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص١٢، وصدره: يصونون أجساداً قديماً نعيمُها. وقال الجوهري في الصحاح (خضر) الرُّدنُ أصل الكمّ. وأراد النابغة بقوله هذا سَعةَ ما هم فيه من الخِصب.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٠.

(٦) في (ظ): من.

البول وخاصَّةً المرأة، فإنَّ مَدخلَ الذكرِ منها ومخرجَ الولدِ غيرُ مخرجِ البولِ على ما قالَه العلماء. وقد تقدَّم في «البقرة».

فإن قيل: أصلُه دمٌ فهو نجس؟ قلنا: ينتقضُ بالمِسكِ؛ فإنَّ أصلَه دمٌ وهو طاهر. وممَّن قال بطهارتِه الشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ وأبو ثور وغيرُهم[1]؛ لحديثِ عائشةَ رضي الله عنها قالت: كنتُ أفركُه من ثوبِ رسولِ الله ﷺ يابساً بظُفُري[2]. قال الشافعيُّ: فإن لم يُفرَك فلا بأس به[3]. وكان سعدُ بن أبي وَقَّاص يفركُ المنيَّ من ثوبه. وقال ابن عباس: هو كالنُّخامةِ أَمِطْه عنك بإذْخِرةٍ، وامسَحْه بخِرقة[4]. فإن قيل: فقد ثبتَ عن عائشةَ أنَّها قالت: كنت أغسِل المنيَّ من ثوبِ رسولِ الله ﷺ، ثم يخرجُ إلى الصلاة في ذلك الثوب وأنا أنظرُ إلى أثرِ الغسل فيه؟[5] قلنا: يحتملُ أن تكونَ غسلَتْه استقذاراً كالأشياءِ التي تُزال من الثوب كالنجاسة، ويكون هذا جَمْعاً بين الأحاديث[6]. والله أعلم. وقال مالك وأصحابه والأوْزاعيُّ: هو نجس[7]. قال مالك: غسلُ الاحتلام من الثوبِ أمرٌ واجبٌ مُجمع[8] عليه عندنا، وهو قولُ الكوفيين. ويُروى عن عمر بنِ الخطاب، وابنِ مسعود، وجابر بن سمرة أنَّهم غسلوه من ثيابِهم. واختُلِف فيه عن ابنِ عمر وعائشةَ. وعلى هذين القولين في نجاسة المني وطهارتِه التابعون[9].

---

(١) الأوسط ٢/ ١٥٩ - ١٦٠ ، والمجموع ٢/ ٥٦١ .

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨) و(٢٩٠)، وأحمد (٢٤٠٦٤).

(٣) الأم ١/ ٤٧ .

(٤) أخرجه عنهما الشافعي في الأم ١/ ٤٨ ، وابن المنذر في الأوسط ٢/ ١٥٩ .

(٥) أخرجه البخاري (٢٢٩) و(٢٣٠)، ومسلم (٢٨٩).

(٦) ينظر الأم ١/ ٤٨ .

(٧) المجموع ٢/ ٥٦١ .

(٨) في (د) و(ز) و(م): مجتمع، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الأوسط ٢/ ١٥٨ ، وعنه نقل المصنف كلام مالك، وينظر المدونة ١/ ٢١ .

(٩) ينظر الأوسط ٢/ ١٥٧ ، والمجموع ٢/ ٥٦١ .

السابعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على جواز الانتفاعِ بالألبان من الشرب وغيره[١]، فأمَّا لبنُ الميتة، فلا يجوز الانتفاعُ به[٢]؛ لأنه مائعٌ طاهر حصل في وعاءٍ نجس، وذلك أنَّ ضَرْعَ الميتة نجسٌ واللبنَ طاهرٌ، فإذا حُلِبَ صار مأخوذاً من وعاءٍ نجس. فأمَّا لبنُ المرأة الميتة، فاختَلَف أصحابُنا فيه، فَمن قال: إن الإنسانَ طاهرٌ حيًّا وميتاً، فهو طاهر. ومن قال: يَنْجُس بالموت، فهو نجس[٣]. وعلى القولين جميعاً تثبتُ الحرمةُ؛ لأنَّ الصبي قد يَغتذي به كما يَغتذي من الحية، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «الرَّضاعُ ما أنبتَ اللحم، وأنشزَ العظم»[٤]. ولم يَخُصَّ؛ وقد مَضى في «النساء»[٥].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ أي: لذيذاً هيِّناً لا يَغَصُّ به مَن شَرِبه. يُقالُ: ساغَ الشرابُ يسوغُ سَوغاً، أي: سَهُل مدخلُه في الحلقِ، وأساغه شاربُه، وسُغتُه أنا أسيغُه وأسُوغه، يتعدَّى ولا يتعدَّى، والأجودُ: أسغتُه إساغةً. يقال: أسِغْ لي غُصَّتي، أي: أمهلني ولا تُعجلني، وقال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٧]. والسِّواغ، بكسر السين: ما أسغتَ به غُصَّتَك. يقال: الماءُ سِواغُ الغُصَص؛ ومنه قول الكُمَيْت:

فكانت سِوَاغاً أن جَئِزْتُ بغُصَّةٍ[٦]

وروي أنَّ اللبنَ لم يَشْرَقْ به أحدٌ قطُّ، وروي ذلك عن النبيِّ ﷺ[٧].

التاسعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على استعمالِ الحلاوة والأطعمةِ اللذيذة وتناولِها،

---

(١) ينظر المدونة ١/ ٢٠ .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٢٠ .

(٣) ينظر المجموع ٢/ ٥٧٥ ، ومختصر اختلاف العلماء للطحاوي ٤/ ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٤١١٤)، وأبو داود (٢٠٦٠) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٥) ٦/ ١٨١ - ١٨٢ .

(٦) عَجزُه: يضيق بها ذرعاً سواها طبيبها، وهو في ديوان الكميت ص٦٦ ، واللسان (سوغ)، ووقع في الديوان: «إذ عثرت» بدل «أن جئزت». وجَئِزَ بالماء يجأَزُ: إذا غَصَّ به. اللسان (جأز).

(٧) أورده الطبري في التفسير ١٤/ ٢٧٤ ، ولم يُشِر إلى رفعه.

ولا يقال: إنَّ ذلك يناقضُ الزهدَ أو يباعده، لكن إذا كان من وجهِه، ومن غيرِ سَرَف ولا إكثارٍ. وقد تقدَّم هذا المعنى في «المائدة»[١] وغيرها. وفي الصحيحِ عن أنس قال: لقد سقيتُ رسولَ الله ﷺ بقَدَحي هذا الشرابَ كلَّه: العسلَ والنبيذَ، واللبنَ والماءَ[٢]. وقد كَرِه بعضُ القُرَّاء أكلَ الفَالوذَج واللبنِ من الطعام، وأباحَه عامةُ العلماء. وروي عن الحسنِ أنه كانَ على مائدة[٣] ومعه مالكُ بن دينار، فأُتي بفَالوذَج، فامتنعَ عن أكلِه، فقال له الحسنُ: كُلْ! فإنَّ عليكَ في الماءِ البارد أكثرَ من هذا[٤].

العاشرة: روى أبو داود[٥] وغيرُه عن ابنِ عباس قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بلبنٍ فشربَ، فقال رسولُ الله ﷺ «إذا أكلَ أحدكم طعاماً، فليقل: اللَّهُمّ باركْ لنا فيه وأطعِمنا خيراً منه. وإذا سُقِيَ لبناً فليقل: اللَّهُمَّ باركْ لنا فيه، وزِدْنا منه؛ فإنَّه ليس شيءٌ يُجزئ من[٦] الطعامِ والشراب إلَّا اللبن».

قال علماؤنا[٧]: فكيفَ لا يكون ذلك وهو أوّلُ ما يَغتذي به الإنسانُ وتَنْمِي به الجثثُ والأبدان، فهو قوتٌ خَليٌّ عن المفاسد، به قِوامُ الأجسام، وقد جعلَه اللهُ تعالى علامةً لجبريل على هدايةِ هذه الأمةِ التي هي خيرُ الأممِ أمةً؛ فقال في الصحيح: «فجاءني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبن، فاخترتُ اللبنَ، فقالَ لي جبريل: اخترتَ الفِطرةَ، أما إنَّك لو اخترتَ الخمرَ غَوَتْ أُمتُك»[٨]. ثم إنَّ في الدعاءِ

---

(١) ٨/ ١١٩ .

(٢) أخرجه البخاري بعد (٥٦٣٨) قال: قال أنس: لقد سقيت رسول الله ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا.

(٣) في (ظ): مائدته.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٧/ ١٧٦ ، وسلف ٨/ ١١٩ .

(٥) في السنن (٣٧٣٠)، والترمذي (٣٤٥٥) وقال: هذا حديث حسن.

(٦) في (د) و(ز) و(م): عن، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في سنن أبي داود.

(٧) ينظر إكمال المعلم ١/ ٥٠١ .

(٨) أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة.

بالزيادة منه علامةَ الخِصب، وظهورَ الخيراتِ والبركات، فهو مبارك كله.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ قال الطبري[١]: ومن[٢] ثمراتِ النخيل والأعنابِ ما تتخذون. فحذف «ما»، ودلَّ على حذفِه قولُه: «منه». وقيل: المحذوفُ «شيءٌ» والأمرُ قريب. وقيل: معنى «منه» أي: من المذكورِ، فلا يكونُ في الكلامِ حذفٌ، وهو أولى. ويجوزُ أن يكون قولُه: «ومِن ثمراتِ» عطفاً على «الأنعام»، أي: ولكم من ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ عبرةٌ. ويجوزُ أن يكونَ معطوفاً على «مما» أي: ونسقيكم أيضاً مشروباتٍ من ثمرات[٣].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿سَكَرًا﴾ السَّكَر ما يُسْكِر. هذا هو المشهورُ في اللغةِ. قال ابنُ عباس: نزلت هذه الآيةُ قبل تحريمِ الخمر. وأرادَ بالسَّكَر الخمر، وبالرِّزقِ الحسن جميعَ ما يُؤكل ويُشرب حلالاً من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابنُ جُبير والنَّخعِيُّ والشَّعبِيُّ وأبو ثور[٤]. وقد قيل: إنَّ السَّكَر الخَلُّ بلغةِ الحبشة، والرزقَ الحسنَ الطعامُ. وقيل: السَّكَر: العصيرُ الحلوُ الحلال[٥]، وسُمِّيَ سَكَراً؛ لأنه قد يصيرُ مسكراً إذا بقي، فإذا بلغَ الإسكارَ حَرُمَ. قال ابنُ العربي: أَسَدُّ هذه الأقوالِ قولُ ابن عباس، ويخرجُ ذلك على أحدِ معنيين، إما أن يكونَ ذلك قبل تحريمِ الخمر، وإما أن يكونَ المعنى: أنعمَ الله عليكم بثمراتِ النخيل والأعناب تتَّخذون منه ما حرَّم

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٢٧٤ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): التقدير ومن...، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير الطبري.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٧٤-٢٧٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥ ، وفي : «زيد» بدل «ثور».

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٩٨ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٤ - ٤٦٥ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٨١ .

الله عليكم اعتداءً منكم، وما أحلَّ لكم اتفاقاً أو قصداً إلى منفعةِ أنفسكم. والصَّحيحُ أنَّ ذلك كان قبلَ تحريمِ الخمر، فتكون منسوخةً؛ فإنَّ هذه الآيةَ مكيةٌ باتفاقٍ من العلماءِ، وتحريمَ الخمرِ مَدنيٌّ[١].

قلت: فعلى أنَّ السَّكَر الخَلُّ أو العصيرُ الحلو لا نسخَ، وتكون الآيةُ محكمةً، وهو حَسن. قال ابنُ عباس: الحبشة يسمُّون الخلَّ السَّكَرَ، إلا أنَّ الجمهورَ على أن السَّكَرَ الخمرُ، منهم ابنُ مسعود، وابنُ عمر، وأبو رَزين، والحسن، ومجاهد، وابن أبي لَيْلى، والكَلْبيُّ، وغيرُهم ممَّن تقدّم ذكرهم، كلُّهم قالوا: السَّكَرُ ما حرَّمه الله من ثمرتيهما. وكذا قال أهلُ اللغةِ: السكَر اسمٌ للخمر وما يُسكر[٢]، وأنشدوا:

بئسَ الصُّحاةُ وبئسَ الشَّربُ شَربُهُم ... إذا جَرى فيهمُ المُزَّاءُ والسَّكَرُ[٣]

والرزقُ الحسنُ: ما أحلَّه الله من ثمرتيهما. وقيل: إن قولَه: «تَتَّخِذُونَ مِنهُ سَكَراً» خبرٌ معناه الاستفهامُ بمعنى الإنكار؛ أي: أتتخذون منه سَكراً، وَتَدَعون رزقاً حسناً الخلَّ والزبيبَ والتمر، كقولِه: ﴿فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي: أفَهم الخالدون. والله أعلم. وقال أبو عبيدة[٤]: السَّكَر الطُّعمُ، يقال: هذا سَكَرٌ لك، أي: طُعمٌ. وأنشدَ:

جَعلتَ عَيْبَ الأكرَمينَ سَكَراً[٥]

أي جَعلتَ ذمَّهم طُعماً. وهذا اختيارُ الطبري[٦] أنَّ السَّكَر ما يُطعم من الطعامِ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤١ .

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٨٢ - ٢٨٣ ، والنكت والعيون ٣/ ١٩٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٥ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٤ ، وتهذيب اللغة ١٠/ ٥٨ .

(٣) البيت للأخطل وهو في ديوانه ص١١٠ ، والمُزَّاءُ: ضربٌ من الأشربة. الصحاح (مزز).

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٣٦٣ .

(٥) نسبه في مجاز القرآن ١/ ٣٦٣ إلى جندل، وهو عند الطبري ١٤/ ٢٨٤ ، والنكت والعيون ٣/ ١٩٨ ، واللسان (سكر) دون نسبة.

(٦) في التفسير ١٤/ ٢٨٥ .

وحَلٌّ شربُه من ثمارِ النخيلِ والأعناب، وهو الرزقُ الحسنُ، فاللفظُ مختلفٌ، والمعنى واحد، مثل ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]. وهذا حسنٌ ولا نسخَ، إلا أنَّ الزجاجَ قال: قولُ أبي عبيدة هذا لا يُعرف، وأهلُ التفسير على خلافِه، ولا حجةَ له في البيت الذي أنشده؛ لأنَّ معناه عندَ غيره أنه يصفُ أنَّها تتخمرُ بعيوبِ الناس.

وقال الحنفيون: المرادُ بقولِه: «سَكَراً» ما لا يُسكر من الأنبذةِ؛ والدليلُ عليه أنَّ الله سبحانَه وتعالى امتنَّ على عبادِه بما خَلَق لهم من ذلك، ولا يقعُ الامتنانُ إلا بمحلَّلٍ لا بمحرَّم، فيكون ذلك دليلاً على جوازِ شربِ ما دون المسكرِ من النبيذ، فإذا انتهى إلى السكرِ لم يَجُز، وعَضَدوا هذا من السنةِ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «حرَّم الله الخمرَ بعينِها والسَّكر من غيرِها»[1]. وبما رواه عبدُ الملك بنُ نافع، عن ابن عمر قالَ: رأيتُ رجلاً جاء إلى رسولِ الله ﷺ، وهو عندَ الرُّكْنِ، ودفعَ إليه القَدَحَ، فرفعه إلى فيه، فوجدَه شديداً، فردَّه إلى صاحبه، فقال له حينئذٍ رجلٌ من القوم: يا رسولَ الله، أحرامٌ هو؟ فقال: «عليَّ بالرجلِ» فأُتِي به، فأخذ منه القدحَ، ثم دعا بماء فصبَّه فيه، ثم رفَعه إلى فيهِ فقَطَّب، ثم دعا بماءٍ أيضاً فصبَّه فيه ثم قال: «إذا اغتَلَمتْ عليكم هذه الأوعيةُ، فاكسِروا متُونَها بالماء»[2]. ورُوي أنه عليه الصلاة والسلام كانَ يُنْبَذُ له فيشربُه ذلك اليوم، فإذا كانَ من اليومِ الثاني أو الثالث سقاهُ الخادمَ إذا تغيَّر، ولو كان حراماً ما سَقاه إياه[3].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٢ ، والحديث أخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٤٢٤ ، من حديث علي ﷺ، مرفوعاً. وقال العقيلي: وهذا يُعرف عن عبد الله بن شداد بن الهاد، عن ابن عباس قوله. والموقوف أخرجه النسائي في الكبرى (٥١٧٤) و(٦٧٤٧) و(٦٧٤٨)، وفي المجتبى ٨/ ٣٢١ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٤ ، عن ابن عباس موقوفاً. وينظر الدراية ٢/ ٢٥١ .

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٥١٨٤)، وفي المجتبى ٨/ ٣٢٣ . وقال: عبد الملك بن نافع ليس بالمشهور، ولا يحتج بحديثه، والمشهور عن ابن عمر خلاف حكايته. ومعنى اغتلمت: أي: إذا جاوزت حدَّها الذي لا يسكر إلى حدها الذي يسكر. النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٨٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٢ ، وأخرجه مسلم (٢٠٠٤) من حديث ابن عباس.

قال الطحاوي: وقد رَوى أبو عَون الثَّقَفي، عن عبدِ الله بن شداد، عن ابنِ عباس قال: حُرِّمت الخمرُ بعينِها القليلُ منها والكثيرُ، والسَّكَرُ من كلِّ شرابٍ. خَرَّجه الدارقطنيُّ أيضاً[١]. ففي هذا الحديثِ وما كان مثلُه، أنَّ غيرَ الخمر لم تُحرَّم عينُه كما حُرِّمتِ الخمرُ بعينها[٢]. قالوا: والخمرُ شراب العنب لا خلافَ فيها، ومن حجتهم أيضاً ما رواه شَريك بنُ عبد الله، حدثنا أبو إسحاق الهمداني، عن عَمرو بنِ ميمون قال: قال عمرُ بن الخطاب: إنا نأكلُ لحومَ هذه الإبلِ، وليس يَقطعُه في بطونِنا إلا النبيذُ. قال شريك: ورأيتُ الثَّورِيَّ يشربُ النبيذَ في بيتِ خَيرِ[٣] أهل زمانِه مالكِ بن مِغول.

والجوابُ أن قولهم: إنَّ الله سبحانه وتعالى امتنَّ على عبادِه، ولا يكون امتنانُه إلا بما أحلَّ. فصحيحٌ، بَيْد أنه يحتملُ أن يكونَ ذلك قبل تحريمِ الخمر، كما بيَّنَّاه فيكون منسوخاً كما قدَّمناه. قال ابنُ العربيِّ: إن قيل: كيفَ يُنسَخ هذا وهو خبرٌ، والخبرُ لا يدخله النَّسخ؟ قلنا: هذا كلامُ مَنْ لم يتحققِ الشريعة، وقد بيَّنَّا أنَّ الخبر إذا كان عن الوجودِ الحقيقيِّ، أو عن إعطاءِ ثوابٍ فضلاً من الله، فهو الذي لا يدخلُه النسخُ، فأمَّا إذا تضمَّن الخبرُ حكماً شرعيًّا، فالأحكام تتبدَّل وتُنسخ، جاءت بخبرٍ أو أمرٍ، ولا يرجعُ النسخُ إلى نفس اللفظ، وإنَّما يرجعُ إلى ما تضمَّنه، فإذا فَهمتم هذا خَرجتُم عن الصِّنف الغبيِّ الذي أخبرَ الله عن الكفار فيه بقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:١٠١]. المعنى أنَّهم جَهلوا أن الربَّ يأمر بما يشاءُ، ويكلفُ ما يشاءُ، ويرفع من ذلك بعَدْلِه ما يشاءُ، ويُثبِتُ ما يشاء، وعنده أمُّ الكتاب[٤].

---

(١) الطحاوي في مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٣٧٥، وشرح معاني الآثار ٤/ ٢١٤، والدارقطني (٤٦٦٦).

(٢) مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٣٧٥.

(٣) في (م): خَبر، وأخرج أثر عمر الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٨، والدارقطني (٤٦٨١) و(٤٦٨٤)، والبيهقي ٨/ ٢٩٩، وابن عدي في الكامل ٨/ ٢٩٩.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٢ - ١١٤٣.

قلتُ: هذا تشنيعٌ شنيعٌ حتى يُلحِقَ فيه العلماءَ الأخيار في قصورِ الفهم بالكفارِ، والمسألةُ أُصوليةٌ، وهي أنَّ الأخبارَ عن الأحكام الشرعيةِ، هل يجوزُ نسخُها أم لا؟ اختُلِف في ذلك، والصحيحُ جوازُه؛ لهذه الآيةِ وما كان مثلَها[1]، ولأنَّ الخبرَ عن مشروعيةِ حكمٍ ما يَتضمنُ طلبَ ذلك المشروعِ، وذلك الطلبُ هو الحكمُ الشرعيُّ الذي يُستدلُّ على نسخِه. والله أعلم.

وأمَّا ما ذكروا من الأحاديثِ، فالأولُ والثاني ضعيفان[2]؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد رُوي عنه بالنقلِ الثابتِ أنه قال: «كلُّ شرابٍ أسكرَ فهو حرامٌ»[3] وقال: «كلُّ مسكرٍ خمرٌ، وكل مسكرٍ حرام»[4] وقال: «ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرام»[5]. قال النَّسائيُّ: وهؤلاءِ أهلُ الثَّبت والعدالةِ مشهورون بصحةِ النقل، وعبدُ الملك لا يقومُ مقامَ واحدٍ منهم، ولو عاضَده مِن أشكالِه جماعةٌ، وبالله التوفيق[6].

وأمَّا الثالثُ ـ وإن كان صحيحاً ـ فإنَّه ما كان يسقيهِ للخادمِ على أنَّه مسكر، وإنَّما كان يسقيه؛ لأنَّه متغيرُ الرائحةِ، وكان ﷺ يَكره أن تُوجَد منه الرائحةُ، فلذلك لم يَشربْه، ولذلك تَحيَّل عليه أزواجُه في عسلِ زينبَ، بأنْ قيل له: إنَّا نجدُ منكَ ريحَ مغافِير؟ يعني: ريحاً منكرةً، فلم يَشربْه بعدُ[7]. وسيأتي في «التحريم».

---

(١) في (ظ): لهذه الأمة ولا كان مثلها.

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٣ .

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٨٥)، ومسلم (٢٠٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) والنسائي في الكبرى (٥١٩١)، وأحمد (٤٦٤٤)، من حديث عبد الله بن عمر.

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٣٩٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢١٧ ، من حديث عبد الله بن عمرو.

(٦) السنن الكبرى للنسائي إثر حديث (٥١٩١).

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٣ ، وحديث المغافير أخرجه البخاري (٥٢٦٧) و(٦٦٩١)، ومسلم (١٤٧٤)، وأحمد (٢٥٨٥٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤ : مغافير: واحدها مُغْفُور بالضم، وله ريح كريهة منكرة، ويقال أيضاً: المغاثير.

وأمَّا حديثُ ابنِ عباس، فقد رُوي عنه خلافُ ذلك من روايةِ عطاء وطاوس ومجاهد، أنَّه قال: ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرامٌ، ورواه عنه قيس بن حَبْتَر[١]، وكذلك فُتياه في المسكر؛ قاله الدَّارَقُطْنيُّ. والحديثُ الأول رواه عنه عبدُ الله بن شدَّاد، وقد خالفه الجماعةُ، فسقط القولُ به مع ما ثبتَ عن النبيِّ ﷺ.

وأمَّا ما روي عن عمرَ من قوله: ليسَ يقطعُه في بطونِنا إلا النبيذُ. فإنه يريدُ غيرَ المسكر بدليل ما ذكرنا. وقد روى النَّسائيُّ عن عتبةَ بن فَرْقَد قال: كان النبيذُ الذي شربَه عمرُ بن الخطاب قد خُلِّل. قال النسائيُّ: وممَّا يدلُّ على صحةِ هذا حديثُ السائب، قال الحارثُ بن مِسْكين قراءةً عليه وأنا أسمعُ: عن ابنِ القاسم، حدثني مالك، عن ابنِ شهاب، عن السَّائب بن يزيد، أنه أخبرَه أنَّ عمر بن الخطاب خرجَ عليهم فقال: إني وجدتُ من فلانٍ ريحَ شراب، فزعم أنه شرابُ الطِّلاء، وأنا سائلٌ عمَّا شَرِب، فإن كان مسكراً جَلدتُه، فجلده عمرُ بن الخطاب ﷺ الحدَّ تامًّا[٢]. وقد قال في خطبتِه على منبرِ رسول الله ﷺ: أمَّا بعد، أيها الناسُ، فإنه نزلَ تحريمُ الخمر وهي من خمسة: من العنبِ، والعسل، والتمر، والحنطة، والشعير، والخمرُ ما خَامرَ العقلَ[٣]. وقد تقدَّم في «المائدةِ»[٤].

فإن قيل: فقد أحلَّ شربَه إبراهيمُ النَّخَعِيُّ، وأبو جعفر الطَّحاويُّ وكان إمامَ أهلِ زمانه، وكان سفيانُ الثوريُّ يَشربُه. قلنا: ذكرَ النَّسائيّ في كتابِه[٥] أنَّ أولَ مَن أحلَّ المسكر من الأنبذة إبراهيمُ النخعيُّ. وهذه زلةٌ من عالمٍ وقد حَذَّرنا من زلةِ العالم، ولا

---

(١) في النسخ: دينار، والمثبت من سنن الدارقطني بعد رقم (٤٦٦٦)، ولم نجد قيس بن دينار في الرواة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) السنن الكبرى (٥١٩٧) و(٥١٩٨)، والمجتبى ٨/ ٣٢٦ .

(٣) صحيح البخاري (٥٥٨١)، وصحيح مسلم (٣٠٣٢).

(٤) ٨/ ١٥٩ .

(٥) السنن الكبرى (٥٢٤١)، والمجتبى ٨/ ٣٣٥ .

حجةَ في قولِ أحدٍ مع السنة[١]. وذكر النسائيُّ[٢] أيضاً عن ابنِ المبارك قال: ما وجدتُ الرخصةَ في المسكرِ عن أحدٍ صحيحاً إلا عن إبراهيمَ. قال أبو أسامة: ما رأيتُ رجلاً أطلبَ للعلمِ من عبدِ الله بنِ المبارك في[٣] الشاماتِ ومصرَ، واليمنِ والحجاز[٤]. وأمَّا الطحاويُّ وسفيانُ، لو صحَّ ذلك عنهما، لم يُحتَجَّ بهما على مَن خالفهما من الأئمةِ في تحريمِ المسكر مع ما ثبتَ من السنةِ، على أنَّ الطحاويَّ قد ذكر في كتابِه الكبير في الاختلافِ خلافَ ذلك.

قال أبو عُمر بنُ عبد البر في كتابِ «التمهيد»[٥] له: قال أبو جعفر الطحاويُّ: اتفقتِ الأمةُ على أن عصيرَ العنب إذا اشتدَّ وغَلَى وقَذفَ بالزَّبد، فهو خمرٌ ومُستحلُّه كافر. واختلفوا في نَقِيع التمرِ إذا غلى وأسكر. قال: فهذا يدلُّ[٦] على أنَّ حديث يحيى ابن أبي كثير، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الخمرُ من هاتينِ الشَّجرتين: النخلةِ والعنبِ»[٧] غيرُ معمولٍ به عندَهم؛ لأنَّهم لو قَبِلوا الحديثَ لكَفَّروا[٨] مستحلَّ نقيعِ التمر، فثبتَ أنه لم يدخل في الخمرِ المحرَّمةِ غيرُ عصيرِ العنب الذي قدِ اشتدَّ وبلغ أن يُسكِر. قال: ثم لا يَخلو من أن يكون التحريمُ معلَّقاً بها فقط غيرَ مقيسٍ عليها غيرُها، أو يجبُ القياس عليها، فوجدناهم جميعاً قد قاسوا عليها نقيعَ التمرِ إذا غَلَى وأسكر كثيرُه، وكذلك نقيعُ الزبيب. قال: فوجبَ قياساً على ذلك أن يَحرُمَ كلُّ ما أسكر من الأشربة. قال: وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كلُّ مسكرٍ حرامٌ»[٩]

(١) التمهيد ١/ ٢٥٥ .

(٢) في السنن الكبرى (٥٢٤٢)، والمجتبى ٨/ ٣٣٥ .

(٣) ليست في النسخ، وهي من تحفة الأشراف (١٨٩٤١).

(٤) السنن الكبرى للنسائي (٥٢٤٣)، والمجتبى ٨/ ٣٣٥ .

(٥) ١/ ٢٥٦ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): يدلك، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد.

(٧) أخرجه مسلم (١٩٨٥)، وأحمد (٧٧٥٣).

(٨) في (د) و(ز) و(م): لأكفروا، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد ١/ ٢٥٦ .

(٩) سلف آنفاً.

واستغني عن سندِه؛ لقبولِ الجميعِ له، وإنَّما الخلافُ بينهم في تأويله، فقال بعضُهم: أرادَ به جنسَ ما يُسكِر. وقال بعضُهم: أرادَ به ما يقعُ السكر عندَه، كما لا يسمى قاتلاً إلا مع وجودِ القتلِ[١].

قلت: فهذا يدلُّ على أنه مُحرَّم عندَ الطحاوي؛ لقوله: فوجبَ قياساً على ذلك أن يَحرُم كلُّ ما أسكرَ من الأشربة. وقد روى الدَّارَقُطْنيُّ في «سننه»[٢] عن عائشةَ رضي الله عنها أنها قالت: إنَّ الله لم يحرِّمِ الخمرَ لاسمِها، وإنَّما حَرَّمها لعاقبتِها. فكلُّ شرابٍ يكون عاقبتُه كعاقبةِ الخمر، فهو حرامٌ كتحريمِ الخمر.

قال ابنُ المنذر[٣]: وجاءَ أهلُ الكوفة بأخبارٍ معلولة، وإذا اختلفَ الناسُ في الشيءِ وجبَ ردُّ ذلك إلى كتابِ الله، وسنةِ رسوله عليه الصلاة والسلام، وما رُوي عن بعضِ التابعين أنَّه شربَ الشرابَ الذي يُسكِر كثيرُه، فللقومِ ذنوبٌ يستغفرون اللهَ منها، وليسَ يخلو ذلك من أحدِ معنيين: إمَّا مخطئٌ أخطأَ في التأويلِ على حديثٍ سمعه، أو رجلٌ أتى ذنباً لعلَّه أن يُكثِر من الاستغفارِ لله تعالى، والنبيُّ ﷺ حجةُ الله على الأوَّلين والآخِرين من هذه الأمة.

وقد قيل في تأويلِ الآية: إنَّها إنَّما ذُكِرت للاعتبار، أي: مَن قدَرَ على خلقِ هذه الأشياء قادرٌ على البعث، وهذا الاعتبارُ لا يختلفُ بأن كانتِ الخمرُ حلالاً أو حراماً، فاتخاذُ السَّكَرِ لا يدلُّ على التحريم، وهو كما قال تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

---

(١) التمهيد ١/٢٥٦.

(٢) برقم (٤٦٦٩).

(٣) في الإشراف ٢/٣٧٧ - ٣٧٩.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ قد مضى القولُ في الوَحْي وأنه قد يكون بمعنى الإلهام[١]، وهو ما يَخلقُه الله تعالى في القلبِ ابتداءً من غيرِ سبب ظاهر، وهو من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧]. ومن ذلك البهائمُ وما يَخلُق الله سبحانه فيها من دَرْكِ منافِعها، واجتنابِ مضارها، وتدبير معاشِها[٢]. وقد أخبر عزَّ وجلَّ بذلك عن المَوات فقال: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. قال إبراهيم الحَرْبيُّ: لِله عزَّ وجلَّ في المَواتِ قدرةٌ لم يُدْرَ ما هي، لم يأتِها رسولٌ من عندِ الله، ولكنَّ الله تعالى عرَّفها ذلك، أي: ألهمَها. ولا خلافَ بين المتأوِّلين أنَّ الوحيَ هنا بمعنى الإلهام. وقرأ يحيى بنُ وَثَّاب «إلى النَّحَلِ» بفتح الحاء[٣]. وسُمِّي نحلاً؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ نَحَله العسلَ الذي يَخرجُ منه؛ قاله الزَّجاج[٤]. الجوهريُّ: والنحلُ والنحلةُ: الدَّبْرُ، يقع على الذكر والأنثى، حتى يقال: يَعْسُوب[٥]. والنحلُ يؤنث في لغةِ أهل الحجاز، وكلُّ جمعٍ ليس بينه وبينَ واحِده إلا الهاء[٦]. ورُوي من حديثِ أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الذُّبانُ كلُّها في النار يجعلُها عذاباً لأهل النارِ إلا النحل» ذكره الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[٧]. ورَوى عن ابن عباس قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن قتلِ النملةِ والنحلةِ، والهُدْهُدِ والصُّرَدِ. خرَّجه أبو داود أيضاً[٨]، وسيأتي في «النمل»[٩] إن شاء الله تعالى.

---

(١) ٥/ ١٣٠ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٤ .

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٧٣ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ٧٠ .

(٥) الصحاح (نحل).

(٦) ينظر المذكر والمؤنث للفراء ص٢٠ ، والمذكر والمؤنث للسجستاني ص٧٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٢ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٠ .

(٧) ص١٣٢ ، الأصل الرابع والتسعون.

(٨) نوادر الأصول ص١٣١ ، الأصل الرابع والتسعون. وهو عند أبي داود (٥٢٦٧)، وأحمد (٣٠٦٦).

(٩) عند تفسير الآية ١٨ منها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالكٌ. ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ جعل الله بيوتَ النحلِ في هذه الثلاثةِ الأنواع، إمَّا في الجبال وكُوَاها، وإمَّا في متجوفِ الأشجار، وإمَّا فيما يعرِش ابنُ آدم من الأجباح[1] والخلايا والحيطانِ وغيرِها. وعَرَش معناهُ هنا: هيَّأ، وأكثرُ ما يُستعمل فيما يكون من إتقانِ الأغصانِ والخشب وترتيبِ ظلالها، ومنه العريشُ الذي صُنِع لرسولِ الله ﷺ يومَ بدر، ومن هذا لفظةُ العرش. يقالُ: عَرَش يَعْرِش ويعرُش بكسرِ الراء وضمها، وقُرِئ بهما. قرأ ابنُ عامر بالضمِّ، وسائرُهم بالكسرِ، واختلف في ذلك عن عاصم[2].

الثالثة: قال ابنُ العربيِّ[3]: ومِن عجيبِ ما خلقَ الله في النحل أنْ ألهمَها لاتخاذ بيوتِها مُسدَّسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعةِ الواحدةِ، وذلك أنَّ الأشكالَ من المثلَّث إلى المُعشَّر إذا جُمع كلُّ واحدٍ منها إلى أمثالِه لم يتصل، وجاءت بينهما فُرَجٌ، إلا الشكلَ المسدَّس؛ فإنه إذا جُمِع إلى أمثالِه، اتصلَ كأنه كالقطعةِ الواحدةِ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وذلك أنَّها إنَّما تأكل النوَّارَ من الأشجارِ. ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: طرقَ ربك. والسُّبُل: الطرقُ، وأضافَها إليه؛ لأنه خالقها. أي: ادخلي طرقَ ربك؛ لطلبِ الرزق في الجبالِ وخلالِ الشجر. ﴿ذُلُلًا﴾ جمعُ ذَلول، وهو المنقاد، أي: مطيعة مسخَّرة. فـ «ذُلُلاً» حالٌ من النحل، أي: تنقادُ وتذهبُ حيث شاء صاحبُها؛ لأنَّها تتبعُ أصحابَها حيث ذهبوا؛ قاله ابنُ زيد. وقيل: المرادُ بقوله: «ذُلُلاً» السُّبلُ. يقول: مذلَّلٌ طرقُها سهلةٌ للسلوكِ عليها؛ واختاره الطبريُّ،

---

(١) جمع الجَبْح، وهي خلية العسل. القاموس المحيط (جبح).

(٢) التيسير ص١١٣، والسبعة ص٣٧٤، والمحرر الوجيز ٣/٤٠٦، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/١١٤٤.

و«ذُلُلاً» حالٌ من السُّبلِ. واليَعْسُوبُ سيدُ النحل، إذا وقفَ وَقَفتْ، وإذا سارَ سارت[١].

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ فيه تسعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ رجعَ الخطابُ إلى الخبرِ على جهة تعديدِ النعمة، والتنبيهِ على العِبرة فقالَ: «يخرج مِن بطونِها شراب» يعني: العسل. وجمهورُ الناسِ على أنَّ العسلَ يخرجُ من أفواهِ النحل، وورد عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ أنه قالَ في تحقيرِه للدنيا: أشرف لباسِ ابنِ آدم فيها لعابُ دودة، وأشرفُ شرابِه رَجيعُ نحلة. فظاهرُ هذا أنَّه من غيرِ الفم[٢]. وبالجملةِ فإنَّه يخرج ولا يُدرَى من فِيها أو أسفلِها، ولكن لا يتمُّ صلاحُه إلا بحمَّى أنفاسِها. وقد صنعَ أرسطا طاليس بيتاً من زجاجٍ لينظرَ إلى كيفيةِ ما تصنع، فأبتْ أن تعملَ حتى لطختْ باطن الزجاج بالطين؛ ذكره الغَزنويُّ. وقال: «مِن بطونِها»؛ لأنَّ استحالةَ الأطعمةِ لا تكونُ إلا في البطن[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يريدُ أنواعَه من الأحمر والأبيض والأصفر، والجامد والسائل، والأمُّ واحدةٌ والأولاد مختلفون دليلٌ على أن القدرةَ نوَّعته بحسبِ تنويع الغذاء، كما يختلفُ طعمه بحسبِ اختلافِ المراعي، ومن هذا المعنى قولُ زينب للنبيِّ ﷺ: جَرَسَتْ نحلُه العُرْفُطَ. حين شبَّهت رائحتَه برائحةِ المغافير[٤].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ الضميرُ للعسل؛ قاله الجُمهور[٥]. أي: في العسلِ شفاءٌ للناس. ورُوي عن ابنِ عباس والحسن، ومجاهد والضحاك، والفراء

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٩ ، والنكت والعيون ٣/ ١٩٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٤١ ، والصحاح (عسب).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٠ - ٢١١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٠ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦ . وقول السيدة زينب رضي الله عنها أخرجه البخاري (٦٩٧٢)، ومسلم (١٤٧٤) (٢١)، وأحمد (٢٤٣١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها. وجَرَسَتْ، أي: أكلت. والعُرْفُط: شجرٌ. اللسان (جرس) و(عرفط).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦ .

وابن كَيْسان: الضميرُ للقرآن، أي: في القرآن شفاءٌ[١]. النحاسُ[٢]: وهذا قولٌ حسن؛ أي[٣]: فيما قَصصنا عليكم من الآياتِ والبراهينِ شفاءٌ للناس. وقيل: العسلُ فيه شفاءٌ، وهذا القولُ بَيِّن أيضاً؛ لأنَّ أكثرَ الأشربةِ والمعجوناتِ التي يُتعالجُ بها أصلُها من العسلِ.

قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٤]: مَن قال إنَّه القرآن بعيدٌ، ما أراهُ يصحُّ عنهم، ولو صحَّ نقلاً لم يصحَّ عقلاً؛ فإن مساقَ الكلامِ كلِّه للعسل، ليس للقرآنِ فيه ذكرٌ.

قال ابن عطية[٥]: وذهبَ قومٌ من أهل الجهالةِ إلى أنَّ هذه الآيةَ يُراد بها أهلُ البيت وبنو هاشم، وأنَّهم النحلُ، وأنَّ الشرابَ القرآنُ والحكمة، وقد ذَكر هذا بعضُهم في مجلسِ المنصور أبي جعفر العباسيِّ، فقال له رجلٌ ممَّن حضر: جعلَ الله طعامَك وشرابَك مما يخرجُ من بطونِ بني هاشم، فأضحكَ الحاضرينَ، وبُهِت الآخرُ، وظهرتْ سخافةُ قولِه[٦].

الرابعة: اختلفَ العلماءُ في قولِه تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ هل هو على عمومِه أم لا؟ فقالت طائفةٌ: هو على العموم في كلِّ حال ولكلِّ أحد، فرُوي عن ابنِ عمرَ أنه كان لا يشكو قرحةً ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً، حتى الدُّمَّل إذا خرجَ عليه طَلى عليه عسلاً. وحكى النَّقَّاش عن أبي وَجْرةَ أنه كانَ يكتحلُ بالعسلِ، ويستمشي بالعسلِ، ويتداوى بالعسل. وروى أن عوف بنَ مالك الأشجعي مرضَ فقيلَ له: ألا

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٩٩ - ٢٠٠ ، والمفهم ٥/ ٦١٠ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٩ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٦ ، وأخرج أثر مجاهد ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٨٦ ، والطبري في التفسير ١٤/ ٢٨٩ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٨٤ - ٨٥ .

(٣) في (م): أو، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس، والكلام منه.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١٤٦ .

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٧ ، وينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤١٨ .

(٦) المفهم ٥/ ٦١٠ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٥ - ١١٤٦ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٢ .

نعالجك؟ فقال: ائتوني بالماء، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق:٩] ثم قال: ائتوني بعسل، فإن الله تعالى يقول: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وائتوني بزيت، فإن الله تعالى يقول: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور:٣٥]، فجاؤوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرئ. ومنهم مَن قال: إنَّه على العموم إذا خُلِط بالخل ويطبخ[1]، فيأتي شراباً يُنتفَع به في كل حالةٍ من كل داء.

وقالت طائفة: إن ذلك على الخصوص، ولا يقتضي العمومَ في كل علةٍ وفي كل إنسان، بل إنه خبرٌ عن أنه يشفي كما يشفي غيرُه من الأدويةِ في بعض، وعلى حالٍ دون حال؛ ففائدةُ الآية إخبارٌ منه في أنه دواءٌ، كما[2] كَثُر الشفاءُ به، وصار خليطاً ومُعيناً للأدويةِ في الأشربةِ والمعاجين. وليس هذا بأولِ لفظٍ خُصِّص، فالقرآنُ مملوء منه، ولغةُ العرب يأتي فيها العامُّ كثيراً بمعنى الخاص، والخاصُّ بمعنى العام. وممَّا يدل على أنه ليس على العمومِ أنَّ «شفاء» نكرةٌ في سياقِ الإثبات، ولا عمومَ فيها باتفاق أهلِ اللسان، ومحقِّقي أهل العلم، ومختلفي أهلِ الأصول. لكنْ قد حملته طائفةٌ من أهلِ الصدق والعزمِ على العموم، فكانوا يستشفون بالعسلِ من كلِّ الأوجاعِ والأمراض، وكانوا يُشفَون من عِللهم ببركةِ القرآن، وبصحةِ التصديق والإيقانِ. ابنُ العربي: ومَن ضَعُفت نيتُه، وغَلبتْهُ على الدِّين عادتُه، أخذه مفهوماً على قولِ الأطباء، والكلُّ مِن حِكَم الفَعَّال لما يشاء[3].

الخامسة: إنْ قال قائل: قد رأينا مَن ينفعُه العسلُ ومَن يضره، فكيفَ يكون شفاءً للناس؟ قيل له: الماءُ حياة كلِّ شيءٍ وقد رأينا مَن يقتله الماءُ إذا أخذه على ما يُضادُّه من علةٍ في البدن، وقد رأينا شفاءَ العسلِ في أكثر هذه الأشربة؛ قال معناه الزَّجاج[4].

---

(١) في (ظ): يصبح.

(٢) في النسخ: لما، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٦، والكلام منه، وينظر الكشاف ٢/ ٤١٨، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٢ - ٧٣.

(٣) المفهم ٥/ ٦١٠، وأحكام القرآن ٣/ ١١٤٦.

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢١١.

وقد اتفقَ الأطباءُ عن بَكْرةِ أبيهم على مدحِ عمومِ منفعةِ السَّكَنْجَبين[١] في كل مرض، وأصلُه العسل، وكذلك سائرُ المعجونات. على أنَّ النبيَّ ﷺ قد حَسَم ذا[٢] الإشكال، وأزاحَ وجهَ الاحتمالِ حين أمرَ الذي يشتكي بطنَه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقاً، أمرهُ بعَود الشراب له فبرئ؛ وقال: «صدقَ اللهُ، وكَذب بطنُ أخيك»[٣].

السادسة[٤]: اعترض بعضُ زنادقةِ الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعتِ الأطباء على أنَّ العسل يُسهل، فكيف يُوصَف لمن به الإسهالُ؟ فالجواب: أنَّ ذلك القولَ حقٌّ في نفسه لمن حصلَ له التصديقُ بنبيِّه عليه الصلاة والسلام، فيستعمله على الوجهِ الذي عيَّنه، وفي المحلِّ الذي أمره، بعقدِ نية وحُسن طَويَّة، فإنه يرى منفعتَه ويدرك بركتَه، كما قد اتفق لصاحبِ هذا العسل وغيره كما تقدَّم. وأمَّا ما حَكَى من الإجماعِ، فدليلٌ على جهلِه بالنقل حيثُ لم يقيِّد وأطلق. قال الإمامُ أبو عبد الله المازريُّ: ينبغي أن يُعلمَ أنَّ الإسهالَ يَعرِض من ضروبٍ كثيرة؛ منها: الإسهالُ الحادث عن التُّخم والهَيْضات[٥]؛ والأطباءُ مجمعون في مثل هذا على أنَّ علاجه بأن يُترك للطبيعة وفعلِها، وإنِ احتاجت إلى مُعينٍ على الإسهال، أُعينت ما دامتِ القوّة باقية، فأمَّا حبسُها فضرر، فإذا وضحَ هذا قلنا: فيمكنُ أن يكون ذلك الرجلُ أصابه الإسهالُ عنِ امتلاء وهَيْضة، فأمره النبيُّ ﷺ بشربِ العسل، فزاده إلى أن فَنِيت المادةُ، فوقف الإسهالُ فوافقه شربُ العسل. فإذا خرجَ هذا عن صناعةِ الطب، أذِن ذلك بجهلِ المعترضِ بتلك الصناعة. قال: ولسنا نستظهرُ على قولِ نبيِّنا بأن يصدقَه الأطباءُ

---

(١) شرابٌ يُتَّخذ من خل وعسل. معرب سركنكبين. معجم متن اللغة (سكنجبين).

(٢) في (د) و(ز) و(م): داء، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٦ ، والكلام منه.

(٣) أخرجه أحمد (١١١٤٦)، والبخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) المفهم ٥/ ٦٠٨ - ٦٠٩ .

(٥) الهَيْضَة: مرض من أعراضه القيء الشديد والإسهال والهزال، (الكولرا). المعجم الوسيط (هيض).

بل لو كذَّبوه، لكذَّبناهم وكفَّرناهم[١] وصدَّقناه ﷺ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدةِ صحةَ ما قالوه، فنفتقر حينئذٍ إلى تأويل كلامِ رسول الله ﷺ وتخريجِه على ما يصحُّ؛ إذ قامتِ الدَّلالةُ على أنه لا يكذب.

السابعة: في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ دليلٌ على جوازِ التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافاً لمن كره ذلك من جِلَّة العلماء[٢]، وهو يردُّ على الصوفية الذين يزعمون أنَّ الولاية لا تتمُّ إلا إذا رضي بجميعِ ما نزلَ به من البلاء، ولا يجوزُ له مداواة. ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيحُ عن جابرٍ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكلِّ داءٍ دواء، فإذا أُصيب دواءُ الداءِ؛ بَرَأ بإذن الله»[٣].

وروى أبو داود، والترمذيُّ عن أسامةَ بن شريك قال: قالتِ الأعرابُ: ألا نَتداوَى يا رسولَ الله؟ قال: «نعم. يا عبادَ الله تداوَوْا؛ فإنَّ الله لم يضع داءً إلا وضعَ له شفاءً أو دواءً إلا داءً واحداً» قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال: «الهَرَم» لفظ الترمذي[٤]، وقال: حديثٌ حسن صحيح. ورَوَى عن أبي خِزَامة، عن أبيه قال: سألت رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها، ودواءً نتداوى به، وتُقاةً نتقيها، هل تَرُدُّ من قَدَر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدرِ الله»[٥] قال: حديثٌ حسن، ولا يُعرف لأبي خِزامةَ غيرُ هذا الحديثِ.

وقال ﷺ: «إن كان في شيءٍ من أدويتكم خيرٌ، ففي شرطةِ مِحجَم، أو شربةِ من عسل، أو لَذْعةٍ بنار، وما أُحبُّ أن أكْتَوِيَ» أخرجه الصحيحُ[٦].

---

(١) في (م): ولكفرناهم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المفهم ٥/ ٦٠٩ .

(٢) القبس ٣/ ١١٢٩ .

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).

(٤) سنن أبي داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وهو عند أحمد (١٨٤٥٤).

(٥) سنن الترمذي (٢٠٦٥)، وهو عند أحمد (١٥٤٧٢).

(٦) البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

والأحاديثُ في هذا الباب أكثرُ من أن تُحصى، وعلى إباحةِ التداوي والاسترقاءِ جمهورُ العلماء. رُوي أنَّ ابن عمر اكتوى من اللَّقْوة، ورُقي من العقرب[١]. وعن ابن سِيرين، أنَّ ابنَ عمر كان يسقي ولدَه التِّرياقَ[٢]. وقال مالك: لا بأسَ بذلك[٣].

وقد احتجَّ مَن كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دَخلتْ أمةٌ بقَضِّها وقَضِيضها الجنةَ؛ كانوا لا يَسترْقُون، ولا يَكْتَوُون، ولا يَتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون»[٤]. قالوا: فالواجبُ على المؤمن أن يتركَ ذلك اعتصاماً بالله، وتوكلاً عليه، وثقةً به، وانقطاعاً إليه[٥]؛ فإنَّ الله تعالى قد عَلِم أيام المرضِ، وأيام الصحة، فلو حَرَص الخلقُ على تقليلِ ذلك، أو زيادته ما قَدَروا، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]. وممَّن ذهب إلى هذا جماعةٌ من أهلِ الفضل والأثر، وهو قولُ ابنِ مسعود، وأبي الدرداء رضوان الله عليهما.

دخل عثمانُ بن عفان على ابنِ مسعود في مرضِه الذي قُبِض فيه، فقال له عثمان: ما تشتكي؟ قال: ذُنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمةَ ربي. قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيبُ أمرضني... وذكر الحديث[٦]. وسيأتي بكمالِه في فضلِ الواقعةِ إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٤٤، وعبد الرزاق في المصنف (١٩٧٧٤)، من طريق أيوب، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٣٢٣، من طريق أبي حنيفة، وابن أبي شيبة ٧/ ٦٤، والبيهقي ٩/ ٣٤٣، من طريق عبيد الله بن عمر، كلهم عن نافع، أنَّ ابن عمر... واللَّقوةُ: داءٌ في الوجه. القاموس (لقو).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٧، بهذا اللفظ. وأخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٧٧، بنحوه. والترياق: دواء مركب، وهو مُعرَّب من اليونانية. القاموس (ترق).

(٣) التمهيد ٥/ ٢٧٧.

(٤) أخرجه ابن حبان (٧٢٦)، وإسناده ضعيف من أجل محمد بن عيسى بن حيان المدائني. ويغني عنه ما أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، من حديث ابن عباس ﷺ. وذكر فيه رسول الله ﷺ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون.

(٥) ينظر القبس ٣/ ١١٢٧.

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٩٧)، وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٦٩.

وذكر وكيع قال: حدَّثنا أبو هلال، عن معاويةَ بنِ قُرة قال: مرِضَ أبو الدَّرداءِ، فعادوه وقالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيبُ أضجعني[١]. وإلى هذا ذهب الربيعُ ابن خُثَيم[٢]. وكره سعيدُ بن جُبير الرُّقَى[٣]، وكان الحسنُ يكره شربَ الأدوية كلِّها إلا اللبنَ والعسل[٤].

وأجاب الأوّلون عن الحديث بأنَّه لا حجةَ فيه؛ لأن يحتملُ أن يكون قَصدَ إلى نوع من الكيّ مكروهٍ؛ بدليلِ كَيِّ النبيِّ ﷺ أُبيًّا يومَ الأحزابِ على أكْحَلِه لمَّا رُمِي[٥]. وقال: «الشفاء في ثلاثة» كما تقدّم[٦]. ويحتملُ أن يكونَ قصد إلى الرُّقى بما ليس في كتابِ الله، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، على ما يأتي بيانُه. ورَقَى أصحابَه، وأمَرهم بالرُّقيةِ[٧]، على ما يأتي بيانُه.

الثامنة: ذهبَ مالكٌ وجماعةُ أصحابه إلى أنْ لا زكاةَ في العسل وإن كان مطعوماً مُقتاتاً[٨]. واختلفَ فيه قولُ الشافعي، والذي قطعَ به في قوله الجديد: أنه لا زكاةَ فيه[٩]. وقال أبو حنيفة بوجوبِ زكاةِ العسل في قليلِه وكثيره؛ لأنَّ النصابَ عنده فيه

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٦ ، و ١٣/ ٣٠٩ ، وأحمد في الزهد ص١٦٨ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢١٨ .

(٢) أخرجه عنه ابن أبي شيبة ٨/ ٥ ، و ١٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٣) التمهيد ٥/ ٢٧٠ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٤ .

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٠٧)، من حديث جابر، والأكحل عرقٌ في اليد يُفصد. الصحاح (كحل).

(٦) أخرجه بهذا اللفظ البخاري (٥٦٨٠) و(٥٦٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره المصنف من قبل من حديث جابر ﷺ.

(٧) أخرجه البخاري (٥٧٤٤)، ومسلم (٢١٩١)، من حديث عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله ﷺ كان يرقي يقول: «امسح الباسَ ربَّ الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت».
وأخرج البخاري أيضاً (٥٧٣٨)، ومسلم (٢١٩٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسول الله ﷺ، أو: أمر أن يُسترقى من العين.

(٨) النوادر والزيادات ٢/ ١٠٩ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٧ .

(٩) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/ ٤٥٦ ، وبدائع الصنائع ٢/ ٥١٢ .

ليس بشرط. وقال محمد بنُ الحسن: لا شيء فيه حتى يبلغَ خمسة[١] أفراق، والفَرْقُ ستة وثلاثون رطلاً من أرطالِ العراق. وقال أبو يوسف: في كلِّ عشرةِ أزقاق زِقٌّ[٢]؛ متمسكاً بما رواه الترمذيُّ[٣] عن ابنِ عمرَ قال: قالَ رسول الله ﷺ: «في العسلِ في كل عشرةِ أزقاق زِقٌّ» قال أبو عيسى: في إسناده مقالٌ، ولا يصحُّ عن النبيِّ ﷺ في هذا الباب كبيرُ شيءٍ، والعملُ على هذا عندَ أكثرِ أهل العلم، وبه يقول أحمدُ وإسحاق، وقال بعضُ أهلِ العلم: ليس في العسلِ شيءٌ.

التاسعة: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعتبرون؛ ومن العبرة في النحلِ بإنصافِ النظرِ وإلطافِ الفكر في عجيبِ أمرِها، فيشهدُ اليقين بأنَّ ملهمها الصنعةَ اللطيفة مع البنيةِ الضعيفة، وحِذْقِها باحتيالها في تفاوت أحوالها، هو اللهُ سبحانه وتعالى؛ كما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآية. ثم إنها تأكلُ الحامضَ والمُرَّ، والحلو والمالح والحشائشَ الضارةَ، فيجعله الله تعالى عسلاً حلواً وشفاءً، وفي هذا دليلٌ على قدرتِه[٤].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بيِّن معناه. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يعني أردأه وأوضعَه. وقيل: الذي يُنقِص قوتَه وعقله ويُصَيِّره إلى الخَرَف ونحوه. وقال ابن عباس: يعني إلى أسفلِ العمر، يصيرُ كالصبي الذي لا عقلَ له[٥]، والمعنى

(١) في (د) و(ز) و(م): ثمانية، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في بدائع الصنائع ٢/ ٥١١، وينظر مختصر الطحاوي ص٤٧، والمبسوط ٣/ ١٥ - ١٦.

(٢) المبسوط للسرخسي ٣/ ١٦.

(٣) في سننه (٦٢٩). والزِّقُّ: السقاء. الصحاح (زقق).

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٩١، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٣.

(٥) الوسيط ٣/ ٧٣، وزاد المسير ٤/ ٤٦٧.

متقاربٌ. وفي «صحيح البخاري»[١] عن أنس بنِ مالك قال: كان رسولُ الله ﷺ يتعوَّذ يقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك من الكسل، وأعوذُ بك من الجُبنِ، وأعوذُ بك من الهَرَم، وأعوذُ بك من البخل». وفي حديثِ سعدِ بنِ أبي وَقّاص: «وأعوذُ بك أن أُردَّ إلى أرذلِ العمرِ» الحديث. خرَّجه البخاري[٢].

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: يرجع إلى حالةِ الطفوليةِ فلا يعلم ما كانَ يعلمُ قبلُ من الأمورِ؛ لفرطِ الكِبَر[٣]. وقد قيل: هذا لا يكونُ للمؤمنِ؛ لأن المؤمنَ لا يُنزَع عنه علمه[٤]. وقيل: المعنى: لكيلا يعملَ بعد علمٍ شيئاً؛ فعَبَّر عن العملِ بالعلمِ لافتقاره إليه؛ لأنَّ تأثيرَ الكبرِ في عملِه أبلغُ من تأثيرِه في علمِه[٥]. والمعنى المقصودُ الاحتجاجُ على منكري البعثِ، أي: الذي ردَّه إلى هذه الحال قادرٌ على أن يميتَه ثم يحييَه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ أي: جعلَ منكم غنيًّا وفقيراً، وحرّاً وعبداً[٧]. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ أي: في الرزق. ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ أي: لا يردُّ المولى على ما ملكت يمينُه ممَّا رُزِق شيئاً حتى يستوي المملوكُ والمالكُ في المال. وهذا مَثَلٌ ضربَه الله لعَبَدةِ الأصنام، أي: إذا لم يكن عبيدُكم

(١) برقم (٦٣٧١)، وهو عند مسلم (٢٧٠٦).
(٢) برقم (٢٨٢٢).
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٢ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٧ .
(٤) تفسير الوسيط ٣/ ٧٣ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٧ .
(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٠٠ - ٢٠١ .
(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١١ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٧٧ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٨ .
(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٢ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٨ .

معكم سواءً، فكيفَ تجعلون عبيدي معي سواءً؟ فلمَّا لم يكنْ يَشركُهم عبيدُهم في أموالِهم؛ لم يَجُزْ لهم أن يشاركوا اللهَ تعالى في عبادةِ غيرِه من الأوثان والأنصابِ وغيرهما مما عُبِد؛ كالملائكةِ والأنبياءِ وهم عبيدُه وخَلقُه. حكى معناه الطبريُّ[(١)]، وقاله ابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادة وغيرهم[(٢)]. وعن ابن عباسٍ أيضاً: أنَّها نزلت في نصارى نَجْرَان حين قالوا: عيسى ابنُ الله. فقال الله لهم: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: لا يردُّ المولى على ما ملكت يمينهُ مما رُزِق حتى يكونَ المولى والعبدُ في المال شَرَعاً سواءً، فكيفَ تَرضَون لي ما لا تَرضَون لأنفسِكم فتجعلون لي ولداً من عبيدي[(٣)]. ونظيرُها: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨] على ما يأتي. ودلَّ هذا على أنَّ العبدَ لا يملكُ، على ما يأتي آنفاً[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ جَعل بمعنى خَلق؛ وقد تقدم. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني: آدم خُلِق منه حَواء. وقيل: المعنى: جعلَ لكم من أنفسكم، أي: من جِنسِكم ونوعِكم وعلى خلقتِكم، كما قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] أي: من الآدميين[(٥)]. وفي هذا ردٌّ على العربِ التي كانت تعتقد أنَّها كانت تَزوَّجُ الجنَّ وتُباضِعُها، حتى روي أنَّ عمرو بنَ هند[(٦)]

---

(١) في التفسير ١٤/ ٢٩٢ - ٢٩٣ ، وينظر الوسيط ٣/ ٧٣ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٨ .

(٢) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٣ - ٢٩٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٧٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٦٨ .

(٤) كذا قال، وسيرد في تفسير الآية الآتية برقم (٧٥).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٨ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٢١٢ ، وبحر العلوم ٢/ ٢٤٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٢ .

(٦) كذا في النسخ وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٨ ، وجاء في النوادر ص١٤٦ - ١٤٧ ، والجمهرة =

تزوج منهم غُولاً، وكان يَخْبَؤها عن البرقِ، لئلَّا تراهُ فتنفرَ، فلما كان في بعضِ الليالي لمح[1] البرقُ وعاينتهُ السِّعلاةُ[2]، فقالت: عمرو! ونَفَرت، فلم يَرها أبداً. وهذا من أكاذيبِها، وإن كان جائزاً في حكمِ الله وحكمتِه، فهو ردٌّ على الفلاسفةِ الذين يُنكِرون وجودَ الجنِّ، ويحيلون طعامهم[3]. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ زوجُ الرجل هي ثانيتُه، فإنه فردٌ، فإذا انضافتْ إليه، كانا زوجين، وإنَّما جُعِلت الإضافةُ إليه دونها؛ لأنَّه أصلُها في الوجودِ كما تقدَّم[4].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ **فيه خمس مسائل:**

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ ظاهرٌ في تعديدِ النعمةِ في الأبناء، ووجودُ الأبناءِ يكون منهما معاً، ولكنَّه لمَّا كان خلقُ المولودِ فيها وانفصالُه عنها؛ أُضيف إليها، ولذلك تَبِعها في الرقِّ والحريةِ، وصار مثلَها في المالية. قال ابن العربيِّ: سمعتُ إمامَ الحنابلة بمدينةِ السلام أبا الوفاء عليَّ بن عقيل يقول: إنَّما تبعَ الولدُ الأم في المالية، وصار بحكمِها في الرِّقِّ والحرِّية؛ لأنه انفصلَ عن الأب نطفةً لا قيمةَ له، ولا ماليةَ فيه ولا منفعةَ، وإنَّما اكتسب ما اكتسبَ بها ومنها، فلأجلِ ذلك تبعها، كما لو أكلَ رجل تمراً في أرضِ رجلٍ، وسقطت منه نواةٌ في الأرضِ من يد الآكلِ، فصارت نخلةً، فإنها ملكُ صاحبِ الأرض دون الآكلِ بإجماعٍ من الأمةِ؛ لأنها انفصلت عن الآكلِ ولا قيمةَ لها[5].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾ روى ابنُ القاسم عن مالكٍ قال: وسألتُه عن

= ٣/ ١٥٢ ، وسمط اللآلي ٢/ ٧٠٣ ، والفصول والغايات ص٢١٠ ، ورسالة الصاهل والشاحج ص٢٩٤ ، عمرو بن يربوع بن حنظلة.

(١) في (م): لمع، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٨ .

(٢) السِّعلاةُ: أخبث الغيلان. الصحاح (سعل).

(٣) كذا في النسخ وأحكام القرآن لابن العربي، ولعلها: طاعتهم، وينظر الفهرست لابن النديم ص٣٧٠ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٨ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٤٨ - ١١٤٩ .

قوله تعالى: «بَنِينَ وَحَفَدَةً» قال: الحَفَدةُ: الخدمُ والأعوانُ في رأيي. ورُوي عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَحَفَدَةً» قال: هم الأعوانُ، مَن أعانَك فقد حَفَدك. قيل له: فهل تعرفُ العربُ ذلك؟ قال: نعم وتقوله، أوَ ما سمعت قولَ الشاعر:

حَفَدَ الولائدُ حولهنَّ وأُسلِمَتْ ... بأكفِّهِنَّ أزِمَّةُ الأجمالِ[١]

أي: أسرعنَ الخدمةَ. والولائدُ: الخدمُ، الواحدةُ وليدة؛ قال الأعشى:

كلَّفتُ مجهولَها نُوقاً يمانيةً ... إذا الحُداةُ على أكسائِها حَفَدُوا[٢]

أي: أسرعوا. وقال ابنُ عرفة: الحَفَدةُ عندَ العربِ الأعوانُ، فكلُّ مَن عمل عملاً أطاع فيه وسارعَ فهو حافدٌ، قال: ومنه قولُهم: «إليك نسعى ونحْفِدُ»[٣]، والحَفَدانُ: السرعةُ. قال أبو عبيد[٤]: الحَفَدُ: العملُ والخدمةُ. وقال الخليل بن أحمد[٥]: الحَفَدةُ عند العرب الخدمُ. وقاله مجاهد[٦]. وقال الأزهري[٧]: قيل: الحَفَدةُ أولادُ الأولادِ. ورُوي عن ابنِ عباس[٨]. وقيل: الأختان؛ قاله ابنُ مسعود، وعلقمةُ، وأبو الضحا،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٠ - ١١٥١ ، وينظر القبس ٣/ ١٠٧٢ . والبيت نسبَه ابن دريد في الجمهرة ٢/ ١٢٣ إلى الفرزدق، ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٦٤ والطبري في تفسيره ١٤/ ٣٠٢ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٠٢ إلى جميل، ونسبه أبو عبيد الهروي في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤ إلى الأخطل، وسيأتي قريباً عند المصنف منسوباً إلى كثير، ولم نقف عليه في دواوين هؤلاء الشعراء، وهو عند الطبراني في الكبير (١٠٥٩٧) ١٠/ ٢٥٠ في سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس، ونسبه لأمية ابن أبي الصلت، ولم نقف عليه في ديوانه، وهو عند الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٨ دون نسبة.

(٢) لم نقف عليه للأعشى، والبيت للراعي النميري وهو في ديوانه ص٥٨ ، ونسبه إليه أيضاً الطبري في التفسير ١٤/ ٣٠٣ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ومحمد بن المبارك في منتهى الطلب ٦/ ٣٧ ، والأكساء جمع الكُسْي، وهو مؤخَّرُ العَجُزِ وكلِّ شيء. القاموس (كسي).

(٣) قطعة من حديث دعاء القنوت، وسلف ٥/ ٣١٠ ، وينظر اللسان (حفد).

(٤) في غريب الحديث ٣/ ٣٧٤ .

(٥) في العين ٣/ ١٨٥ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥١ .

(٦) في تفسيره ١/ ٣٤٩ ، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٩ .

(٧) في تهذيب اللغة ٤/ ٤٢٨ .

(٨) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٠١ .

وسعيدُ بن جُبير، وإبراهيم[١]؛ ومنه قولُ الشاعر:

فلو أنَّ نفسي طاوعتني لأصبحتْ لها حَفَدٌ مما يُعَدُّ كثيرُ
ولكنها نفسٌ عليَّ أبيَّةٌ عيوفٌ لإصهارِ اللئامِ قَذورُ[٢]

ورَوى زِرٌّ، عن عبدِ الله قال: الحَفَدةُ الأصهارُ. وقاله إبراهيم[٣]، والمعنى متقارب. قال الأصمعي[٤]: الخَتَنُ مَن كان من قِبَل المرأةِ، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما؛ والأصهارُ منهما جميعاً. يقال: أصهرَ فلانٌ إلى بني فلانٍ وصاهرَ. وقولُ عبدِ الله: همُ الأختانُ، يحتملُ المعنيين جميعاً. يحتملُ أن يكونَ أرادَ أبا المرأة وما أشبهه مِن أقربائها، ويحتملُ أن يكونَ أرادَ: وجعلَ لكم من أزواجِكم بنين وبناتٍ تزوجونهنَّ، فيكون لكم بسببهن أختان. وقال عكرمةُ: الحَفَدةُ مَن نفعَ الرجلَ من ولدِه[٥]. وأصلُه من: حَفَد يحفِد، بفتحِ العين في الماضي، وكسرِها في المستقبل، إذا أسرعَ في سيره[٦]؛ كما قال كُثَيِّر:

حفدَ الولائدُ بينهن... البيت[٧].

ويقال: حَفَدْتُ وأحفدْتُ، لغتان: إذا خَدَمْتَ. ويقال: حافد وحَفَد؛ مثل: خادم وخَدَم، وحافد وحَفَدة مثل: كافر وكفرة[٨]. قال المهدوي: ومَن جعلَ الحَفَدةَ

---

(١) أخرجه عنهم إلا علقمة الطبريُّ في التفسير ١٤/٢٩٦ - ٢٩٨، وينظر النكت والعيون ٣/٢٠٢، والمحرر الوجيز ٣/٤٠٨.

(٢) البيتان للصحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري، كما في ديوانه ص١٠٢، وهما في النكت والعيون ٣/٢٠٢، وزاد المسير ٤/٤٦٩ دون نسبة.

(٣) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/٢٩٧ - ٢٩٨.

(٤) تهذيب اللغة ٧/٣٠٠.

(٥) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/٢٩٨ - ٢٩٩.

(٦) ينظر الصحاح (حفد).

(٧) سلف آنفاً.

(٨) ينظر الصحاح (حفد)، ومعاني القرآن للفراء ٢/١١٠.

الخدمَ؛ جعله منقطعاً مما قبلَه ينوي به التقديمَ؛ كأنَّه قال: جَعلَ لكم حَفَدةً، وجعلَ لكم من أزواجكم بنينَ.

قلت: ما قاله الأزهريُّ من أنَّ الحفدةَ أولادُ الأولادِ هو ظاهرُ القرآن، بل نصُّه؛ ألا ترى أنه قال: «وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة» فجعلَ الحفدةَ والبنين منهن. وقال ابنُ العربيِّ: الأظهرُ عندي في قوله «بنين وحفدة» أنَّ البنينَ أولادُ الرجل لصُلْبه والحفدةَ أولادُ ولده، وليس في قوةِ اللفظ أكثر من هذا، ويكونُ تقديرُ الآية على هذا: وجعلَ لكم من أزواجِكم بنينَ ومن البنينَ حفدةً[1]. وقال معناه الحسنُ[2].

الثالثة: إذا فَرَّعنا على قولِ مجاهد وابنِ عباس، ومالك وعلماءِ اللغة في قولهم: إنَّ الحَفَدةَ الخدمُ والأعوان، فقد خرجتْ خدمةُ الولدِ والزوجة من القرآن بأبدعِ بيان؛ قاله ابن العربيِّ[3]. روى البخاريُّ[4] وغيرُه، عن سهل بنِ سعد، أنَّ أبا أُسَيْد السَّاعدي دعا النبيَّ ﷺ لعرسِه، فكانت امرأتُه خادمَهم... الحديث، وقد تقدَّم في سورة هود[5]. وفي «الصحيح» عن عائشةَ قالت: أنا فَتلتُ قلائدَ بُدْن النبيِّ ﷺ بيدي[6]. الحديث. ولهذا قال علماؤنا: عليها أن تفرشَ الفراشَ، وتطبخَ القِدْرَ، وتَقُمَّ الدار، بحسب حالِها وعادةِ مثلها؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]، فكأنَّه جمعَ لنا فيها السَّكَنَ والاستمتاع وضرباً من الخدمة بحسبِ جَري العادة.

الرابعة: ويخدُم الرجلُ زوجتَه فيما خفَّ من الخدمةِ، ويُعينها؛ لما رَوته عائشةُ

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ١١٥٠ .

(٢) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٢٩٩ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٥١ .

(٤) في صحيحه (٥١٧٦)، ومسلم (٢٠٠٦).

(٥) ١١/ ١٦٦ .

(٦) أخرجه البخاري (١٧٠٠)، ومسلم (١٣٢١).

أن النبيَّ ﷺ كانَ يكونُ في مَهْنةِ أهلِه، فإذا سمع الأذانَ خرج[١]. وهذا قولُ مالك: ويُعينُها[٢]. وفي أخلاقِ النبيِّ ﷺ أنه كان يخصِفُ النعلَ، ويَقُمُّ البيتَ، ويَخيطُ الثوب[٣]. وقالت عائشةُ وقد قيل لها: ما كان يعملُ رسولُ الله ﷺ في بيتِهِ؟ قالت: كان بشراً من البشرِ يَفْلي ثوبَه، ويحلبُ شاتَه، ويخدُم نفسَه[٤].

الخامسة: وينفقُ على خادمةٍ واحدة، وقيل: على أكثر، على قدرِ الثروةِ والمنزلة. وهذا أمرٌ دائرٌ على العرفِ الذي هو أصلٌ من أصولِ الشريعة، فإنَّ نساءَ الأعرابِ وسكانِ البوادي يخدُمنَ أزواجهنَّ في استعذابِ الماءِ وسياسةِ الدوابّ، ونساءَ الحواضرِ يخدُم المُقِلُّ منهم زوجتَه فيما خفَّ ويُعينُها، وأمَّا أهلُ الثروةِ فيُخدِمون[٥] أزواجهنَّ ويترفهنَ معهم إذا كان لهم منصبُ ذلك؛ فإنْ كان أمراً مشكلاً شَرطتْ عليه الزوجةُ ذلك، فتُشهِدُ أنه قد عرفَ أنَّها ممَّن لا تخدمُ نفسَها، فالتزمَ[٦] إخدامَها، فينفذُ ذلك، وتنقطعُ الدعوى فيه[٧].

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من الثمارِ والحبوبِ والحيوان. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ يعني: الأصنام؛ قاله ابنُ عباس[٨]. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قراءةُ الجمهورِ بالياء، وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء[٩]. ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالإسلامِ. ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[١٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥١ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ص٢٠ - ٢١ و ٦٢ ، من حديث عائشة.

(٤) أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٣٦).

(٥) في النسخ الخطية: فيخدمن، والمثبت من (م)، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٠ .

(٦) في (ظ): فللقوم.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٠ .

(٨) النكت والعيون٣/ ٢٠٣ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٨١ ، وزاد المسير ٤/ ٤٧٠ .

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠٨ .

(١٠) الوسيط ٣/ ٧٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٣ ، وزاد المسير ٤/ ٤٧٠ .

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: المطر. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: النبات[1]. ﴿شَيْـًٔا﴾ قال الأخفشُ[2]: هو بدلٌ من الرزقِ. وقال الفرَّاء[3]: هو منصوبٌ بإيقاعِ الرزقِ عليه، أي: يعبدون ما لا يملكُ أن يرزقَهم شيئاً. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: لا يقدرون على شيءٍ، يعني: الأصنام. ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تُشبِّهوا به هذه الجمادات؛ لأنه واحدٌ قادر لا مثلَ له[4]. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ نبَّه تعالى على ضلالةِ المشركين، وهو مُنتظَمٌ بما قبلَه من ذكرِ نِعمِ الله عليهم، وعدمِ مثلِ ذلك من آلهتهم. «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً» أي: بيَّن شَبَهاً، ثم ذكر ذلك فقال: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ أي: كما لا يستوي عندكم عبدٌ مملوك لا يقدرُ من أمرِه على شيء، ورجلٌ حُرٌّ قد رُزِق رزقاً حسناً، فكذلك أنا وهذه[5] الأصنام. فالذي هو مثالٌ في هذه الآية هو عبدٌ بهذه الصفةِ مملوكٌ لا يقدرُ على شيءٍ من المال، ولا من أمرِ نفسه، وإنَّما هو مسخَّرٌ بإرادةِ سيدِه[6]. ولا يلزمُ من

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٤٣ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٦٠٧ .

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ١١٠ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٣ .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٥ ، والوسيط ٣/ ٧٤ ، والمحرر ٣/ ٤٠٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٧١ .

(٥) في (ظ): وعبدة.

(٦) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣١١ ، وزاد المسير ٤/ ٤٧٢ .

الآيةِ أنَّ العبيدَ كلَّهم بهذه الصفةِ؛ فإنَّ النكرةَ في الإثباتِ لا تقتضي الشمولَ عندَ أهلِ اللسان كما تقدَّم، وإنما تفيدُ واحداً[١]، فإذا كانت بعدَ أمرٍ أو نهيٍ أو مضافةً إلى مصدرٍ، كانت للعمومِ الشيوعي[٢]، كقولِه: أعتِقْ رجلاً، ولا تُهِن رجلاً، والمصدر كإعتاق رقبةٍ، فأيَّ رجلٍ أعتقَ فقد خرجَ عن عهدةِ الخطاب، ويصحُّ منه الاستثناءُ.

وقال قتادة[٣]: هذا المثلُ للمؤمنِ والكافرِ. فذهبَ قتادةُ إلى أنَّ العبدَ المملوك هو الكافرُ؛ لأنَّه لا ينتفعُ في الآخرة بشيءٍ من عبادتِه، وإلى أنَّ معنى «وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً» المؤمنُ. والأولُ عليه الجمهورُ من أهلِ التأويل. قال الأصَمُّ[٤]: المرادُ بالعبدِ المملوكُ الذي ربَّما يكون أشدَّ من مولاه أسْراً[٥]، وأنضرَ وجهاً، وهو لسيدِه ذليلٌ لا يقدرُ إلا على ما أَذِنَ له فيه؛ فقال الله تعالى ضرباً للمثال: أي: فإذا كان هذا شأنَكُم وشأنَ عبيدِكم، فكيفَ جَعلتم أحجاراً أمواتاً[٦] شركاءَ لله تعالى في خلقِه وعبادته، وهي لا تعقلُ ولا تسمعُ؟!.

الثانية: فَهِمَ المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصانَ رتبةِ العبدِ عن الحرِّ في المِلْك، وأنه لا يملكُ شيئاً وإن مُلِّكَ. قال أهلُ العراق: الرِّقُّ ينافي المِلكَ[٧]، فلا يملكُ شيئاً البتةَ بحال، وهو قولُ الشافعيِّ في الجديد، وبه قال الحسنُ وابنُ سيرين. ومنهم مَن قال: يملكُ؛ إلا أنه ناقصُ المِلك؛ لأنَّ لسيدِه أن ينتزعَه منه أيَّ وقتٍ شاء، وهو قولُ مالك ومَنِ اتبعه، وبه قال الشافعيُّ في القديم، وهو قولُ أهلِ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٣ .

(٢) في النسخ الخطية: الشرعي، والمثبت من (م).

(٣) أخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٤) نقله عنه الكيا الهراسي في أحكام القرآن ٤/ ٢٤٤ .

(٥) الأسر: الخَلْق. الصحاح (أسر).

(٦) في (م): مواتاً، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٤٤ .

(٧) المبسوط ٤/ ١٥٠ .

الظاهر، ولهذا قال أصحابُنا: لا تجبُ عليه عبادةُ الأموالِ من زكاةٍ وكفَّارات، ولا من عباداتِ الأبدانِ ما يقطعُه عن خدمةِ سيدِه؛ كالحجِّ والجهاد وغيرِ ذلك.

وفائدةُ هذه المسألةِ أنَّ سيدَه لو مَلَّكه جاريةً، جازَ له أن يطأَها بمِلكِ اليمين، ولو مَلَّكه أربعينَ من الغنمِ، فحالَ عليها الحولُ، لم تجب على السيدِ زكاتُها؛ لأنَّها مِلكُ غيرِه، ولا على العبدِ؛ لأنَّ مِلكَه غير مستقرٍّ. والعراقيُّ يقولُ: لا يجوزُ له أن يطأَ الجاريةَ، والزكاةُ في النصاب واجبةٌ على السيدِ كما كانت[1]. ودلائلُ هذه المسألةِ للفريقين في كتبِ الخلاف.

وأدلُّ دليلٍ لنا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فسوَّى بينَ العبدِ والحرِّ في الرزقِ والخلق. وقال عليه الصلاة والسلامُ: «من أعتقَ عبداً وله مالٌ...»[2] فأضافَ المال إليه. وكان ابنُ عمر يَرى عبدَه يتسرَّى في مالِه فلا يعيبُ عليه ذلك[3]. ورُوي عن ابنِ عباس أنَّ عبداً له طلَّق امرأتَه طلقتين، فأمره أن يرتجعَها بمِلكِ اليمين[4]؛ فهذا دليلٌ على أنَّه يملكُ ما بيدِه، ويفعلُ فيه ما يفعلُ المالكُ في مِلكِه ما لم يَنتزِعْه سيدُه. واللهُ أعلم.

الثالثة: وقد استدلَّ بعض العلماء بهذه الآية على أنَّ طلاقَ العبدِ بيد سيده، وعلى أنَّ بيع الأمةِ طلاقُها، معوِّلاً على قولِه تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾. قال: فظاهرُه يفيدُ أنه لا يقدر على شيءٍ أصلاً، لا على المِلكِ ولا على غيرِه، فهو على عمومِه، إلا أن يدلَّ دليل على خِلافِه. وفيما ذكرناه عن ابنِ عمرَ وابنِ عباس ما يدلُّ على التخصيصِ[5]. والله تعالى أعلم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٥٣ - ١١٥٤ ، والإشراف على مذاهب العلماء ٤/ ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩٢)، ومسلم (١٥٠٣)، من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٢٨٣٦)، والبيهقي ٧/ ١٥٢ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٢٨٤٣).

(٥) ينظر الاستذكار ١٧/ ٢٩٢ - ٢٩٣ .

الرابعة: قال أبو منصور[1] في عقيدتِه: الرزقُ ما وقعَ الاغتذاء به. وهذه الآيةُ تردُّ هذا التخصيصَ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. و﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] وغير ذلك من قولِ النبيِّ ﷺ: «جُعِل رزقي تحتَ ظِلِّ رُمْحِي»[2] وقولِه: «أرزاقُ أُمتي في سنابكِ خيلِها، وأسِنةِ رماحِها»[3]. فالغنيمةُ كلُّها رزق، وكلُّ ما صحَّ به الانتفاعُ فهو رزقٌ، وهو مراتبُ: أعلاها ما يُغذي. وقد حصَر رسولُ الله ﷺ وجوهَ الانتفاعِ في قوله: «يقولُ ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لكَ من مالِك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تَصدَّقت فأمضيت»[4]. وفي معنى اللباسِ يدخلُ الركوبُ وغيرُ ذلك[5]. وفي ألسنةِ المحدِّثين: السَّماعُ رزقٌ[6]، يعنون سماعَ الحديث، وهو صحيحٌ.

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾: هو المؤمنُ؛ يطيعُ الله في نفسِه وماله. والكافرُ لمَّا لم ينفق في الطاعةِ؛ صار كالعبدِ الذي لا يملكُ شيئاً. ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: لا يستوون[7]، ولم يقل: يستويان؛ لمكانِ «مَن»؛ لأنه اسم مبهمٌ يصلحُ للواحد والاثنين والجمع، والمذكر والمؤنث. وقيل: «إنّ عبداً مملوكاً»، «ومن رزقناه» أُريدَ بهما الشُّيوعُ في الجنس.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هو مستحقٌّ للحمدِ دون ما يعبدون من

---

(١) محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، كان من كبار العلماء، له كتاب التوحيد، والمقالات، وتأويلات القرآن، وغيرها (ت ٣٣٣هـ). الجواهر المضية ٣/ ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) سلف ١٠/ ١٦٠ ، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه يحيى بن آدم في الخراج (٢٥٥)، وابن أبي شيبة في المصنف ٥/ ٣٣٥ ، عن مكحول، مرسلاً.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٣٠٥) و(١٦٣٠٦)، ومسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٦) المجاز والمجيز لأبي طاهر السلفي ١/ ٧٥ و ٨٠ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

دونِه؛ إذ لا نعمةَ للأصنامِ عليهم من يدٍ ولا معروف، فتُحمَد عليه، إنَّما الحمدُ الكامل لله؛ لأنه المنعمُ الخالق. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثرُ المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الحمد لي، وجميعَ النعمة مني. وذكرَ الأكثرَ وهو يريدُ الجميع[١]، فهو خاصٌّ أُريد به التعميمُ. وقيل: أي: بل أكثرُ الخلقِ لا يعلمون، وذلك أنَّ أكثرَهم المشركون.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ هذا مَثَلٌ آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثَن[٢]، فالأبكمُ الذي لا يقدرُ على شيءٍ هو الوثنُ، والذي يأمُر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قَتادة وغيره[٣]. وقال ابنُ عباس: الأبكمُ عبد كان لعثمانَ ﷺ، وكان يَعرِضُ عليه الإسلامَ فيأبى، ويأمر بالعدل عثمانُ[٤]. وعنه أيضاً: أنه مَثَلٌ لأبي بكر الصدِّيق ومولًى له كافر. وقيل: الأبكم أبو جهل، والذي يأمرُ بالعدل عَمَّار بنُ ياسر العَنْسِيّ[٥]، وعَنْس، بالنون: حيٌّ من مَذْحِج، وكان حليفاً لبني مخزوم رهطِ أبي جهل، وكان أبو جهل يُعذِّبه على الإسلامِ، ويعذب أمَّه سُمَيَّة، وكانت مولاةً لأبي جهل، وقال لها ذاتَ يوم: إنَّما آمنتِ بمحمد؛ لأنك تُحبِّينَه لجمالِه، ثم طَعنها بالرمحِ في قُبُلِها فماتت، فهي أوَّل شهيدٍ مات في الإسلام[٦]، رحمَها الله. من كتابِ النقاش وغيرِه. وسيأتي هذا في آيةِ الإكراه[٧] مبيَّناً إن شاء الله تعالى.

---

(١) الوسيط ٣/ ٧٥.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٣٠٩، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٤.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣١٠ عن قتادة، و ١٤/ ٣١١ عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣١١ - ٣١٢، والواحدي في الوسيط ٣/ ٧٥.

(٥) ينظر البحر المحيط ٥/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٦) السيرة الحلبية ١/ ٤٨٣، والأوائل للعسكري ١/ ٣١٢.

(٧) الآية ١٠٦ من هذه السورة.

وقال عطاء: الأبكمُ أُبَيُّ بنُ خلَف، كان لا ينطقُ بخير. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: قومِه؛ لأنه كان يُؤذيهم ويؤذي عثمانَ بنَ مَظْعُون[١]. وقال مقاتل: نزلتْ في هاشم[٢] بنِ عمرو بنِ الحارث، كان كافراً قليلَ الخير يعادي النبيَّ ﷺ. وقيل: إنَّ الأبكم الكافرُ، والذي يأمرُ بالعدلِ المؤمنُ جملةً بجملة؛ روي عن ابنِ عباس[٣]، وهو حَسَن؛ لأنه يَعُمُّ.

والأبكمُ: الذي لا نطقَ له. وقيل: الذي لا يعقل. وقيل: الذي لا يسمعُ ولا يبصر[٤]. وفي التفسيرِ: إنَّ الأبكم هاهنا الوثنُ. بيَّن أنه لا قدرةَ له ولا أمر، وأنَّ غيرَه ينقلُه ويَنْحِتُه، فهو كَلٌّ عليه. واللهُ الآمرُ بالعدل، الغالبُ على كل شيءٍ. وقيل: المعنى «وهو كَلٌّ على مولاه» أي: ثِقْلٌ على وَلِيِّه وقرابتِه، ووبالٌ على صاحبِه وابنِ عمه[٥]. وقد يُسمَّى اليتيم كَلًّا؛ لثقلِه على مَن يَكفُلُه؛ ومنه قولُ الشاعر:

أَكُولٌ لمالِ الكَلِّ قبلَ شبابِه إذا كان عظمُ الكَلِّ غيرَ شديدِ[٦]

والكَلُّ أيضاً: الذي لا ولدَ له ولا والد[٧]. والكَلُّ: العيالُ، والجمع الكُلُول[٨]؛ يقال منه: كَلَّ السكينُ يَكِلُّ كَلًّا، أي: غَلُظت شفرتُه فلم يَقطع.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٢) كذا في النسخ وتفسير البغوي ٣/ ٧٨ والخبر فيه، ولعله هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث القرشي العامري، ذكره ابن إسحاق في المؤلفة ممن أعطاه النبي ﷺ دون المئة من غنائم حنين. الإصابة ١٠/ ٢٥٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٠٤ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٣ .

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٦٤ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤١١ ، والبيت في العين ٥/ ٢٧٩ ، وتهذيب اللغة ٩/ ٤٤٦ ، واللسان (كلل) دون نسبة.

(٧) تهذيب اللغة ٩/ ٤٤٦ .

(٨) العين ٥/ ٢٧٩ .

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ قرأ الجمهورُ: «يُوَجِّههُّ»، وهو خطُّ المصحف؛ أي: أينما يرسلُه صاحبه لا يأتِ بخير؛ لأنه لا يَعرف ولا يَفهم ما يقال له، ولا يُفهم عنه. وقرأ يحيى بن وثّاب: «أينما يُوَجَّهُ» على الفعلِ المجهول. وروي عن ابنِ مسعود[1] أيضاً: «تُوَجِّهه»[2] على الخطاب.

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: هل يستوي هذا الأبكمُ، ومَن يأمرُ بالعدل على الصِّراطِ المستقيم؟!.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم معناه. وهذا متصلٌ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: شرعُ التحليلِ والتحريمِ إنَّما يَحسُن ممَّن يُحيطُ بالعواقبِ والمصالحِ، وأنتم أيُّها المشركون لا تُحيطون بها؛ فلِمَ تتحكَّمون؟!.

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ وتُجازَوْن فيها بأعمالِكم. والساعةُ هي الوقتُ الذي تقومُ فيه القيامة؛ سُمِّيت ساعةً؛ لأنَّها تفجأُ الناسَ في ساعة، فيموتُ الخلقُ بصيحة. واللَّمْحُ: النظرُ بسرعة؛ يقال: لَمَحه لَمْحاً ولَمَحاناً[3]. ووجهُ التأويلِ أنَّ الساعة لمَّا كانت آتيةً ولابدَّ، جُعِلت من القربِ كلمح البصرِ[4]. وقال الزَّجاجُ[5]: لم يُرِدْ أنَّ الساعة تأتي في لمحِ البصر، وإنَّما وَصفَ سرعةَ القدرةِ على الإتيانِ بها؛ أي: يقول للشيءِ: كن، فيكون. وقيل: إنَّما مَثَّل بلمحِ البصر؛ لأنَّه يلمحُ السماءَ مع

---

(١) بعدها في (ز): وعن ابن مسعود.

(٢) في النسخ: توجه، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٤١١ ، والكلام منه، وقد نصَّ على أنها بهاءين أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٥٢٠ . وينظر القراءات الشاذة ص٧٣ ، والمحتسب ٢/ ١١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٨٨ ، والوسيط ٣/ ٧٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤١١ ، وزاد المسير ٤/ ٤٧٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٢١٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة تفسير أبي الليث السمرقندي ٢/ ٢٤٤ .

ما هي عليه من البعدِ من الأرض. وقيل: هو تمثيلُ للقربِ؛ كما يقول القائل: ما السَّنةُ إلا لحظةٌ، وشبهه. وقيل: المعنى: هو عندَ الله كذلك لا عندَ المخلوقين؛ دليلُه قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧].

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليس «أو» للشكِّ بل، للتمثيلِ بأيِّهما أراد الممثِّل[١]. وقيل: دخلتْ لشكِّ المخاطب. وقيل: «أو» بمنزلة بل[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ذكر أنَّ من نعمه أنْ أخرجكم من بطون أمَّهاتكم أطفالاً لا عِلْمَ لكم بشيء. وفيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: لا تعلمون شيئاً مما أُخِذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم.

الثاني: لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء[٣].

الثالث: لا تعلمون شيئاً من منافعكم. وتَمَّ الكلام، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: التي تعلمون بها وتدركون؛ لأنَّ الله جعل[٤] ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون، وإنَّما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم[٥]، أي: وجعل لكم السمْعَ لتسمَعوا به الأمر والنهي، والأبصارَ لتبصروا بها آثارَ صُنعه، والأفئدةَ لِتَصِلُوا بها إلى معرفته.

---

(١) في (ظ): المثل.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١١.

(٣) في (د) و(ظ): الشقاوة.

(٤) في (ز) و(ف): لا أنَّ الله جعل، وفي (ظ): لا أن جعل ذلك، والمثبت من (د) و(م)، وهو الصواب.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٣١٥، ومعنى قوله: وإنما أعطاهم ذلك...، أي: أعطاهم العلم والعقل بعدما أخرجهم من بطون أمهاتهم، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٧٩.

والأفئدةُ: جمع الفؤاد؛ نحو غُراب وأغربة[١].

وقد قيل: في ضمن قوله: «وجعل لَكُمُ السَّمْعَ»: إثبات النطق؛ لأنَّ من لم يسمع لم يتكلَّم، وإذا وُجِدت حاسَّة السمع وُجِد النطق.

وقرأ الأعمش وابن وَثَّاب وحمزة: «إِمِّهاتكم» هنا وفي النُّور والزُّمَر والنَّجم[٢]، بكسر الهمزة والميم. وأمَّا الكسائي فكسرَ الهمزة وفتح الميم؛ وإنَّما كان هذا للإتباع. الباقون بضمِّ الهمزة وفتح الميم على الأصل[٣].

وأصل الأُمَّهات: أُمَّات، فزيدت الهاء تأكيداً، كما زادوا هاءً في أهرقتُ الماء؛ وأصله: أرقت[٤]. وقد تقدَّم هذا المعنى في«الفاتحة»[٥].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: تشكرون نعمَه. الثاني: يعني تبصرون آثارَ[٦] صَنْعته؛ لأنَّ إبصارَها يؤدي إلى الشكر.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قرأ يحيى بن وَثّاب والأعمشُ وابن عامر وحمزة ويعقوب: «تروا» بالتَّاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون: بالياء؛ على الخبر[٧].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٤ .

(٢) الآية (٦١) من سورة النور، والآية (٦) من سورة الزمر، والآية (٣٢) من سورة النجم.

(٣) السبعة ص٢٢٨ ، والتيسير ص٩٤ ، غير أن قراءتي حمزة والكسائي المذكورتين هما في حالة الوصل؛ لإتباع الكسرة الكسرة. وأما قراءة الأعمش؛ فهي بحذف الهمزة مع كسر الميم المشددة كما قيدها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٤ .

(٥) ١/ ١٧٣ ، وينظر ٦/ ١٧٧ .

(٦) في (ظ): آيات.

(٧) القراءة عن ابن عامر وحمزة في التيسير ص١٣٨ ، وعن يعقوب في النشر ٢/ ٣٠٤ ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١١ إلى طلحة بن مصرف والأعمش وابن هرمز.

﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: مُذَلَّلاتٍ لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي. وقيل: «مسخراتٍ»: مُذَلَّلاتٍ لمنافعكم.

﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ الجوُّ: ما بين السماء والأرض، وأضاف الجَوَّ إلى السماء؛ لارتفاعه عن الأرض. وفي قوله: «مسخراتٍ» دليلٌ على مُسَخِّرٍ سَخَّرها، ومُدَبِّرٍ مَكَّنها من التصرُّف.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف، بيَّن لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ أي: علاماتٍ وعِبراً ودلالات. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبما جاءت به رسلُهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ﴾ معناه: صيَّر. وكلُّ ما علاك فأظلَّك؛ فهو سقف وسماء، وكلُّ ما أَقَلَّك فهو أرض، وكلُّ ما ستَرَك من جهاتك الأربع فهو جدار؛ فإذا انتظمتْ واتصلت فهو بيت[1]. وهذه الآيةُ فيها تعديدُ نِعَم الله تعالى على النَّاس في البيوت، فذكر أولاً بيوتَ المدن، وهي التي للإقامة الطويلة[2].

وقوله: ﴿سَكَنًا﴾ أي: تسكنون فيها، وتهدأُ جوارحُكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلَّا أنَّ القولَ خُرِّج على الغالب، وعدَّ هذا في جملة النِّعم؛ فإنَّه لو شاء خلق العبد مضطرباً أبداً كالأفلاك، لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلَقه ساكناً كالأرض، لكان كما خلَق وأراد، ولكنَّه أوجدَه خلقاً يتصرَّفُ للوجهين،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ .

ويختلفُ حاله بين الحالتين، وردُّه كيف وأين.

والسَّكَنُ مصدرٌ يوصفُ به الواحد والجمع.

ثم ذكرَ تعالى بيوتَ النُّقلة والرِّحلة[١] وهي:

الثانية: فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: من الأنطاع والأَدَم[٢]. ﴿بُيُوتًا﴾ يعني الخيام والقِباب يَخِفُّ عليكم حَمْلُها في الأسفار[٣].

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الظَّعْن: سير البادية في الانتجاع[٤] والتحوُّل من موضعٍ إلى موضع[٥]؛ ومنه قول عنترة[٦]:

ظعنَ الذين فراقَهم أتوقَّعُ وجرى ببينهم الغرابُ الأبقعُ

والظعن: الهودج أيضاً[٧]؛ قال:

ألا هل هاجَك الأظعانُ إذْ بانوا وإذْ جادَت بوشكِ البَيْنِ غِرْبانُ[٨]

وقُرِئ بإسكان العين وفتحها[٩] كالشَّعْر والشَّعَر.

وقيل: يحتمل أن يعمَّ به[١٠] بيوت الأَدَم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأنَّ هذه

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ ، وذكر الألوسي في روح المعاني ١٤/ ٢٠٥ أن «سكن» بمعنى مسكون وأنه ليس بمصدر كما ذهب إليه ابن عطية، والنُّقْلة: الاسم من الانتقال من موضع إلى موضع.

(٢) الأنطاع جمع نِطع، وهو بساط من أديم، والأَدَم جمع أديم، وهو الجلد.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٧٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٧٩ .

(٤) أي: طلب الكلأ في موضعه.

(٥) مجمع البيان ١٤/ ١٠٨ .

(٦) ديوانه ص٤٨ .

(٧) الذي في المعاجم: الظعينة: الهودج، تهذيب اللغة ٢/ ٣٠٠ ، والصحاح ولسان العرب (ظعن).

(٨) ذكره ابن رشيق في العمدة ٢/ ٣٠٣ . بلفظ: وإذ صاحت بشطِّ البين. بدل: وإذ جادت بوشك البين.

(٩) قرأ بإسكان العين: عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر، وبفتحها نافع، وابن كثير، وأبو عمرو. السبعة ص٣٧٥ ، والتيسير ص١٣٨ .

(١٠) في (د): يحتمل أنهم بيوت، وفي (م): يحتمل أن يعم بيوت، وفي (ظ): يحتمل أن تعم به بيوت، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ ، والكلام منه.

من الجلود؛ لكونها نابتةً[١] فيها؛ نحا إلى ذلك ابن سَلام. وهو احتمالٌ حسن، ويكون قوله «ومِنْ أَصْوَافِهَا» ابتداءُ كلام[٢]، كأنَّه قال: جعل أثاثاً؛ يريد الملابسَ والوطاء، وغير ذلك؛ قال الشاعر:

أهاجَتْكَ الظعائنُ يوم بانوا بذي الزِّيِّ الجميل من الأثاثِ[٣]

ويحتمل أنْ يريد بقوله: «من جلود الأنعام» بيوتَ الأَدَم فقط كما قدمناه أولاً. ويكون قوله: «ومن أصوافها» عطفاً على قوله: «من جلود الأنعام»؛ أي: جعل بيوتاً أيضاً.

قال ابن العربي[٤]: وهذا أمرٌ انتشر في تلك الديار، وعَزَبت[٥] عنه بلادُنا، فلا تُضرب الأخبِيَة عندنا إلَّا من الكتَّان والصُّوف، وقد كان للنبيِّ ﷺ قُبَّةٌ من أَدَم[٦]، وناهيك من أدَم الطائف غلاءً في القيمة[٧]، واعتلاءً في الصَّفة[٨]، وحُسناً في البشَرة، ولم يَعُدَّ ذلك ﷺ تَرَفاً، ولا رآه سَرَفاً؛ لأنه مما امتنَّ الله سبحانه من نعمته، وأذنَ فيه من متاعه، وظهرت وجوهُ منفعته في الاكتنان والاستظلال الذي لا يقدِر على الخروج عنه جنسُ الإنسان.

---

(١) في النسخ: ثابتة، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز: عطف على قوله: «من جلود الأنعام»، وسيذكر المصنف هذا الإعراب عندما يفسر جلود الأنعام ببيوت الأدم فقط، وينظر الدر المصون ٧/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) البيت لمحمد بن نمير الثقفي كما في مجاز القرآن ١/ ٣٦٥، والكامل ٢/ ٧٨٦، والأغاني ٦/ ١٩٦، وهو في المجاز بلفظ: بذي الرئي. وذكر هذه الرواية الطبري في تفسيره ١٤/ ٣١٨ . والرئي: المظهر. اللسان (رأي).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١٥٥ .

(٥) في (د) و(ز) و(ف) وأحكام القرآن: وعريت، والمثبت من (م) و(ظ) ونسخة كما في حاشية أحكام القرآن.

(٦) أخرج البخاري (٣١٧٦) عن عوف بن مالك قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة من أدم فقال: اعدد ستاً... الحديث.

(٧) قوله: في القيمة، من (م) وأحكام القرآن.

(٨) في (م): الصنعة. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لأحكام القرآن.

ومن غريب ما جرى أنِّي زُرت بعض المتزهِّدين من الغافلين مع بعض المحدِّثين، فدخلنا عليه في خباء كَتَّان، فعرضَ عليه صاحبي المحدِّثُ أنْ يحملَه إلى منزله ضيفاً، وقال: إنَّ هذا موضعٌ يكثر فيه الحَرُّ، والبيتُ أرفق بك، وأطيب لنفسي فيك؛ فقال: هذا الخِباءُ لنَا كثير، وكان في صنعنا[1] من الحقير؛ فقلت: ليس كما زعمت! فقد كان لرسول الله ﷺ ـ وهو رئيسُ الزُّهاد ـ قُبَّةٌ من أَدَمٍ طائفيٍّ، يسافرُ معها، ويستظلُّ بها؛ فبُهت، ورأيتُه على منزلة من العِيِّ، فتركته مع صاحبي وخرجت عنه[2].

الثالثة[3]: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ أَذِن اللهُ سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبل وشعر المعز، كما أَذِن في الأعظم، وهو ذبحُها وأكلُ لحومها[4]، ولم يذكر القطن والكتّان؛ لأنَّه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنَّما عدَّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عَرفوا بما فهموا. وما قام مقامَ هذه، ونابَ منابها؛ فيدخلُ في الاستعمال والنعمة مدخلَها؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، فخاطبهم بالبَرَد لأنَّهم كانوا يعرفون نزولَه كثيراً عندهم، وسكتَ عن ذكر الثلج؛ لأنَّه لم يكن في بلادهم، وهو مثلُه في الصِّفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبيُّ ﷺ معاً في التطهير فقال: «اللَّهُمَّ اغسلني بماءٍ وثلجٍ وبَرَد»[5].

قال ابن عباس: الثلجُ: شيءٌ أبيضُ ينزل من السماء، وما رأيته قَطُّ.

وقيل: إنَّ تَرْكَ ذكر القُطن والكَتَّان؛ إنَّما كان إعراضاً عن السَّرَف[6]؛ إذْ مَلْبس

---

(١) في (د): صنفنا، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٦ : صنفها. والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف) و(م).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٥ - ١١٥٦ .

(٣) في (ز): الرابعة.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٨ ، وسلف الحديث بنحوه ١/ ١٨٠ ، وهو في الصحيحين.

(٦) في (م): الترف.

عباد الله الصالحين إنَّما هو الصُّوف. وهذا فيه نظر، فإنَّه سبحانه يقول: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف:٢٦] حسبما تقدَّم بيانه في «الأعراف»[1]. وقال هنا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾، فأشارَ إلى القطن والكَتَّان في لفظة «سرابيل». والله أعلم[2].

و﴿أَثَٰثًا﴾ قال الخليل: متاعاً منضماً بعضُه إلى بعض؛ من أثَّ: إذا كثر[3]. قال:

وفَرْعٍ يَزِينُ المَتْنَ أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المُتَعَثْكِلِ[4]

ابن عباس: «أَثَٰثًا»: ثياباً. وقد تقدَّم[5].

وتضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كلِّ حال، ولذلك قال أصحابنا: صوفُ الميتة وشعرُها طاهرٌ يجوز الانتفاعُ به على كلِّ حال، ويُغسَل مخافةَ أنْ يكون عَلِق به وَسَخٌ، وكذلك روت أمُّ سلمة عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا بأس بمَسْكِ[6] الميتة إذا دُبغ، وصوفِها وشعرِها إذا غُسل»[7]؛ لأنَّه مما لا يَحُلُّه الموت، وسواء كان شعرَ ما يؤكل لحمه أو لا، كشعر ابنِ آدم والخنزير، فإنَّه طاهرٌ كلُّه؛ وبه قال أبو حنيفة[8]، ولكنَّه زاد علينا فقال: القَرْن والسِّنُّ والعظم مثلُ الشعر؛

---

(١) ٩/ ١٨٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢.

(٣) ينظر مجمل اللغة ١/ ٧٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٣١٨، وزاد المسير ٤/ ٤٧٧، وتفسير الرازي ٢٠/ ٩٢.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦ بلفظ: يُغَشِّي المتن. قال شارحه: الفرع: الشعر الطويل. والفاحم: شديد السواد كالفحم. والأثيث: الكثير النبات. والقنو: العذق. والمتعثكل: المتداخل لكثرته.

(٥) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٧٦ بنحوه. وسيرد قولٌ ثان لابن عباس في المسألة العاشرة. والقول أن الأثاث بمعنى الثياب. سلف في المسألة الثانية.

(٦) في (د) و(م): بجلد، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف) وهما بمعنى.

(٧) سلف ٣/ ٢٧، وينظر أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٢١، والأوسط ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣، والمنتقى للباجي ٣/ ١٣٧.

(٨) ينظر الأوسط لابن المنذر ٢/ ٢٨٠، والمبسوط ١/ ٢٠٢ - ٢٠٤.

قال: لأنَّ هذه الأشياءَ كلَّها لا روح فيها، فلا تَنْجس بموت الحيوان. وقال الحسن البَصْرِيُّ والليثُ بنُ سعد والأوزاعِيُّ: إنَّ الشعور كلَّها نجسةٌ، ولكنها تَطهر بالغسل. وعن الشافعي ثلاثُ روايات: الأولى: طاهرةٌ لا تنجس بالموت. الثانية: تنجس. الثالثة: الفرق بين شعر ابنِ آدم وغيره، فشعرُ ابنِ آدم طاهر، وما عداه نجس[١].

ودليلنا عموم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ الآية. فمَنَّ علينا بأنْ جعل لنا الانتفاعَ بها، ولم يخصَّ شعر الميتة من المُذَكَّاة، فهو عموم إلَّا أنْ يمنع منه دليل. وأيضاً فإنَّ الأصلَ كونُها طاهرةً قبل الموت بإجماع، فمن زعم أنَّه انتقل إلى نجاسة، فعليه الدليل.

فإنْ قيل قوله[٢]: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]، وذلك عبارةٌ عن الجملة.

قلنا: نخصُّه[٣] بما ذكرنا؛ فإنَّه منصوصٌ عليه في ذكر الصوف، وليس في آيتكم ذكره صريحاً، فكان دليلنا أَوْلى. والله أعلم[٤].

وقد عوَّل الشيخُ الإمام أبو إسحاق إمامُ الشافعية ببغداد على أنَّ الشعرَ جزءٌ متصلٌ بالحيوان خِلْقة، فهو يَنْمِي بنمائه، ويتنجَّس بموته كسائر الأجزاء.

وأُجيبَ بأنَّ النَّماء ليس بدليلٍ على الحياة؛ لأنَّ النباتَ ينمِي، وليس بحَيٍّ. وإذا عوَّلوا على النماء المتصلِ لِمَا على الحيوان؛ عوَّلنا نحن على الإبانة التي تدلُّ على عدم الإحساس الذي يدلُّ على عدم الحياة[٥].

وأما ما ذكره الحنفيُّون في العظم والسنِّ والقَرْن أنَّه مثل الشعر، فالمشهور عندنا أنَّ ذلك نجس كاللحم. وقال ابنُ وهب مثلَ قول أبي حنيفة.

---

(١) المفهم ٤/٤٦٢، وينظر المجموع ١/٢٨٩ - ٢٩١.

(٢) لفظة: قوله. من (م).

(٣) في (د) و(ز): خصه.

(٤) ينظر أحكام القرآن للجصاص ١/١٢١. والمنتقى للباجي ١/١٣٧.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٥٨.

ولنا قول ثالث: هل تُلْحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر؟ قولان. وكذلك الشَّعريُّ من الريش؛ حكمُه حكم الشعر، والعظمِيُّ منه حكمه حكمه[1].

ودليلنا قوله ﷺ: «لا تنتفعوا من الميتة بشيء»[2]. وهذا عامٌّ فيها وفي كل جزءٍ منها، إلّا ما قامَ دليلُه؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، وقال: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:١٤]، وقال: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات:١١]، فالأصلُ هي العظام، والروح والحياة فيها كما في اللَّحم والجلد. وفي حديث عبد الله بن عُكَيم: «لا تنتفعوا من الميتة بإهابٍ ولا عَصَب»[3].

فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ قال في شاة ميمونة: «ألا انتفعتم بجلدها؟»، فقالوا: يا رسول الله، إنها ميتةٌ؟! فقال: «إنما حَرُم أكلها»[4]. والعظم لا يؤكل.

قلنا: العظمُ يؤكل، وخاصَّةً عظم الجمل الرضيع والجَدْي والطير، وعظمُ الكبير يُشوى ويؤكل. وما ذكرناه قبلُ يدُلُّ على وجود الحياة فيه، وما كان طاهراً بالحياة ويستباحُ بالذَّكاة؛ ينجس بالموت. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عامٌّ في جلد الحيِّ والميت، فيجوز

---

(١) ينظر المفهم ٤/ ٤٦٢ .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤٦٨ ، وابن حبان في صحيحه (١٢٧٩)، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٥ ، وهو أحد روايات حديث عبد الله بن عُكيم الذي سيذكره المصنف بعده.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٨٧٨٠)، وأبو داود (٤١٢٧)، والترمذي (١٧٢٩)، والنسائي ٧/ ١٧٥ ، وابن ماجه (٣٦١٣) وابن حبان (١٢٧٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن. غير أن الحديث مضطرب كما ذكر ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ١٦٤ ، والحازمي في الاعتبار ص٣٩ ، وعبد الله بن عُكيم لا يُعرف له سماع من النبي ﷺ كما في التاريخ الكبير للبخاري ٥/ ٣٩ .

(٤) أخرجه البخاري (١٤٩٢)، ومسلم (٣٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند أحمد (٢٣٦٩).

الانتفاعُ بجلود الميتة وإنْ لم تدبغ؛ وبه قال ابنُ شهاب الزهريُّ والليثُ بن سعد. قال الطحاويُّ[١]: لم نجد عن[٢] أحدٍ من الفقهاء جوازَ بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلَّا عن الليث. قال أبو عمر[٣]: يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين، وأمَّا ابن شهاب فذلك عنه صحيح، وهو قول أباه جمهورُ أهل العلم. وقد رُوِيَ عنهما خلافُ هذا القول، والأولُ أشهر.

قلت: قد ذكر الدَّارَقُطْنيُّ في «سننه» حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعُقيل عن الزهريّ[٤]، وحديثَ بقية عن الزُّبيدي، وحديث محمد بن كثير العبديّ وأبي سلمة المِنْقَريّ عن سليمان بن كثير عن الزهريّ[٥]، وقال في آخرها: هذه أسانيد صحاح.

السادسة[٦]: اختلفَ العلماء في جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا؛ فذكر ابنُ عبد الحكم عن مالك ما يُشبه مذهب ابن شهاب في ذلك. وذكره ابن خُوَيْزِمَنْداد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضاً. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: وهو قول الزهريّ والليث. قال: والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم، وهو أنَّ الدِّباغَ لا يُطهِّر جلدَ الميتة، ولكنْ يُبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يُصلَّى عليه ولا يؤكل فيه[٧].

وفي «المدوّنة»[٨] لابن القاسم: من اغتصب جلدَ ميتةٍ غيرَ مدبوغ فأتلفه؛ كان

---

(١) في مختصر اختلاف العلماء ١/ ١٦٠ - ١٦١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ١٥٦ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عند، والمثبت من (ف) و(م) وهو الموافق للتمهيد.

(٣) في التمهيد ٤/ ١٥٦ .

(٤) سنن الدارقطني (٩٨)، وهو حديث ابن عباس في الصحيحين الذي ذكره المصنف آخر المسألة الثالثة عن شاة ميمونة.

(٥) سنن الدارقطني (١٠١) (١٠٢) بنحو ما قبله.

(٦) كذا في النسخ، ولم يرد فيها: الخامسة.

(٧) التمهيد ٤/ ١٥٦ - ١٥٧ .

(٨) ١٤/ ٣٦٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ١٥٧ .

عليه قيمته. وحكى أنَّ ذلك قول مالك. وذكر أبو الفرج أنَّ مالكاً قال: من اغتصبَ لرجلٍ جلدَ ميتةٍ غير مدبوغ؛ فلا شيء عليه. قال إسماعيل: إلَّا أنْ يكون لمجوسيّ[١]. وروى ابن وهب وابن عبد الحكم عن مالك جوازَ بيعه، وهذا في جلد كلِّ ميتةٍ إلّا الخنزيرَ وحده؛ لأنَّ الذَّكاة لا تعمل فيه، فالدِّباغُ أولى[٢].

قال أبو عمر[٣]: وكلُّ جلدٍ ذُكِّي؛ فجائزٌ استعماله للوضوء وغيره. وكان مالكٌ يكره الوضوء في إناء جلدِ الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله، ومرَّةً قال: إنَّه لم يكرهه إلَّا في خاصَّة نفسه، ويَكره الصلاةَ عليه وبيعَه، وتابعه على ذلك جماعةٌ من أصحابه. وأمَّا أكثر المدنيين فعلى إباحة ذلك وإجازته؛ لقول رسول الله ﷺ: «أيُّما إهابٍ دبغ فقد طهر»[٤]. وعلى هذا أكثرُ أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث، وهو اختيارُ ابن وهب[٥].

السابعة: ذهبَ الإمام أحمد بن حنبل ﷺ إلى أنَّه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيءٍ وإنْ دُبغت؛ لأنَّها كلحم الميتة. والأخبارُ بالانتفاع بعد الدباغ تردُّ قولَه. واحتجَّ بحديث عبد الله بن عكيم - رواه أبو داود[٦] - قال: قُرِئ علينا كتابُ رسول الله ﷺ بأرض جهينة، وأنا غلامٌ شابٌّ: «ألَّا تستمتعوا من الميتة بإهابٍ ولا عَصَب». وفي رواية: «قبلَ موته بشهر»[٧].

رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عُكيم، قال: حدثنا مَشيخةٌ لنا أنَّ النبيَّ ﷺ

---

(١) التمهيد ٤/ ١٥٧، والاستذكار ١٥/ ٣٤١ وأبو الفرج هو عمرو بن محمد، وإسماعيل هو ابن إسحاق.

(٢) ينظر الاستذكار ١٥/ ٣٤٠ و ٣٤٩، وعقد الجواهر الثمينة لابن شاس ١/ ٣١، والمفهم ٤/ ٤٦٣.

(٣) في الكافي ١/ ١٦٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٩٥)، ومسلم (٣٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٢٦.

(٥) التمهيد ٤/ ١٧٢، والكافي ١/ ١٦٣.

(٦) في سننه (٤١٢٧)، وسلف ص٣٩٧ من هذا الجزء.

(٧) سنن أبي داود (٤١٢٨).

كتبَ إليهم[١].

قال داود بنُ عليٍّ: سألتُ يحيى بنَ مَعين عن هذا الحديث فضعَّفه، وقال: ليس بشيء، إنَّما يقول: حدثني الأشياخ.

قال أبو عمر[٢]: ولو كان ثابتاً لاحتملَ أنْ يكون مخالفاً للأحاديث المروية عن ابن عباس، وعائشة، وسلمة بن المُحَبِّق، وغيرهم[٣]، لأنَّه جائزٌ أنْ يكون معنى حديث ابن عُكيم أنْ لا تنتفعوا من الميتة بإهابٍ قبل الدباغ؛ وإذا احتملَ ألَّا يكون مخالفاً فليس لنا أن نجعلَه مخالفاً، وعلينا أنْ نستعمل الخبرين ما أمكن، وحديثُ عبد الله بن عكيم وإنْ كانَ قبلَ موت النبيِّ ﷺ بشهر كما جاء في الخبر؛ فيمكن أنْ تكونَ قصَّةُ ميمونة وسماعُ ابن عباس منه: «أيُّما إهابٍ دبغ فقد طهر» قبلَ موته بجمعةٍ، أو دون جمعة، والله أعلم[٤].

الثامنة: المشهورُ عندنا أنَّ جلدَ الخنزير لا يدخل في الحديث، ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعيِّ.

وعند الأوزاعي وأبي ثور: لا يطهر بالدِّباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه[٥].

---

(١) هي إحدى روايات حديث عبد الله بن عُكيم السالف، وقد أخرج هذه الرواية الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٢٤١)، وابن حبان (١٢٧٩)، وذكره المصنف آخر المسألة الثالثة، ونقلنا ثمة عن ابن عبد البر أنه حديث مضطرب.

(٢) في التمهيد ٤/ ١٦٤ - ١٦٥ وما قبله منه.

(٣) حديث ابن عباس هوفي شاة ميمونة، وسلف آخر المسألة الثالثة، وهو في الصحيحين، وحديث عائشة أخرجه أبو داود (٤١٢٤) والنسائي في المجتبى ٧/ ١٧٤ ، والكبرى (٤٥٥٦)، وابن ماجه (٣٦١٢) ولفظه عند النسائي: سئل النبي ﷺ عن جلود الميتة فقال: «دباغها طهورها». وحديث سلمة بن المحبق أخرجه أبو داود (٤١٢٥)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٧٣ ، والكبرى (٤٥٥٥) ولفظه عند أبي داود أن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أتى على بيت فإذا قربةٌ معلقةٌ، فسأل الماء، فقالوا: يا رسول الله إنها ميتة فقال: «دباغها طهورها». وسلمة بن المحبِّق يكنى أبا سنان، له رواية، وسكن البصرة. الإصابة ٤/ ٢٣٥ .

(٤) التمهيد ٤/ ١٦٤ - ١٦٥ ، والاستذكار ١٥/ ٣٤٦ .

(٥) التمهيد ٤/ ١٧٦ . وينظر المفهم ٤/ ٤٦٣ ، ومختصر اختلاف العلماء للطحاوي ١/ ١٦١ .

وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنَّه سُئل عن جلد الخنزير إذا دبغ، فكرهه. قال ابن وَضَّاح: وسمعت سُحْنُوناً يقول: لا بأس به؛ وكذلك قال محمد بن عبد الحكم وداود بن عليّ وأصحابه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أيُّما مَسْكٍ دُبغ؛ فقد طهر»(١).

قال أبو عمر(٢): يَحتمل أنْ يكون أراد بهذا القول عمومَ الجلود المعهود الانتفاعُ بها، فأمَّا الخنزير فلم يدخل في المعنى؛ لأنَّه غير معهود الانتفاع بجلده، إذ لا تعمل فيه الذَّكاة. ودليلٌ آخر: وهو ما قاله النَّضْر بن شُمَيل: إنَّ الإهابَ جلدُ البقر والغنم والإبل، وما عداه فإنَّما يُقال له: جلدٌ، لا إهابٌ.

قلت: وجلدُ الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضاً غيرُ معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال ﷺ: «أكْلُ كلِّ ذي نابٍ من السِّباع حرامٌ»(٣) فليست الذَّكاةُ فيها ذكاةً، كما أنَّها ليست في الخنزير ذكاة. وروى النَّسائيُّ عن المقدامِ بنِ معدِ يكرب قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن الحرير والذَّهب ومَيَاثر النمور(٤).

التاسعة: اختلف الفقهاء في الدباغ التي تطهر به جلودُ الميتة ما هو؟ فقال أصحاب مالك ـ وهو المشهور من مذهبه ـ: كلُّ شيء دَبَغَ الجلدَ من ملح، أو قَرَظ، أو شَبٍّ، أو غير ذلك؛ فقد جاز الانتفاع به. وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود(٥).

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ عن ابن عباس الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤٧٠ ، وابن عبد البر في التمهيد ٤/ ١٧٨ . وسلف تخريجه ٣/ ٢٦ بلفظ: أيما إهاب، والكلام السابق في الاستذكار ١٥/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) في التمهيد ٤/ ١٧٨ .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٣٣) عن أبي هريرة، وسلف ٧/ ٢٥١ .

(٤) سنن النسائي الكبرى (٤٥٦٦)، والمجتبى ٧/ ١٧٦ . والمياثر جمع مِيْثَرة: وهو السرج. المصباح المنير (وثر).

(٥) الاستذكار ١٥/ ٣٤٩ ، وينظر المبسوط ١/ ٢٠٢ ، والقَرَظ: وَرَق السَّلَم يُدبغ به الأديم. المصباح المنير (قرظ). والشَّبُّ: حجارة الزَّاج. القاموس (شبب)، وينظر المغرب للمطرزي ص٤٣٢ ، والمصباح المنير (شبب).

وللشافعيِّ في هذه المسألة قولان؛ أحدهما: هذا، والآخر: أنه لا يُطَهِّر إلا الشَّبُّ والقَرَظ؛ لأنَّه الدباغ المعهود على عهد النبيِّ ﷺ، وعليه خرج الخطاب[1]، والله أعلم.

النَّسائيّ: عن ميمونة زوجِ النبيِّ ﷺ أنَّه مرَّ برسول الله ﷺ رجالٌ من قريش يجرُّون شاةً لهم مثلَ الحصان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «لو أخذتم إهابها». قالوا: إنَّها ميتة. فقال رسول الله ﷺ: «يُطهِّرها الماءُ والقَرَظ»[2].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿أَثَٰثًا﴾؛ الأثاثُ: متاع البيت، واحدها أَثاثة؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري[3].

وقال الأمويُّ: الأثاث: متاع البيت، وجمعه أَثَّة وأُثُث[4].

وقال غيرهما: الأثاثُ: جميع أنواع المال، ولا واحدَ له من لفظه[5].

وقال الخليل: أصلُه من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعضٍ حتى يكثر، ومنه: شعر أَثِيث، أي: كثير. وأَثَّ شعرُ فلانٍ يَئِثُّ أَثًّا: إذا كثُر والتفَّ[6]؛ قال امرؤ القيس[7]:

---

(١) في (د) و(م): خرّج الخطابي - والله أعلم - ما رواه النسائي...، والمثبت من (ظ) و(ف). وهو الموافق لما في التمهيد ٤/ ١٨٣ - ١٨٤ ، والاستذكار ١٥/ ٣٤٩ - ٣٥٠ ، والكلام منه

(٢) المجتبى ٧/ ١٧٤ - ١٧٥ ، والكبرى (٤٥٦٠)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٣٣)، وأبو داود (٤١٢٦).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ . وذكر الطبري في تفسيره ١٤/ ٣١٨ أن الأثاث مثل المتاع؛ لم يسمع له بواحد، وقال: حُكي عن بعض النحويين أنه كان يقول: واحد الأثاث أثاثة، ولم أر أهل العلم بكلام العرب يعرفون ذلك.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ١٦٦ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٩٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ .

(٦) تفسير الطبري ١٤/ ٣١ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٧٧ .

(٧) في ديوانه ص١٦ ، وسلف البيت ص٣٩٥ من هذا الجزء.

وفَـرْعٍ يَـزِيـن الـمـتـنَ أسـودَ فـاحـمٍ أثـيـثٍ كـقِـنْـوِ الـنّـخـلـة الـمُـتَـعَـثْـكِـلِ

وقيل: الأثاثُ: ما يلبس ويفترش[1]. وقد تأثَّثت: إذا اتخذت أثاثاً. وعن ابن عباس رضي الله عنه: «أثاثاً»: مالاً[2].

وقد تقدَّم القول في الحين[3]، وهو هنا وقتٌ غير معيَّن بحسَب كلِّ إنسان، إمَّا بموته، وإمَّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث. ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

أهـاجَـتْـكَ الـظـعـائـنُ يـومَ بـانُـوا بـذي الـزِّيِّ الـجـمـيـلِ مـن الأثـاث[4]

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ظِلَٰلًا﴾ الظِّلال: كلُّ ما يُستظَلُّ به من البيوت والشجر. وقوله: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ يعمُّ جميعَ الأشخاص المظِلَّة[5].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَكْنَٰنًا﴾ الأكنان: جمع كِنٍّ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك[6]؛ وهي هنا الغيران في الجبال[7]، جعلها الله عدَّةً للخلق يأوون إليها، ويتحصَّنون بها، ويعتزلون عن الخَلْق فيها. وفي «الصحيح»[8] أنَّه عليه الصلاة

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٦ .
(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٣١٩ .
(٣) ١/ ٤٧٧ - ٤٧٨ .
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ ، والبيت لمحمد بن نمير الثقفي وسلف ص٣٩٣ من هذا الجزء.
(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٤٧٧ .
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٢ .
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢١ وعزاه إلى قتادة. والغيران جمع الغار. القاموس (غور).
(٨) صحيح البخاري (٣)، وصحيح مسلم (١٦٠)، وهو عند أحمد (٢٥٩٥٩) عن عائشة رضي الله عنها، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٨ - ١١٥٩ .

والسلام كان في أولِ أمره يتعبَّد بغار حِرَاء ويمكثُ فيه الليالي... الحديث.

وفي «صحيح البخاريّ»[١] قال: خرجَ رسول الله ﷺ من مكَّة مهاجراً هارباً من قومه؛ فارًّا بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغارٍ في جبل ثَوْر، فكمَنَا[٢] فيه ثلاثَ ليالٍ يبيت عندهما فيه عبدُ الله بنُ أبي بكر، وهو غلام شابٌّ ثَقِف لَقِن[٣]، فيَدَّلجُ من عندهما بسحَرٍ، فيصبحُ مع قريشٍ بمكة[٤] كبائت؛ فلا يسمع أمراً يُكادان به إلا وَعاه حتى يأتيَهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكرٍ مِنْحَةً من غنمٍ، فيُرِيْحها عليهما حين[٥] تذهب ساعةٌ من العشاء فيَبِيتان في رِسْل - وهو لبنُ مِنحتهما ورَضِيفُهما[٦] - حتى يَنْعِق بهما عامرُ بنُ فُهَيْرة بغَلَس[٧]، يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك الليالي الثلاث... وذكر الحديث. انفردَ بإخراجه البخاري.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ يعني: القُمُص، واحدها سِربال[٨]. ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدروعَ التي تقي النَّاس في

---

(١) برقم (٣٩٠٥).

(٢) في (ز) و(ظ): فمكث، وفي (د) و(ف): فمكثا. والمثبت من (م)، وهو موافق لما في صحيح البخاري.

(٣) قوله: ثَقِف، بفتح المثلثة وكسر القاف، ويجوز إسكانها وفتحها، وبعدها فاء، أي: الحاذق، تقول: ثقفت الشيء: إذا أقمت عِوَجَه، وقوله: لَقِن، بفتح اللام وكسر القاف بعدها نون، أي: السريع الفهم. فتح الباري ٧/ ٢٣٧ . ووقع في (ظ): لَقِف، بدل: لَقِن. ومعناه: خفيف حاذق، يقال: فلان ثَقِفٌ لَقِف. القاموس (لقف).

(٤) لفظة: بمكة. من (م) وصحيح البخاري.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): حتى، والمثبت من (ف) و(م) وهو الموافق لصحيح البخاري.

(٦) لفظة: ورضيفهما. من (م) وصحيح البخاري. والرَّضِيف؛ هو اللبن المرضوف، أي: التي وُضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته. فتح الباري ٧/ ٢٣٧ .

(٧) قوله: ينعق بهما، بالتثنية، هي لأبي ذر، أحد رواة صحيح البخاري، أي: يُسمعهما صوته إذا زجر غنمه. ورواية الآخرين: ينعق بها، أي: يصيح بغنمه، والنعيق صوت الراعي إذا زجر الغنم. فتح الباري. وقوله: الغَلَس، أي: ظلمة آخر الليل.

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ٧٦ .

الحرب، ومنه قول كعب بن زهير:

شُمُّ العرانين أبطالٌ لبوسُهمُ   من نَسْج داودَ في الهَيْجَا سَرابِيلُ[1]

الرابعة: إنْ قال قائل: كيف قال ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ ولم يذكر السهل، وقال: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ ولم يذكر البَرْد؟ فالجواب أنَّ القومَ كانوا أصحابَ جبال، ولم يكونوا أصحاب سهل، وكانوا أهلَ حَرٍّ، ولم يكونوا أهل بَرْد، فذكر لهم نعمه التي تختصُّ بهم[2]؛ كما خصَّهم بذكر الصوف وغيره، ولم يذكر القطن والكتّان ولا الثلج؛ كما تقدم[3]، فإنَّه لم يكن ببلادهم؛ قال معناه عطاء الخراسانيُّ[4] وغيره. وأيضاً: فذِكرُ أحدهما يدلُّ على الآخر، ومنه قول الشاعر[5]:

وما أدري إذا يَمَّمت أرضاً   أُرِيدُ الخيرَ أيُّهما يَلِيني

أأَلْخيرُ الذي أنا أبتغيهِ   أمِ الشَّرُّ الذي هو يبتغيني

الخامسة: قال العلماء: في قوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ دليلٌ على اتخاذ العباد عُدَّة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء، وقد لبسَها النبيُّ ﷺ تُقاةَ الجراحة وإنْ كان يطلبُ الشهادة، وليس على العبد أنْ يطلبها بأنْ يستسلمَ للحتوف، وللطعن بالسِّنان، وللضرب بالسيوف، ولكنَّه يلبسُ لأْمةَ[6] حربٍ؛ لتكون له قوّةٌ على قتال عدوِّه، ويقاتلُ لتكون كلمةُ الله هي العليا، ويفعلُ الله بعدُ ما يشاء.

---

(١) ديوان كعب ص٩١ . وشُمّ جمع أَشَم؛ وهو الذي في قصبة أنفه علوٌّ مع استواء أعلاه، والعرانين: جمع عرنين وهو الأنف. واللَّبوس بفتح اللام: اللباس. والمراد به هنا ما يلبس من السلاح والنسج المنسوج. شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام ص٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٠٦ .

(٣) ص٣٩٤ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٥) هو المثقب العبدي، والبيتان في ديوانه ص٢١٢ - ٢١٣ . وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤١٣ . وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٩ .

(٦) اللأْمَة: الدرع. المصباح المنير (لوم).

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وحميد: «تَتِمُّ» بتاءين، «نعمتُه»: رفعاً على أنَّها الفاعل[١]. الباقون: «يُتِمُّ» بضمِّ الياء؛ على أنَّ اللهَ هو يُتمُّها.

و«تُسْلِمون»؛ قراءةُ ابن عباس وعكرمة: «تَسْلَمون» بفتح التَّاء واللام، أي: تَسْلَمون من الجراح، وإسنادُه ضعيف؛ رواه عَبَّاد بن العوَّام، عن حنظلةَ، عن شَهْر، عن ابن عباس[٢]. الباقون: بضمِّ التاء، ومعناه: تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته؛ شكراً على نعمه[٣].

قال أبو عبيد: والاختيارُ قراءة العامَّة؛ لأنَّ ما أنعمَ الله به علينا من الإسلام أفضلُ مما أنعم به من السلامة من الجراح.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: ليس عليك إلَّا التبليغ، وأمَّا الهداية فإلينا.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ قال السُّدِّيُّ: يعني: محمداً ﷺ، أي: يعرفون نبوَّته ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ويُكذِّبونه. وقال مجاهد: يريدُ ما عدَّد اللهُ عليهم في هذه السورة من النِّعم، أي: يعرفون أنَّها من عند الله ويُنكِرونها بقولهم إنَّهم ورثوا ذلك عن آبائهم[٤]. وبمثله قال قتادة[٥].

---

(١) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٠٥ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٣ . ونسباها لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٢٢ من طريقين عن حنظلة، به. وحنظلة ـ وهو السدوسي ـ وشهر ـ وهو ابن حوشب ـ ضعيفان، وقد ردَّ الطبريُّ أيضاً هذه القراءة.

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٩ - ١١٦٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٠٧ ، وأخرج قوليهما الطبري ١٤/ ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٨٠ .

وقال عَوْن بن عبد الله: هو قولُ الرجل: لولا فلانٌ لكان كذا، ولولا فلانٌ ما أصبتُ كذا، وهو يعرف أن[1] النفع والضرَّ من عند الله.

وقال الكَلْبِيُّ: هو أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا عرَّفهم بهذه النِّعم كلِّها، عرفوها وقالوا: نَعم، هي كلُّها نِعَمٌ من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا[2].

وقيل: يعرفونَ نعمة الله بتقلُّبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها. ويَحتمل سادساً: يعرفونها في الشدَّة، وينكرونها في الرخاء. ويَحتمل سابعاً: يعرفونها بأقوالهم، وينكرونها بأفعالهم[3]. ويَحتمل ثامناً: يعرفونها بقلوبهم، ويجحدونها بألسنتهم؛ نظيرها: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني: جميعهم[4]؛ حسبما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نظيره: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ وقد تقدّم[5] [النساء: ٤١].

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: في الاعتذار والكلام، كقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]. وذلك حين تُطبق عليهم جهنَّم، كما تقدَّم في أوَّل «الحجر»، ويأتي.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعني: يُسترضون، أي: لا يُكلَّفون أنْ يُرضوا ربَّهم؛ لأنَّ

---

(١) في (د) و(م): وهم يعرفون، بدل: وهو يعرف أن، ومن هذا الموضع إلى آخر الكلام ليس من قول عون، وقد أخرجه الطبري ١٤/ ٣٢٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٠٧.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٨٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٠٧.

(٤) زاد المسير ٤/ ٤٧٩ وعزاه إلى الحسن.

(٥) ٦/ ٣٢٥.

الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يُتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون[1].

وأصل الكلمة من العَتْب، وهي المَوْجِدة؛ يقال: عَتَب عليه يَعتُب: إذا وَجَدَ عليه، فإذا فاوضه ما عَتَب عليه فيه، قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرَّتك فقد أعتَب، والاسم: العُتبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتبَ؛ قاله الهرَوِيُّ[2]. وقال النابغة:

فإنْ كنتُ مظلوماً فعبداً ظلمتَه ... وإن تكُ[3] ذا عُتْبى فمثلُكَ يُعْتِبُ[4]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: أشركوا. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أي: عذاب جهنَّم بالدخول فيها. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهلَون؛ إذْ لا توبةَ لهم ثَمَّ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٨٦ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي: أصنامَهم وأوثانَهم التي عبدوها، وذلك أنَّ اللهَ يَبعث معبودِيهم فيتبعونَهم حتى يُورِدوهم النَّارَ. وفي «صحيح مسلم»: «من كان يَعبدُ شيئاً فَلْيَتَّبِعْه، فيتَّبِع مَن كان يعبدُ الشمسَ الشمسَ، ويتَّبعُ مَن كان يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتَّبعُ مَن كان يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ». الحديث، خرَّجه مِن حديث أنس[5]، والترمذيُّ مِن حديث أبي هريرة، وفيه: «فيُمَثَّل لصاحبِ الصليبِ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٨٠.

(٢) نسبه الطبرسي للزجاج في مجمع البيان ١٤/ ١٠٩.

(٣) في (د) و(ز) و(م): كنت، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في الديوان.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص١٨، وفيه: فإن أكُ مظلوماً فعبد ظلمته...

(٥) صحيح مسلم (١٨٢). وهو قطعة من حديث أبي هريرة، وليس من حديث أنس.

صليبُه، ولصاحبِ التصاويرِ تصاويرُه، ولصاحبِ النارِ نارُه، فيَتْبعون ما كانوا يعبدون» وذكر الحديث[1].

﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ أي: الذين جعلناهم لك شركاءَ. ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: ألقت إليهم الآلهةُ القولَ، أي: نَطَقَتْ بتكذيبِ مَن عَبَدها؛ بأنَّها لم تكن آلهةً، ولا أَمَرَتهم بعبادتِها، فيُنطق اللهُ الأصنامَ حتى تَظهر عند ذلك فضيحةُ الكفَّار. وقيل: المرادُ بذلك الملائكةُ الذين عبدوهم.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني: المشركينَ، أي: استسلموا لعذابِه، وخضعوا لعزِّه. وقيل: استسلم العابدُ والمعبودُ، وانقادوا لحكمِه فيهم.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: زال عنهم ما زَيَّن لهم الشيطانُ، وما كانوا يؤمِّلون مِن شفاعةِ آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال ابنُ مسعود: عقارب أنيابُها كالنخل الطِّوال؛ وحيات مثلُ أعناق الإبل؛ وأفاعي كأنَّها البَخَاتِيّ تَضربُهم، فتلك الزيادةُ، وقيل: المعنى: يَخرجون مِن النَّارِ إلى الزَّمْهرير، فيبادرونَ مِن شدَّة بَرْدِه إلى النَّار. وقيل: المعنى: زِدْنا القادةَ عذاباً فوق السَّفِلة؛ فأَحَدُ العذابَيْن على كُفرهم، والعذابُ الآخَرُ على صدِّهم[2].

﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ في الدنيا مِن الكُفر والمعصية.

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٠ - ٣٣١ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٦ ، والوسيط ٢/ ٢٤٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٨١ ، والزمخشري ٢/ ٤٢٤ .

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهم الأنبياءُ، شهداءُ على أُمَمهم يومَ القيامة، بأنَّهم قد بلَّغوا الرسالةَ ودعَوْهم إلى الإيمان، وفي كلِّ زمانٍ شهيدٌ وإن لم يكن نبيًّا، وفيهم قولان:

أحدُهما: أنَّهم أئمةُ الهدى الذين هم خلفاءُ الأنبياء.

الثاني: أنَّهم العلماءُ الذين حَفِظَ اللهُ بهم شرائعَ أنبيائه[(١)].

قلت: فعلى هذا لم تكن فترةٌ إلا وفيها مَن يوحِّد اللهَ؛ كقُسِّ بنِ ساعدة، وزيدِ بنِ عمرِو بنِ نُفيل الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «يُبعَث أمةً وحدَه»[(٢)]، وسَطِيح[(٣)]، ووَرَقةَ بنِ نَوْفلٍ الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «رأيته ينغمس في أنهار الجنة»[(٤)]. فهؤلاء ومَن كان مثلُهم حجَّةٌ على أهل زمانِهم وشهيدٌ عليهم. والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ تقدَّم في البقرة والنساء[(٥)].

---

(١) النكت والعيون ٣/٢٠٨.

(٢) سلف ٢/٣٩٧.

(٣) هو ربيع بن ربيعة الكاهن، من بني مازن بن الأزد، كان يتكلم بكل أعجوبة في الكهانة. ثمار القلوب للثعالبي ص١٢٥ - ١٢٦، وجمهرة أنساب العرب ص٣٧٤ - ٣٧٥.

(٤) أخرجه ابن السكن كما في الإصابة ١٠/٣٠٦ بلفظ: رأيت ورقة على نهر من أنهار الجنة، وأخرج أبو يعلى ٤/٤١ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ عن أبي طالب: هل تنفعه نبوتك؟ قال: نعم...، وفيه: وسئل عن خديجة - لأنها ماتت قبل الفرائض وأحكام القرآن - فقال: أبصرتها على نهر من أنهار الجنة... وسئل عن ورقة بن نوفل قال: أبصرته في بُطنان الجنة عليه سندس.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٤١٦: رواه أبو يعلى، وفيه مجالد، وهذا مما مدح من حديث مجالد، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ والبُطنان: الوسط. النهاية (بطن).

(٥) ٢/٤٣٥ - ٤٣٧ و٦/٣٢٥ - ٣٢٦.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ نظيره: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقد تقدَّم، فلينظر هناك[١]. وقال مجاهدٌ: تبياناً للحلالِ والحرام[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ رُويَ عن عثمانَ بنِ مَظْعُون أنه قال: لما نَزلت هذه الآيةُ؛ قرأتُها على عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ، فتعجَّب، فقال: يا آلَ غالب، اتَّبِعوه تُفلحوا، فواللهِ إنَّ اللهَ أرسلَه ليأمرَكم بمكارم الأخلاقِ[٣]. وفي حديث: إنَّ أبا طالب لما قيل له: إنَّ ابنَ أخيكَ زعمَ أنَّ اللهَ أنزل عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، قال: اتَّبِعوا ابنَ أخي، فواللهِ إنَّه لا يأمرُ إلا بمحاسنِ الأخلاق. وقال عكرمةُ: قَرأَ النبيُّ ﷺ على الوليدِ بنِ المغيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى آخرها، فقال: يا ابنَ أخي أعِدْ! فأعاد عليه، فقال: والله إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لَطلاوةً، وإنَّ أصله لمُورِقٌ، وأعلاه لمثمرٌ، وما هو بقولِ بشر[٤]!.

وذكر الغَزْنَويُّ أنَّ عثمانَ بنَ مظعونٍ هو القارئُ. قال عثمانُ: ما أسلمتُ ابتداءً إلَّا حياءً مِن رسول الله ﷺ حتى نَزلت هذه الآيةُ وأنا عنده، فاستقرَّ الإيمانُ في قلبي، فقرأتُها على الوليدِ بنِ المغيرة فقال: يا ابنَ أخي أعِدْ! فأَعَدْتُ، فقال: واللهِ إنَّ له لحلاوةً، ... وذكر تمامَ الخبر[٥].

---

(١) ٨/ ٣٧١.

(٢) أخرجه عنه الطبري ١٤/ ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٧، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٠٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٨٢، والرازي ٢٠/ ١٠١.

(٥) أخرجه السمرقندي في التفسير ٢/ ٢٤٧، وينظر تفسير الرازي ٢٠/ ١٠٠.

وقال ابنُ مسعود: هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتَثل، ولشرٍّ يُجتَنب[١]. وحكى النقَّاشُ قال: يُقال: زكاةُ العدلِ: الإحسانُ، وزكاةُ القُدْرة: العفو، وزكاةُ الغنى: المعروفُ، وزكاةُ الجاهِ: كَتْبُ الرَّجُلِ إلى إخوانه[٢].

الثانية: اختلف العلماءُ في تأويلِ العدلِ والإحسانِ، فقال ابنُ عباس: العدلُ: لا إله إلا الله، والإحسانُ: أداءُ الفرائض. وقيل: العدلُ: الفرضُ، والإحسانُ: النافلةُ. وقال سفيانُ بنُ عُيينة: العدلُ هاهنا: استواءُ السريرة، والإحسانُ: أن تكون السريرةُ أفضلَ مِن العلانية[٣]. عليُّ بن أبي طالب: العدلُ: الإنصافُ، والإحسانُ: التفضُّلُ.

قال ابنُ عطيةَ[٤]: العدلُ: هو كلُّ مفروض من عقائدَ وشرائعَ؛ في أداء الأمانات، وتَرْكِ الظلم، والإنصافِ، وإعطاءِ الحقِّ. والإحسانُ: هو فعلُ كلِّ مندوبٍ إليه، فمن الأشياء ما هو كلُّه مندوبٌ إليه، ومنها ما هو فرضٌ، إلا أنَّ حَدَّ الإجزاءِ منه داخلٌ في العدل، والتكميلُ الزائدُ على الإجزاء داخلٌ في الإحسان. وأما قولُ ابنِ عباس ففيه نظر؛ لأنَّ أداءَ الفرائضِ هي الإسلامُ حسبما فسَّره رسولُ الله ﷺ في حديث سؤال جبريلَ، وذلك هو العدلُ، وإنَّما الإحسانُ التكميلاتُ والمندوبُ إليه حسبما يقتضيه تفسيرُ النبيِّ ﷺ في حديث سؤالِ جبريل بقوله: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنّه يَراك». فإنْ صحَّ هذا عن ابنِ عباس فإنَّما أراد الفرائضَ مكملة.

وقال ابنُ العربي[٥]: العدلُ بين العبد وبين ربِّه إيثارُ حقِّه تعالى على حظِّ نفسِه،

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٣٧ ، وهو عند البخاري في الأدب المفرد (٤٨٩) بنحوه، وينظر الوسيط ٣/ ٧٩ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٠٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٥ - ٣٣٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٠٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٨٣ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٠١ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١١٦٠ .

وتقديمُ رضاه على هواه، والاجتنابُ للزواجر، والامتثالُ للأوامر. وأما العدلُ بينه وبين نفسِه فَمنعُها مما فيه هلاكُها؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] وعُزوبُ الأطماع عن الاتباع، ولزومُ القناعةِ في كلِّ حالٍ ومعنًى. وأما العدل بينه وبين الخَلْق؛ فبذلُ النصيحة، وتَرْكُ الخيانة فيما قَلَّ وكَثُر، والإنصافُ مِن نفسِك لهم بكلِّ وجه، ولا يكون منك إساءةٌ إلى أحدٍ بقولٍ ولا فعل، لا في سِرٍّ ولا في عَلَنٍ، والصبرُ على ما يُصيبك منهم مِن البلوى، وأقلُّ ذلك الإنصافُ وتَرْكُ الأذى.

قلت: هذا التفصيل في العدل حَسَنٌ وعدلٌ. وأما الإحسانُ فقد قال علماؤنا: الإحسانُ مصدرُ أحسنَ يُحْسِن إحساناً. ويقال على معنيين:

أحدهما متعدٍّ بنفسِه؛ كقولك: أحسنتُ كذا، أي: حسَّنته وكمَّلته، وهو منقولٌ بالهمزة، مِن حَسُنَ الشيءُ.

وثانيهما: متعدٍّ بحرفِ جرٍّ، كقولك: أحسنتُ إلى فلان، أي: أوصلتُ إليه ما يَنتفِعُ به[(١)].

قلت: وهو في هذه الآيةِ مرادٌ بالمعنيين معاً، فإنَّه تعالى يُحِبُّ مِن خَلْقه إحسانَ بعضِهم إلى بعض، حتى إن الطائرَ في سجنك، والسِّنَّوْر في دارك، لا ينبغي أن تَقْصُر تعهُّده بإحسانك؛ وهو تعالى غنيٌّ عن إحسانهم، ومنه الإحسانُ والنِّعَم والفَضْل والمِنَن[(٢)]. وهو في حديث جبريلَ بالمعنى الأوّل لا بالثاني؛ فإنَّ المعنى الأوَّل راجعٌ إلى إتقان العبادةِ ومراعاتها؛ بآدابِها المصحِّحة والمكمِّلة، ومراقبة الحقِّ فيها، واستحضارِ عظمتِه وجلالِه حالةَ الشُّروع وحالةَ الاستمرار. وهو المراد بقوله: «أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تَرَاه، فإنَّه يَرَاك»[(٣)].

---

(١) المفهم ١/١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٦٠ - ١١٦١ .

(٣) المفهم ١/١٤٣ .

وأربابُ القلوبِ في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالبٌ عليه مشاهدةُ الحقِّ، فكأنَّه يراه، ولعلَّ النبيَّ ﷺ أشار إلى هذه الحالةِ بقوله: «وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة»[١]. وثانيهما: لا ينتهي إلى هذا، لكن يَغلِبُ عليه أنَّ الحقَّ سبحانه مُطَّلِع عليه ومشاهدٌ له، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، وقولِه: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١][٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابة؛ يقول: يُعطيهم المالَ، كما قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] يعني: صِلَته. وهذا من بابِ عطفِ المندوبِ على الواجب، وبه استدلَّ الشافعيُّ في إيجاب إيتاءِ المُكاتَب؛ على ما يأتي بيانه.

وإنما خَصَّ ذا القُربى؛ لأنَّ حقوقَهم أوْكَدُ، وصلتَهم أوجبُ؛ لتأكيدِ حقِّ الرَّحِم التي اشتقَّ اللهُ اسمَها مِن اسمِه، وجَعَل صِلَتَها مِن صِلَتِه. فقال في «الصحيح»: «أما تَرْضَيْنَ أنْ أصِل مَن وَصَلك، وأقطعَ مَن قَطَعك»[٣]. ولا سِيَّما إذا كانوا فقراءَ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ الفحشاءُ: الفُحْشُ، وهو كلُّ قبيحٍ مِن قولٍ أو فعل. ابنُ عباس: هو الزنى. والمنكَر: ما أنكره الشرعُ بالنهي عنه، وهو يعمُّ جميعَ المعاصي والرذائلِ والدناءاتِ على اختلافِ أنواعها. وقيل: هو الشِّرْك. والبَغْيُ: هو الكِبْر والظُّلْم والحِقْد والتَّعدِّي؛ وحقيقتُه: تجاوز الحدِّ، وهو داخلٌ تحت المنكَر، لكنه تعالى خصَّه بالذِّكْر؛ اهتماماً به؛ لشدَّة ضَرَره[٤].

---

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٦١ - ٦٢ من حديث أنس ﷺ.

(٢) المفهم ١/ ١٤٣ .

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٣٠)، ومسلم (٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤١٦ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦١ ، وأثر ابن عباس أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٣٦ .

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «لا ذَنْبَ أسرعُ عقوبةً مِن بَغْيٍ»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الباغي مصروعٌ»[٢]. وقد وَعد اللهُ مَن بُغِيَ عليه بالنَّصْر. وفي بعضِ الكتب المنزَّلة: لو بَغَى جبلٌ على جبلٍ، لجُعل الباغي منهما دَكًّا[٣].

الخامسة: ترجم الإمامُ أبو عبد الله محمَّد بنُ إسماعيلَ البخاريُّ في «صحيحه» فقال: باب قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، وتركِ إثارة الشَّرِّ على مسلم أو كافر. ثم ذكر حديثَ عائشةَ في سِحْر لَبِيد بنِ الأعْصَم النبيَّ ﷺ[٤]. قال ابنُ بطَّال[٥]: فتأوَّل ﷺ مِن هذه الآياتِ تَرْكَ إثارةِ الشَّرِّ على مسلم أو كافر؛ كما دلَّ عليه حديثُ عائشةَ حيث قال عليه الصلاة والسلام: «أمّا اللهُ فقد شفاني، وأما أنا فأكره أنْ أُثِير على الناس شرًّا»[٦]. ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّه تأوَّل في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الندبَ بالإحسانِ إلى المُسِيْء، وتَرْكَ معاقبتِه على إساءتِه.

فإن قيل: كيف يصحُّ هذا التأويلُ في آيات البغي؟

قيل: وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّه لمَّا أعلم اللهُ عبادَه بأنَّ ضَرَر البغي ينصرفُ

---

(١) هكذا أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٤١٦، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٢١٥) عن علي ﷺ بنحوه. وفي الباب عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ما من ذنب أحرى أن يعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا ـ مع ما يدخر له في الآخرة ـ من قطيعة الرحم والبغي. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (١٥١٣)، وابن ماجه (٤٢١١).

(٢) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٤١٦.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٨٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/٣٢٢ موقوفاً على ابن عباس، وأخرجه وكيع في الزهد (٤٢٦)، وهناد في الزهد (١٣٩٥) عن مجاهد مرسلاً. قال ابن أبي حاتم في علل الحديث ٢/٢٣٤: والموقوف أصح. اهـ. والكلام من المحرر الوجيز ٣/٤١٦.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٦٨) و(٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩)، وسلف ٢/٢٧٦.

(٥) في شرحه لصحيح البخاري ٩/٢٥٧.

(٦) هو الحديث السالف الذكر.

على الباغي بقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، وضَمِن تعالى نُصرةَ من بُغِيَ عليه، كان الأولى بمَن بُغِيَ عليه شُكْر اللهِ على ما ضَمِنَ مِن نصرهِ، ومقابلة ذلك بالعفو عمن بَغَى عليه؛ وكذلك فعَل النبيُّ ﷺ باليهودي الذي سحَره، وقد كان له الانتقامُ منه بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦]. ولكن آثَرَ الصفحَ؛ أخذاً بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣].

السادسة: تضمَّنت هذه الآيةُ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر، وقد تقدَّم القولُ فيهما[١]. رُويَ أنَّ جماعةً رَفعت عاملَها إلى أبي جعفرٍ المنصور العباسي، فحاجَّها العاملُ وغَلَبها، بأنَّهم لم يُثبتوا عليه كبيرَ ظُلْم ولا جَوْرَه في شيء؛ فقام فتًى مِن القوم فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدَل ولم يُحسِن. قال: فعجِب أبو جعفرٍ من إصابتِه، وعزَل العاملَ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ لفظٌ عامٌّ لجميع ما يُعقَد باللسان ويلتزمه الإنسانُ مِن بيعٍ، أو صِلَة، أو مواثقة في أمر موافقٍ للديانة. وهذه الآيةُ مضمَّن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ لأنَّ المعنى فيها: افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعُطف على ذلك التقدير.

وقد قيل: إنَّها نزلت في بَيعة النبيِّ ﷺ على الإسلام. وقيل: نزلت في التزامِ الحِلْفِ الذي كان في الجاهلية، وجاء الإسلامُ بالوفاء به؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ وابنُ زيد[٣]. والعمومُ يتناول كلَّ ذلك كما بيَّنّاه.

---

(١) ٥/ ٧٣ - ٧٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٧ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٣٨ - ٣٣٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٢١٠ .

روى «الصحيحُ» عن جُبَيْرِ بنِ مُطْعِم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلام، وأيُّما حِلْفٍ كان في الجاهلية لم يزدْه الإسلامُ إلا شدَّةً»[١] يعني في نُصرة الحقِّ والقيامِ به والمواساة.

وهذا كنحو حِلْف الفُضُول الذي ذكَره ابنُ إسحاق[٢]، قال: اجتمعت قبائلُ مِن قريشٍ في دار عبدِ اللهِ بنِ جُدْعان؛ لشَرَفه ونسبِه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألَّا يجدوا بمكَّة مظلوماً مِن أهلِها أو غيرِهم إلا قاموا معه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلِمتُه؛ فسمَّت قريشٌ ذلك الحِلْفَ حِلْفَ الفُضول. أي: حِلْف الفضائل .والفضولُ هنا: جَمْعُ فَضْل[٣]، للكثرة، كفَلْس وفُلُوس. روى ابنُ إسحاق، عن ابنِ شهاب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد شَهِدْتُ فِي دارِ عبدِ الله بنِ جُدْعان حِلْفاً ما أُحِبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعَم، لو أُدعى به في الإسلام لأجبتُ»[٤].

وقال ابنُ إسحاق[٥]: تحامَل الوليدُ بنُ عُتبة على حسينِ بنِ عليٍّ في مال له، لسلطانِ الوليد فإنه كان أميراً على المدينة، فقال له حسينُ بنُ عليٍّ: أَحْلِفُ بالله لتُنْصِفَنِّي مِن حقِّي، أو لآخذنَّ سيفي، ثم لأقومنَّ في مسجدِ رسول الله ﷺ، ثمَّ لأدعونَّ بِحلْف الفُضول. قال عبدُ اللهِ بنُ الزبير: وأنا أَحْلِفُ واللهِ لئن دعانا لآخُذَنَّ سيفي، ثم لأقومنَّ معه حتى ينتصفَ مِن حقِّه، أو نموتَ جميعاً. وبَلغتِ المِسْوَرَ بنَ مَخْرمة، فقال مثلَ ذلك. وبَلغت عبدَ الرحمن بنَ عثمان بنِ عبيد الله التيمي، فقال مثلَ ذلك. فلما بلغَ ذلك الوليدَ أنصفه.

قال العلماءُ: فهذا الحِلْفُ الذي كان في الجاهلية هو الذي شدَّه الإسلام، وخصَّه

---

(١) سلف ٧/ ٢٤٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣) سلف ٧/ ٢٤٨ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٤ ، وسلف ٧/ ٢٤٧ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٥ .

النبيُّ عليه الصلاة والسلام مِن عموم قوله: «لا حِلْفَ في الإسلام». والحكمة في ذلك أنَّ الشرعَ جاء بالانتصار مِن الظالم، وأَخْذِ الحقِّ منه، وإيصالِه إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عامًّا على مَن قَدر مِن المكلَّفين، وجعل لهم السبيلَ على الظالمين، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢]. وفي «الصحيح»: «اُنْصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسولَ الله، هذا نَنصُرُه مظلوماً، فكيف ننصرُه ظالماً؟ قال: «تَأْخُذ على يدَيْه» ـ في رواية: «تمنعُه مِن الظلم» ـ «فإنَّ ذلك نَصْرُه»[1]. وقد تقدَّم قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ ولم يأخذوا على يدَيْه، أوشكَ أنْ يَعُمَّهم اللهُ بعقابٍ مِن عندِه»[2].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقول: بعد تشديدِها وتغليظِها[3]، يقال: توكيد وتأكيد، ووَكَّد وأكَّد، وهما لغتان[4].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ يعني: شهيداً. ويقال: حافظاً، ويقال: ضامناً. وإنما قال: «بَعْدَ تَوْكِيدِها» فَرْقاً بين اليمين المؤكَّدة بالعَزْم، وبين لَغْوِ اليمين.

وقال ابنُ وهب وابنُ القاسم عن مالك: التوكيدُ هو حَلِفُ الإنسانِ في الشيء الواحدِ مراراً، يُردِّد فيه الأيمانَ ثلاثاً أو أكثرَ مِن ذلك، كقوله: واللهِ لا أنقصُه مِن كذا، واللهِ لا أنقصه مِن كذا، واللهِ لا أنقصه مِن كذا. قال: فكفَّارة ذلك واحدةٌ مثل كفَّارة اليمين.

وقال يحيى بنُ سعيد: هي العهودُ، والعهدُ يمينٌ، ولكنَّ الفرقَ بينهما أنَّ العهدَ لا

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٣) وسلف ٣/ ٢٤٩ .
(٢) سلف ٣/ ٣٨٦ .
(٣) عزاه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٤٠ إلى قتادة.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٧ .

يُكفَّر. قال النبيُّ ﷺ: «يُنْصَبُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة عند استه بقَدْرِ غَدْرته، يقال: هذه غدرةُ فلانٍ»[١]. وأما اليمينُ باللهِ فقد شرَع اللهُ سبحانه فيها الكفَّارةَ بخصلةٍ واحدة، وحلِّ ما انعقدت عليه اليمينُ. وقال ابنُ عمر: التوكيدُ هو أن يَحْلِفَ مرَّتين، فإن حلَف واحدةً، فلا كفَّارةَ فيه. وقد تقدَّم في المائدة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ النَّقْضُ والنَّكْثُ واحدٌ، والاسمُ النِّكْثُ والنِّقْض، والجمع الأنكاث. فشبَّهت هذه الآيةُ الذي يَحلِف ويُعاهِد ويُبرِم عهدَه ثم يَنقُضه، بالمرأةِ تَغزل غَزْلها وتفتِله مُحْكَماً ثم تَحُلُّه[٣].

ويُروى أنَّ امرأةً حمقاءَ كانت بمكَّة تُسمَّى رَيْطةَ بنتَ عمرو بنِ كعبِ بنِ سعدِ بنِ تيمِ بنِ مُرَّة كانت تفعلُ ذلك، فبها وقَع التشبيهُ، قاله الفرَّاء[٤]، وحكاه عبدُ الله بنُ كثير، والسُّدِّيّ، ولم يسمِّيا المرأةَ. وقال مجاهد وقتادة: وذلك ضَرْبُ مَثَلٍ، لا على امرأةٍ معيَّنة[٥].

و«أنكاثاً» نصبٌ على الحال[٦]. والدَّخَل: الدَّغَل والخديعةُ والغِشُّ. قال أبو عبيدة[٧]: كلُّ أمرٍ لم يكن صحيحاً، فهو دَخَل[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٥٣٦، وسلف ٥/ ٣٩٠.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٢، وينظر ما سلف ٨/ ١٢١ وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٧.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١١٢ - ١١٣.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٧ - ٤١٨، وأخرج أثر مجاهد وقتادة الطبري في التفسير ١٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٨.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٣، والنكت والعيون ٣/ ٢١١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٨، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٧١.

(٨) في مجاز القرآن ١/ ٣٦٧.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال المفسِّرون: نزلت هذه الآيةُ في العرب الذين كانت القبيلةُ منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحدَاهما قبيلةٌ كثيرةٌ قويَّة فداخلَتْها، غَدرت الأُولى، ونَقَضت عهدَها، ورجعت إلى هذه الكبرى - قاله مجاهد - فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهودَ مِن أجل أنَّ طائفةً أكثرُ مِن طائفةٍ أُخرى، أو أكثرُ أموالاً، فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرةَ والسَّعة في الدنيا لأعدائكم المشركين[(١)].

والمقصود النَّهْيُ عن العَوْد إلى الكفر بسببِ كثرة الكفَّار وكثرةِ أموالهم. وقال الفرَّاء: المعنى: لا تغدِروا بقومٍ لِقلَّتهم وكثرتِكم، أو لقلَّتكم وكثرتِهم، وقد غرَّرتموهم بالأيمان[(٢)].

﴿أَرْبَىٰ﴾ أي: أكثر؛ مِن رَبَا الشيء يَرْبُو: إذا كَثُرَ[(٣)].

والضمير في «به» يحتمل أن يعودَ على الوفاءِ الذي أَمَرَ اللهُ به، ويحتمل أن يعودَ على الرِّباء، أي: إنَّ اللهَ تعالى ابتلى عبادَه بالتحاسد، وطلبِ بعضِهم الظهورَ على بعض، واختبرهم بذلك ليرى مَن يجاهد نفسَه فيخالفها، ممَّن يَتَّبعها ويَعملُ بمقتضى هواها[(٤)]، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن البعثِ وغيرِه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على ملَّة واحدة.

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٨، وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٤٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٣، ووقع في (د) و(ظ): عزرتموهم، وفي (م): عززتموهم، والمثبت من (ز)، ومصدر النقل.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٠٧.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤١٨.

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بخذلانِه إيَّاهم؛ عَدْلاً منه فيهم. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقِه إيَّاهم؛ فضلاً منه عليهم[1]، ولا يُسأل عما يَفعل، بل تُسألون أنتم. والآية تردُّ على أهل القَدَر كما تقدم. واللام في «وليبيننَّ» و«لتسألنَّ» مع النون المشدَّدة يدلَّان على قَسَم مضمر، أي: واللهِ لَيُبيِّننَّ لكم ولتُسْألنَّ[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ كرَّر ذلك تأكيداً. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ مبالغة في النهي عنه لِعظَم موقعِه في الدِّين، وتردُّده في معاشرات الناس، أي: لا تعقِدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفسادِ؛ فتزِلَ قَدَمٌ بعد ثبوتِها، أي: عن الإيمان بعد المعرفة باللهِ. وهذه استعارةٌ للمستقيم الحالِ يقع في شرٍّ عظيم ويَسقط فيه؛ لأنَّ القَدَم إذا زلَّت نقلت الإنسانَ من حالِ خيرٍ إلى حال شرٍّ، ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر:

فلما توافينا ثَبَتُّ وزَلَّتِ[3]

والعرب تقول لكلِّ مبتلًى بعد عافية، أو ساقطٍ في وَرْطة: زلَّت قَدَمُه[4]؛ كقول الشاعر:

سَيُمنَعُ منكَ السبقُ إن كنتَ سابقاً ... وتُقتَلُ إن زلَّت بكَ القَدَمانِ[5]

ويقال لمن أخطأ في شيء: زلَّ فيه.

---

(1) تفسير البغوي ٣/ ٨٣.

(2) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٨، والوسيط ٣/ ٨٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٤١٨.

(3) ديوان كثير ص٧٩، وصدره: وكنَّا سلكنا في صَعود من الهوى، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩.

(4) مجاز القرآن ١/ ٣٦٧.

(5) البيت لبشر بن أبيٍّ بن حمام العبسي، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٤٥٣.

ثم توعَّد تعالى بعدُ بعذاب في الدنيا وعذابٍ عظيم في الآخرة[١]. وهذا الوعيدُ إنَّما هو فيمن نقَض عهدَ رسولِ الله ﷺ، فإنَّ مَن عاهدَه ثم نقَض عهدَه؛ خرج عن الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: بصدِّكم. وذَوْقُ السُّوء في الدنيا هو ما يَحُلُّ بهم مِن المكروه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ نهيٌ عن الرُّشَا وأَخذِ الأموال على نَقْضِ العهد، أي: لا تَنقضوا عهودَكم لعَرَض قليل من الدنيا. وإنما كان قليلاً ـ وإن كَثُرَ ـ لأنه ممَّا يَزولُ، فهو على التحقيق قليلٌ، وهو المراد بقوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ فبيَّن الفَرْقَ بين حالِ الدنيا وحالِ الآخرة؛ بأنَّ هذه تنفَد وتَحولُ، وما عندَ الله مِن مواهبِ فَضْله ونعيمِ جنَّته ثابتٌ لا يزول لمن وَفَّى بالعهدِ، وثَبَتَ على العقد[٣]. ولقد أحسنَ من قال:

المالُ ينفَدُ حِلُّه وحرامُه ... يوماً وتبقى في غدٍ آثامُهُ
ليس التَّقِيُّ بمتَّقٍ لإلهه ... حتى يطيبَ شرابُه وطعامُهُ[٤]

آخر:

هَبِ الدنيا تُساقُ إليكَ عفْواً ... أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى انتقالِ
وما دنياكَ إلا مِثْلُ فَيْءٍ ... أظلَّك ثم آذنَ بالزوالِ[٥]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٤١٩.
(٢) ينظر زاد المسير ٤/٤٨٧.
(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/٤١٩.
(٤) البيتان في بهجة المجالس ٣/ ٨٠، ووفيات الأعيان ٦/١٤١.
(٥) البيتان لأبي العتاهية، وهما في ديوانه ص٢٩٧.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ أي: على الإسلام والطاعاتِ وعن المعاصي. ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: من الطاعاتِ، وجعلها أحسنَ؛ لأنَّ ما عداها من الحسَن مباحٌ، والجزاءُ إنَّما يكون على الطاعاتِ من حيث الوعدُ مِن الله.

وقرأ عاصمٌ وابنُ كثير: «ولنجزِيَنَّ» بالنون؛ على التعظيم. الباقون: بالياء[١].

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ: «ولا تشتروا» إلى هنا، نزلت في امرئ القيسِ بنِ عابسٍ الكنديِّ وخصمِه ابن أَسْوع، اختصما في أرضٍ فأراد امرؤ القيسِ أن يَحْلِفَ، فلما سمعَ هذه الآيةَ، نَكَلَ وأقرَّ له بحقِّه، والله أعلم[٢].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ شرطٌ وجوابُه. وفي الحياة الطيبة خمسةُ أقوال:

الأول: أنه الرزقُ الحلالُ؛ قاله ابن عباس، وسعيد بنُ جُبير، وعطاء، والضحَّاك[٣].

الثاني: القناعةُ؛ قاله الحسن البصري، وزيد بنُ وهب، ووَهْبُ بنُ منبِّه. ورواه الحَكَم، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ، وهو قولُ عليِّ بن أبي طالب ﷺ[٤].

---

(١) السبعة ص٣٧٥، والتيسير ص١٣٨. ولابن ذكوان الوجهان.

(٢) هكذا أورده السمرقندي في التفسير ٢/٢٤٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/٤٨٧ - ٤٨٨ في سبب نزول هذه الآية، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٤٧ في سورة البقرة، في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية ١٨٨، والخبر عند مسلم (١٣٩) من حديث وائل بن حجر ﷺ، وفيه أن الخصم اسمه ربيعة بن عبدان.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٠ - ٣٥٢ عن ابن عباس والضحاك، وأورده البغوي في التفسير ٣/ ٨٣ عن سعيد بن جبير وعطاء.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/٣٥٢ عن الحسن البصري وعلي بن أبي طالب، وأورده ابن الجوزي =

الثالث: توفيقُه إلى الطاعات، فإنَّها تؤدِّيه إلى رضوانِ الله؛ قال معناه الضحَّاك[1]. وقال أيضاً: من عمل صالحاً وهو مؤمنٌ في فاقةٍ ومَيْسرة، فحياتُه طيِّبة، ومن أعرضَ عن ذِكْر اللهِ ولم يُؤمِن بربِّه، ولا عَمِلَ صالحاً، فمعيشتُه ضَنْكٌ لا خيرَ فيها[2]. وقال مجاهد وقَتادةُ وابنُ زيد: هي الجنَّة، وقاله الحسن[3]، وقال: لا تطيبُ الحياةُ لأحدٍ إلا في الجنَّة[4]. وقيل: هي السعادة، روي عن ابنِ عباس أيضاً[5]. وقال أبو بكر الورَّاق: هي حلاوةُ الطاعة[6].

وقال سهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَرِيُّ: هي أن ينزعَ عن العبدِ تدبيرَه، ويردَّ تدبيرَه إلى الحقِّ. وقال جعفرٌ الصادقُ: هي المعرفةُ بالله، وصِدْقُ المَقام بين يدي الله. وقيل: الاستغناءُ عن الخَلْق، والافتقارُ إلى الحقِّ. وقيل: الرِّضا بالقضاء[7].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ أي: في الآخرة. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وقال: «فلنحيينَّه»، ثم قال: «ولنجزينَّهم»؛ لأنَّ «مَن» يصلح للواحد والجمْع[8]، فأعاد مرَّة على اللفظ، ومرَّة على المعنى؛ وقد تقدَّم. وقال أبو صالح: جلس ناسٌ مِن أهلِ التوراة، وناسٌ مِن أهل الإنجيل، وناسٌ مِن أهل الأوثان، فقال هؤلاء: نحن أفضلُ، وقال هؤلاء: نحن أفضلُ؛ فنزلت[9].

= في زاد المسير ٤/ ٤٨٨ - ٤٨٩ عن الحسن ووهب بن منبّه، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ١٠٤ عن ابن عباس.

(١) النكت والعيون ٣/ ٢١٢، وزاد المسير ٤/ ٤٨٩.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٢.

(٣) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٣ - ٣٥٤، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢١٢ عن مجاهد وقتادة.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٨٢.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٣، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢١٢.

(٦) زاد المسير ٤/ ٤٨٩.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢١٢.

(٨) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٦٨.

(٩) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٦ - ٣٥٧، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤١٩.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾

فيه مسألةٌ واحدةٌ: وهي أنَّ هذه الآيةَ متَّصِلةٌ بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْيَاناً لِكلِّ شَيْءٍ﴾. فإذا أخذْتَ في قراءتِه، فاستعذ بالله مِن أن يَعْرِضَ لك الشيطانُ؛ فيصدَّك عن تدبُّره والعملِ بما فيه. وليس يريد استعذ بعد القراءة؛ بل هو كقولك: إذا أكلتَ فقُل: بسم الله، أي إذا أردتَ أن تأكُل[1].

وقد روى [ابن] جُبير بنُ مُطعِم عن أبيه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ حين افتتح الصلاةَ قال: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ مِن الشيطانِ مِن هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه»[2]. وروى أبو سعيد الخُدْريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتعوَّذ في صلاته قبل القراءة[3].

قال الكِيَا الطبري: ونُقل عن بعضِ السلَف التعوُّذ بعد القراءةِ مطلقاً، احتجاجاً بقوله: تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ولا شكَّ أنَّ ظاهرَ ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذةُ بعد القراءةِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النساء: ١٠٣]. إلا أنَّ غيرَه محتمِلٌ، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]؛ وليس المرادُ به أن يسألَها مِن وراءِ حجاب بعد سؤالٍ متقدِّم. ومثلُه قولُ القائل: إذا قلتَ فاصْدُق، وإذا أحرمتَ فاغتسِل؛ يعني: قبل الإحرام. والمعنى في جميع ذلك: إذا أردتَ ذلك؛ فكذلك الاستعاذةُ[4]. وقد تقدَّم هذا المعنى، وتقدَّم القولُ في الاستعاذة مستوفًى[5].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٨ .

(٢) سنن أبي داود (٧٦٤) وما بين حاصرتين منه، وسلف ١/ ١٣٦ .

(٣) سنن أبي داود (٧٧٥)، وسلف ١/ ١٣٦ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٥) ١/ ١٣٥ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بالإغواء والكُفر، أي: ليس لك قدرةٌ على أن تَحملهم على ذنبٍ لا يُغفَر؛ قاله سفيان. وقال مجاهد: لا حجَّةَ له على ما يَدعوهم إليه مِن المعاصي. وقيل: إنَّه ليس له عليهم سلطانٌ بحال؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَفَ سلطانَه عليهم حين قال عَدُوُّ اللهِ إبليسُ لعنه اللهُ: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[1] [الحجر:٤٢].

قلت: قد بَيَّنَّا أنَّ هذا عامٌّ يَدخلُه التخصيصُ، وقد أغوى آدمَ وحوَّاءَ عليهما السلام بسلطانِه، وقد شَوَّش على الفضلاءِ أوقاتَهم بقوله: «مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟» حسبما تقدَّم في آخر الأعراف بيانه[2].

﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ أي: يطيعونه. يقال: تولَّيتُه، أي: أطعتُه، وتولَّيتُ عنه، أي: أعرَضْتُ عنه[3].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ أي: بالله؛ قاله مجاهد والضحَّاك[4]. وقيل: يرجع «به» إلى الشيطان؛ قاله الربيعُ بنُ أنس[5] والقُتَبيُّ[6]. والمعنى: والذين هم من أجلِه مشركون. يقال: كفرتُ بهذه الكلمة، أي: مِن أجلِها. وصار فلانُ بك عالماً، أي:

(١) النكت والعيون ٣/ ٢١٣ ، وأثر سفيان أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل (٢٥)، والطبري في التفسير ١٤/ ٣٥٨ - ٣٥٩ . وأثر مجاهد في تفسيره ١/ ٣٥٢ ، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ٣٥٨ بنحوه، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٩٠ .

(٢) ٩/ ٤٢٣ ، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١١٥ .

(٤) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٠ - ٣٦١ ، وينظر تفسير مجاهد ٤/ ٣٥١ .

(٥) أخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦١ .

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٨ - ٢٤٩ .

مِن أجلِك. أي: والذي تولَّى الشيطانَ مشركونَ بالله[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قيل: المعنى: بدَّلنا شريعةً متقدِّمة بشريعةٍ مستأنفَة؛ قاله ابنُ بحر[٢]. مجاهد: أي: رفعنا آيةً وجعلنا موضعَها غيرَها[٣]. وقال الجمهورُ: نَسَخنا آيةً بآيةٍ أشدَّ منها عليهم[٤]. والنسخُ والتبديلُ: رَفْعُ الشيء مع وَضْعِ غيرِه مكانه. وقد تقدَّم الكلامُ في النَّسْخِ في البقرةِ مستوفًى[٥].

﴿قَالُوٓاْ﴾ يريد كفَّار قريش. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: كاذبٌ مختلِق؛ وذلك لما رَأَوا مِن تبديلِ الحُكْم. فقال الله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ اللهَ شَرَعَ الأحكامَ وتبديلَ البعضِ بالبعض.

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: جبريلَ، نزلَ بالقرآنِ كلِّه ناسخِه ومنسوخِه[٦]. ورُوِيَ بإسنادٍ صحيحٍ عن عامر الشَّعْبيِّ قال: وُكِّل إسرافيلُ بمحمَّد ﷺ ثلاثَ سنينَ، فكان يأتيهِ بالكلمة والكلمة، ثم نزَل عليه جبريلُ بالقرآن[٧]. وفي «صحيح مسلم» أيضاً أنه نزَل عليه بسورة الحمد مَلَكٌ لم يَنزِل إلى الأرضِ قَطُّ. كما

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٩١ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢١٤ .

(٣) تفسير مجاهد ١/ ٣٥٢ ، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٣ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢١٤ ، دون قوله: أشدّ منها عليهم.

(٥) ٢/ ٣٠٠ وما بعدها.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢١ .

(٧) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ١٣٢ ، وابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٧٠ - ٧١ .

تقدَّم في الفاتحة بيانه[١].

﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: مِن كلامِ ربِّك. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بما فيه مِن الحُججِ والآيات. ﴿وَهُدًى﴾ أي: وهو هدًى ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ اختُلف في اسم هذا الذي قالوا إنَّما يعلِّمه؛ فقيل: هو غلامُ الفاكهِ بنِ المغيرة، واسمه جَبْر، كان نصرانيًّا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيِّ ﷺ ما مضى وما هو آتٍ ـ مع أنَّه أمِّيٌّ لم يَقرأ ـ قالوا: إنَّما يُعلِّمه جَبْر وهو أعجميٌّ؛ فقال الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: كيف يعلِّمه جَبْر ـ وهو أعجميٌّ ـ هذا الكلام الذي لا يَستطيعُ الإنسُ والجنُّ أن يُعارِضوا منه سورةً واحدةً فما فوقَها. وذكر النقَّاشُ أنَّ مولى جَبْر كان يَضْرِبه ويقول له: أنت تعلِّم محمداً، فيقول: لا واللهِ، بل هو يعلِّمني ويَهديني.

وقال ابنُ إسحاق: كان النبيُّ ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيراً ما يَجلسُ عند المَرْوَة إلى غلامٍ نصرانيٍّ يقال له: جَبْرٌ، عبدُ بني الحَضْرمي، وكان يَقرأُ الكُتُبَ، فقال المشركون: واللهِ ما يُعلِّم محمداً ما يأتي به إلا جَبْرٌ النصرانيُّ[٢].

وقال عكرمة: اسمه يَعيش، عبدٌ لبني الحَضْرمي، كان رسولُ الله ﷺ يلقِّنه القرآنَ؛ ذكره الماورديُّ[٣].

---

(١) ١/١٧٨ - ١٧٩ ، والحديث في صحيح مسلم (٨٠٦). وقد ذكر المصنف ثمة أن جبريل عليه السلام نزل بالفاتحة، بمكة، وأن المَلَك نزل بثوابها بالمدينة.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٩٣ ، وأخرجه عنه أيضاً الطبري في التفسير ١٤/٣٦٦ .

(٣) النكت والعيون ٣/٢١٤ - ٢١٥ ، وأخرجه الطبري في التفسير ١٤/٣٦٥ .

وذكر الثعلبيُّ عن عكرمةَ وقتادةَ أنَّه غلامٌ لبني المغيرةَ، اسمه يَعيش، وكان يَقرأُ الكُتُبَ الأعجميَّة، فقالت قريش: إنما يعلِّمه بشر، فنزلت(١). المهدويُّ عن عكرمةَ: هو غلامٌ لبني عامر بن لؤي، واسمه يَعيش(٢).

وقال عبدُ الله بنُ مسلم الحَضْرميُّ: كان لنا غلامان نصرانيان مِن أهل عين التمر، اسمُ أحدِهما يسار، واسمُ الآخَر جَبْر. كذا ذكر الماورديُّ والقشيريُّ والثعلبيُّ؛ إلا أنَّ الثعلبيَّ قال: يقال لأحدهما: نَبْت، ويكنى أبا فُكَيْهة، والآخَر: جبر، وكانا صَيْقَلَين يعملانِ السيوفَ؛ وكانا يقرأان كتاباً لهم. الثعلبي: يقرأانِ التوراةَ والإنجيلَ. الماورديُّ والمهدويُّ: التوراة. فكان رسولُ الله ﷺ يمرُّ بهما ويَسمع قراءتهما، وكان المشركونَ يقولون: يتعلَّم منهما. فأنزل اللهُ هذه الآيَةَ وأكذبهم(٣).

وقيل: عنَوْا سلمانَ الفارسيَّ ﷺ؛ قاله الضحَّاك(٤).

وقيل: نصرانياً بمكَّة اسمه بَلْعام، وكان غلاماً يَقرأُ التوراةَ؛ قاله ابنُ عباس. وكان المشركونَ يَرَوْنَ رسولَ الله ﷺ حين يَدخلُ عليه ويَخرج مِن عنده، فقالوا: إنَّما يُعلِّمه بَلْعام(٥).

وقال القُتَبِيّ: كان بمكَّة رجلٌ نصرانيٌّ يقال له: أبو ميسرةَ، يتكلَّم بالروميَّة، فربما قعَد إليه رسولُ الله ﷺ، فقال الكفَّار: إنَّما يَتعلَّم محمَّدٌ منه، فنزلت. وفي رواية: أنَّه عدَّاس غلامُ عتبةَ بنِ ربيعةَ(٦).

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٥ - ٣٦٦ ، وينظر الوسيط ٣/ ٨٤ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١١٧ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ١١٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٣٦٧ - ٣٦٨ ، والواحدي في أسباب النزول ص٢٨٧ - ٢٨٨ . وينظر النكت والعيون ٣/ ٢١٥ .

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٨ ، وينظر تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٠٣ ، وزاد المسير ٤/ ٤٩٣ .

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٣٦٥ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢١٤ ونسبه إلى مجاهد.

(٦) تفسير الرازي ٢٠/ ١١٧ .

وقيل: عابسٌ غلامُ حُوَيطِب بنِ عبد العُزَّى، ويسارٌ أبو فُكيهة مَولى ابنِ الحَضْرمي، وكانا قد أسلما[١]. والله أعلم.

قلت: والكلُّ مُحتمِل؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ ربَّما جلَس إليهم في أوقاتٍ مختلفة ليعلِّمهم مما علَّمه اللهُ، وكان ذلك بمكة.

وقال النحَّاسُ[٢]: وهذه الأقوالُ ليست بمتناقضةٍ لأنَّه يجوز أن يكونوا أَوْمَؤُوا إلى هؤلاءِ جميعاً، وزعموا أنهم يعلِّمونه.

قلت: وأما ما ذكره الضحَّاك من أنَّه سلمان، ففيه بُعْدٌ؛ لأنَّ سلمانَ إنَّما أتى النبيَّ ﷺ بالمدينة، وهذه الآيةُ مكيَّة[٣].

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ﴾ الإلحادُ: الميلُ؛ يقال: لحد وألحد، أي: مال عن القصد[٤]. وقد تقدَّم في الأعراف[٥].

وقرأ حمزةُ: «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء[٦]، أي: لسان الذي يميلونَ إليه ويشيرون أعجميٌّ. والعُجْمة: الإخفاءُ وضدُّ البيان. ورجلٌ أعجمُ وامرأةٌ عجماءُ، أي: لا يُفصِح، ومنه: عُجْم الذَّنَب، لاستتارِه. والعجماءُ: البهيمةُ؛ لأنَّها لا تُوضِح عن نفسها. وأعجمتُ الكتابَ، أي: أزلتُ عُجْمَتَه. والعرب تُسمِّي كلَّ مَن لا يَعرِف لغتَهم ولا يتكلَّم بكلامِهم أعجميًا. وقال الفرَّاءُ: الأعجمُ: الذي في لسانِه عُجْمةٌ وإن كان مِن العرب، والأعجميُّ أو العَجَميُّ: الذي أصلُه مِن العجم. وقال أبو علي: الأعجميُّ الذي لا يُفصِح، سواءٌ كان من العربِ أو من العَجَم، وكذلك الأعجمُ والأعجميُّ:

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٣ وللزجاج ٣/ ٢١٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٨٦ ، وزاد المسير ٤/ ٤٩٣ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ١٠٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢١ ، وزاد المسير ٤/ ٤٩٣ .

(٤) الوسيط ٣/ ٨٥ ، وينظر غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٩ .

(٥) ٩/ ٣٩٥ .

(٦) وقرأ بها أيضاً من السبعة الكسائي. السبعة لابن مجاهد ص٣٧٥ ، والتيسير ص١٣٨ .

المنسوبُ إلى العَجَم، وإن كان فصيحاً[١].

وأراد باللسانِ القرآنَ؛ لأنَّ العربَ تقول للقصيدة والبيت: لسانٌ؛ قال الشاعر:

لسانُ الشَّرِّ تُهْدِيها إلينا وخُنتَ وما حَسِبْتكَ أن تَخُونا

يعني باللسان: القصيدةَ[٢].

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: أفصحُ ما يكون من العربية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: هؤلاء المشركون الذين لا يُؤمنون بالقرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا جوابُ وَصْفِهم النبيَّ ﷺ بالافتراء. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ هذا مبالغةٌ في وَصْفِهم بالكذب؛ أي: كلُّ كذبٍ قليلٌ بالنسبة إلى كذِبهم. ويقال: كذب فلان، ولا يقال: إنه كاذبٌ؛ لأنَّ الفعل قد يكون لازماً، وقد لا يكون لازماً. فأما النعتُ فيكون لازماً، ولهذا يقال: عصى آدمُ ربَّه فغَوَى، ولا يقال: إنه عاصٍ غاوٍ. فإذا قيل: كذب فلان، فهو كاذبٌ، كان مبالغةً في الوصف بالكذب؛ قاله القشيريُّ[٣].

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/١١٨.

(٢) النكت والعيون ٣/٢١٥، والبيت في تفسير الطبري ١٤/٣٧٠، والمحرر الوجيز ٣/٤٢١.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/٤٩٤، وتفسير الرازي ٢٠/١١٩ - ١٢٠. وقال ابن الجوزيّ: أي إنَّ الكذب نعتٌ لازمٌ لهم، وعادةٌ من عاداتهم.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾

فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ هذا متصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١] فكان مبالغةً في الوصف بالكذب؛ لأنّ معناه: لا ترتدُّوا عن بيعةِ الرسولِ ﷺ، أي: مَنْ كفرَ مِن بعدِ إيمانِه وارتدَّ، فعليه غضبُ الله.

قال الكلبي: نزلتْ في عبد الله بن سعدِ بن أبي سَرْح، ومِقْيَسِ بن صُبابةَ، وعبدِ الله بن خَطَل، وقيسِ بن الوليد بن المغيرة، كفروا بعد إيمانهم. ثم قال: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾[١].

وقال الزجاج: «مَن كفر باللهِ مِن بعد إيمانِهِ» بدلٌ ممن يفتري الكذبَ، أي: إنَّما يفتري الكذبَ مَن كفَرَ بالله من بعدِ إيمانه[٢]. لأنه رأى الكلامَ إلى آخرِ الاستثناء غيرَ تامٍّ، فعلَّقه بما قبله.

وقال الأخفش: «مَن» ابتداءٌ وخبرُه محذوفٌ، اكتُفِيَ منه بخبر «مَن» الثانية، كقولك: مَن يأتِنا مَن يُحسِنْ نكرِمْه[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ هذه الآية نزلت في عَمّارِ بن ياسر، في قول أهل التفسير؛ لأنه قاربَ بعضَ ما نَدَبوه إليه؛ قال ابنُ عباس: أخذَه المشركون، وأخذوا أباه وأمَّه سُمَيَّةَ، وصُهَيباً وبلالاً وخَبّاباً وسالماً، فعذَّبوهم، ورُبطتْ سُمَيةُ بين بعيرين، ووُجِئَ قُبُلُها بحربة، وقيل لها: إنكِ أسلمْتِ من أجل الرجال، فقُتلتْ وقُتلَ

(١) النكت والعيون ٣/ ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢١٩ .

(٣) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٨ بمعناه، وذكره الطبري ١٤/ ٣٧٢ عن بعض نحويِّي الكوفة، وفيه: مَن يأتنا، فمَن يُحسِن نكرمه، بمعنى: مَن يُحسن ممَّن يأتنا نكرمه.

زوجُها ياسر، وهما أولُ قتيلين في الإسلام. وأمَّا عَمَّارٌ، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكْرَهاً، فشكا ذلك إلى رسولِ الله ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «كيف تجدُ قلبك»؟ قال: مطمئنٌّ بالإيمان. فقال رسول الله ﷺ: «فإنْ عادوا فَعُدْ»[١].

وروى منصورُ بن المُعْتَمِر، عن مجاهدٍ قال: أولُ شهيدةٍ في الإسلام أمُّ عمار، قتلَها أبو جهل[٢]. وأولُ شهيدٍ من الرجال مِهْجَعٌ مولى عمرَ[٣]. وروى منصورٌ أيضاً عن مجاهد قال: أولُ من أظهر الإسلامَ سبعةٌ: رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر، وبلالٌ، وخَبَّابٌ، وصهيب، وعَمَّار، وسُميَّة أمُّ عمار. فأمَّا رسولُ الله ﷺ فمنعَه أبو طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومُه، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراعَ الحديد، ثم صَهَروهم في الشمس حتى بلغَ منهم الجهدُ كلَّ مبلغٍ من حرِّ الحديد والشمس، فلمَّا كان من العشيِّ أتاهم أبو جهل ومعه حربةٌ، فجعل يَسُبُّهم ويوبِّخهم، وأتى سُميَّةَ فجعل يسبُّها ويَرْفُثُ، ثم طعن فَرْجَها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها رضي الله عنها. قال: وقال الآخرون ما سألوا[٤] إلا بلالاً، فإنَّه هانتْ عليه نفسُه في الله، فجعلوا يُعذبونه ويقولون له: ارجعْ عن دينك، وهو يقول: أَحَدٌ أحد، حتى ملُّوه، ثم كتَّفوه وجعلوا في عُنُقِه حبلاً من ليف، ودفعوه إلى صِبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَيْ مكةَ، حتى ملُّوه

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٢٨٨، وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٧٣ - ٣٧٤ بنحوه من طريق عطية العوفي عن ابن عباس. قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٣١٢: وفي سنده ضعف. اهـ. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٦٠، والطبري ١٤/ ٣٧٤ عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر. قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٣١٢: وهذا مرسل ورجاله ثقات، وأخرجه البيهقي [السنن الكبرى ٨/ ٢٠٨ - ٢٠٩] من هذا الوجه، فزاد في السند فقال: عن أبي عبيدة عن أبيه، وهو مرسل أيضاً. اهـ. وقال في الدراية ٢/ ١٩٧: وإسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٣٣، وابن أبي شيبة ١٤/ ٧٦.

(٣) أخرجه ابن سعد ٣/ ٣٩١ - ٣٩٢، وابن أبي شيبة ١٤/ ٧٧ عن القاسم بن عبد الرحمن. وأخرجه عبد الرزاق (٩٧٢٧) مطولاً عن عكرمة ومهجع العكِّي هو مولى عمر بن الخطاب، أصابه سباءٌ، فمنَّ عليه عمر فأعتقه، وكان من السابقين إلى الإسلام، وشهد بدراً، واستشهد بها. الإصابة ٩/ ٢٩٧.

(٤) في (م): سئلوا.

وتركوه. قال: فقال عمار: كلُّنا تكلمَ بالذي قالوا، لولا أنَّ الله تداركَنا، غيرَ بلال؛ فإنه هانت عليه نفسُه في الله، فهان على قومِه حتى ملُّوه وتركوه. والصحيحُ أن أبا بكرٍ اشترى بلالاً فأعتقه[1].

وروى ابنُ أبي نَجيح، عن مجاهد، أنَّ ناساً من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعضُ أصحاب محمدٍ ﷺ بالمدينة: أن هاجروا إلينا، فإنا لا نراكم منّا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدونَ المدينةَ حتى أدركتْهم قريشٌ بالطريق، ففتنوهم فكفروا مُكْرَهين، ففيهم نزلت هذه الآية[2]. ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق.

وروى الترمذيُّ عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خُيِّر عمَّارٌ بين أمرين إلا اختار أرشدَهما» هذا حديثٌ حسن غريب[3].

وروى عن أنسٍ بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الجنةَ تشتاقُ إلى ثلاثة: عليٍّ وعمارٍ وسلمانَ بنِ ربيعة». قال الترمذيُّ: هذا حديثٌ [حسن] غريب لا نعرفه إلا من حديثِ الحسن بن صالح[4].

الثالثة: لمَّا سمحَ الله عزَّ وجلَّ بالكفر به ـ وهو أصلُ الشريعة ـ عندَ الإكراه، ولم يؤاخِذْ به، حملَ العلماءُ عليه فروعَ الشريعةِ كلَّها، فإذا وقع الإكراهُ عليها لم يؤاخذ به، ولم يَتَرتَّبْ عليه حكمٌ، وبه جاء الأثرُ المشهور عن النبيِّ ﷺ: «رُفِعَ عن أمتي الخطأُ والنسيان وما استُكرِهوا عليه»[5] الحديث. والخبرُ وإن لم يصحَّ سندُه، فإنَّ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٦٨، وأخرجه عن مجاهد ابن سعد ٣/ ٢٣٣ دون قول عمار ﷺ، وأخرجه مع قول عمار ابن عساكر في تاريخه ٤٣/٣٦٧. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٢/١٤٩ و ١٤/٣١٣، وابن ماجه (١٥٠)، وأحمد (٣٨٣٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) تفسير مجاهد ١/٣٥٣، وأسباب النزول للواحدي ص٢٨٨، وتفسير البغوي ٣/ ٨٦.

(٣) سنن الترمذي (٣٧٩٩)، ومسند أحمد (٢٤٨٢٠). ووقع عند الترمذي: أسدَّهما، بدل: أرشدهما.

(٤) سنن الترمذي (٣٧٩٧)، وما بين حاصرتين منه، ومن التحفة ١/١٦٦.

(٥) سلف ٤/ ٥٠١، وذكر هناك أن النوويَّ حسَّنه في الأربعين، وأعلَّه أبو حاتم كما نقله ابنه في العلل ١/ ٤٣١، لكن قال الحافظ في الفتح ٥/ ١٦١: أُعل بعلةٍ غيرِ قادحة.

معناه صحيحٌ باتفاقٍ من العلماء؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربيّ[1]. وذكر أبو محمد عبدُ الحق أنَّ إسنادَه صحيحٌ، قال: وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في «الفوائد»، وابنُ المنذر في كتاب «الإقناع»[2].

الرابعة: أَجمعَ أهلُ العلمِ على أنَّ مَن أُكرِهَ على الكفر حتى خَشِيَ على نفسه القتلَ، أنه لا إثمَ عليه إن كفرَ وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، ولا تَبِين منه زوجتُه ولا يُحكَمُ عليه بحكم الكفر، هذا قولُ مالكٍ والكوفيين والشافعيّ، غيرَ محمدِ بن الحسن فإنه قال: إذا أظهرَ الشركَ كان مرتدًّا في الظاهر، وفيما بينَه وبين الله تعالى على الإسلام، وتَبِينُ منه امرأتُه ولا يصلَّى عليه إن مات، ولا يَرِثُ أباه إن مات مسلماً[3]. وهذا قولٌ يردُّه الكتابُ والسنة، قال الله تعالى: «إلّا مَن أكرِه» الآية. وقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران:٢٨]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء:٩٧] الآية. وقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء:٩٨] الآية. فعذَرَ اللهُ المستضعفين الذين لا[4] يمتنعون مِن تركِ ما أَمَرَ الله به[5]، والمكرَهُ لا يكون إلا مُستضعَفاً غيرَ ممتنِعٍ من فعلِ ما أُمِرَ به؛ قاله البخاريُّ.

الخامسة: ذهبتْ طائفةٌ من العلماء إلى أنَّ الرُّخصةَ إنما جاءت في القول، وأمَّا في الفعلِ؛ فلا رخصةَ فيه، مثل أن يُكرَهوا على السجود لغيرِ الله أو الصلاةِ لغيرِ القِبلة، أو قتلِ مسلمٍ أو ضَرْبِه أو أكلِ مالِه، أو الزِّنى وشربِ الخمر وأكلِ الربا؛ يروى هذا عن الحسن البصريِّ ﷺ. وهو قول الأوزاعيِّ وسُحْنون[6] من علمائنا.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/١١٦٨ - ١١٦٩ .

(٢) ٢/ ٥٨٤ .

(٣) الإشراف ٢/ ٢٤٥ .

(٤) قوله: لا، ليس في (ف) و(م)، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وصحيح البخاري قبل الحديث (٦٩٤٠).

(٥) قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٣١٣ في شرح هذه العبارة: يعني إلا إذا غُلبوا.

(٦) يُنظر فتح الباري ١٢/ ٣١٤ .

وقال محمدُ بن الحسن: إذا قيل للأسير: اسجد لهذا الصنمِ وإلا قتلتُك. فقال: إن كان الصنمُ مقابِلَ القِبلة فلْيسجدْ وتكون نِيته لله تعالى، وإن كان لغير القِبلة فلا يسجدْ وإن قتلوه[١]. والصحيحُ أنه يسجدُ وإن كان لغير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذٍ. ففي الصحيح عن ابنِ عمرَ قال: كان رسول الله ﷺ يصلِّي وهو مُقبلٌ من مكةَ إلى المدينة على راحلتِه حيث كان وجهُه، قال: وفيه نزلتْ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٢] [البقرة:١١٥] في رواية[٣]: ويُوتِر عليها، غيرَ أنه لا يصلِّي عليها المكتوبةَ.

فإذا كان هذا مُباحاً في السفر في حالةِ الأمن لِتَعَبِ النزولِ عن الدابة للتنفُّل، فكيف بهذا؟

واحتجَّ مَن قَصَرَ الرخْصَةَ على القولِ بقولِ ابنِ مسعود: : ما من كلامٍ يَدرأُ عنِّي سوطين من ذي سلطانٍ إلا كنتُ متكلِّماً به[٤]. فقصَرَ الرخصةَ على القول ولم يَذْكرِ الفعل، وهذا لا حجةَ فيه؛ لأنه يَحتملُ أن يجعلَ للكلام مثالاً وهو يريدُ أنَّ الفعل في حكمه.

وقالت طائفةٌ: الإكراهُ في الفعل والقولِ سواءٌ إذا أَسَرَّ الإيمان. روي ذلك عن عمرَ بنِ الخطاب ومكحولٍ، وهو قولُ مالكٍ وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك: أنّ من أُكْرِهَ على شرب الخمر أوتَرْكِ الصلاة أو الإفطارِ في رمضانَ، أنَّ الإثْمَ عنه مرفوع[٥].

السادسة: أجمعَ العلماءُ على أنَّ مَن أُكرهَ على قَتْل غيرِه أنه لا يجوزُ له الإقدامُ

---

(١) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٧ .

(٢) صحيح مسلم (٧٠٠) (٣٣)، وسلف ٢/٣٢٦ و ٤٥٥ .

(٣) عند مسلم (٧٠٠) (٣٩).

(٤) أخرجه ابن حزم في المحلى ١١/ ١٤٢ .

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/٤٢٣ ، وفتح الباري ١٢/ ٣١٤ ، وأورد العيني في عمدة القاري ٢٤/ ٩٨ أثر عمر ومكحول.

على قتله ولا انتهاك حُرمته بجَلْدٍ أو غيرِه، ويَصبرُ على البلاء الذي نزل به، ولا يحلُّ له أن يَفْدِيَ نفسَه بغيره، ويسألُ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرة[١].

واختُلِفَ في الزنى، فقال مُطَرِّفٌ وأَصْبَغُ وابنُ عبد الحكم وابن الماجِشُون: لا يفعل أحدٌ ذلك، وإن قُتل لم يفعلْه، فإن فَعَلَه فهو آثمٌ ويلزمه الحَدُّ[٢]؛ وبه قال أبو ثَوْرٍ والحسن[٣]. قال ابن العربي[٤]: الصحيحُ أنه يجوزُ الإقدامُ على الزنى، ولا حَدَّ عليه، خلافاً لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنَّها شهوةٌ خُلقِية لا يُتصوَّرُ الإكراهُ عليها، وغَفَل عن السبب في باعثِ الشهوة وهو الإلجاءُ إلى ذلك، وهو الذي أسقطَ حُكْمَه، وإنَّما يجب الحَدُّ على شهوةٍ بَعَثَ عليها سببٌ اختياري، فقاس الشيءَ على ضِدِّه، فلم يَحْلَ[٥] بصوابٍ من عنده.

وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد في أحكامه: اختلفَ أصحابُنا متى أُكرِهَ الرجلُ على الزنى، فقال بعضهم: عليه الحدُّ؛ لأنه إنَّما يفعلُ ذلك باختياره. وقال بعضهم: لا حدَّ عليه. قال ابن خُوَيْزِمنداد: وهو الصحيح. وقال أبو حنيفةَ: إن أكرهه غيرُ السلطان حُدَّ، وإن أكرهه السلطانُ؛ فالقياسُ أن يُحدَّ، ولكنْ أستحسنُ ألَّا يُحَدَّ. وخالفَه صاحباهُ فقالا: لا حدَّ عليه في الوجهين، ولم يُراعُوا الانتشارَ وقالوا: متى عَلِمَ أنه يتخلَّصُ من القتل بفعلِ الزنى، جاز أن ينتشرَ[٦]. قال ابنُ المنذر[٧]: لا حدَّ عليه، ولا فرقَ بين السلطان في ذلك وغيرِ السلطان.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٥.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ ، ولم يذكر ابن الماجشون.
(٣) الإشراف ٢/ ٤٣ .
(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١١٦٥ - ١١٦٦ .
(٥) قال الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٢٣٧ : ويقال: ما حَليتُ منه شيئاً حَلْياً، أي: ما أصبت.
(٦) المبسوط ٩/ ٥٩ .
(٧) في الإشراف ٢/ ٤٣ .

السابعة: اختلف العلماءُ في طلاقِ المكْرَه وعتاقِه؛ فقال الشافعيُّ وأصحابه: لا يَلْزمه شيءٌ[1]. وذكر ابن وهب عن عمرَ وعلي وابنِ عباس أنهم كانوا لا يَرون طلاقَه شيئاً[2]. وذكره ابن المنذر[3] عن ابن الزبير وابن عمر، وابن عباسٍ وعطاء، وطاوسَ والحسنِ، وشريح والقاسم، وسالم ومالكٍ، والأوزاعيّ وأحمدَ، وإسحاقَ وأبي ثور. وأجازت طائفةٌ طلاقَه، رُويَ ذلك عن الشَّعبي والنَّخَعيِّ وأبي قلابةَ والزهري وقَتادة، وهو قول الكوفيين. قال أبو حنيفة: طلاقُ المكره يلزم[4]؛ لأنه لم يعدَمْ فيه أكثرَ من الرضا، وليس وجودُه بشرط في الطلاق كالهازل. وهذا قياسٌ باطل؛ فإنَّ الهازلَ قاصدٌ إلى إيقاع الطلاق راضٍ به، والمكرهَ غيرُ راضٍ، ولا نيةَ له في الطلاق، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّما الأعمال بالنيات»[5]. وفي البخاري: وقال ابنُ عباس فيمن يُكْرِهه اللصوصُ فيطلِّق: ليس بشيءٍ، وبه قال ابنُ عمر وابنُ الزبير، والشعبيُّ والحسن[6].

وقال الشعبي: إن أَكْرَهه اللصوصُ؛ فليس بطلاق، وإن أكْرهه السلطانُ؛ فهو طلاق. وفسَّره ابنُ عيينةَ فقال: إنَّ اللصَّ يُقدِم على قتله، والسلطانُ لا يقتله[7].

الثامنة: وأمَّا بيعُ المكْرَهِ والمضغوط؛ فله حالتان:

الأولى: أنْ يبيعَ مالَه في حقٍّ وجَبَ عليه، فذلك ماض سائغٌ لا رجوعَ فيه عند

---

(١) الأم ٣/ ٢١٠ ، والإشراف ٤/ ١٩٢ ، والاستذكار ١٨/ ١٥٢ .

(٢) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥٣ ، وأخرج الآثار عنهم عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٤٠٦ - ٤٠٩ ، وابنُ أبي شيبة ٥/ ٤٨ - ٤٩ .

(٣) في الإشراف ٤/ ١٩٢ .

(٤) تحفة الفقهاء ٢/ ١٩٥ .

(٥) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) (١٥٥)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وسلف ٣/ ٢٧٠ .

(٦) صحيح البخاري قبل حديث (٦٩٤٠).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١١٤٢٢).

الفقهاء؛ لأنه يَلزمه أداءُ الحق إلى ربه من غير المبيع، فلمَّا لم يفعلْ ذلك، كان بيعُه اختياراً منه فلَزِمَه.

وأما بيعُ المكرَهِ ظلماً أو قهراً؛ فذلك بيعٌ لا يجوزُ عليه، وهو أولى بمتاعه، يأخذُه بلا ثمن، ويتبَعُ المشتري بالثمن ذلك الظالمَ، فإنْ فاتَ المتاعُ، رجعَ بثمنه أو بقيمتِه بالأكثرِ من ذلك على الظالم إذا كان المشتري غيرَ عالمٍ بظلمه. قال مُطرفٌ: ومَن كان من المشترين يعلم حالَ المُكرَه؛ فإنه ضامنٌ لِمَا ابتاعَ من رقيقه وعُروضه كالغاصب، وكلُّ ما[1] أحدثَ المبتاع في ذلك من عتقٍ أو تدبير أو تحبيس، فلا يَلزم المكرَهَ، وله أخذُ متاعِه.

قال سُحْنون: أجمعَ أصحابُنا وأهل العراق على أنّ بيعَ المكْرَه على الظلمِ والجَوْر لا يجوز. وقال الأَبْهَرِيُّ: إنه إجماع[2].

التاسعة: وأمَّا نكاحُ المكرَهِ، فقال سُحْنون: أَجمعَ أصحابُنا على إبطال نِكاح المكرهِ والمكرهة، وقالوا: لا يجوز المقام عليه؛ لأنه لم ينعقد. قال محمد بن سُحنون: وأجاز أهل العراق نكاحَ المكره، وقالوا: لو أُكرِهَ على أن ينكِحَ امرأةً بعشرةِ آلافِ درهم، وصداقُ مثلِها ألفُ درهم: إنَّ النكاحَ جائزٌ وتَلزمُه الألفُ ويبطُلُ الفَضْلُ. قال محمد: فكما أبطلوا الزائد على الألْفِ، فكذلك يَلزمهم إبطالُ النكاحِ بالإكراه[3]. وقولُهم خلافُ السُّنة الثابتةِ في حديث خَنْساءَ بنت خِذام الأنصاريةِ[4]، ولأمرِه ﷺ بالاستئمار في أبضاعِهن، وقد تقدّم[5]، فلا معنى لقولهم.

---

(١) في (د) و(ز) و(م): كلَّما، والمثبت من (ف) ومن المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٣ ، والكلام منه.

(٢) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٧٤ .

(٣) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٧٨٦ زيادات عبد الله)، والبخاري (٥١٣٨) بلفظ: عن خنساء بنت خِذام أنَّ أباها زوَّجها وهي كارهة، وكانت ثيباً، فردَّ النبي ﷺ نكاحه.

(٥) ٥/ ٣٨١ .

العاشرة: فإنْ وطئهَا المُكْرَهُ على النكاح غيرَ مكْرَهٍ على الوطء والرضا بالنكاح، لَزِمَهُ النكاحُ عندنا على المسمَّى من الصَّداق، ودُرِئَ عنه الحدُّ. وإن قال: وطِئْتُها على غير رضاً مني بالنكاح؛ فعليه الحدُّ والصداقُ المسمَّى؛ لأنه مدَّعٍ لإبطالِ الصَّداقِ المسمَّى، وتُحَدُّ المرأةُ إن تقدمتْ[1] وهي عالمةٌ أنه مكرهٌ على النكاح. وأمَّا المكرَهةُ على النكاح وعلى الوطء، فلا حدَّ عليها، ولها الصداق، ويُحدُّ الواطئ، فاعلمْه. قاله سحنون.

الحادية عشرة: إذا استُكرهتِ المرأةُ على الزنى؛ فلا حدَّ عليها؛ لقوله: «إلا من أكره»، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تجاوز عن أمتي الخطأَ والنسيانَ وما استُكرِهوا عليه»[2]، ولقولِ الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣] يريدُ الفتياتِ. وبهذا المعنى حَكَم عمرُ في الوليدة التي استكرهَها العبدُ، فلم يَحُدَّها[3]. والعلماء مُتفقون على أنه لا حدَّ على امرأةٍ مستكرَهَة[4].

وقال مالك[5]: إذا وُجِدت المرأةُ حاملاً وليس لها زوجٌ، فقالت: استُكْرِهتُ، فلا يُقْبَلُ ذلك منها وعليها الحَدُّ، إلّا أن تكونَ لها بيِّنةٌ، أو جاءت تَدْمَى على أنها أُتِيت[6]، أو ما أشبهَ ذلك. واحتجَّ بحديث عمرَ بنِ الخطاب أنه قال: الرَّجْمُ في كتاب الله حقٌّ على مَن زنى من الرجال والنساء إذا أَحْصَنَ إذا قامت البينةُ، أو كان الحَبَل

---

(١) في (ز) و(م): أقدمت، والمثبت من (ظ) و(د) و(ف)، وهو الموافق لما في النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥٨ - ٢٥٩، والكلام منه.

(٢) سلف ٤/ ٥٠١.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٤٦)، ومالك في «الموطأ» ٢/ ٨٢٧.

(٤) ينظر الاستذكار ٢٤/ ١١٣، والمنتقى ٥/ ٢٧١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن المنذر في الإشراف ٢/ ٤١.

(٥) في الموطأ ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٨.

(٦) في النسخ: أوتيت، والمثبت من الموطأ ٢/ ٨٢٨، والإشراف ٢/ ٤١.

أو الاعتراف[١]. قال ابن المنذر[٢]: وبالقول الأوَّل أقول.

الثانية عشرة: واختلفوا في وجوبِ الصداق للمستكرهة، فقال عطاء والزُّهْرِيُّ: لها صداقُ مثلِها؛ وهو قولُ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي ثور. وقال الثَّوْرِيُّ: إذا أُقيمَ الحدُّ على الذي زنى بها بَطَلَ الصَّداقُ. ورُويَ ذلك عن الشعبي، وبه قال أصحابُ مالكٍ وأصحابُ الرأي. قال ابن المنذر: القولُ الأول صحيحٌ[٣].

الثالثة عشرة: إذا أُكرِهَ الإنسانُ على إسلام أهلِه لِمَا لم يَحِلَّ، أَسْلَمَها ولم يَقْتُلْ نفسَه دونها، ولا احتمل أذيَّةً في تخليصها. والأصلُ في ذلك ما خَرّجه البخاريُّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «هاجر إبراهيمُ عليه السلام بسارةَ، ودخل بها قرية فيها ملكٌ من الملوك أو جبارٌ من الجبابرة، فأرسلَ إليه أن أَرسِلْ بها إليّ، فأرسلَ بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلّي، فقالت: اللهم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك فلا تسلِّط عليَّ هذا الكافر، فغُطَّ حتى رَكَض برجله»[٤]. ودلَّ هذا الحديثُ أيضاً على أنّ سارةَ لمَّا لم يكنْ عليها ملامةٌ، فكذلك لا يكونُ على المستكرهة ملامةٌ، ولا حدَّ فيما هو أكبرُ من الخَلْوة. والله أعلم.

الرابعة عشرة: وأمّا يمينُ المكْرَهِ فغيرُ لازمةٍ عند مالكٍ والشافعي وأبي ثور وأكثرِ العلماء. قال ابن الماجِشون: وسواءٌ حلَفَ فيما هو طاعةٌ لله أو فيما هو معصيةٌ إذا أكره على اليمين؛ وقاله أَصْبَغ. وقال مطرِّف: إن أُكره على اليمين فيما هو لله معصيةٌ أو ليس في فِعْلِه طاعةٌ ولا معصيةٌ فاليمينُ فيه ساقطة، وإن أُكره على اليمين فيما هو طاعةٌ مثلُ أن يأخذَ الوالي رجلاً فاسقاً فيُكرِهَه أن يحلِفَ بالطلاق [أنْ] لا يشربَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦)، والبخاري (٦٨٢٩)، ومسلم (١٦٩١) (١٥).

(٢) في الإشراف ٢/ ٤١ .

(٣) الإشراف ٢/ ٤٢ .

(٤) أخرجه البخاري (٦٩٥٠)، ومسلم (٢٣٧١) (١٥٤)، والكلام نقله المصنف من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٩ - ١١٧٠ .

خمراً، أو لا يفسقَ ولا يَغُشَّ في عمله، أو الوالدُ يحلِّفُ ولدَه تأديباً له فإن اليمينَ تلزَمُ، وإن كان المكرِهُ قد أخطأ فيما يكلِّف من ذلك. وقال به ابن حبيب[1]. وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين: إنه إنْ حَلَفَ ألَّا يفعلَ ففعل حَنِث[2]، قالوا: لأن المكْرَه له أن يورِّيَ في يمينه كلِّها، فلمَّا لم يورِّ، ولا ذهبتْ نيَّته إلى خلاف ما أُكره عليه، فقد قَصَدَ إلى اليمين. احتج الأوَّلون بأن قالوا: إذا أُكره عليها فنيَّتُه مخالفةٌ لقوله؛ لأنه كارهٌ لِمَا حلفَ عليه.

الخامسة عشرة: قال ابن العربيِّ[3]: ومن غريب الأمرِ أنَّ علماءَنا اختلفوا في الإكراه على الحِنث هل يقعُ به أم لا؟ وهذه مسألةٌ عراقيةٌ سَرَتْ لنا منهم، لا كانتْ هذه المسألةُ ولا كانوا! وأيُّ فَرقٍ يا معشرَ أصحابِنا بين الإكراه على اليمين في أنها لا تَلْزَمُ، وبين الحِنْث في أنه لا يقع؟ فاتقوا الله وراجعوا بصائركم، ولا تغترُّوا بهذه الروايةِ فإنها وصمةٌ في الدِّراية.

السادسة عشرة: إذا أُكرِهَ الرجلُ على أن يحلِفَ وإلا أُخِذَ له مالٌ، كأصحابِ المَكْس[4] وظَلَمةِ السعاة وأهلِ الاعتداء، فقال مطرف[5]: لا تَقِيَّة له في ذلك، وإنما يدرَأُ المرءُ بيمينه عن بدنه لا مالِه. وقال ابنُ الماجشون: لا يحنَثُ وإن درأ عن ماله ولم يخفْ على بدنه. وقال ابن القاسم بقول مطرف، ورواه عن مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأصْبَغ[6].

قلت: قولُ ابنِ الماجشون صحيحٌ؛ لأنَّ المدافعةَ عن المال كالمدافعة عن

---

(١) النوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ .

(٢) تحفة الفقهاء ٢/ ٢٩١ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٦٩ .

(٤) المكس: الضريبة التي يأخذها الماكس، وأصله الجباية. اللسان (مكس).

(٥) في النسخ: مالك، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ ، والكلام منه.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ ، وينظر النوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٧ .

النفس؛ وهو قول الحسن وقتادةَ وسيأتي. وقال رسولُ الله ﷺ: «إن دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ»[١] وقال: «كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ؛ دمُه ومالُه وعِرضُه»[٢]. وروى أبو هريرةَ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إن جاء رجلٌ يريد أَخْذَ مالي؟ قال: «فلا تُعْطِه مالك». قال: أرأيت إن قاتلَني؟ قال: «قاتِلْه» قال: أرأيتَ إن قتلني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيتَ إن قتلتُه؟ قال: «هو في النار». خرَّجه مسلم. وقد مضى الكلام فيه[٣].

وقال مطرِّف وابن الماجشون: وإن بدَرَ الحالفُ بيمينه للوالي الظالم قبل أن يُسألها؛ ليَذُبَّ بها عما خافَ عليه من ماله وبدنه، فحلَفَ له فإنها تَلْزَمُه. وقاله ابنُ عبد الحكم وأصبغ. وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أَخَذَه ظالمٌ فحلَفَ له بالطلاق البتَّةَ من غيرِ أن يُحلِّفَه وترَكَه وهو كاذبٌ، وإنما حلَفَ خوفاً من ضرْبِه وقَتْلِه وأخْذِ ماله: فإن كان إنَّما تبرَّع باليمين غلبةَ خوفٍ ورجاءَ النجاةِ من ظُلْمه، فقد دخل في الإكراه ولا شيءَ عليه، وإن لم يحلِفْ على رجاء النجاةِ فهو حانث[٤].

السابعة عشرة: قال المحققون من العلماء: إذا تلفَّظَ المُكرَهُ بالكفر؛ فلا يجوزُ له أن يُجريَه على لسانه إلا مُجرَى المعاريض، «فإنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب»[٥]. ومتى لم يكن كذلك كان كافراً؛ لأن المعاريضَ لا سلطانَ للإكراه عليها. مثاله: أن يقال له: اكفر بالله، فيقولُ: باللاهي، فيزيدُ الياء. وكذلك إذا قيل له: اكفر بالنبي، فيقول: هو كافر بالنبيّ، مشدَّداً وهو المكان المرتفعُ من الأرض. ويُطلَقُ على ما يُعمَلُ من الخُوصِ[٦] شِبهَ المائدة، فيقصِدُ أحدَهما بقلبه، ويبرَأ من الكفر، ويبرأ

(١) أخرجه البخاري (١٧٣٩) ومسلم (١٦٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٢٢٨ .

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٢٢)، ومسلم (٢٥٦٤) (٣٢)، من حديث أبي هريرة.

(٣) ٧/ ٤٤٤ ، وهو عند مسلم (١٤٠).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ ، والنوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٥) سلف ١١/ ٤٤٠ .

(٦) الخوص: ورق النخل. القاموس المحيط (خوص).

من إثمه. فإن قيل له: اكفر بالنبيء مهموزاً فيقول: هو كافرٌ بالنبيء، يريد بالمُخبِر. أيَّ مخبرٍ كان، كطُلَيحة[١] ومُسَيْلِمَةَ الكذابِ. أو يريد به النبيَّ الذي قال فيه الشاعر:

فأصبح رَتْماً دُقاق الحَصَى مكانَ النبيِّ من الكاثب[٢]

الثامنة عشرة: أجمع العلماء على أنَّ مَن أُكره على الكفر فاختار القتل، أنه أعظمُ أجراً عند الله ممن اختار الرُّخصة[٣].

واختلفوا فيمن أُكره على غير القتلِ من فعلِ ما لا يَحِلُّ له؛ فقال أصحاب مالك: الأخذ بالشِّدَّة في ذلك واختيارُ القتل والضربِ أفضلُ عند الله من الأخذ بالرخصة، ذكره ابنُ حبيب وسُحنون.

وذكر ابنُ سُحنون عن أهل العراقِ أنه إذا تهدَّد بقتل أو قطعٍ أو ضربٍ يخاف منه التلف، فله أنْ يفعلَ ما أُكره عليه مِن شربِ خمرٍ أو أكل خنزير؛ فإنْ لم يفعل حتى قُتل، خِفنا أن يكونَ آثماً؛ لأنه كالمضطر[٤].

وروى خَبَّاب بنُ الأَرَتِّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلنا: أَلَا تستنصرُ لنا، أَلَا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلَكم يُؤخذ

---

(١) هو: طليحة بن خويلد الأسدي، ارتدَّ وادعى النبوة، ثم هرب إلى الشام، وأسلم إسلاماً صحيحاً، وشهد القادسية ونهاوند مع المسلمين، ويقال إنه استشهد بنهاوند. الإصابة ٥/ ٢٤٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٦٦ ، والبيت لأوس بن حجر من قصيدة يرثي بها فَضالة بن كلدة الأسدي وهو شاعر أيضاً وكان صديقاً لأوس بن حجر، والبيت في ديوانه ص١١ ، والاشتقاق ص٤٦٢ ، والمعاني الكبير ٣/ ١٢٣٠ ، والتعازي والمراثي ص٣٣ . والرواية في الديوان والمعاني والتعازي: لأصبح بدل فأصبح، ووقع في الديوان والتعازي: كمتن النبي، وفي المعاني الكبير: كظهر النبي.

قال المبرد في التعازي والمراثي ص٣٥ : لو دافع الجبل العظيم متحاملاً عليه، لأصبح الجبل رتماً كظهر النبي، وهو رمل بعينه، من الكاثب، أي: كمكان هذا من هذا. ومثَّله أبو عبيدة فقال: كقولك: كظهر المربد من البصرة. والمرتوم: المحطوم المدقوق، يقال: رَتَم أنفه، أي: دقه. وقوله: دُقاق الحصى، أي: دقيق، مثل قولك: رجل طُوال وطويل.

(٣) النوادر والزيادات ١٠/٢٤٨ .

(٤) ينظر النوادر والزيادات ١٠/٢٤٧ .

الرجلُ فيُحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيجاء بالمِنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دون لحمِه وعَظْمِه، فما يَصُدُّه ذلك عن دينه. واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[١].

فوَصْفُه ﷺ هذا عن الأمم السالفةِ على جهة المدح لهم، والصبرِ على المكروه في ذات الله تعالى، وأنهم لم يكفروا في الظاهر ويُبْطِنوا الإيمانَ ليدفعوا العذابَ عن أنفسهم. وهذه حجَّةٌ مَن آثرَ الضربَ والقتلَ والهوانَ[٢] على الرخصة، والمقامَ بدار الجِنَان. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة الأُخدود[٣] إن شاء اللهُ تعالى.

وذكر أبو بكر محمد[٤] بن الفرج البَغْداديّ قال: حدَّثنا سُرَيج[٥] بنُ يونس، عن إسماعيل بنِ إبراهيم، عن يونس بن عُبيد، عن الحسن: أنَّ عيوناً لمسيلِمة أخذوا رجلين من أصحاب النبيِّ ﷺ فذهبوا بهما إلى مسيلِمة، فقال لأحدهما: أتشهد أنَّ محمداً رسولُ الله؟ قال: نعم. قال: أتشهد أني رسولُ الله؟ قال: نعم. فخلَّى عنه. وقال للآخر: أتشهد أنَّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال: وتشهدُ أني رسول الله؟ قال: أنا أصمُّ لا أسمع، فقدَّمه فضرب عنقه. فجاء هذا إلى النبيِّ ﷺ فقال: هلكتُ! قال: «وما أهلكَك»؟ فذكر الحديثَ، قال: «أمَّا صاحبُك فأخذ بالثقة، وأما أنت فأخذت بالرخصة. علامَ أنت عليه الساعة»؟ قال: أشهد أنك رسولُ الله. قال: «أنتَ على ما أنتَ عليه»[٦].

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٥٧)، والبخاري (٣٦١٢).

(٢) قوله: والهوان، ليس في (د) و(ز) و(ظ).

(٣) عند تفسير الآيات (٤ - ٧) منها.

(٤) في (ظ): وذكر أبومحمد، وفي باقي النسخ: وذكر أبو بكر محمد بن محمد، والمثبت هو الصواب، وهو محمد بن الفرج البغدادي الأزرق، توفي سنة (٢٨١هـ) السير ١٣/ ٣٩٤ .

(٥) في (ف): شريج، وفي باقي النسخ: شريح، وهما تصحيف.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٣٥٧ - ٣٥٨ عن إسماعيل بن إبراهيم، به. وأخرجه أبو داود في المراسيل (٣٢٦) من طريق خالد، عن يونس، به.

الرخصة فيمن حلَّفه سلطانٌ ظالم على نفسه، أو على أن يدلَّه على رجل أو مالِ رجل؛ فقال الحسن: إذا خاف عليه وعلى ماله؛ فلْيحلفْ ولا يكفِّر يمينه، وهو قول قتادةَ إذا حلف على نفسه أو مالِ نفسه. وقد تقدَّم ما للعلماء في هذا[١].

وذكر موسى بنُ معاوية[٢] أنَّ أبا سعيد بنَ أشرسَ صاحبَ مالكٍ استحلفه السلطانُ بتونسَ على رجلٍ أراد السلطانُ قتلَه أنه ما آواه، ولا يَعلمُ له موضعاً، قال: فحلف له ابنُ أشرس، وابنُ أشرس يومئذٍ قد علم موضعَه وآواه، فحلَّفه بالطلاق ثلاثاً، فحلف له ابنُ أشرس، ثم قال لامرأته: اعتزلي، فاعتزلته، ثم ركب ابنُ أشرس حتى قدِم على البهلول بنِ راشد[٣] القيروانَ، فأخبره بالخبر، فقال له البهلول: قال مالك: إنك حانث. فقال ابنُ أشرس: وأنا سمعت مالكاً يقول ذلك، وإنما أردت الرخصة ـ أو كلامٌ هذا معناه ـ فقال له البهلول بنُ راشد: قال الحسن البصريُّ: إنه لا حِنْثَ عليك. قال: فرجع ابنُ أشرس إلى زوجتِه وأخذ بقول الحسن.

وذكر عبد الملك بنُ حبيب قال: حدَّثني [علي بن] معبد، عن المسيب بنِ شريك، عن أبي شيبة قال: سألت أنس بنَ مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يَحْلِفَ ليقيَه بيمينه؟ فقال: نعم؛ وَلأنْ أحلفَ سبعين يميناً وأحنَثَ أحبُّ إليَّ أنْ أَدُلَّ على مسلم[٤].

وقال إدريس بنُ يحيى: كان الوليد بنُ عبد الملك يأمر جواسيسَ يتجسَّسون

---

(١) في المسألة الرابعة عشرة.

(٢) أبو جعفر الصُّمادِحي، المغربي الإفريقي، الإمام المفتي. كان ثقة مأموناً، عالماً بالحديث والفقه صالحاً. السير ١٢/١٠٨ .

(٣) أبو عمر، كان ثقة مجتهداً ورعاً مستجاب الدعوة. مات سنة (٢٨٣) هـ ترتيب المدارك ١/ ٣٣٠ . والقصة فيه بنحوها.

(٤) النوادر والزيادات ١٠/٣٠٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه. والمسيب بن شريك وأبو شيبة ـ وهو يوسف بن إبراهيم الجوهري ـ ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/ ١١٤ و ٤٦١ .

الخلق يأتونه بالأخبار، قال: فجلس رجلٌ منهم في حَلْقة رجاء بنِ حَيْوة، فسمع بعضَهم يقع في الوليد، فرفع ذلك إليه، فقال: يا رجاء، أُذْكَرُ بالسوء في مجلسك ولم تغيِّر! فقال: ما كان ذلك يا أميرَ المؤمنين! فقال له الوليد: قل: آللهِ الذي لا إله إلا هو، قال: آللهِ الذي لا إله إلا هو؛ فأمر الوليدُ بالجاسوس فضربه سبعين سَوْطاً، فكان يَلقى رجاء فيقول: يا رجاء، بك يُستقى المطر، وسبعون سوطاً في ظهري! فيقول رجاء: سبعون سَوطاً في ظهرك خيرٌ لك من أن يُقتلَ رجلٌ مسلم[1].

التاسعة عشرة: واختلف العلماء في حَدِّ الإكراه؛ فروي عن عمر بنِ الخطاب ﷺ أنه قال: ليس الرجل آمناً على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته[2]. وقال ابن مسعود: ما كلامٌ يَدرأ عني سَوْطين إلَّا كنتُ متكلِّماً به. وقال الحسن: التَّقِيَّة جائزةٌ لمؤمن إلى يوم القيامة[3]. إلَّا أنَّ الله تبارك وتعالى ليس يجعل في القتل تقيَّة. وقال النَّخَعيُّ: القيد إكراه، والسِّجن إكراه، والوعيد إكراه[4]. وهذا قولُ مالك، إلا أنه قال: والوعيد المخوف إكراهٌ وإن لم يقع، إذا تحقَّق ظلمُ ذلك المتعدِّي وإنفاذُه لما يتوعَّد به[5]، وليس عند مالكٍ وأصحابِه في الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضَّرب، وما كان من سجن يَدخل منه الضِّيقُ على المكرَه. وإكراهُ السلطان وغيرِه عند مالكٍ إكراه[6].

---

(١) ذكر هذه القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٨/ ١١٣ - ١١٤ ، والذهبي في السير ٤/ ٥٦١ عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١٤٢٤) و(١٨٧٩٢) وفيه: أجعته بدل أخفته. والبيهقي ٧/ ٣٥٨-٣٥٩ بلفظ: إذا جُوعت. وأورده ابن عبد البر في الاستذكار ١٨/ ١٥٥ بلفظ: إذا أُخيف أو ضرب أو أوثق.

(٣) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٦ ، ٢٥١ ، وكلام ابن مسعود في المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٣ أيضاً، وتقدم في المسألة الخامسة.

(٤) النوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٦ عن النخعي وشريح، وفيه: والوعيد المخوف كره. وقوله: والوعيد إكراه، ليس في (م). وأخرجه عن شريح عبد الرزاق (١١٤٢٣)، والبيهقي ٧/ ٣٥٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٤ ، وينظر النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥١ .

(٦) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٩ .

وتناقَض الكوفيُّون فلم يجعلوا السِّجنَ والقيدَ إكراهاً على شرب الخمر وأكلِ الميتة؛ لأنه لا يُخاف منهما التَّلَفُ. وجعلوهما إكراهاً في إقراره: لفلانٍ عندي ألفُ درهم[١].

قال ابن سحنون: وفي إجماعهم على أنَّ الألم والوجَعَ الشديد إكراهٌ ما يدلُّ على أنَّ الإكراه يكون مِن غير تَلَفِ نفس [أو عضو][٢].

وذهب مالكٌ إلى أنَّ مَن أُكره على يمين بوعيد أو سجنٍ أو ضربٍ أنه يَحلف ولا حِنْث عليه؛ وهو قول الشافعيِّ وأحمدَ وأبي ثَوْرٍ وأكثرِ العلماء[٣].

الموفية عشرين: ومن هذا الباب ما ثبت: «إنَّ من المعاريض لمندوحةً عن الكَذِب»[٤]. وروى الأعمش، عن إبراهيم النَّخَعيِّ أنه قال: لا بأس إذا بلَغ الرجلَ عنك شيءٌ أن تقول: واللهِ، إنَّ الله يعلم ما قلتُ فيك مِن ذلك مِن شيء[٥]. قال عبد الملك بنُ حبيب: معناه: إنَّ الله يعلم الذي[٦] قلت، وهو في ظاهره انتفاءٌ من القول، ولا حِنث على مَن قال ذلك في يمينه، ولا كَذِبَ عليه في كلامه.

وقال النخعيُّ: كان لهم كلامٌ مِن ألغاز الأيمانِ يدرؤون به عن أنفسهم، لا يرون ذلك من الكذب، ولا يخشون فيه الحِنث. قال عبد الملك: وكانوا يسمُّون ذلك: المعاريضَ من الكلام، إذا كان ذلك في غير مكرٍ ولا خديعةٍ في حقٍّ.

وقال الأعمش: كان إبراهيم النخعيُّ إذا أتاه أحدٌ يكره الخروجَ إليه، جلس في مسجد بيته، وقال لجاريته: قولي له: هو واللهِ في المسجد[٧].

---

(١) ينظر النوادر والزيادات ١٠/ ٢٥٠ .

(٢) النوادر والزيادات ١٠/ ٢٤٩ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) ينظر النوادر والزيادات ١٠/ ٣٠٦ ، والإشراف ١/ ٤٦٥ .

(٤) سلف ١١/ ٤٤٠ ، وص٤٤٣ من هذا الجزء.

(٥) ينظر النوادر والزيادات ٤/ ٩ .

(٦) في (ظ) و(ف) و(م): أن الذي، وهو خطأ.

(٧) ينظر النوادر والزيادات ٤/ ٩ .

وروى مغيرةُ، عن إبراهيم، أنه كان يُجيز للرجل من البَعْث إذا عُرضوا على أميرِهم أن يقول: واللهِ ما أهتدي إلَّا ما سدَّد لي غيري، ولا أركب إلَّا ما حملني غيري، ونحو هذا من الكلام.

قال عبد الملك: يعني بقوله: غيري، اللهَ تعالى، هو مسدِّدُه وهو يحمله؛ فلم يكونوا يرون على الرجل في هذا حِنثاً في يمينه، ولا كذباً في كلامه، وكانوا يكرهون أنْ يقالَ هذا في خديعةٍ وظلمٍ وجحدانِ حقٍّ، فمن اجترأ وفعل أَثِم في خديعته، ولم تجب عليه كفَّارةٌ في يمينه[1].

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: وسَّعه لقَبول الكفر، ولا يَقدِرُ أحدٌ على ذلك إلَّا الله؛ فهو يردُّ على القَدَرية. و«صدراً» نصبٌ على المفعول[2]. ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذابُ جهنَّم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الغضب. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: اختاروها على الآخرة. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ «أنَّ» في موضع خفضٍ عطفاً على «بأنهم». ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: عن فهم المواعظ. ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ عن كلام الله تعالى. ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ﴾ عن النظر في الآيات. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عمَّا يراد بهم. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ تقدَّم[3].

---

(١) ينظر المصدر السابق.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/١٢٣ .

(٣) ١١/ ٩٤ - ٩٥ .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ هذا كلُّه في عمَّار. والمعنى: وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحَّاس[1].

وقال قتادة: نزلت في قومٍ خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنَهم المشركون وعذَّبوهم، وقد تقدَّم ذِكرُهم في هذه السورة[2].

وقيل: نزلت في ابن أبي سَرْح، وكان قد ارتدَّ ولَحِق بالمشركين، فأمر النبيُّ ﷺ بقتله يوم فتحِ مكة، فاستجار بعثمان، فأجاره النبيُّ ﷺ؛ ذكره النَّسائيُّ عن عِكرمة، عن ابن عباس قال في سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فنُسخ واستثني من ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهو عبد الله بنُ سعد بنِ أبي سَرْح الذي كان على مصر، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأزلَّه الشيطانُ فلحق بالكفار، فأمر به أن يُقتلَ يومَ الفتح، فاستجار له عثمان بنُ عفان، فأجاره رسولُ الله ﷺ[3].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ أي: إنَّ الله غفور رحيم في ذلك[4]، أو ذَكِّرهم ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ أي: تُخاصم وتحاجُّ عن نفسها.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٠٨ ، وينظر ص٤٣٢-٤٣٤ من هذا الجزء.

(٢) ص٤٣٢-٤٣٤ من هذا الجزء، وينظر أسباب النزول للواحدي ص٢٨٩ .

(٣) المجتبى ٧/ ١٠٧ ، والكبرى (٣٥١٨)، وأخرج أبو داود (٤٣٥٨) القطعة الأخيرة منه.

(٤) يعني التقدير: غفور رحيم يومَ تأتي كلُّ نفس... إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠ .

جاء في الخبر: إنَّ كل أحدٍ يقول يوم القيامة: نفسي نفسي، من شدَّة هول يومِ القيامة، سوى محمدٍ ﷺ فإنه يسأل في أمته[١].

وفي حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب، خوِّفنا، هيِّجنا، حدِّثنا، نبِّهنا. فقال له كعب: يا أميرَ المؤمنين، والذي نفسي بيده، لو وافيتَ يومَ القيامة بمثل عمل سبعين نبيًّا، لأتَتْ عليك تاراتٌ[٢] لا يُهِمُّك إلَّا نفسُك، وإنَّ لِجهنم زفرةً لا يبقى مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ منتخَب إلا وقع جاثياً على رُكبتيه، حتى إنَّ إبراهيم الخليل لَيُدْلي بالخُلَّة فيقول: يا ربِّ، أنا خليلُك إبراهيم، لا أسألك اليومَ إلا نفسي! قال: يا كعب، أين تجد ذلك في كتاب الله؟ قال: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣].

وقال ابن عباس في هذه الآية: ما تزال الخصومةُ بالناس يومَ القيامة حتى تُخاصِمَ الروحُ الجسد، فتقول الروح: ربِّ، الروحُ منك أنت خلقته، لم تكن لي يدٌ أَبْطِشُ بها، ولا رِجلٌ أمشي بها، ولا عين أُبصِر بها، ولا أذن أسمع بها، ولا عقل أعقِل به، حتى جئتُ فدخلت في هذا الجسد، فَضَعِّف عليه أنواعَ العذاب ونجِّني، فيقول الجسد: ربِّ، أنت خلقتني بيدك، فكنتُ كالخشبة، ليس لي يدٌ أبطِشُ بها، ولا قَدَمٌ أسعَى به، ولا بصرٌ أبصِر به، ولا سَمْعٌ أسمع به، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطقَ لساني، وبه أبصرَتْ عيني، وبه مشَتْ رجلي، وبه سمعتْ أُذني، فضعِّف عليه أنواعَ العذاب ونجِّني منه. قال: فيضرِبُ اللهُ لهما مَثَلاً: أعمى ومُقْعَداً دخلا بستاناً فيه ثمار، فالأعمى لا يُبصِر الثمرة، والمُقْعد لا ينالُها، فنادى المُقعَدُ الأعمى: اِيتني

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تنظر في مسند أحمد.

(٢) جمع تارة.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٥٤ - ١٥٥ ، وأحمد في الزهد ص١٥١ ، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩ بنحوه.

فاحملْنِي آكلْ وأُطعِمْك، فدنا منه فحمله، فأصابوا من الثمرة، فعلى من يكون العذاب؟! قال: عليكما جميعاً العذاب؛ ذكره الثعلبي[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ هذا متَّصلٌ بذِكر المشركين. وكان رسول الله ﷺ دعا على مُشركي قريش وقال: «اللَّهمَّ اشدُدْ وطأتَك على مُضَرَ، واجعلها عليهم سنينَ كَسِني يوسفَ»، فابتُلُوا بالقحط حتى أكلوا العِظام[(٢)]، ووجَّه إليهم رسولُ الله ﷺ طعاماً فَفرِّق فيهم[(٣)].

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ لا يُهاج أهلُها ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البَرِّ والبحر، نظيره: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] الآية[(٤)]. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ الأنْعُم: جمع النِّعمة؛ كالأشُدّ: جمع الشِّدَّة[(٥)]. وقيل: جمع نُعْمَى، مثل: بُؤسى وأبؤس[(٦)]. وهذا الكفران تكذيبٌ بمحمد ﷺ.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾ أي: أذاق أهلَها. ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ سمَّاه لباساً؛ لأنه يظهر عليهم من الهُزال وشُحوبة اللونِ وسوء الحال ما هو كاللِّباس[(٧)]. ﴿بِمَا كَانُوا۟

(١) وذكره أيضاً البغوي في تفسيره ٣/ ٨٧ .

(٢) أخرجه أحمد (٣٦١٣)، والبخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٢٦٠)، والبخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، وقد سلف ٤/ ٣٠٤ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٨٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٥٠١ ، والرازي في تفسيره ٢٠/ ١٣٠ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٨٨ .

(٥) هذا قول سيبويه كما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٦ . وقال قطرب وأبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٦٩ : واحد الأنعم: نُعْم. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢١ .

(٦) لم نقف على من ذكر هذا الجمع، وفي معاجم اللغة: أَبْؤُس جمع بُؤس، وأَنْعُم جمع نُعْم. وقال الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٨٥ : وكان بعض أهل الكوفة يقول: أنعم جمع نعماء، مثل: بأساء وأبؤس.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢١٧ .

﴿يَصْنَعُونَ﴾ أي: من الكفر والمعاصي.

وقرأه حفص بنُ غياث ونصر بن عاصم وابنُ أبي إسحاق والحسن، وأبو عمرٍو فيما روى عنه عبدُ الوارث وعبيدٌ وعباسٌ: «والخوفَ» نصباً بإيقاع «أذاقها» عليه[١]، عطفاً على «لباسَ الجوعِ»، أي: أذاقها الله لباس الجوع[٢] وأذاقها الخوفَ. وهو بعث النبيِّ ﷺ سراياه التي كانت تُطيف بهم[٣]. وأصل الذَّوق بالفم، ثم يُستعار فيوضع موضعَ الابتلاء[٤].

وضرب مكة مثلاً لغيرها من البلاد، أي: إنها مع جوار بيتِ الله وعِمارةِ مسجده، لمَّا كفر أهلُها؛ أصابهم القَحْط، فكيف بغيرها من القُرى. وقد قيل: إنها المدينة، آمنت برسول الله ﷺ، ثم كفرت بأنْعُم الله بقتل عثمان بنِ عفان، وما حدث بها بعد رسولِ الله ﷺ من الفتن. وهذا قول عائشةَ وحفصة زَوجَي النبيِّ ﷺ. وقيلَ: إنه مَثَلٌ مضروبٌ بأيِّ قريةٍ كانت على هذه الصفةِ من سائر القرى[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ هذا يدلُّ على أنها مكة. وهو قول ابنِ عباس ومجاهدٍ وقتادة[٦]. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو الجوع الذي وقع بمكة.

---

(١) ذكر رواية عبد الوارث وعبيد عن أبي عمرو ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٥٠٠ وهي غير المشهورة عن أبي عمرو، والقراءة المشهورة عنه كقراءة الجماعة. وعبيد: هو ابن عقيل بن صبيح أبو عمرو الهلالي البصري. قال البخاري: مات في رمضان سنة ٢٠٧ هـ وعباس هو ابن الفضل بن عمرو أبو الفضل الواقفي الأنصاري البصري، قاضي الموصل. توفي سنة ١٨٦ هـ غاية النهاية ١/ ٤٩٦ و ٣٥٣.

(٢) قوله: أي: أذاقها الله لباس الجوع، ليس في (د) و(م).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٨٨.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٠٩.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢١٧، وقول حفصة رضي الله عنها أخرجه الطبري ١٤/ ٣٨٤.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٣٨٣.

وقيل: الشدائد، والجوعُ منها.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: كلوا يا معشرَ المسلمين من الغنائم. وقيل: الخطاب للمشركين؛ لأن النبيَّ ﷺ بعث إليهم بطعام رِقَّةً عليهم، وذلك أنهم لما ابتُلُوا بالجوع سبعَ سنين، وقطع العرب عنهم المِيرَة[1] بأمر النبيِّ ﷺ أكلوا العظام المُحرَقةَ والجِيفةَ والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز، وهو الوَبَر يعالَج بالدَّم. ثم إنَّ رؤساء مكة كلَّموا رسولَ الله ﷺ حين جُهدوا، وقالوا: هذا عذابُ الرجال، فما بالُ النساء والصِّبيان؟ وقال له أبو سفيان: يا محمد، إنك جئتَ تأمر بصلة الرَّحم والعفو، وإنَّ قومك قد هلَكوا؛ فادعُ اللهَ لهم. فدعا لهم رسولُ الله ﷺ، وأذِن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

تقدم في «البقرة» القولُ فيها مستوفًى[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) أي: الطعام.

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٠١ ، وهذا الكلام جزء من الحديث الذي فيه: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» السالف قريباً.

(٣) ٤/ ٢٢ وما بعدها.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ «ما» هنا مصدريَّة، أي: لوصف[١]. وقيل: اللام لامُ سببٍ وأجْل، أي: لا تقولوا لأجل وصفكم «الكَذِبَ»[٢] بنزع الخافض، أي: لِمَا تصف ألسنتكم من الكذب. وقُرئ: «الكُذُبُ» بضمِّ الكاف والذال والباء، نعتاً للألسنة، وقد تقدَّم[٣].

وقرأ الحسن هنا خاصَّةً: «الكَذِبِ» بفتح الكاف وخفضِ الذال والباء[٤]، نعتاً لـ«ما»؛ التقدير: ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبِ[٥]. وقيل: على البدل من «ما» أي: ولا تقولوا للكذب[٦] الذي تصفه ألسنتكم: هذا حلالٌ وهذا حرام؛ لتفتروا على اللهِ الكذب.

الآية خطابٌ للكفار الذين حرَّموا البحائرَ والسَّوائب، وأحلُّوا ما في بطون الأنعام وإنْ كان مَيْتةً. فقوله: «هذا حلال» إشارةٌ إلى ميتة بطونِ الأنعام، وكلِّ ما أحلُّوه. وقوله: «وهذا حرام» إشارةٌ إلى البحائر والسوائب وكلِّ ما حرَّموه[٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: ما هم فيه مِن نعيم الدنيا يزولُ عن قريب. وقال الزجَّاج[٨]: أي: متاعُهم متاعٌ قليل. وقيل: لهم متاعٌ قليل[٩]، ثم يُردُّون إلى عذابٍ أليم.

---

(١) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٦ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٨٨ .

(٣) ص٣٤٧ من هذا الجزء.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٣ ، والمحتسب ٢/ ١٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٠ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٦ ، والكشاف ٢/ ٤٣٣ . قال أبو حيان في البحر ٥/ ٥٤٥ : وهذا عندي لا يجوز؛ وذلك أنهم نصوا على أن «أن» المصدرية لا ينعت المصدر المنسبك منها ومن الفعل... وحكم باقي الحروف المصدرية حكم «أن».

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): الكذب، والمثبت من (ف) و(م)، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٩ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٢ ، ونقله المصنف عن الوسيط للواحدي ٣/ ٨٩ .

(٩) من قوله: وقيل: لهم متاع قليل، ليس في (ظ) و(ف).

الثانية: أسند الدَّارميُّ أبو محمدٍ في «مسنده»: أخبرنا هارون، عن حفص، عن الأعمش قال: ما سمعتُ إبراهيمَ قطُّ يقول: حلال، ولا: حرام، ولكن كان يقول: كانوا يكرهون، وكانوا يستحبُّون[1].

وقال ابن وَهْب: قال مالك: لم يكن من فُتْيا الناسِ أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، ولكن يقولون: إيَّاكم كذا وكذا، ولم أكن لِأصنعَ هذا.

ومعنى هذا: أنَّ التحليل والتحريمَ إنما هو لله عزَّ وجلَّ، وليس لأحد أن يقولَ أو يُصرِّحَ بهذا في عين من الأعيان، إلَّا أن يكونَ الباريُ تعالى يُخبر بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهادُ في أنه حرامٌ يقول: إني أكره [كذا]. وكذلك كان مالكٌ يفعل اقتداءً بمن تقدَّم مِن أهل الفتوى. فإن قيل: فقد قال فيمن قال لزوجته: أنت عليَّ حرام: إنها حرام، ويكون ثلاثاً[2]. فالجواب أنَّ مالكاً لمَّا سمع عليَّ بن أبي طالب يقول: إنها حرام، اقتدى به. وقد يقوى الدليلُ على التحريم عند المجتهد، فلا بأس عند ذلك أن يقولَ ذلك، كما يقول: إنَّ الربا حرام؛ في غير الأعيان السِّتَّة[3]. وكثيراً ما يطلق مالكٌ رحمه الله: فذلك حرام لا يصلح؛ في الأموال الرِّبَويَّة، وفيما خالف المصالحَ وخرج عن طريق المقاصد؛ لقوَّة الأدلةِ في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ بيَّن أنَّ الأنعامَ والحَرْث حلالٌ لهذه الأمة، فأما اليهودُ فَحُرِّمت عليهم منها أشياء. ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: في سورة

---

(١) مسند الدارمي (١٨٤)، وإبراهيم: هو النخعي.

(٢) الموطأ ٢/ ٥٥٢ . والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧١ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) الأعيان الستة هي: الذهب والفضة، والبُرّ والشعير، والتمر والملح. أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧١ ، والكلام منه.

الأنعام[١]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: بتحريم ما حرَّمنا عليهم، ولكن ظلموا أنفسَهم، فحرَّمنا عليهم تلك الأشياءَ عقوبةً لهم، كما تقدّم في «النساء»[٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: الشِّرك[٣]؛ قاله ابنُ عباس. وقد تقدم في النساء[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ دعا عليه الصلاة والسَّلام مشركي العرب إلى مِلَّة إبراهيم، إذ كان أباهم وبانيَ البيتِ الذي به عِزُّهم.

والأُمَّة: الرجل الجامعُ للخير[٥]، وقد تقدَّم محاملُه[٦].

وقال ابن وهب وابنُ القاسم عن مالك، قال: بلغني أنَّ عبد الله بنَ مسعود قال: يرحم اللهُ معاذاً، كان أُمَّة قانتاً. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا إبراهيمَ عليه السلام. فقال ابن مسعود: إنَّ الأُمَّة الذي يُعلِّم الناسَ الخير، وإنَّ القانت هو المُطيع[٧]. وقد تقدم القنوت في «البقرة»[٨] و«حنيفاً» في «الأنعام»[٩].

---

(١) أخرج هذا القول الطبري ١٤/ ٣٩١ - ٣٩٢ عن الحسن وعكرمة وقتادة.

(٢) ٧/ ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) الوجيز للواحدي ١/ ٤٦٨ (على هامش مراح لبيد).

(٤) ٦/ ١٥١ ، وينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٨٩ .

(٥) تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٤ .

(٦) ٢/ ٣٩٧ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧٢ . وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥ ، و٣٩٦ - ٣٩٧ ، والطبراني في الكبير (٩٩٤٣)، والحاكم ٢/ ٣٥٨ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٠ من غير طريق مالك.

(٨) ٢/ ٣٣٤ و ٤/ ١٨٣ - ١٨٥ .

(٩) ٨/ ٤٤٢ ، لكن ذكر المصنف ثمة معناه مختصراً، وقد بسط معناه في سورة البقرة ٢/ ٤١٤ .

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا﴾ أي: كان شاكراً. ﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾ الأَنعم: جمع نِعْمة، وقد تقدَّم[١]. ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي: اختاره.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قيل: الولد الطيِّب. وقيل: الثناءُ الحَسن. وقيل: النبوَّة. وقيل: الصلاة [عليه] مقرونةً بالصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام في التشهد. وقيل: إنه ليس أهلُ دين إلَّا وهم يتولَّونه[٢]. وقيل: بقاءُ ضيافته وزيارة قبره[٣]. وكلُّ ذلك أعطاه اللهُ، وزاده ﷺ.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. «مِن» بمعنى: مع، أي: مع الصالحين؛ لأنه كان في الدنيا أيضاً مع الصالحين. وقد تقدَّم هذا في «البقرة»[٤].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

قال ابن عمر: أُمِر باتِّباعه في مناسك الحجِّ كما علَّم إبراهيمَ جبريلُ عليهما السلام[٥]. وقال الطبري: أُمِرَ باتِّباعه في التبرُّؤ من الأوثان والتديُّن[٦] بالإسلام. وقيل: أُمِر باتِّباعه في جميع مِلَّته إلَّا ما أُمر بتركه؛ قاله بعضُ أصحاب الشافعيِّ على كل ما حكاه الماوردي[٧].

---

(١) ص٤٥٢ من هذا الجزء.

(٢) وردت هذه الأقوال في زاد المسير ٤/ ٥٠٤، وما بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢١٩.

(٤) ٢/ ٤٠٦.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٩١.

(٦) في النسخ: التزين، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٢١٩ ـ وعنه نقله المصنف ـ وزاد المسير ٤/ ٥٠٤-٥٠٥، وهو بمعناه في تفسير الطبري ١٤/ ٣٩٨.

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٢١٩.

والصحيح الاتباعُ في عقائد الشرعِ دون الفروع؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

مسألة: في هذه الآية دليلٌ على جواز اتِّباع الأفضلِ للمفضول لمَّا تقدَّم إلى الصواب[١] والعملِ به، ولا دَرَك على الفاضل في ذلك[٢]؛ لأن النبيَّ ﷺ أفضلُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد أُمِر بالاقتداء بهم فقال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]. وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: لم يكن في شرع إبراهيمَ ولا مِن دينه، بل كان سَمْحاً لا تغليظَ فيه، وكان السبتُ تغليظاً على اليهود في رفض الأعمال وتركِ التبسُّط في المعاش؛ بسبب اختلافهم فيه[٣]، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال: تفرَّغوا للعبادة في كل سبعةِ أيامٍ يوماً واحداً، فقالوا: لا نريد أن يكونَ عيدُهم بعد عيدِنا، فاختاروا الأحد[٤].

وقد اختلف العلماءُ في كيفيةِ ما وقع لهم من الاختلاف، فقالت: طائفة: إنَّ موسى عليه السلام أَمرهم بيوم الجمعة وعيَّنه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فناظروه أنَّ السبتَ أفضلُ، فقال الله له: دَعْهم وما اختاروا لأنفسهم.

وقيل: إن الله تعالى لم يُعيِّنْه لهم، وإنما أمرهم بتعظيم يومٍ في الجمعة[٥]،

---

(١) في (د) و(ز): الأصول، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٣/ ٤٣١ ، والكلام منه ومن النكت والعيون ٣/ ٢١٩ . وينظر مجمع البيان ١٤/ ١٣٦ .

(٢) أي: لا تَبِعة. الصحاح (درك).

(٣) بنحوه المحرر الوجيز ٣/ ٤٣١ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٩٠ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٣٧ .

(٥) يعني: أمرهم بتعظيم يوم في الأسبوع، ولم يرد في المعاجم الجمعة بمعنى الأسبوع. ووقع في (د) و(ف): يوم الجمعة.

فاختلف اجتهادُهم في تعيينه، فعيَّنت اليهودُ السبتَ؛ لأن اللهَ تعالى فرغ فيه من الخَلْق. وعيَّنت النصارى يومَ الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق. فألزِم كلٌّ منهم ما أدَّاه إليه اجتهادُه. وعيَّن اللهُ لهذه الأمةِ يومَ الجمعة من غير أنْ يَكِلَهم إلى اجتهادهم؛ فضلاً منه ونعمة[1]، فكانت خيرَ الأمم أُمَّةً.

روى الصحيحُ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخِرون الأوَّلون يومَ القيامة، ونحن أوَّلُ مَن يدخل الجنة، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتابَ مِن قَبْلنا وأوتيناه مِن بعدهم، فاختلفوا فيه، فهدانا اللهُ لمَا اختلفوا فيه من الحقّ، فهذا يومُهم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له ـ قال: يوم الجمعة ـ فاليوم لنا، وغداً لليهود، وبعد غدٍ للنصارى»[2].

فقوله: «فهذا يومُهم الذي اختلفوا فيه» يقوِّي قولَ مَن قال: إنه لم يُعيَّن لهم، فإنه لو عُيِّن لهم وعاندوا لمَا قيل: «اختلفوا». وإنما كان ينبغي أن يقالَ: فخالَفوا فيه وعاندوا. ومما يُقوِّيه أيضاً قولُه عليه الصلاة والسلام: «أضلَّ اللهُ عن الجمعة مَن كان قبلَنا»[3]. وهذا نصٌّ في المعنى.

وقد جاء في بعض طُرُقه: «فهذا يومُهم الذي فرض اللهُ عليهم، فاختلفوا فيه»[4]. وهو حُجَّةٌ للقول الأول. وقد روي: «إنَّ الله كتب الجمعةَ على مَن قَبْلَنا[5]، فاختلفوا فيه وهدانا اللهُ له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ»[6].

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ يريد: في يوم الجمعة كما بيَّنَّاه؛ اختلفوا

---

(١) المفهم ٢/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢) أخرجه أحمد (٧٣١٠)، والبخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥): (٢٠)، وسلف ١٠/ ٣٤٦ .

(٣) المفهم ٢/ ٤٩٢ ، والحديث أخرجه مسلم (٨٥٦): (٢٢) من حديث حذيفة ﷺ مطولاً.

(٤) أخرجه مسلم (٨٥٥): (٢١)، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧٣ ، والمفهم ٢/ ٤٩٢ .

(٥) في (د) و(م): كان قبلنا.

(٦) أخرجه أحمد (٧٢١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .

على نبيِّهم موسى وعيسى. ووجهُ الاتصال بما قبله: أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِر باتِّباع الحقّ، وحذَّر اللهُ الأُمَّةَ من الاختلاف عليه فيشدِّدَ عليهم كما شَدَّد على اليهود[١].

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

فيه مسألةٌ واحدة: هذه الآيةُ نزلت بمكة في وقت الأمرِ بمهادنةِ قريش، وأمرَه أن يدعوَ إلى دين الله وشَرعِه بتلطُّف ولينٍ دون مُخاشنةٍ وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يُوعَظ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي مُحكَمةٌ في جهة العصاة من الموحِّدين، ومنسوخةٌ بالقتال في حقِّ الكافرين. وقد قيل: إنَّ مَن أمكنت معه هذه الأحوالُ من الكفار ورُجي إيمانُه بها دون قتال، فهي محكمة[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: أطبق جمهورُ أهل التفسيرِ أنَّ هذه الآيةَ مدنيَّة، نزلت في شأن التمثيلِ بحمزةَ في يوم أُحد، ووقع ذلك في «صحيح» البخاريِّ وفي كتاب السِّيَر[٣]. وذهب النحَّاس إلى أنها مكِّية[٤]، والمعنى متَّصلٌ بما قبلَها من المكيِّ اتّصالاً حسناً؛ لأنها تتدرَّج الرُّتبُ من الذي يُدْعَى ويُوعَظ، إلى الذي يُجادل، إلى الذي يُجازَى على فِعْله.

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٤/ ١٣٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ .

(٣) في (ظ): كتاب التفسير، والمثبت من باقي النسخ،وهو موافق للمحرر الوجيز (والكلام منه) ولم نقف على أن الآية نزلت بشأن التمثيل بحمزة في صحيح البخاري، وإنما فيه أنه مُثِّل بأبي جابر بن عبد الله وبأنس بن النضر ﷺ (١٢٩٣) و(٢٨٠٥). وقصة حمزة ﷺ سيذكرها المصنف قريباً.

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٨٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ .

ولكن ما روى الجمهورُ أثبتُ[١].

روى الدَّارَقُطْنيُّ عن ابن عباس قال: لمَّا انصرف المشركون عن قتلى أُحُد، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه، رأى حمزةَ قد شُقَّ بطنه، واصطُلِم أنفُه، وجُدِعت أُذناه، فقال: «لولا أنْ يحزنَ النساءُ أو تكونَ سُنَّةً بعدي، لَتركتُه حتى يبعثَه الله من بطون السِّباع والطير، لأُمثلنَّ مكانَه بسبعين رجلاً». ثم دعا بِبُردة وغطَّى بها وجهَه، فخرجت رجلاه، فغطَّى رسولُ الله ﷺ وجهه وجعل على رِجلَيه من الإذْخِر، ثم قدَّمه فكبَّر عليه عشراً، ثم جَعَلَ يُجاء بالرَّجل فيوضعُ وحمزةُ مكانَه، حتى صلَّى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلمَّا دُفنوا وفُرغ منهم، نزلت هذه الآية: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. فصبر رسولُ الله ﷺ ولم يُمَثِّل بأحد[٢].

خرَّجه إسماعيل بنُ إسحاق من حديث أبي هريرة[٣]، وحديثُ ابنِ عباس أكمل.

وحكى الطبريُّ[٤] عن فِرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآيةُ فيمن أُصيب بظُلَامة ألَّا ينالَ من ظالمه إذا تمكَّن إلا مثلَ ظُلامتِه لا يتعدَّاه إلى غيره. وحكاه الماورديُّ عن ابن سيرين ومجاهد[٥].

الثانية: واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجلٌ في أخذ مالٍ، ثم ائتمن الظالمُ المظلومَ على مال، هل يجوز له خيانتُه في القَدْر الذي ظَلَمه؟ فقالت فرقة: له ذلك، منهم ابنُ سيرين وإبراهيم النَّخَعيُّ وسفيانُ ومجاهد؛ واحتجَّت بهذه الآيةِ وعمومِ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ .

(٢) سنن الدارقطني (٤٢٠٩)، وأخرجه من طريقه الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٣) وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٩٠ ، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٢٨٩ ، وفي إسناده صالح المُرِّي، وهو ضعيف، كما في تقريب التهذيب ص٢١٢ .

(٤) في تفسيره ١٤/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٢١ ، وأخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٤٠٥- ٤٠٦ .

لفظِها. وقال مالكٌ وفرقةٌ معه: لا يجوز له ذلك، واحتجُّوا بقول رسولِ الله ﷺ: «أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك، ولا تَخُنْ مَن خانك». رواه الدارَقطنيّ[1]. وقد تقدَّم هذا في «البقرة» مستوفًى[2].

ووقع في مسند ابنِ إسحاق[3] أنَّ هذا الحديثَ إنما ورد في رجل زنى بامرأةِ آخر، ثم تمكَّن الآخرُ من زوجة الثاني بأنْ تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجلُ رسولَ الله ﷺ في الأمر، فقال له: «أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». وعلى هذا يتقوَّى قولُ مالكٍ في أمر المال؛ لأن الخيانة لاحقةٌ في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاكَ عنها، فينبغي أن يتجنَّبها لنفسه؛ فإن تمكَّن من الانتصاف مِن مالٍ لم يأتمنه عليه، فيُشبه أنَّ ذلك جائز، وكأن اللهَ حَكَم له؛ كما لو تمكَّن الأخذَ بالحكم من الحاكم.

وقد قيل: إنَّ هذه الآيةَ منسوخة، نسختها: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الآية: ١٢٧][4].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على جواز التماثل في القِصاص؛ فمَن قتَل بحديدة قُتل بها. ومَن قتَل بحجر قُتل به[5]، ولا يتعدَّى قَدْرَ الواجب، وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة» مستوفًى[6]، والحمد لله.

الرابعة: سمَّى اللهُ تعالى الإذاياتِ في هذه الآية عقوبةً، والعقوبةُ حقيقةً إنما

---

(١) في سننه (٢٩٣٥) و(٢٩٣٦) و(٢٩٣٧) من حديث أُبيّ بن كعب وأبي هريرة وأنس ﷺ، والكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ .

(٢) ٣/ ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٣) كذا في النسخ، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٣ (والكلام منه): ابن سنجر، وسلفت ترجمته ٥/ ١٤ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٢١ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧٨ .

(٦) ٣/ ٢٥٢ - ٢٥٥ .

هي الثانية، وإنما فعل ذلك ليستويَ اللَّفظان، وتتناسبَ ديباجةُ[١] القول، وهذا بعكس قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] فإنَّ الثانيَ هنا هو المجاز، والأوَّلَ هو الحقيقة. قاله ابنُ عطية.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

فيه مسألةٌ واحدة: قال ابن زيد: هي منسوخةٌ بالقتال. وجمهورُ الناس على أنها مُحْكَمة[٢]، أي: اصبِر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على قتلى أُحد؛ فإنهم صاروا إلى رحمة الله[٣].

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ ضَيْق: جمع ضِيْقة، قال الشاعر:

كَشَفَ الضِّيْقةَ عنا وفَسَحْ[٤]

وقراءة الجمهورِ بفتح الضَّاد. وقرأ ابنُ كَثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلطٌ ممن رواه. قال بعض اللغويين: الكسرُ والفتح في الضاد لغتان في المصدر[٥].

قال الأخفش: الضَّيق والضِّيق مصدر: ضاق يضيق[٦]. والمعنى: لا يضيق صدرُك مِن كفرهم. وقال الفرَّاء[٧]: الضَّيق: ما ضاق عنه صدرك، والضِّيق: ما يكون

---

(١) في (ز) و(ف) و(م): دباجة، وفي (د): وباجة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٢ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٣ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٩١ ، وزاد المسير ٤/ ٥٠٨ .

(٤) الصحاح (ضيق)، وصدر البيت: فلئن ربُّك مِن رحمته. وقائله الأعشى، وهو في ديوانه ص٢٨٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٣ ، وقراءة ابن كثير في السبعة ص٣٧٦ ، والتيسير ص١٣٩ ، والقراءة المشهورة عن نافع كقراءة الجمهور. قال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤١١ : هذا لا يُعرف عن نافع.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٩٢ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ١١٥ .

في الذي يَتَّسع ويضيق؛ مثلُ الدار والثوب. وقال ابن السِّكِّيت: هما سواء؛ يقال: في صدره ضَيق وضِيق[١] القُتَبي[٢]: ضَيْق: مخفَّفُ ضَيِّق، أي: لا تكن في أمرٍ ضَيِّق، فَخُفِّف، مثل: هَيِّن وهَيْن. وقال ابن عرفة: يقال: ضاق الرجل: إذا بخل، وأضاق: إذا افتقر[٣].

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: الفواحشَ والكبائرَ بالنصر والمعونةِ والفضل والبِرِّ والتأييد[٤].

وتقدَّم معنى الإحسان[٥].

وقيل لهَرِم بن حَيَّان[٦] عند موته: أَوْصنا، فقال: أُوصيكم بآيات اللهِ وآخرِ سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى آخرها[٧].

تم الجزء الثاني عشر من تفسير القرطبي، ويليه الجزء الثالث عشر ويبدأ بسورة الإسراء

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ٢١٧ .

(٢) في غريب القرآن له ص٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٣) ينظر الصحاح (ضيق).

(٤) بنحوه الوجيز للواحدي ١/ ٤٧٠ (على هامش مراح لبيد).

(٥) ٢/ ١٣١ .

(٦) في (م): حيّان: وهو خطأ، وسلفت ترجمته ص٢٢ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦٢ - ٥٦٣ ، وأحمد في الزهد ص٢٨٢ ، والطبري في تفسيره ١٤/ ٤٠٩-٤١٠ .



فهرس الجزء الثاني عشر